

نائل الطوحى
نساء الكرنطينا

#رواية



نساء الكرنيتينا

رواية

نائل الطوخى

الطبعة الثانية ٢٠١٣.

(C) دار ميريث

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

موبايل / ٠١١٤٢١٣٨٩٢٥

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

العلاف: مخلوق

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٣٣٦٨

الترقيم الدول: 978-977-351-660-8

نائل الطوخي

نساء الكرنطينا

رواية

نار ميريت

أنا مش ضد الحاجات الفظيعة والله، بالعكس والله،
هي اللي طول الوقت كانت ضد الحاجات الفظيعة
إنجي

أحلى عروسين

قصة شخصين وضعهما القدر في المكان الصحيح

الكلب الذي تعود على النبش في الزبالة لم يجد الزبالة التي تعود على
النبش فيها.

حدث هذا في الثامن والعشرين من شهر مارس - آذار للعام ٢٠٦٤.
لأسباب كثيرة يلي سردها هنا، كان هذا اليوم هو الأقسى في تاريخ الإسكندرية.
الجميع عانوا من صرارتها، ولكن أكثر من تعرض لقسوته هو الكلب الذي لم يجد
الزبالة. بحث الكلب بجوار سور المترو. حيث كان يُفترض أن تتواجد الكومة
الكبيرة والتي تحلق فوقها أسراب الذباب الهائمة، ولكنه لم يجدها، ولم يجد
سور المترو نفسه. المنطقة كانت مكشوفة للشمس بشكل غريب، كانت
بالصحراء.

الكلب كان جائعاً. ركض بمحاذاة سور المحطة، أو ما كان يفترض أن
يكون سور المحطة. هز زبله الجريبان. نظر إلى البعيد. تمرغ على الأرض ومضي
بحك جسمه بالحائط كان جائعاً ومحبطاً ويائساً وحراناً. المشهد يأخذ في
الإفلام، ولا شيء، أي شيء، ملقى هنا أو هناك. بدأ ينبح، ومن بعيد رأى
ماسورة تتحرك. فاطلق نباحاً ثانياً. هنا، ومع النباح الثاني، ارتطم بساقه شيء
ما. شيء ساخن وصلب، بالضبط مثل طلقة رصاص. من المؤكد أنه طلقة رصاص.
وبساق عرجاء وساق مضروبة بالرصاص واصل الكلب مهمته في تمشيط المنطقة
بعينه بحثاً عن كومة أخرى من الزبالة، محاذراً أن يصدر عنه أي صوت

يعرضه لطلقة رصاص أخرى. اختبأ وراء كومة تراب واهناً ونازفاً. فجأة انتفض جسمه تحت وطأة زخه رصاص أخرى. الآن ترى الكلب قتيلاً على التراب الذي تلون بالدم. بعد قليل أمسكت به إحدى السيدات المارات وقذفته إلى داخل حفرة عميقة. ربما بدا لها أن هذه هي الطريقة الأمثل والأكثر شرعية لدفنه. شيء ما كئيب كان يحدث هنا. حياة كانت تنتهي. وقصة كبيرة.

القدر يلعب ألعابه أحياناً، يقوم بجمع ما لا يجتمع. قد يكون الإنسان نا مركز ومال وجاه وفجأة يصبح بلا مركز أو مال أو جاه. قد يجمع القدر بين اثنين، زميلين أو جارين أو ينتميان لنفس الفصيلة من الكلاب الضالة، ويربط بينهما بالحب. وفجأة، يمنع كل منهما عن الآخر. بضربة قاسية. ما أعجب تصاريف القدر.

القصة بدأت منذ وقت طويل. امتدت لأكثر من جيل. وحلقت فوق أكثر من مكان، من جنوب مصر لشمالها. واحتوت على الكثير من المواعظ والدروس الأخلاقية. والكثير من الفلسفة العميقة بخصوص الإنسان ورغباته وصفاته. القصة هي واحدة من تلك القصص النادرة في تاريخ الإنسانية، التي تربط المتعة بالتشويق بالمعلومة المفيدة والنصائح الغالية.

إننا كان لنا أن نصف أحداث القصة بصفة فهي التوفيق الإلهي. التوفيق الإلهي الذي وضع كل من الأشخاص في مكانه الصحيح. وألهمه بالتفكير الصحيح في الوقت الصحيح. وإننا جاز لنا أن نستخرج الدروس المناسبة فهي أن لا شيء مستحيل. وأنه متى توفرت النية السليمة، فإن الإنسان. بفضل من ربه عز وجل في البداية والنهاية، قادر على كل شيء.

في اليوم الذي قتل فيه الكلب كانت تقف على الناحية الأخرى من كرموز
ألمة أخرى. ولكنها، بخلافه. كانت تنبش في كومة عامرة من الزباله. الكلبة
دات جلد متقبح وبقع صلعاء كثيرة، وأسراب من البراغيث تحوم فوق اليقع
الني لازالت مشمرة. تختبئ في الزباله عندما يشد إطلاق النار، ثم تخرج.
الطلبة كانت تنتظر الكلب. ولكن شعوراً قوياً داخلها بأنه لن يأتي الليلة، ولن
يأتي أصلاً في أي ليلة. قلبها كان منقبضاً، روحها كانت مكتنفة، والعلامات لم
نخل بنفسها: الزباله لم تحتو على طعام كثير، وأصوات الانفجارات وطلقات
الرصاص أيضاً صدت نفسها عن أي شيء.

بدأت قصة الكلبة مع الكلب منذ ثلاثة أشهر، في الخرابه. رأى مؤخرتها
تهتز أمامه، فنفط عليها. أخذ كل منهما يفرك جسمه في جسم الآخر،
والبراغيث تنقل من شعره لشعرها وبالعكس. كان جلدها مليئاً بالقروح وهو
كذلك، ولم يمنعهما هذا من الاستمتاع. أحبا بعضهما. وقرر كل منهما
الإخلاص للآخر حتى المات. حملت في بطنها أبناءه، وكل شيء كان يدل على
أنها سوف تلد اليوم. وكل شيء كان يؤكد لها أنها ستلد وحدها، بدون زوجها.

القصة في أحيان كثيرة تكون أكبر منا. قد تكون قصة أبوين يكرهان
بعضهما البعض. أو عائلتين، أو صراعات ومصالح ليست لنا طاقة بمواجهتها،
وقد تكون القصة قصة وطن يتشكل. القصة هنا هي قصة وطن يتشكل.
ليست أبداً قصة عن الكلاب. ولا حتى عن البشر، الذين مهما علا شأنهم،
فهم يظلون مجرد ذرات في محيط هذا الوطن الشاسع. نحن نكرات في هذا
الوطن. ليس لقله شأننا، وإنما لأن هناك الكثيرين غيرنا، أفضل منا وأساء منا،
حاربوا معنا أو حاربونا، والوطن هو مجموع هؤلاء الناس. كل هذه القصص

الصغيرة، وعلاقات الحب والكراهية والزواج والطلاق والأبناء والصراعات ووصايا الميراث و عقود الملكية والملكية التي بلا عقود والميراث الذي بلا وصايا، ألحان الموسيقيين وكتابات المؤلفين وحسابات المهندسين وقرارات الزعماء وسواعد البسطاء، من كل هذا يتكون الوطن. الوطن هو كل هؤلاء. الوطن هو نحن.

واحدة ومتعبة تحركت الكلبة ببطء. مضت تمشي وتمشي، عبرت حواجز عسكرية وجنوداً وبحيرات من الدماء والبول وفوارغ رصاص وقنابل مولوتوف وجثث وأشلاء وقطع قماش ممزقة. عند نقطة معينة مضت تشمشم. شعرت براحة شريك حياتها من حولها. نظرت في كل الأنحاء ولم تجده. فجأة حانت منها التفاتة نحو هوة عملاقة بالأرض، هوة لم تكن موجودة بالأمس، وهناك، بالعمق من تلك الهوة، وجدت جثة كلبها. الكلبة لم تتردد. لم تفكر في أبنائها الذين تحفظهم ببطونها، قفزت إلى داخل عمق الهوة. ربما تكون قد ماتت. الأكيد أنها قد ماتت.

قصص كثيرة تولد وتموت لأسباب كتلك. قصص كثيرة لا يريد لها الله الاكتمال، قصص كاملة تموت في كل ثانية في جميع أنحاء العالم، قصص كثيرة يكفي لكي تحكيها أن تحكيها، وحدها قصتنا لا بد لنا من أن نحكي الحكاية كاملة حتى نفهم شيئاً منها، أي. منذ جيلين على أطل نقدير. وحدها قصتنا تستحق منا التمثل وتأمل خلفياتها. وحدها قصتنا تستلزم منا الصبر في الحكاية والسماع. القصة بدأت منذ أكثر من ستمائة عاماً. لقد كان ذلك اليوم بعيداً جداً.

في ذلك الزمان البعيد كانت الشمس تشرق على مصر دائماً، الليل أكثر سخوناً. والنهار أكثر بهجة، وكان النيل يجري طوال الوقت. كل شيء كان رائعاً في مصر. أو أن هذا كان إحساس المصريين ببلدهم. الحقيقة هي ما يشعر به الناس، وليست هي الحقائق الموضوعية، الطبيعية والفيزيائية. من يهتم بالحقائق الفيزيائية؟!

سحكى هنا عن قصة حب رقيقة. جمعت بين قلبين شابين في بداية حياتهما: "علي"، ٣٢ عاماً، عنده شقة صغيرة إيجار قديم بعين شمس الشرقية، إيجارها خمسة وعشرون جنيهاً، بنظارة سميكة، يسكن مع أخيه. لم يكمل تعليمه الجامعي للأسف. درس سنتين في حقوق ثم غادرها ليعمل في محل ملابس يملكه هو وأخوه بجانب الشقة، واستمر الحال.

"إنجي"، ٢١ عاماً، تخرجت لتوها من كلية سياسة واقتصاد. شابة واعدة. بنظارة صغيرة ودقيقة وجسد صغير ودقيق، ولكنة أمريكية فوق كل هذا. وتعيش في شقة وحدها بمدينة نصر، أبوها توفي في أبو ظبي، وورثت عنه مبلغاً معقولاً جداً باعتبارها ابنته الوحيدة. ملابسها بسيطة. تحب شراء ملابسها من على الأرصفة ومن محلات الدرجة الثالثة.

اللقاء الأول بين علي وإنجي لم يكن مهماً. مرت بنت بنظارة من أمام المحل فقال بصوت عالٍ إنه يا دكتور. وقفت لتتفرج على البضاعة فنظر إلى

أصحابه وقال يكفيني شرفاً إنها وقفت عندي. اشترت بنظولنا فعلاً. وهي بالداخل ابتسمت ونظرت في عينيهِ وقالت له ازيك يا علي. أخبرتة أن اسمها إنجي. هو تذكر بنت عمه البعيدة المقيمة في أبو ظبي. سألتها إن كانت بنت عم سليمان العلابلي. ابتسمت وقالت له أيوة. ارتبك. بعد ثوان سألتها عن صحتها وصحة أبيها والجو في الإمارات عامل إيه. ومضت ونسأها. لم تكن ابنة عمه المباشرة، أبوها هو ابن عم أبيه. عادت مرة أخرى، ومرة ثالثة. هي التي لم تنسه. وشيناً فشيناً بدأ يلتفت لها، ويسألها عن أشياء خارج الهدوم. لم يكن خجولاً. كل ما في الأمر أنه كان لا يصدق، بنت ناس أوي يا أخي، وانجليزي وبتاع. هكذا قال لمصطفى أخيه. تشجع وأخذ رقم تليفونها. ابتسمت عندما طلب منها هذا. سألته ليه عاوزه وهي تستعد لإملائه عليه بالفعل. ارتبك ولكنه تماكك نفسه، عدل إطار النظارة السميكة. علشان أبقى أسأل على صحة الوالد حضرتك.

الأحداث تحركت ولم يملك أحد إيقافها. الأحداث كانت أسرع منهما. اتصل بها في اليوم التالي وأخبرها عن بلوذة جديدة. زارته واشترت البلوذة، وسألته لانا لا يتمشيان قليلاً. فتح فمه. قالت له ممكن نطلع مدينة نصر على فكرة، هي قريبة. سألته إزاي تبقي في عين شمس ومش بتروح مدينة نصر؟ سألته إنت أجازتك إمتى؟ سألته بتخلص إمتى في أيام الشغل؟ لم يرد. كان مازال فاتحاً فمه.

في اللقاءات الأولى لم يكن يتحدث كثيراً. هي كانت تتحدث، وكانت تقترح المواضيع، وتسأله، وكان يجيب بكلام قليل. لم يكن مصداقاً نفسه، كان الموضوع أشبه بحلم. ولكنه بالتدريج صار يشارك، ويستظرف ويتسأخف، يعني. مثلاً، للتقريب، تسأله إنجي كيف يشرب الشاي، فيغمض عينيهِ

ويحفظ أسنانه العلوية على شفته السفلى ويقول لها سخن، سخن أوي. فتبتسم وتنظر له وتلمع عيناها. يرتبك.

أحبا بعضهما. هذا ما بدا لأخيه، الذي كان يراقب من بعيد. ولكن علي لم يفهم.

سليمان عبد الله كان لا يزال مقيماً في أبوظبي، عندما قررت ابنته العودة لمصر. مات بعدها بعامين. منذ بداية التاريخ، عرف أنه من الأفضل له أن ينجو بمراته من عين شمس وقرقها. سافر إلى الإمارات وخلف هناك، في نفس الوقت الذي كان فيه ابن عمه، محمد سيد، يفتح الكوتة حتى يعمل الجنيه بعين شمس. أي الطريقتين كان سليمان؟ محمد سيد عرف الحياة جيداً. وبذراعه فتح محل ملابس بجانب البيت، وتزوج وخلف. صحيح أن سليمان قد عمل بيديه قليلاً في أول سفره لأبوظبي ولكنه سرعان ما استطاع، بذكائه، العمل بتفسير المصريين، عرف مداخل أهله في سوهاج، ومداخل الإمارات، وضع الفلس على الفلس في الأول. ثم أصبحت الدراهم تضاف تلقائياً لحسابه في البنك. اشترى شقة في مدينة نصر. ثم اشترى الشقة التي فوقها، والتي أمامها، والتي بجانبها. بالتدريج أصبح مالكا لطابقين كاملين. وورثت إنجي كل هذا. قامت بتأجير الطابق الأعلى ولم تقم بتأجير الطابق الأسفل.

عندما التقى علي بإنجي كانت تلك هي القصة. هي بنت الرجل الذي نجا وهو ابن الرجل الذي تورط أكثر وأكثر في بلده. لم يكونا رجلاً وامرأة التقيا في غفلة من الزمن. لقد كانا مبدئين متناقضين، رؤيتين للعالم، لقد شكلا في هذه السنوات المبكرة ما يمكن أن نطلق عليه اسم صراع الثقافات. قبل أن ينتبه أي شخص لوجوده.

حكى لها علي كيف مات أبوه. استرجع ذكريات بعيدة ومؤلمة. حكى لها عن الصعيد، وعن التار، وعن الضوء الشارد وذئاب الجبل. حكى عن أبيه الذي وجدوه مقتولاً على باب محله، وعن الصوت المتحشرج الذي كان يخرج من حنجرتة. عن الدم الذي أغرق جميع الملابس. عن المحل الذي أغلق عامين كاملين، ماكانش فيه زبون واحد يرضى يقرب مننا، والله العظيم والله العظيم. والله العظيم أنا كنت أمشي ف الشارع أنا وأخويا واحس الناس بتهرب مننا، أنا كنت أما اتعب أوي أروح الجامع اصلي، هتصدقيني لو قلتك إن ماكانش فيه حد يرضى يصلي معايا. كل ما فعلته إنجي هو أنها أغلقت عينها تعاطفاً معه. ثم طبطبت على كتفه. احتضن كفها بين كفيه وبدأ في السهوكة. ألصق ساقه اليسري بساقها اليمنى. مد يده على ظهرها وبدأ يلعب فيه من تحت التي شيرت. هي ارتبكت جداً. هتفت علي! إنت اتجننت؟! بتعمل إيه؟ وعلي لم يكن يعرف على وجه التدقيق هو بيعمل إيه. ولذا ارتبك هو الآخر. وقال لها يا فندم ماتفهمينيش غلط. حضرتك في منزلة أختي والله. هي نظرت له باحتقار شديد. وغادرت المكان. بعدها بيومين أرسلت له إس إم إس. قالت له أنا حاسة بحاجة ناحيتك يا علي. بس أنا عاوزة أبعد شوية علشان أتأكد منها. ماترعلش مني.

إنجي شخصية شديدة التعميد، إذا جاز التعبير. تقيم وحدها في مدينة نصر، ولها مغامراتها. في سنة أولى كلية قالت إنها ستصبح دبلوماسية كبيرة. درست كثيراً. ولكنها في نفس الوقت تعرفت على شاب وأحبته. كانت قادمة لتوها من الإمارات ولا تعرف شيئاً عن أي شيء. الشاب كان يستغلها مادياً، هذا ما عرفته. ولكنها لم تهتم، وبرغم هذا تركها، وعاشت حي طويلاً في صدمة

عصبية. رسبت في أول سنة. ثم نسيت حلم التفوق. كانت تنجح بقديرات منخفضة، وكانت لها في كل سنة قصة حب أو أكثر.

أجعل شيء في إنجي أن كل هذا لم يكسرها. ظلت بنتاً مرحة ولذيذة. ومازالت مستعدة لأن تثق في العالم من حولها. بلا حدود. قررت ذات يوم أنه لا بد لها أن تعرف أهلها. سألت باباها عن ابن عمه في عين شمس. قال لها إنه مات. قالت له أنا عارفة. أنا بسأل على ولاده. وصف لها محل ولاده. بقدر ما كانت تسمح ذاكرته. وقررت هي أن تصنع بيج سربرايس لأبناء عمها البعيدين. للوجه الآخر من مصر الذي لا تعرفه. إنجي عاشقة لمصر.

فوق عشقتها لمصر، كانت عاشقة لجنورها أيضاً، عاشقة لاكتشاف جنورها بالأحرى. لأيام طويلة ظل حلم يقظة واحد يزورها بانتظام. هي في الكونغو، تدرش مع واحد من رجال القبائل. تنطق فجأة باسم أبيها -سليمان عبد الله-. فلا يفهم الأفريقي. تكرر النطق فيهمز رأسه وينطق "أبدولاه. أبدولاه". ثم يقودها إلى شيخ القبيلة. شيخ القبيلة نصف نائم. تسأله عن "أبدولاه"، فلا يفهم. يحدثه الأفريقي الآخر بلغته فيتوجه لها: "نعم لقد كان هناك ولد يضرب الطبل عندنا وكان اسمه أبدولاه. ولكن في يوم حار اقتانوه إلى.. إلى ولا يكمل، فقط يرسم بيديه أهرامات. تكمل هي "إلى مصر". فيرد بحماس "نعم نعم إلى مصر". وتقوم هي في وسط المجلس وترقص: "لقد عثرت على جنوري. لقد عثرت على جنوري."

لهذا تمننت إنجي من أعماقها زيارة الصعيد ولو لمرة واحدة. مرة واحدة بس. لكي تعثر على هذا الجذر الهارب، المراوغ في الزمن. مرة واحدة وأموت بعدها يا رب. قالت مخاطبة الله قبل أن تشد على جسمها البطانية وتنام.

•••

علي تمادي، وهو يعترف بهذا. مع إنه تعلم في شغلته هذه الصبر. بصراحة البنات شكلها نضيف يا أخي، يعني مش فكرة إنها بنت عمي، لأ، هي تحسك إنها دكتورة مثلاً، أنا اتخنتت من نفسي الصراحة. ظل علي مخفوقاً من نفسه لأسبوعين، لا نفسه تريد مسامحته، ولا إنجي تريد الرد عليه في التليفون، ولا أخوه توقف عن أن ينظر له نظرات التوبيخ التي يرميه بها. علي تعلم الاستيقاظ مبكراً، والتدخين على معدة فاضية، وقرض أظافره، واللعب في مناخيره. واللعب في بيضانه، وتطفيش الزباين، وخصوصاً بنات الجامعة، علي كان يستفتح الصبح بسبب الدين والتف على الأرض. لقد تحول إلى حيوان.

بعد شهر كامل أرسلت له إنجي رسالة، كلمة واحدة. بحبك. انهار علي على الكرسي وأخذ يبكي. في هذه اللحظة تصور أن أله انتهى، أنه وداعاً للسهر والعذاب وطول الليالي. ولكن تلك لم تكن سوى البداية لحسب.

الثار هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير، ولم تغلق محاولات الحكومة الدائمة لاقتلاع الفكرة من رؤوس الأهالي. ظل الناس متشبثين بعنادهم أمام أية محاولة لتنويرهم. هكذا ظلت ما يمكن أن نطلق عليها ثقافة الثار متغلغلة بقوة. في الجنوب بالأساس. ولكن لا شيء، يمنعها من أن تتحسس طريقها إلى الشمال أيضاً. الشمال المتعلم والثري. شيء، كهذا كان علي يحاول شرحه لإنجي وهو يحكي لها عن أبيه. تار قديم، لا أحد يعرف أصله، اشتمل بين عميلة العلايلي وعميلة أمين بأخميم سوهاج. راح ضحيته محمد سيد العلايلي، عمك كان أحسن حد يا إنجي، إوعي تصدقي لو حد قالك إنه كان وحش. وهو ماكانش بتاع تار وسلاح. هما اللي جم وراه من

البلد. اسألي بابا هيقولك كدا. طيب أنا آسفة يا علي. أكيد كان فيه ناس
بيقولوك إنك لازم تاخد بتار باباك. صح؟ سكت علي. وبعد قليل: كل الناس.
واوعي تفكرني إن باباكي نفسه ماكانش فيه ناس بتقوله كدا. كل أمة لا إله إلا
الله كانت بتقول كدا. لغاية أما زهقت يارب. بس لا أنا ولا أخويا بتوع مشاكل.
بس وحق السوجارة دي ماحد منهم هيفلت سليم. طبطبت إنجي على كتفه،
أبقت يدها قليلاً، نظرت إليه دقيقة كاملة وهي تبتسم، لست ساقها بساقه،
وعندما استجاب هو، عندما حاول مجاراتها، سألته علي! إنت بتعمل إيه؟
وعملتها زعلة. العالم ظالم، وهذا من زمان.

لف بها علي في كل الأماكن، القلعة والهرم وسيتي ستارز والنيل. تريدني
الفرجة على مصر، أهي مصر يا ستي. استريحتي؟ هي لم تكن مستريحة
لحسب، كانت طول الوقت تضحك بسعادة هستيرية. أغلب الوقت كانت معلقة
بذراعه. وبتي شيرتها الذي بلا أكمام، وبنظارتها الشمسية، والكاميرا المعلقة
برقبقتها، كل هذا يجعلها تبدو كسائحة. أما هو فكان يبدو عبيطاً، كان يصر
على حشر قميصه حشراً في البنطلون الجينز القديم، وعلى إطالة أكمام القميص
المشجر وتزويرها من عند الأساور، وبشبهه الخفيف ونظارته كعب الكوباية لم
يكن يثير انطباعات جيدة إجمالاً. ولكنهما لم يهتما، وهنا كان أجمل شيء في
علاقتهما. يجلسان على صخرة الهرم، تسند رأسها على كتفه، رائحة إبطه
معرفة، ولكن هذه التفاصيل لا تهماها. فجأة تسأله، علي، إنت الكلام اللي قلت
كان صح؟ كلام إيه؟ إنت كنت بتقول إنك مش بتاع مشاكل. بصي يا إنشي (هكذا
كان ينطق اسمها)، أنا وأخويا اتفهن في حالنا. بس على شرط، ماحدش
يقربلنا، تعاملني بالأدب أعاملك بالأدب، تفكر مجرد تفكير تأذيني اطلع عين

أمك. طب وباباك؟ هتسيب دمه يروح يا علي؟! مين دا اللي هتسيب دمه يروح؟
أقسم بالله العظيم العيال دول ما هيفلتوا مني. وأنا اللي هاجيب تاره خدي
بالك، مش حد من أهلك ولا حتى اخويا. ابتمت. اوعديني يا علي. انه! باقولك
أنا بأقسم بالله، مش مكفيكي دا؟ أمسكت بكفه وراحت تفرك كفها بها، نظرت
له وابتسامتها تتسع. إنت حبيبي. قلنتك دا قبل كدا؟

•••

ولكن هذا لم يكن كل شيء. علي ليس بتاع مشاكل، وانجي تعرف هذا،
ولكن إنجي بتاعة مشاكل، هي تعرف أن الحق حق والباطل باطل، وتعرف أنها
ستتعب كثيراً مع علي. أحياناً كانت تلجأ للرومانسية، مثل المشهد السابق،
وأحياناً كانت تصبح أكثر عنفاً. كانت تشمل سيجارة وتعطيها لعلي. يجلسان
في بينوس.

- علي. الويتر أتأخر. انت ملاحظ؟
 - أيوة يا حبي.
 - طيب ممكن تستعجله؟
 - هايبيجي دلوقتي يا حبي.
 - (أعصابها تتوتر) علي. احنا بقالنا نص ساعة. مش معقول كدا فعلا.
- قله ان مش معقول كدا.

• (يشير للويتر ليستعجله)

(صمت)

• بس؟!

• بس إيه؟

• (تزعق تقريباً). علي، اتحرك، قلّه ان كدا كتير، إن مش معقول
بسببنا كدا علشان جنباه مش عاجبه التيبس بتاع المرة اللي فاتت.

(يصمت)

• (باستهزاء) علي، انت متأكد إنك عاوز تاخذ بتار باباك؟

•••

في ذلك الزمان لم تكن الأمور محددة بدقة. هناك شخص ما قد يفعل شيئاً،
ثم تكتشف أنه كان ينوي شيئاً مختلفاً تماماً. أو حالة أخرى، هناك شخص ما
قد يقصد شيئين في نفس الوقت من وراء شيء ثالث، ولا يمكن تحديد أي من
الشيئين أراد به بقوة أكثر، هل هو الأول ولا الثاني؟ كان ذلك زماناً غامضاً، وكل
دوافعه كانت غامضة. علي وإنجي قررا قضاء يومين في سوهاج. علي كلم شخصاً
يعرفه وأخبره أنه سيبقي عنده يومين. لم يخبره شيئاً عن إنجي، ربنا يسهلها
من عنده.

يدخلان محطة مصر ساحيين شنطة كبيرة خلفهما، بعد أن حجزا
تذكرتين. ما الذي دفع إنجي لقرار السفر إلى سوهاج؟ وما الذي دفعها لمحاولة
إقناع علي ليومين بهذا القرار؟ هل هي الرغبة في رؤية مصر؟ هل هي الرغبة في
مشاهدة خلفية الأحداث التي حكاها لها عن أبيه القليل، وإنجي لم تكن تفوت
حقها أو ثأرها؟ لا أحد يعرف. وربما كان مزيجاً من كل هذه الأسباب
والعوامل. ذلك كان زماناً غامضاً. ولكن أيا ما تكن الدوافع، فإن الأحداث هي
المهمة. إنجي تشعل سيجارة فيغضب علي، مش قدام الناس، وتغضب هي. أنا
حرة. يغضب أكثر، حرة دي لما تبقي لوحك مش مع راجل. تبتلع الإهانة
وتقرر الانتقام.

• تعرف بما علي؟

• نعم؟

• انا ماعرفش انت جاي سوهاج ليه.

• مش انتي قلتي نفسك اعرفك على اهلي.

• علي، ماتهزرش، ما اهلي هما اهلك.

• (بضيق) طب انتي عاوزة إيه؟

• انت قلتي انك عاوز ترجع علشان تاخد بتار ابوك.

• ايوة.

• يعني ايه ايوة. صح ولا مش صح.

• ماعرفش.

• علي. انت مش راجل.

(لا يرد)

• الراجل اللي اعرفه مايخافش من المسئولية.

(ينظر حوله. يزفر)

يقفان على الرصيف. يخرج سيجارة ويكتشف أن ليست معه ولاعة. يبتعد خطوتين ليبحث عن ولاعة. أصوات زعيق تصدر من المكان الذي كان يقف فيه. صوت إنجي: إنك مش محترم. صوت أجنس لرجل: انا جيت جمبك؟ يقفز علي. في خطوة واحدة يكون عندهما، يمسك الرجل من قميصه بقوة، انت حسابك هنا معايا، أنا هاطلع ميتين أمك النهاردة بعون الله. يلوش الرجل محاولاً الإفلات. لا إله إلا الله، إنك فاهم غلط يا بشمهندس. ولكن علي، سواء كان يفهم صح أو غلط، لا يسمعه. يضربه بالشلوت في ساقه، في نفس الوقت الذي يتمزق فيه قميص الرجل تحت وطأة القبضة العنيفة لعلي. الرجل يتعصب، تحت سيل الضربات المباغثة ينجح في توجيه صفة محكمة لوجه

علي. علي بصمت لثانيتين. الجمهور، الذي كان يحاول التخليص، بصمت هو أيضا بوجل. الرجل يتراجع للخلف مترقياً رد فعل هائراً. يندفع علي بقوة ليلحم الرجل في بطنه. في رأسه، لا يتوقف. الرجل يحاول الفلنسة، والناس يحوشون علي. شخص ضخم يقترب ليمسك نراعه بقوة فينتره علي بعنف وتندفع إنجي لتخليص حبيبها. يدفعها الرجل بعيداً فتزقه ويزقه علي بقوة. فجأة يحدث هذا. يسقط الرجل على قضيب القطر. على القضيب بالضبط. قطر الصعيد قادم. الرجل الآن مفروم تحت العجلات.

الرصيف خاو تماماً. الناس جرت بعيداً. علي يحتضن إنجي وحدهما على الرصيف، طويلين جداً، بهيين جداً، منتصبين وغضبانين وملابسهما ممزقة، نانهما إلهان. بخطوات واثقة يخرجان من المحطة. على الناحية الأخرى من الميدان يوقف علي تاكسياً. يركبان صامتين، صامتتين تماماً، صامتتين إلا من عين شمس يا اسطى، منهكة ومكدودة.

مصطفى شاهد أخاه يدخل الشقة مع إنجي، يرتعيان على الكنبية الكبيرة في الأنتريه. كان يعد كوب شاي. خرج مصطفى. بقع الدم والعرق والتراب تملأ ملابسهما. يسألها. لا يرد أحد. بعد ثلاث دقائق ينطق علي: "أنا قتلنا واحد". وإنجي تأخذها نوبة جدينة: "أنا قتلته معاك". مصطفى يولع سيجارة. يعطيها لأخيه. فيحكى أخوه. نظراته ثابتة ونبرته آلية. لنصف ساعة يحكي مصطفى لا يستطيع التصرف ولا اقتراح أي شيء. بعد قليل يعود إلى المطبخ. يتمل هناك بشخص ما. ينهي الاتصال ويعود لعلي. انتو هتنزلوا معايا دلوقتي. هتباتوا في الشارع. ومن بكرة الصبح تاخذوا أول عربية على اسكندرية. فيه واحد اسمه الشيخ حسن هيبقى ف المحطة. أنا كلمته. دا راجل أنا اعرفه

من أيام الجيش وخدمته وهي خدمكوا. أي قصص ف دماغك تنساحا. لا تار ولا
ماتارش. احنا مش ناقصين قرف.

علي وانجي ومصطفى يبيتون في الشارع. على دكة خشبية بميدان
التحرير. علي يسند رأسه على حقيبته الكبيرة، وانجي تسند رأسها على
كتفه. ومصطفى بعيد. مع أول ضوء للصباح ينهضون. يتجهون. قافلة صغيرة،
أسرية، مأخوذة بالذنب الذي وجدت نفسها غارقة فيه، إلى رمسيس. عربية
اسكندرية مازالت فارغة. فيها أربعة أنفار أو خمسة. يلف ثلاثتهم في
الشوارع، كل في اتجاه، وعندما يزمر كلاكس العربية، عندما تحفل بالكامل،
يعوبون، يجلس علي وانجي على المقعد الخلفي، ويودعهما مصطفى. تنطلق
العربية بعيداً. فقط عندنا يناهان بعمق.

• أنا اسمي سوسو. اسمي سعيد، بس قولي يا سوسو. أنا أحب الاسم دا.

...

• يا عم انت خايف مني ولا مكسوف ولا إيه؟

...

• ماتخافش، أنا عمري ما أزييت حد، ولا هأزي إن شاء الله.

...

• ربنا بس يقدرنا على فعل الخير.

...

• انتو أصلاً منين؟

...

• مش بقولك؟ انت خايف مني اهو. هو أنا بسألك يعني عشان أأزيك.

• احنا من سوهاج.

• أحسن ناس يا بابا. سيجارة؟

•••

الشيخ حسن رجل طيب، أطيب إنسان رآه علي في حياته. رجل صالح فعلاً. حج بيت الله أكثر من عشر مرات، وعمره ما بص بصة وحشة لأي حد. لا نظرة شهوة ولا نظرة حسد. علي يعمل الآن في محل هنوم في كامب شيزار.

أجمل مكان في الدنيا كامب شيزار. شياكة وأناقة. منطقة شعبية وسياحية في نفس الوقت. يسكن علي الآن مع إنجي في شقة صغيرة إيجار جديد يملكها الشيخ حسن هناك، ويدفعان إيجارها ألف جنيه في الشهر مخصوصاً من مرتبهما. مع شرط آخر: "أنا راجل باخاف ربنا. ومش عاوز يوم الحساب ربنا يحاسبني ويقول لي انت جمعت بين اتنين في الحرام. علشان تفعلوا مع بعض لازم تتجوزوا، ودا مش هيخسرکوا حاجة، هي ورقة بس تشتروا بيها مرضاة الله، وربنا يرزقکوا بالذرية الصالحة إن شاء الله"

حدث هذا، تزوج علي بإنجي. سكتا في شقة الشيخ حسن، وبدءا عملهما في محله، "ملايس الهدى"، إنجي تقف على الكاشير وعلي يعتمد عليه الشيخ في كل الأشياء من أول جذب الزباين للمحل وحتى الاتفاق على الطلبات. الأيام تمر وتنفوت. شهر يفوت، شهران، ثلاثة، إنجي الآن حامل.

كيف تعامش كل منهما مع الذنب الذي يحمله في عنقه، كيف تحمل كل منهما أن يصبح قاتلاً هارباً، في ثوان، وبهذه السرعة الخاطفة؟ علي كانت له سابقة قديمة، جرح شخصاً بسكينة في وجهه. حبس وقتها ولم يعد للخناق. كان يحب وصف نفسه بأنه مش بتاع خناق، وإنجي لم تكن لديها بالطبع أية خلفية إجرامية من أي نوع. على ما يبدو فلقد تعامل كل منهما مع هذا الوضع بوصفه وضاعاً مؤقتاً. هما الآن هاربان، ولكن سياطي وقت بتوقفان فيه عن الهرب. سيعودان إلى بيتهما الجديد بعين شمس، وعندها، ستختفي الجريمة من التاريخ، سُمحي من ذاكرتهما وسيعود القتيل للحياة وسيصحون من الكابوس. جدل كهذا كان محوراً لحديثهما لليال طويلة.

• أنا خايقة.

(ينفخ دخان سيجارته بعيدا. لا يرد)

• علي احنا لازم نرجع.

• نرجع فين؟

• علي بيتنا. على بيتك. انت لازم تقول للبوليس. دي جريمة قتل شرف.

بمعني مش هتاخذ فيها حاجة.

• والناس؟

• مالهم الناس؟

• لما يعرفوا اني قتلت واحد..

• (تصحح) احنا قتلنا واحد.

• لما يعرفوا ان احنا قتلنا واحد.

• انت قتلته خطأ.

(بيقتسم بسخرية)

• (بعصبية) انت مش عاوز تتحرك.

(يواصل الابتسام بسخرية)

• إنت ما عندكش مسئولية.

(تفتر ابتسامته الساخرة. ينفخ دخان السجارة)

• انت دايم بتخاف من المواجهة. دايم أنا اللي باخد القرار.

• (يلتفت إليها. يمسك بيدها. يضغط على معصمها بقوة. بمنف. ينظر في

عينها. عيناه محمرتان) أنا قتلت واحد علشانك.

• (تصحح) احنا قتلنا واحد.

• (يصرخ) أنا اللي زقيته ع القطر علشان كان بيعاكسك. أنا اللي الكل شافوني وأنا يموت. انتي زي الهانم ضربتيه بالبوكس في بطنه، بس أنا اللي مستقبلتي ومستقبل ابني هيضيع.

• (تلتفت إلى الناحية الأخرى. بعد قليل تنظر إليه وعيناها مرغرغة من الدموع) أنا مابقتش احبك خلاص.

(يستأنف الابتسام بسخرية).

•••

سوسو شاطر. يقف على عريية كبدة أمام المحل. تعرف عليه علي وهو يأكل عنده. بعد قليل أصبح يزوره في محل "ملايس الهدى"، ثم نشأت بينهما صداقة من نوع خاص. يقضيان اليوم كله مع بعضهما تقريبا. علي، الذي كان جديداً في المنطقة ومحاول استرضاء من حوله، أهدها جينزاً ليفيس دفع ثمنه من جيبه الخاص. وسوسو لم يعرف كيف يرد له الهدية. دخل سوسو بيت علي، وأصبح صديقاً للعائلة. صديقها تقريبا، ليس صديقها جداً. إنجي لم تحبه كثيراً. إنجي لم تحب أحداً في هذه المنطقة، كانت قرفانة من حياتها ومن كل شيء. سوسو راهن نفسه أنها ستعود، ولكنه خسر الرهان. لم تتعود، وهذا لم يجرح سوسو.

سوسو كان إنساناً، يشعر بالبشر، شاب في العشرينيات، قصير القامة، صوته مبجوح، يرك في مشيته لوجود ساق أطول من أخرى. ربما لهذه الإعاقة كان قلبه يتألم دائما للآخرين. وما أن رأى إنجي حتى عرف أن هناك شيئاً ما وراءها، فتاة متملمة، مثقفة، تأتي مع زوجها لتعمل كاشير في محل هدم، قرفانة من كل ما حولها. لا أحد يعرف عنها وعن زوجها شيئاً. سوسو لم يفكر في الأنبة أبداً، لقد كان يفكر في المعرفة، المعرفة فحسب. المعرفة المجردة حتى

.. السلطة. مرة وراء الأخرى تجرأ على دعوة علي إلى بيته، عشة صغيرة فوق
السطح. هناك قدمه إلى أخويه. عادل وأبو أميرة، أخيها الأكبر وصاحب
الرهبة. بوصفه البشمهندس علي اللي عاوزين نعملو معاه الواجب. عادل لم
يعمر بيعة وحشيش للصيح. على الساعة عشرة استأذن علي في الانصراف.
«يا أبو أميرة ذراعه بقوة وقال له علي الطلاق يا خويا ما يحصل. انت بايت
«يااا النهاردة. بأدب قال علي إن المدام قد تعلق عليه وهي في أول شهر حمل.
أبو أميرة أغلظ القسم ثم حل المشكلة: يبقى انت تكلمها دلوقتني، واني نبعث
المدام تبنيت عندها، واحنا الرجالة نعدو براحتنا. اتصل علي بإنجي وأخبرها
«خرج أبو أميرة ليتفاوض مع زوجته التي غادرت الشقة بعدها بربع ساعة.
«استمرت سهرة الرجالة للصيح.

لم يهلفظ علي بالكلام. فقط تحدث عن عين شمس، وعن مصر. والتقط
سوسو المعلومة، لم يجينا إذن من سوهاج. سأله ماذا كان يعمل قبل المجيء،
لاستدرية فتحدث عن محل الهدوم. سأله ما الذي أتى به إلى هنا، فكاد علي
ينكلم وسكت، سكت طويلاً، ثم قال إن ربنا سبحانه وتعالى بس هو اللي يعرف
الهير فين. الإجابة لم تقنع عادل، الذي لم يشاركهما الحشيش وإن كان شرب
مع قزاييز بيعة. جعله هذا عدوانياً. اقترب من علي وسأله إن كانت معه مئة
جنيه حتى ينزل يحاسب محل الخمرة تحت ويميدها له غداً. الخدعة انطلت
على علي. أخرج المحفظة فاخطفها عادل وأبرز البطاقة. قبل أن يتمكن من
النظر إليها كان علي قد ركب فوقه وقرب سكينه من رقبته وقال له عاوز تسأل
على حاجة يبقى تسأل عليها بالأدب، غير كدا هانك.

سوسو كان قد غاب تحت وطأة الحشيش. فجأة أفاق، واقترب من علي
لحاول تهدئته. نقره علي بعيداً، دقيقة ثم قام، توجه إلى باب الشقة. قبل أن

بغادر كان قد أخرج مئة جنيهه ورماها في الهواء. قال: "را حق البيرة. أنا
ماحبش حد يعزمني ويبقى فاكر انه هيكسر عيني." أبو أميرة كان يراقب
الموقف كله. لم يتدخل للدفاع عن أخيه.
عاد علي إلى الشقة. بعدها ولمدة أسبوع ظل سؤال يتردد في ذهن سوسو:
"من هو هذا الرجل؟"

أدهم صبري، كان هذا هو البطل المفضل لإنجي. منذ قرأت مغامراته في
الإمارات وحتى عودتها لمصر. منذ ذلك الحين، بدأ هوسها بالمخابرات. تخيلت
حياتها على هيئة مغامرة طويلة، تمتزج فيها كل الأشياء. الأكشن بالدراما
بحب الوطن بالعواطف المشتعلة. كانت تحلم - في جزء من نفسها - بالبطولة.
ربما لهذا السبب، فقد كان الخلاص من كل هذه الحياة السرية هو أمنيتها
الوحيدة. البطل لا يختين من الشرطة، لأن البطل هو الشرطة، هكذا فكرت.
كانت صغيرة ولا تعرف الحياة.

في اليوم الذي زارتها فيه أم أميرة وتحديثا حتى الثانية فجراً اكتشفت
إنجي أن هناك موضوعات لا يمكنها الحديث عنها، وموضوعات أخرى عليها
تنسيق كيفية روايتها مع علي قبل أن يتحدث عنها أحدهما بمفرده. اكتشفت
إنجي أن ثمة منطقة أصبحت سرية في حياتها، ويكت. أم أميرة هتفت بها
قائلة مالك ياختي انا زعلتك؟ وإنجي أخذت تجفف دموعها. لا أنا آسفة يا أم
أميرة. أنا اللي ضايقتك. سامحيني. في هذه اللحظة دخل علي. ارتبكت أم
أميرة. قامت متوجهة للباب لتغادر. ألحت عليها إنجي في المبيت عندهم،
فباتت. فرشت لها إنجي كذبة صغيرة في الصالة. وذهب علي للنوم بجانب
زوجته.

في الخامسة صباحاً شعر علي بالظلم من جراء سهرة الأمس، قام، فتح التلاجة وتجرع زجاجة مياه كاملة، عاد وهو يتطوح، وهو يتطوح شاهد أم أميرة وطرف جلابيتها منحسر عن ساقها، ممتلئتين قليلاً، ولكن لا يهيم، بدأ بهرش في قضييه، وكان يلعب من تحت بنظلوئه. اقترب منها. انحني. كان يقع عليها ففوجئ بها تسنده وهي تشير إلى قمها ألا يحدث صوتاً.

لم ينم علي من قبل مع امرأة لا يعرفها، باستثناء الشرايمط طبعاً، ومنذ تزوج، لم يخن زوجته مرة واحدة. كان مخلصاً لها إحصاً من نار.

أما اليوم، فلقد تضافرت عدة عوامل جعلته يشعر بالشهوة إزاء أم أميرة، أولها البيرة التي أخذ يتجرعها حتى امتلأت بطنه، ثانيها أنه أراد بنومه معها الانتقام من جوزها، بعد أن حاول عادل أخوه بالعافية خطف البطاقة منه ولم يتدخل هو(هذا هو الانتقام البحت. الانتقام للانتقام)، ثالثاً أنه أراد أن يتقى شره، إذا كان عادل قد رأى شيئاً في البطاقة، عن كونه يعيش في القاهرة أو أمرب. فإن علي قد كسر عينه (هذا هو الانتقام الإجرائي، الهادف والموظف)، رابعاً وأخيراً، أنه كان فعلاً قد هاج عليها. كانت قدرة، ذات رائحة مقرقة، رائحة نتانة ممتزجة بكحول رخيص، كل هذا جعله يهيج عليها أكثر.

منذ تزوجا، لم تسمح له إنجي بالنوم معها إلا في أول أسبوع. بعدها بدأت نوبات الاكتئاب والقرع تعاودها، وعلي إنسان، دم وأعصاب، وله رغباته المنحطة أحياناً، ومنها السكس.

في ساعتين كان علي قد عمل ثلاث وحيد، صحيح أنها ليست وحيد كما ينبغي. الفجارة تفصل الإنسان أحياناً، ولكنه على الأقل راض عن نفسه، ورضاه هذا جعله يدخل غرفة النوم على طرايطف صوابه. يخرج ويمنح أم أميرة

خمسين جنيتها. ويقول لها بحنية: "ابقي اشترى حاجة حلوة لأميرة".
ويدخل غرفة نومه مرة أخرى. يستيقظ بعد ثلاث ساعات. يتشطف بسرعة
ويخرج مع إنجي ليفتحا المحل.
هكذا انقضى أهم يوم بحياة الثنائي علي وإنجي. الأيام التالية كانت
مجرد نتائج لأحداث هذا اليوم.

•••

سوسو، عادل، أبو أميرة، أم أميرة، عائلة من ثلاث إخوة وزوجة تسكن
سطح بيت قديم في كامب شيزار. أساس العائلة من سوحاج. مثل ناس كثير.
سوسو يعمل على عربية كبدية، وعادل له فرشة في محطة الرمل يبيع عليها
البوكسات والفانلات الداخلية، كما يساعد أبو أميرة في عمله. أبو أميرة بواب،
إن كان لابد من استخدام هذه التسمية.

عادل عيل هايف. بدا هذا لعلي من نظرات أبو أميرة له وهو يخطف منه
المحفظة. تافه ومراحم وأخلاقه صغيرة. سوسو شاطر. يعتمد عليه أبو أميرة
في أشياء كثيرة. تسقط أخبار الشباب الذين يريدون استئجار شقة. وتسقط أخبار
الملاك الذين يريدون تأجير شققهم في المناطق المحيطة. وجلب عدد أكبر من
الزبائن والزبونات إلى شقة الدور الثاني، التي يؤجرها صاحب العمارة بالساعة
لن يريد. أبو أميرة سمار أيضاً، ومعرض، إن كان لابد من استخدام هذه
التسمية.

يؤهل أبو أميرة أخاه سوسو لكي يحل محله. يحبه. هو الوحيد الذي
يذكره بشبابه، ويحب أن يتخيل نفسه أباً له، وليس مجرد أخ. هذا الإحساس
انتقل بالتعبية إلى أم أميرة. تعامله كأنها أمه.

في اليوم الذي نام فيه علي مع أم أميرة قال لها "ابتي اشترى حاجة حلوة لاميرة". لم ترد هي، لأنها امرأة حكيمة، وليست خفيفة لتسرد عليه المأسة لها. مأسة أميرة التي ماتت في العاشرة. وظل الناس ينادونها باسمها بعدها. صمتت، تأملت، صمتت وانصرفت، ابتلمت ألمها وانصرفت.

إنجي: نظلمها بالقول إنها في هذه الأيام لم تكن تفعل إلا القرف من الحماة حولها. لقد كانت تكون طفلها ببطنها أيضاً، وهذه هي الوظيفة المقدسة للأم. وربما كان هذا هو السبب الأساسي في قرفها أيضاً. علي لم يستوعب هذا. فان صغيراً وقليل التجارب. قتل إنسان ليس تجربة مهمة. سألها مرة، عاوزانا مرجع مصر وتولدي هناك، فأشاحت بوجهها، فقال في سره الله يقرفك وانصرف. في هذه الفترة كانت إنجي تتعرف على زبونة تأتي لتزورها في المحل. الحاجة اعتماد اسمها. بادرت الحاجة بفتح حوار معها. قالت لها إن شغلها غريب عن المنطقة. وكانت تقصد اللكنة الأجنبية التي تتحدث بها إنجي. قالت لها إنجي إنها دارسة سياسة واقتصاد، فعاتبت لها الحاجة اعتماد ناني يوم وسألتها بحرج إن كان يمكنها مساعدة ابنتها في الإنجليزي. البت طالعة خايبة ف الإنجليزي وانتي عربية هتجيبك وعربية هتوديكي والتي نامري بيه مش هنكلمك فيه. وافقت إنجي، بدون حتى الرجوع لعلي. أخبرته مرة بنبرة سريعة، بنبرة من نوى أمرا، ولم يعترض هو. لم يجرؤ على الاعتراض.

الحاجة اعتماد تعرف الشيخ حسن من بعيد كما تقول. وهو الذي أوصاها بالحديث مع إنجي عندما شكت له من مستوى البنيت في الإنجليزي. في أول يوم نزورها فيه إنجي في البيت، أعدت الحاجة ملوخية وفراخ ومحشي ورق عنب

وأقسمت بأغلظ الأيمان أن إنجي ستتفدى معهم. لم تستطع إنجي الرفض. في البداية لم تتكلم كثيراً، بالتدريج انفتحت نفسها، على الأكل والكلام، ولكزتها الحاجة في كتفها قائلة يا اختي فكيفها كذا. وقربت دبوس فرخة من بقها. ووالنبي لتناكلي دا.

لم تذاكر إنجي للبنت في أول يوم، ولم ترها أساساً. أكلت وأكلت وأكلت. في النهاية وجدت نفسها تجلس مع الحاجة اعتماد وحدها في الصالون. الحاجة فاردة رجلها على الأرض وراكنة رأسها على الفتويه ويقميص نوم، ذراعها مهول وصدرها عظيم وناصع البياض. الفرق بين بياض صدرها وسمار رقبتها بدا لإنجي مضحكاً. إنجي تسند جسمها على الكنبه القابلة وتضم ركبتيها إلى صدرها. الحاجة تلف سيجارة حشيش وتعطيها، وإنجي تدخن وتحقق في المروحة التي تنز. الاثنان غائبان. بعد قليل تلتفت إليها الحاجة: "بت يا إنشي". تنظر لها إنجي ببطء. تواصل الحاجة:

"انتي يا اختي قتلتي واحد في مصر صحيح؟"

الدائرة الصغيرة التي كانت تحيط بعلي وإنجي كانت تعرف قصة محطة مصر. قصة القتل. مع بعض التوابل: القتل الخطأ أصبح قتلاً عن عمد، وعلي وإنجي قاتلان. لا أحد يأمن لهما. ولكن لهذا السبب بالتحديد. فلقد اقترب منهما الجميع. المثالان اللذان لدينا الآن هما عائلة أبو أميرة والحاجة اعتماد. كانا يعرفان أشياء عامة وغامضة. ولكن التفاصيل كانت تنقصهما تماماً، ربما لهذا تحجبت الحاجة اعتماد بقصة ابنتها. يطلب من الشيخ حسن. يمكننا تخيل الشعب السكندري وكأنه عصابة كبيرة. كبيرة جداً، وهذه العصابة تسعى لتجنيد كارين جديدين وقويين ومهمين في صفوفها. والشعب السكندري يعني هنا عائلة أبو أميرة والحاجة اعتماد.

صحيح أن هذا التعميم مخل بعض الشيء، ولكن الحياة مستحيلة بدون تعميمات.

يصعب كثيراً تحديد رد فعل إنجي عندما سمعت سؤال الحاجة. ولكن لدينا دلائل. فيما بعد: عندما ستحكي لعلني ستقول له: "أنا ما عرفتش أقولها إيه خالص، وحسيت ان كل الناس شايفاني. وبعدين لقيتني بقولها وأنا بضحك" "أيوة قتلت واحد، واللي هيكلمني هقتله هو كمان."

من أين اكتسبت إنجي كل هذه القوة؟

الحياة في الإسكندرية تعلم المرء الكثير. الكثير جداً.

الحياة في الإسكندرية لا تعرف العواطف.

الحاجة اعتماد فكت عقدة إنجي. وجدت من تقرب منه بعيداً عن جو المحل والبيت. والحاجة أيضاً من جانبها كانت حيوية، بنت سوق. وتعامل كل شخص بما يحب أن يعامل به. تعرف كل الناس. ويعرفها كل الناس. وتعرف كل الناس على كل الناس. أحببتها إنجي. وتلك من جانبها لم يتخل عليها بأي نصيحة تحتاجها. سواء عن الحمل، أو عن الحياة في الإسكندرية، أو الحياة هرباً من البوليس، أو الحياة هرباً من مشاعر الذنب.

النقطة الأخيرة نقطة مهمة. عرضت عليها الحاجة الصلاة معها في الجامع. وعرضت عليها الحجاب، انتي فاكرة الحجاب هيوخحك، أما انتي خايبة، يا بت دانتني هتبقى زي القمر، وليست إنجي الحجاب، وأصبحت تقرأ القرآن كل يوم، صارت أكثر مرحاً وانفتح قلبها على المكان أخيراً. سمحت لعلني بأن يستضيف سوسو في بيتهما. وطبخت لهما، ثم توالي دخول أفراد عائلة أميرة، أم أميرة. أبو أميرة وانتهاء بعادل.

لقد بدأ الجليد ينوب أخيراً.

•••

تذاكر إنجي لمنة الله بنت الحاجة يومياً. بنت ذكية، لكن حمارة. صحيح تستوعب بسرعة، ولكنها لا تعرف شيئاً عن الإنجليزي. وكان لزاماً على إنجي إن أن تبدأ من الأول. منة. طلعي لسانك وانتي بتقولي التي إتش، منة، مافيش حاجة اسمها هي ووك، هي ووكس أو هي إز ووكنج، منة، البهي غير البهي (يصعب شرح هذا الفارق كتابة)، منة. ركزي معايا شوية لو سمحتي وماتسرحيش في السقف.

ولكن منة ذكية، بسرعة تلتقط كلاماً بالإنجليزي، ولكنها إنجي الأميركية، وترده، وبسرعة تفهم. طبعاً ليس بما يؤهلها لأن تتحدث، ولكن بما يؤهلها لأن تنجح في الامتحان. يوماً وراء يوم، تدخل إنجي حياة هذا البيت. تراه من الداخل، بيت بسيط، ناسه بسطاء، صحيح أنهم ليسوا فاحشي الثراء. وصحيح أنهم لا يتحدثون اللغات الأجنبية طول الوقت، ولكن فيهم شيء بسيط، حميمي وصادق. دائماً كانت إنجي تؤمن بهذه الخصلة في أولاد البلد الحقيقيين، ولقد رأتها متجسدة في عائلة الحاجة.

ولكن أين هو زوج الحاجة؟ لقد ظل هذا السؤال يدور بخلد إنجي نون أن تعرف إجابته. ولقد تخرجت أن تسألها مباشرة، ولقد خافت، ولقد حدثتها منة نات مرة ففكرت شيئاً عن بابا الشهيد البطل، وعن الشيخ حسن الذي لا يجعلهم محتاجين شيئاً. لم تزد منة، ولم تسأل إنجي.

لم تعد الحاجة لسؤال إنجي عن حادثة القتل القديمة. يبدو أنها حاولت تجميع تفاصيل الحادثة بطرقها الخاصة. وأنها لم تياس. جمعت المعلومة وراء

المعلومة، حتى كونت ملغاً ضخماً. هذا الملف لن يظهر الآن، سيظهر في وقته.
الحاجة اعتماد لا تترك شيئاً للصدفة.

علاقة علي بأم أميرة تتواصل في بيته. تتحدث كثيراً، طول الوقت تتحدث. تحكي كل شيء عن كل الناس، وهي تحته، وهي فوقه. وهي جنبه، وهي وراءه. تحكي كل شيء عن كل الناس، وعلي لا يسمع شيئاً. وعلى العكس من ذلك كان أبو أميرة، يشع بطاقة عظيمة تبدو واضحة منذ أول لحظة وتتزايد مع الوقت. علي كان يحاول الحديث معه. كان يحاول إثبات نفسه أمامه، ولكنه اكتفى فيما بعد بالفرجة عليه. كان يراقبه وهو يشعل سجانه، وهو يحدق إلى البعيد، وهو يرشف الشاي، وهو يربط الجزمة، وهو يخرج النقود من جيب محفظته، وهو يطرطر في مbole القهوة. كل حركة لأبو أميرة بدت وكأنها تحمل فلسفة خاصة. لم يكن ينطق تقريباً. ولكن علي كان ينصت له طول الوقت. لم يكن يفهم أشياء كثيرة، كان صغيراً، وفي هذا الزمن لم يكن قد استوعب الحياة بعد. لقد رشحت الأقدار أبو أميرة لكي يعلم علي كل شيء في حياته.

لأيام طويلة ظل علي ساكناً. وظل أبو أميرة يتبادل معه الأنفاس. يشعل السجارة، ويعطيه نفساً منها، يشرب كوب الشاي، ويعطيه شظية، ويهرش في بتاعه، وينظر له ويضحك، وفجأة ينطق. يقول إن الدنيا ما بقاش فيها خير زي زمان. وعلي يحفظ هذه الجملة في رأسه، ويحفظ الإيماءات التي سبقتها، والتي لحقتها. هكذا فقط يصبح كبيراً.

لا نستطيع الجزم بالوقت الذي تحولت فيه العلاقة المرشحة لأن تكون علاقة صداقة بين علي وأبو أميرة إلى علاقة من نوع آخر، تلمذة، بنوة، انبهار،

شيء كهذا. في النهاية. فكل ما يمكننا فعله هو رواية موقف أساسي في هذا التحول. نتذكر جميعاً أن علي قد نام مع أم أميرة ما يقرب من خمس مرات. وأن هذه المرات الخمس قد أوحى له تقريباً أن بإمكانه الاستطراف مع أبو أميرة. يلعبان الطاولة على إحدى القهوي بالمنطقة. اللعبة شبه محسومة لصالح أبو أميرة. ولكن علي يحاول الثأر لكرامته. يضيّق عينيه. يقول ماشي يا عم. بس أنا معورك ف اللي أحسن م الطاولة. بيتسم أبو أميرة. يقفل الطاولة. يطلب شايّاً للأستاذ علي. يضع ساقاً على ساق. يهرش في شنبه. وينتف شعرة سوباء طويلة تدلت من منخاره. ينظر لعلي. يتحول صوته. يغدو رقيقاً. بساماً، سحاً، وجميلاً: "مين برضه يا أستاذ علي اللي معور الثاني؟ إنت؟ ماشي يا سيدي. انت صح. بس تقصد أنني مرة بالظبط؟"

الآن يلتفت له أبو أميرة بكل جسمه. يقرب وجهه منه. صوته منخفض، جديّ وخطير: "جايز الحاجة بتحب تنبسط. دا مايبيباش، ولا يضايق حد، ولا يضايقني أنا. ولا فارق مع كس امي أصلاً. بس لما يبقى اللي قدامها مش راجل، دا يزعني أوي، عليها، وكرمان عليه، خصوصاً لما يبقى عامل نفسه ذكر ف كل حنة." أبو أميرة يقطع الكلام. يقسمه. يلون في نبراته. أبو أميرة ينهي الكلام. يشير للقهوجي: "حساب الأستاذ علي كله عليا. الراجل ضيف علينا."

لا يأنف أبو أميرة مما يأنف له سائر الناس عادة. لا يشعر بالعار من أشياء معينة، ويشعر بالعار من غيرها. هكنا هو. ربما هنا ما جعله إنساناً قوياً. لأكثر من مرة يحاول علي جرحه بكلمة، ويكتشف أنه لا ينجرح. ما الذي ستفعله مع إنسان لا ينجرح؟ لا شيء أبناً. واحدة واحدة، بدأ علي يندرج في عائلة أبو أميرة، ليس بمنطق الند هذه المرة. ولا بمنطق فتحة الصدر، ولكن

رد على اسمع - اسأل، استشير. كل الناس تبدأ صغيرة. سيلزم لهذا الدرس كي
بهن داخلى ذهن علي موقف آخر.

اللقاء التالي لعلي مع أم أميرة. يسألها إن كانت أخبرت أبو أميرة بما
حدث بينهما فتشيق: "طبعاً يا اخويا. مش جوزي؟"، علي لا يفهم هؤلاء
الناس. يمسكها من ذراعها، "جوزك مش جوزك دا ما يهمنيش، ولا يضايقني.
ولا يفرق مع كس أمي أصلاً. دا حقة معرض ما يلزمينش. اللي يلزمني ان كل
اللي بهني وبينك يفضل بيني وبينك." تخلص ذراعها من قبضته. تنظر للأرض
قالها. ثم له: "عيب يا أستاذ علي، أبو أميرة مش وحش، وما يصحش تقول
عليه كدا، الراجل دا فاتح بيتكو." علي يثور، يهلفط، يضربها، فاتح بيتنا
اراي يا شرموطة. يركلها في بطنها. وهي تنظر له بثبات، لا تتأوه. بعد
انتهائه تلمح حاجتها وتمضي. تنظر نظرة طويلة له، نظرة لا يفهمها.

عندما سيخلو إلى نفسه، سيتذكر المبلغ الشهري الذي يرسله أبو أميرة
للبيت. تحت بند مساعدة العرسان الجداد، وهداياها الكثيرة، من أول اللحم
والفاكهة والحشيش وحتى التليفزيون وطقم الأنتريه. يبكي قليلاً. يتذكر كل
شيء. أباه المغفور، ثأره الضائع، عين شمس، مصطفى أخاه، ويتذكر اليوم
إياه، الذي لولاه لما كانا هنا. يقوم ليكلم مصطفى، لأول مرة منذ غادر القاهرة
بخله. وبلا أي اعتبارات، يكلمه من تليفون البيت، ينهه، يسأله عن الأخبار
في مصر. يشخط فيه مصطفى، انسى انك ترجع دلوقت. شوف أكل عيشك ولما
الدنيا تهديا هتصل بيك. علي يفلق الساعمة. علي يواصل النشيج.

في الصباح يزور أبو أميرة. يعطيه سيجارة. يضحك معه، يضربان كفاً
بكف. وينتهز الفرصة لكي يقوم أثناء الجلسة ويقبله في كتفه.
الدرس كان قاسياً. ولكن معلش، هكذا هي الدروس الحقيقية، التي
تعلمنا أشياء حقيقية، دائماً قاسية.

الإسكندرية كانت تغلي هذه الأيام.
صراعات كثيرة خاضتها المدينة البحرية دفاعاً عن استقلالها واستقلال
مواطنيها. في الحقيقة، لا يمكننا النظر إلى الصراعات الإسكندرية مع السلطة
المصرية إلا بوصفها وجهاً من وجوه صراع الهامش مع المركز.
السلطة التي كانت الإسكندرية تصارعها لم تكن سلطة "مصرية" فحسب،
كانت سلطة محلية أيضاً.

ذات يوم، استيقظت الإسكندرية على مقتل شاب مصري، شاب اسمه
خالد سعيد، على يد مخبرين من الشرطة. تم تعذيب الشاب وسحلته وتهشيم
رأسه، هكذا. في نفس اليوم، تم إنشاء صفحة على موقع الفيسبوك الشهير
بعنوان "كلنا خالد سعيد"، ووصل عدد المشتركين في اليوم الأول لإنشاء هذه
الصفحة إلى مئة ألف مشترك سرعان ما تزايدوا في الأيام التالية حتى وصل
عددهم إلى نصف مليون مشترك عشية ثورة ٢٠١١. عمت الإسكندرية المظاهرات
الاحتجاجية، بأشكال مختلفة، يعني مثلاً، آلاف الإسكندريين يتجولون على
الكورنيش بملابس سوداء في ذكرى مقتل خالد، مظاهرات عنيفة، وصعور
سياسي ودرامي بارز لاثنتين من أهم رموز المعارضة، البرادعي وأيمن نور، أمام
السلطة الفاشحة لمبارك وأسرته. ولكن كل هذا لم يكن سوى قمة جبل الجليد.

الإبسنديرة مدينة كوزموبوليتانية. على الأقل، هذا ما كانته قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، بعدها بدأت عمليات ممنهجة لطرد الأجانب من مصر، وبالتالي من الإبسنديرة التي كان يتمركز بها عدد من أكبر الجاليات الأوروبية. ومنذ ذلك الحين، يستشعر المرء إحساساً ضائعاً في الإبسنديرة. إحساس العجد الغابر، الشكوى من الأيام التعيسة، هذا الإحساس يتسرب في الهواء، ينقله موج البحر والظهور في السماء والبشر على الأرصفة.

ثلاثة محافظين ظل السكندريون يصارعونهم، إسماعيل الجوسقي، عبد السلام المحجوب، وعادل لبيب، ولأن الصراع مع السلطة الإصلاحية هو أكثر خطورة وأهمية من الصراع مع السلطة الرجعية، فلقد كان الصراع مع المحافظين الأخيرين هو الأكثر دموية. عندما قرر المحجوب مثلاً جمع سانتي الميكروباص (المشروع في اللغة السكندرية) داخل الموقف الجديد بكرموز، بعيناً عن محطتي سهدي جابر ومحطة مصر، احتشد السائقون داخل مواقعهم، تمترسوا ورفضوا التحرك، في النهاية، اضطرت الشرطة للتدخل، أطلقت عدة أعيرة بالهواء. حينها فقط، تفرق المعتصمون، ولكن بعد مقتل واحد منهم.

هذا الحدث كان بروفة لحدث أكبر. في يوم خريفي من أيام العام ٢٠٠٤، استمدت تاجرة سمك تدعى "فضة أمين المعاوي". أمراً من الحي بهدم فيلا سفير سابق يدعى "مفيد أبو الغار" بلوران، بعد أن باعها لها وفق عقد بيع موثق. عموم السكندريين كان لهم موقف يختلف عن موقف مجلس الحي، فلقد تابعوا على مدار أسابيع عدة تحقيقات صحفية كانت تكتبها صحفية نشطة - وعضوة بحزب الغد المستقل - اسمها "أمل صبور". التحقيقات كانت تبرز الأهمية الفنية والتاريخية والمعمارية التي تمتاز بها الفيلا، وكانت تبرز - في الوقت نفسه - محاولات فضة المعاوي لإجبار أبو الغار على بيعها. والتي

انتهت بتلفيق قضايا لبعض من أقربائه، منها قضايا دعارة وتعاطي مخدرات. مما اضطره لبيع الفيلا لها. اعتصم جميع أهالي الإسكندرية أمام البلدوزر الذي يتقدم لهم الفيلا بإيعاز من فضة، المالكة القانونية للفيلا. انتهى الموقف بتوقف البلدوزر أمام جموع المتظاهرين مع السفير المصري السابق، واستكمال عمله في وقت آخر، ولكن بعد أن كانت القضية قد نالت حظها من الدعاية، وصار مشهد الوقوف أمام البلدوزر يوازي في أهميته مشهد راشيل كوري وهي تتحدى وحدها الجرافة الإسرائيلية.

صاحبت هذه القصة قصة أخرى ذات دلالة. المحافظ السكندري قرر منع الشيثة في القهاوي، في إطار خطته لمنع بيع السجائر وتعاطيها أيضاً. في إطار خطته لجعل الإسكندرية "مدينة بلا دخان"، في إطار خطته لتولي منصب الأمين العام لليونسكو. ولكن كل هذه المبررات لم تكن مرضية للسكندري الحر. أعلن أصحاب القهاوي عن احتجاجهم، ولم يأبه لهم المحافظ، أعلنوا إضراباً، ولم يأبه، أعلنوا بصراحة أنهم بصد ممارسة العنف في المدينة. لم يأبه، فحدوا موعداً، الخميس ٢٢ يوليو ٢٠٠٥، لإطلاق المدينة. اجتمعوا في مجموعات صغيرة بمناطق متفرقة، من بحري وحتى ميامي، وساروا يكسرون كل أعمدة الإنارة على الكورنيش، بأحجار صغيرة يزقلونها لأعلى، ومن يملك منهم سلاحاً نارياً يضرب به الفوانيس. قبضت الشرطة على بعضهم. استجوبوهم ولم يحصلوا منهم على أية معلومات. في النهاية أطلقتهم، وألقى المحافظ قراره. السكندري الحر يعرف أن لا قيمة للحق بدون قوة تحميه.

كما لاحظ مؤرخون كثير، فالسكندريون لم ينتصروا في هذه المعارك انتصاراً واحداً حاسماً، نعني انتصاراً على الأرض. جميع الانتصارات كانت دعائية ورمزية. كانت مشاهد درامية مؤثرة أكثر من كونها انتصارات حقيقية. هنا

من نقبتس من عبارة فنان الكاريكاتير الكندي حسن الباشا الذي رسم في هريده "بحر ونورس" المحلية. اجتماعاً لخلية سكندرية، يترأسها شخص مسلح يراجع لوحة مكتوب عليها "سجل انتصارات البحر" [المقصود الانتصارات السكندرية]، ويقول رئيس الخلية متأففاً: "هو كله مشاهد مؤثرة مشاهد مؤثرة، مافيش انتصارات بجد ولا إيه؟"

قبل هذه الأحداث بعقدين تقريباً، في منتصف الثمانينيات، شهدت مدينة الإسكندرية ضرباً من المعارضة كان جديداً وقتها على مصر بكاملها. في عدد من المسارح الصيفية التي تعرض فيها بعض الفرق مسرحياتها. والتي كان يقوم بمطولتها نجوم كوميديا من الطراز الأول مثل سيد زيان ومحمد نجم ووحيد سيف ومحمد هندي - الشاب جداً آنذاك. تولدت في هذه المسارح أول بذرة للاحتجاج السياسي - في العصر الحديث - تشهدا الإسكندرية ضد ظالمتها، حيث دأب الجمهور على الصغير، والتصفيق في المواضيع التي يشتبه أن تحمل إسقاطاً سياسياً، مهما بلغت ضآلتها. وإذا ما تذكرنا أن هذه المسارح كانت مسارح عائلات من الطراز الأول. حيث دأبت العائلات المصرية جميعاً في عقدي الثمانينيات والتسعينيات على قضاء أشهر الصيف في الإسكندرية، فيمكننا أن نضيف إلى أهمية ناك المسرح، كونه ربي جيلاً من الأطفال - آنذاك - الذين استوعبوا بعمق الدروس السياسية الأولى في حياتهم، ومارسوها بعد ذلك. في طور شبابهم العاصف. في أول أيام ثورة ٢٠١١، تم القبض على واحد من شباب "المعرضين" الأساسيين، واسمه هاني سمير. تم تعذيبه بعنف، وبعد خروجه استخافته أحد برامج التوك شو الشهيرة. هناك قال بالحرف: "أنا بابا هو اللي علمني سياسة. مش سياسة بالظبط، بس علمني أحب مصر، وأخاف إن لو حملت حاجة لصاحبي ممكن تحسلي بعد كدا. لما كنت بشوفه مع صحابه في

مرحية العسكري الأخضر [مرحية شهيرة للنجم سيد زيان] وهو بيزعق ويمسك ويصفر ويخليني ازعق واصفر زيه.

الإسكندرية كانت الفصل الأكثر إشراقاً في تاريخ النضال المصري هذه الأيام. كانت سائر المحافظات المصرية مستكينه بشكل واضح. لا أحد يعرف سبب هذا على وجه الدقة. أشرنا من قليل إلى النفسية الإسكندرية التي تشعر نوماً أن مجداً غابراً قد ضاع من أيديها عندما تولت سلطة يوليو مقاليد الأمور. ولكن ثمة عوامل أخرى.

منذ بداية تأسيس المدينة. بالتحديد بعد مرور القرن الأول على إنشائها، وثمة سمات واضحة للإسكندرية تأخذ في التشكل. الغضب مثلاً كسمة أساسية، الغضب الذي يسمى في العامية المصرية أحياناً بـ"الحمقة". الإسكندري شخص طيب بلا شك في أغلب الأوقات، باستثناء الحالة التي يشعر فيها بتهديد خارجي، وبالتحديد، إذا شئنا الدقة، بتهديد موجه إلى هويته الإسكندرية. ولا عجب، فالإسكندرية هي المدينة المصرية الوحيدة التي طورت هوية قومية صريحة، وطورت طقوساً للإيمان بهذه الهوية، وطقوساً للغضب إذا ما تم جرح الهوية. تعلم الإسكندريون هذه الخصلة من الجيران الأوروبيين السابقين، المعترزين بقنصلياتهم وامتيازاتهم الأجنبية، ولكنهم تعلموها أيضاً من الجيران البدو الحاليين، عرب مطروح. كان - وما يزال - البدوي الثائر في مطروح هو الجار الذي يرتضيه الإسكندري الأصيل لنفسه. وليس الفلاح البحراوي البلدي، الذي فرضته عليه الجغرافيا.

في العام السابق علي "عام خالد سعيد" كتب أحد المدونين مقالاً عن الإسكندرية، مقالاً ساخراً إذا جاز التعبير، أطلق على شخصياته الإسكندرية أسماء هزلية. ثار آلاف المدونين الإسكندريين، على ساحة المدونات والفيس بوك،

ام الملاق حساب هذا المنون على الفيسبوك (الذي لا نود ذكر اسمه) لمدة عام، ورافقت عودته - التي أثارت غضب المكندريين- مع اشتعال قضية خالد . مهد هذا قد يشرح لنا سر الغضب الشديد الذي قوبلت به حادثة قتل خالد. الغضب لم يكن موجهاً لقاتليه فحسب، ولا لجهاز الشرطة فحسب، بل لكل من سول له نفسه الاستهزاء بالإسكندرية، ناهيك عن الاعتداء على الدم السكندري. إحدى الصور الشهيرة في وقفات الاحتجاج كانت فتاة مجروحة في شفتها من أثر اعتداء رجال الشرطة عليها، وتحمل لافتة مكتوب عليها: "دم الإسكندراني مش رخيص".

لهذا كله، وفي خضم كل تلك المعارك والنيران والدماء التي تسيل من أجل الحرية. ظهر علي وانجي في مدينة البحر. أي، في عز التهاب المشاعر السكندرية اشتياقاً للمخلص.

•••

مرحلة جديدة في حياة إنجي وعلي بدأت بولادة حمادة. ولد سمين. يزن أربعة كيلوجرامات، عيناه واستعان كعيني أبيه وخصراوتان كعيني جدته - أم إنجي. يضحك كثيراً، ويبكي قليلاً. يتطلع فيما حوله بعيون مندهشة. الرضيع يتنقل من يد ليد. يبدو تعويضا إلهياً عن الظلم الذي حاق بوالديه، عن الغربة والحرمان والتهيب. الرضيع أعاد العقل لعلي، نولف عن النوم مع أم أميرة لفترة، تحول إلى أب حقيقي، ربي شنباً ضخماً، وبدأ يتحدث ببطل. مصادر دخله كانت تزداد، المحل، ونصيبيات صغيرة على الزبائن. وتحويل بعض الزبائن إلى بيت أبو أميرة، زبائن الحشيش أو الكس، ولقبض ثمن هذا مضاعفاً. علي كان يعرف كيف يلاغي الزبون. تبع عادل إلى محطة الرمل، وإلى شارع الزوجين سعد وصفية زغلول، وشيناً فشيناً اعتاد

على القعدة في بارات وسط البلد. لا يشرب كثيراً. يتابع الزباين. يلاغيهـم. يأخذهم من أيديهم إلى كامب شيزار. يسلمهم إلى أبو أميرة. ينظر له أبو أميرة مضيقاً عينيه. يبتسم أحياناً، وأحياناً لا يبتسم. عادي. البشر يبتسمون أحياناً وأحياناً أخرى لا يبتسمون، ولكن علي لا ينتبه لهذه الحقيقة. ولذا يحار في تفسير هذه الابتسامات. كما يحار في تفسير كل شيء ينتمي لأبو أميرة، ويستمر. يمشي في طريقه، لا ينظر وراءه.

ليس هذا فقط. الجميع كانوا يبتسمون لعلـي في هذه الأيام، ناس يعرفهم. وناس لا يعرفهم. سواقين التاكسي، الباعة في المحلات، القهوةجية، حتى زباين المخدرات والنسوان. يشر بشيء ما يحوم حوله، يقترب، ولكنه لا يلمسه، نائماً على حافة الهجوم. إنجي تشعر بشيء مماثل. منة أنت لها بطالبات لكي تقوم بالتدريس لهن أيضاً، والطالبات في نظراتهن شيء من اللوعة. الشفق، الحفنين غير المعروفين. وإنا جاز لنا أن نقول، فالنظرات كانت منبهة بها، تماماً.

كذبت إنجي إحساسها، وقاومته كثيراً، قاومته بمنف. لأنه كان يملأ الهواء حولها، ويحاصرها في كل الأماكن. برغم أنها لم تملك دليلاً عليه. في النهاية، لا يمكن لشخص أن يقول أن الناس كلهم منبهرون به، وأنه، فوق ذلك، لا يعرف هذا إلا من نظراتهم له، كأنه بطل، كأنه رأفت الهجان. لم تحصل إنجي على الدليل المادي غير بعد شهرين من الولادة. حمادة في حضنها، وواحدة من الطالبات تحدثها عن مشكلة عاطفية تمر بها. الولد كلمها أكثر من مرة عن رغبته في أن يسبوا بعض، والبنت تبكي. فتنم إنجي حمادة على الكنفة وتأخذ البنت في حضنها، وفي عز البكاء تهتف البنت: "ياربني يا مس كنت زيك." المس تمسكت. بعد قليل تسألها بتردد: "ليه بقولي كذا يا

شيماء؟- البنت تبعد وجهها عنها. تسمح مناخيرها بكم القميص. تنظر في الأرض قليلاً: "عشان انتي قوية. لما يبقى فيه واحد مش عاجبك بتقتليه."

•••

علي أيضاً تحوطه نظرات الإعجاب. كيف تسربت سمعتهما إلى جميع أهالي الإسكندرية في سنة أو أقل؟ لا أحد يعرف. الدهش أن علي كان جباناً. لا يزال يخاف من أشياء تافهة، الحكومة مثلاً، ولا يزال يؤمن بأشياء تافهة، صلة الرحم مثلاً، ولا يزال يتحاشى أشياء تافهة، الكلام عن اليوم إياه مثلاً، إلى أن حدث واحد من الأحداث الأكثر أهمية في حياته. تليفون صغير من القاهرة، مصطفى أخوه على الخط، يسأله فيه إن كان يمكنه أن يزوره. يوافق علي. مصطفى يتغدي معه في بيته بكامب شيزار.

- الفاس مش سايبيني في حالي يا علي.

..... -

- كل شوية الحكومة تكبس، ويسالوا عليك.

..... -

- ابعد يا علي

..... -

- أيوس إيدك ابعد يا عم. البوليس هيوصلك.

- اعمل إيه يعني؟

- شوف يا خويا. المحل بقا عك. محل أبوك يا علي. بس أنا عاوزك تعملي

تنازل. مؤقت بس والمصحف. وبعد ما ربنا يفرجها من عنده كل حاجة ترجع كما كانت.

..... -

- الحكومة هتوصلك يا خويا. وحياة النعمة دي هيوصلوك.

..... -

- شوف يا علي. أنا جببتك هنا. أنا أتعهدت قدام ربنا إنني أخلصك م المشكلة دي. وصدقت. اديني بتعهد دلوقتي اني هارجعك تاني وهاعملك تنازل عن التنازل. بس وحياة ابنك خلصني انت كمان م الورطة دي. يا اخي علشان لو حد جا سألني أقول اني ماعرفش حاجة عنك. يبقى أكن المحل محلي وانت مالکش فيه. دا قدام الحكومة بس ياخويا.

في اليوم التالي يكتب علي تنازلاً لأخيه. يحكي لأبو أميرة القصة. أبو أميرة ينظر لعلي طويلاً ثم يقول: أخوك نصب عليك يا صاحبي. وعلي كان موقناً أن أخاه نصب عليه، ولكنه كان يريد التثبت بأصل ما يطلب منه أبو أميرة أن يتصل به. يتصل به ولا يرد. يواصل أبو أميرة. كلمه يا خويا بكرة ولا بعده ولا كمان شهر، ومش هيرد. يكلمه علي، بكرة وبعده وكمان شهر. يطلبه كالمجنون. ولا أحد يرد. كل شيء يهتز من تحت قدم علي. المحل والأخوة الغالية وذكرى أبيه. يعود لأبو أميرة. يخبره أن كل شيء ضاع منه. أن حياته في خطر وأنه زهق من كل حاجة. ينفخ أبو أميرة دخان السجارة ويقول بحسم: شوف يا خويا، إنت اتضحك عليك. أنتصب عليك نصبة جامدة أوي. والأخ اللي ينصب على اخوه يبقى مش أخ، (يعيل عليه) يبقى أخ عاوز الموت. صح؟! يجيب علي متردداً، صح، فيواصل أبو أميرة، أخوك هيتقتل يا علي، وهنتقلوه هنا، ف اسكندرية. مش دا الحق بتاع ربنا؟ لا يرد علي، ينظر بعيداً، صوت أبو أميرة وحده هو الذي يتردد الآن، واني مش عاوز حاجة، الورث انت هتورثه، من غير ما حد يكلمك. بس اللي هتاخده يبقى اني لبا فيه. مش هقولك أنا عاوز كذا. الحاجة دي بتاعتك انت. انت تقفرها بضميرك. صح؟ لا

يرد علي فيواصل أبو أميرة بحنية. رد عليا يا علوة. صح ولا أنا غلطان؟ فيأتي صوت علي متردداً وهامساً. صح يا أبو أميرة. صح.

•••

علاقة علي بمصطفى أخيه لم تكن قوية. بعد رحيل والدتهما، عانى علي من تعنت أخيه، الذي رفض دائماً بيع المحل - ولم يكن يعمل ساعتها جيداً - وإعطائه نصيبه منه، حتى في الأوقات الأكثر تازماً لعللي، عندما أحب بنتاً كانت تسكن بجوارهما ورجب في التقدم لها، رفض الأخ الأكبر شراء حصة أخيه من المحل، ورفض الوقوف بجانبه، بل وأكثر من هذا. كان يطلب من علي المرة تلو الأخرى أن يبحث لنفسه عن شقة إيجار جديد لتخلو له شقة عين شمس. يتذكر علي ثناء، البنت التي أحبها يوماً، وهي تحكي له أن مصطفى التقى بها وطلب منها تشجيع حبيبها لكي يبحث عن شقة، أو أن تتعد عنه نهائياً، أو أنه غير ملزم أبداً بأي شيء تجاههما. حتى تهريبه له وإنجي من القاهرة، تتواصل الأفكار السوداء في ذهن علي، لم يكن إلا بهذا الغرض. هكذا أصبح مصطفى مالك الشقة والمحل وكل شيء، هي دي وصية أبوك ليك يا مصطفى؟ يتساءل علي بمرارة وهو يفرد السجادة للصلاة الاستخارة. عندما ينتهي من الصلاة يكون قد ابتسم أخيراً. حمل كبير انزاح من علي كاهله.

•••

أم أميرة في القاهرة. تعود ومعها مصطفى. تجره من يده كالبيهم. يبدو مبسوطاً وهو في القطر معها. يعني نفسه بواحد حلو يعمله ف اسكندرية. في شقة بكرموز تسلمه إلى سوسو، الذي يعزم عليه بمسجارة حشيش. ويسأله عن المحل بتاع الولا علي. مصطفى يشعر بفتح يتم إحكامه حوله. يجيب أن المحل محله ومكتوب باسمه. يعيل عليه سوسو مبتسماً: شوف يا خويا. انت هتقتتل.

انت مش هنا علشان نلعبو مع بعضينا. انا عاوزك تتنازل دلوقت عن المحل.
يون الجرس. يدخل المحامي. مصطفى يكتب تنازله. يخرج المحامي. ينزل
سوسو مع مصطفى. يركبان مشروعا إلى سيدي جابر. القطار قادم. يرميه سوسو
تحت القطار. يعود. بثقة كاملة يخرج من المحطة. بثقة كاملة يتصل بعلي. كل
شيء تمام.

•••

قبل صلاة الفجر. علي يملي ركعتي دخول المسجد. والشيخ حسن يصلي
بعيداً عنه. بعد انتهاء الصلاة يقترب منه. الشيخ فاتح الصحف ويقرأ. ولكن
علي لديه ما يقوله:

- أريد أن أعترف لك بشيء يا شيخ.
- أيوة يا بني. أيوة أيوة.
- أنا إنسان مثقل بالخطيئة.
- ورحمة الله تسع كل شيء يا بني. كل شيء.
- أنا قاتل، سفاح.
- يا بني، كتب عليكم القتال وهو كره لكم.
- لقد قتلت ابن أمي، لقد قتلت ابن أبي.
- (ينهار علي باكياً. الشيخ حسن يطبب عليه. الشيخ حسن يتذكر
مصطفى. زميله القديم في الجيش، ويتذكر واجبه، فيحبس دموعه عنيدة)
- ماذا أفعل الآن يا شيخ؟
- (يصمت الشيخ)
- الحيرة تقتلني يا شيخ.
- طيب، عاوز الكلام الصح. ولا هتزعل؟

- (ينظر له) ماحدث يزعل م الصح.

- كمل طريقك يا علوة. كمل. ربنا اختارك. هنتقوله لأ؟

(ينظر له بعينين ملينتين بالدموع)

- لاء. إوعي. إلا دا يا علوة. إلا دا. أزعل. اسمه سوء أدب مع العزيز الحكيم. نفترض جدلاً مديرك قالك أنا عاوزك تعمل لي وتسويلي. مش هتجري تنفذ أوامره، ما بالك بملك الملوك؟ صح يا علي؟
(يتسلل الإشراق إلى وجه علي. خادم المسجد يؤذن للفجر. الصلاة خير من النوم تملأ المكان. وعلي قلبه يمتلئ بالفرح. يوطي على كف الشيخ حسن ويوسها).

•••

لا أحد يمكنه بالضبط تخمين ما حدث في الأيام السابقة لهذا الحوار. أي بين حادثة مقتل مصطفى وبين اعتراف علي. الأرجح أن هناك شيئاً مخيفاً في نفسية علي. إنجي تططب عليه. توشوش له أن مصطفى يمتاهل. حرامي ويمتاهل. ولكنه غير مقتنع. تهمس له إن الاسكندرانبة كلهم فخورون به. هي تسمع ذلك وتعرف ذلك. وهو أيضاً يسمعه ويعرفه. ولكنه يبكي أمامها. تطلب منه زيارة أبو أميرة. أبو أميرة بيرحك يا علي. روح له يا بابا. ولكنه يؤجل الزيارة يوماً بعد يوم. تدخل إنجي مرة البيت. لا تجده. تدخل البلكونة، تجده واقفاً أمامها يقيس ارتفاع سورها برجله. تسأله بتعمل إيه يا علي؟ فلا يرد. يعود لها بنظرات ساهمة.

لا أحد بالضبط يمكنه تخمين ما حدث في الأشهر التالية لهذا الحوار. أي بعد حوار علي مع الشيخ حسن. بدأ القرش يجري في يد علي، الذي يتحول بالتدريج إلى العلم علي. العُلْمَة ليست بالهدوم، وعلي كان لا يزال يرتدي

القميص والبنطلون. المعلمة تبدأ بالاستقلال. وعلي من زمان كان قد ترك محل الشيخ حسن. وفتح محلاً جديداً وقريباً. ملأه بسيديهات القرآن. باع المحل وقام بتأجير شقته بعين شمس من الباطن. واشترى شقتين مجاورتين في بيت أبو أميرة. بهذا أمكن له أن يأتي بالزباين والنسوان إلى بيته الخاص، وليس إلى شقة صاحب العمارة، مع مراعاة صاحب العمارة بقرشين كل شهر أيضاً. المستقبل مضمون في يد علي الآن. يتبقى الاطمئنان لسلامة الطريق، وعلي قام بتحويل شقة صغيرة بالطابق الأرضي في عمارته إلى زاوية للصلاة. وعين فيها شيوخاً شباباً لتحفيظ القرآن، هذا بالاستعانة بفلوس إنجي التي باعت الدورين اللذين تملكهما في عمارة مدينة نصر بالقاهرة. كانا مصرين أن يبدأ طريقهما من البداية. إنجي تركت الصل وهي تقوم الآن بتحفيظ المسلمات القرآن في الجامع والكمبيوتر والإنجليزي. إنجي وعلي مطمئنان لسلامة الطريق الآن، صحيح أنه لم يتبق لديهما مال سائل كثير، ولكن ليهم كافة الأشياء التي ستقوم بتخليق هذا المال السائل.

طيب، وماذا عن العنصر الثاني للأمة، عن جناحها الخفاق، ماذا عن المواطنين المصريين كاملي الحقوق الذين عرفوا بروحهم الوطنية على مدار تاريخهم؟ لم يتجاهل علي أبداً أقباط مصر. لقد بني كنيسة صغيرة لهم في الشارع. صحيح أنها غير مرخصة، ولكن أحنا لم نجرؤ على الاقتراب منها. علي، القادم من أصول شعبية، لم يُعرف أبداً بتعصبه ضد الأقباط دوماً كان يقول عنهم: "ربنا عز وجل أوصانا بهم خيراً. لأن ربنا بيمهد للمشركين في الحياة الدنيا عشان يعذبهم ف الآخرة، أنا دوري هنا إني أمهد للظالمين من خيرات الدنيا. لغاية ما يتلبوا بعدين". لقد كان الشارع مثلاً ناراً وحقيقاً

على التسامح الديني الذي لم تعرف مصر غيره سوى في العقود الأخيرة. يمكن القول بلا مبالغة أن علي وانجي قد أعادا مصر إلى نفسها.

لم تتغير علاقة علي بأبو أميرة. ظل الأخير هو المعلم والقائد والنيراس. حتى وإن صار علي هو الذي يشغله، بدلا من العكس، كما حدث في الأشهر السابقة. علي بطبعه لا يحب أن يتمريس على حد، فما بالك بمن علمه. حتى هذا يصعب أن نشير إلى تفاصيل معينة فيه. أبو أميرة علمه كيف يلاغي الزباين، علمه إجبار الزبون على الدفع بدون كلمة واحدة، فقط بابتسامة، فقط بنظرة صارمة تعقبها كلمة ودودة. وعلمه ملاغاة الشرايط أيضاً. "الواحدة منهم عاوزه حنية، حتى لو كات كدا، ولو واحدة منهم ناقصة تبقى برضه عاوزه حنية." وعلي وعى الدرس بقوة، دار به أبو أميرة على كل الأماكن، أعطاه تليفونات النسيان. وشرح له أين يجلسن وماذا يفعلن كي يمكنه تمييزهن "بيبان عليهم ياخويا، بيبان عليهم." وعلي يسير وراء أبو أميرة، ويشعل له سجائره أحياناً، لا يخجل، أبو أميرة مثل أخيه الأكبر. من منا يخجل من أخيه؟

أم أميرة: لقد فقد علي من زمن طويل رغبته فيها، وبصراحة، فقد بات يحتقر نفسه لأنه نام معها كم مرة. أم أميرة جدعة وكل حاجة بس ست كبيرة ووحشة. وأنا راجل شاب وعاوز أتمتع بحياتي، كما كان يقول. أم أميرة حاولت أن تجذب نظره لها مرة. إنجي نائمة وهي تتصل به على موبايله. تتدلع، تذكره بكلمات سوية كانت شفرة بينهما (كلمة "الأرنب" مثلاً، كانت اسم العضو الذكري في لفتهما الخاصة). يرد باقتضاب بأن يسألها عن صحة زوجها، فتقرر اللعب بوساخة. يرن جرس الباب ويفتح ليجدها أمامه، وفجأة يثور

البركان: "أنا دلوقتي يعني مابقيتش عاجباك؟ (تشخر) انه يرحم أما كنت بتحاول عليا تلمسني واني مانراضش. أحيه يا معرصين.. علي يحاول كتم نفسها. إنجي تصحو. أبو أميرة يصعد. تنظر أم أميرة لزوجها والدمع يملأ عينها: "الخول اللي انت فتحتله بيته دا بيتريق عليا يا حاج، قال اني وحشة وماستاهلش ببص عليا." ولكن أبو أميرة سع العركة كلها. يمك بها. تظلفص بين زراعيه. ريحة الخمرة تنبعث بقوة من فمها. يزقها على السلم حتى تسقط. يركلها برجله. تتدحرج وصولاً إلى الطابق الأرضي. يقبض عليها بكلتا يديه دافعاً إياها إلى بيته. ترفض الاستجابة. تسقط على الأرض فيمسكها من ياقة جلابيتها ويجرها جراً على الأسفلت، حيث تظل ترفس برجلها. تتمزق كل جلابيتها وهي مسحولة على الأرض. تصرخ بصوت ممرسح وهي مسحولة. تنادي علي، يا متناك، تنادي المنطقة، يا منطقة يا معرصة، فاكريه شيخ، دا وسخ ومدورها بيت دعاة وبتاع عيال.

أم أميرة في الفترة الماضية كانت تتعرض للكثير من النوبات العصبية. ربما يكون هذا هو سبب نفور علي منها. تسكر وتسكر حتى تعمي تماماً ثم تبدأ في الاستهبال. وأبو أميرة يسمع ما تقوله. لم تكن تهمة كثيراً قصتها مع علي. كان يعرف. هي أخبرته، وهو أخبره. ولكن وساخات السكر والفضائح قدام الناس لم يكن يتحملها. ليلة طويلة قضاها أبو أميرة بعد أن استسلمت زوجته للنوم أخيراً. لم يثم لحظة واحدة. مع أنان الفجر قام. توشاً وسار للجامع والماء ينز منه. بعد الصلاة اقترب من علي. نظر له هذا بعينين محمرتين. أبو أميرة عيناه في الأرض. لأول مرة تصبح عيناه في الأرض: "إنت زي أخويا الصغير يا علي. بس المرة دي كلامك هيمشي عليا، اللي تامرني بيه اني هنعمله." علي لا يرد. نظره للناحية الأخرى. يلمح أبو أميرة قطرة ماء تسقط على حمير الجامع. علي

بدمع. يواصل أبو أميرة: "ورحمة أمي الطاهرة إنك أعز عليا من سوسو ومن مادل. وأني مانطيش نشوفك كنا. اللي تأمرني بيه يا علي يا صاحبي." ينظر ملي له. عيناه ملتصعتان بالدموع ولكنهما قاسيتان. صوته صلب. معدني، مقسم ال مقاطع صارمة: "طلقتها يا أبو أميرة. أنا لو شفتها مرة ثانية هقتلها."

•••

لم تنته الفضيحة بطلاق أبو أميرة وأم أميرة. الفضيحة فضيحة، أمام علي. أمام إنجي، أمام أهل المنطقة، أمام الإسكندرية كلهم. غابت إنجي. لا يعرف علي أين ذهبت، ومعها حمادة، الولد الصغير. فجأة اختفيا. تبخرا. أين هما وماذا يفعلان. لا أحد يعرف. الإسكندرية. الذين سبق وقدموا دعماً غير محدود لعلي. كأنهم اختفوا، أصبح الواحد منهم إذا رأى علي يدير وجهه، والزبائن، ليس هناك زبائن، لم يعد هناك زبائن، اختفت الزبائن.

السكندريون شعب حماس. ليس هناك أسهل من استمالتهم، ولكن ليس هناك أيضاً أسهل من خسارته إلى الأبد. وإذا شعر هذا الشعب يوماً بأن من وثق فيه قد خيب ظنه، فسوف ينصرف عنه. ولن يعود. وللحظة خيب علي ظن الاسكندرانية فيه. الشيخ علي الذي بنى الجامع والذي يعيش من فلوس كتاب الله، له علاقة بالسبت النجسة أم أميرة، وبتاع عيال كمان (للدقة، علي أبدأ لم يكن بتاع عيال. لا نعرف من أين جاءت أم أميرة بهذه المعلومة وهي مسحولة على الأرض). الأقاويل كانت تحاصر علي في كل مكان. ويلزم لهذا بعض التوضيح. التفاصيل التي صرخت بها أم أميرة وهي مسحولة لم تكن هي مصدر الإزعاج بالتحديد. الفضيحة هي المزجة: أم أميرة المعفنة نائمة على الأرض وسكرانة وتقوم بإيقاظ كامب شيزار كلها على تفاصيل مثل هذه. ومن هم سكان كامب شيزار؟ إنهم عائلات محترمة في النهاية. إنهم الطبقة الوسطى المظلومة

في حياتنا المصرية. قد تحدث في كامب شيزار بعض الوساخات من وقت لآخر، هذا شيء لا يمكن تلافيه، شر لابد منه، ولكن أن تصيح الأمور بهذه العنيفة، وأن تعلنها امرأة مثل أم أميرة، على مسمع من الأطفال والسيدات والآنسات الصغيرة، فهذا شيء لم يرتضه سكان المنطقة المحافظون. سكان المنطقة يحترمون أبو أميرة، ويقرفون من أم أميرة. أبو أميرة نفسه كان طول الوقت قرفانا من زوجته.

ترك علي شقته وأقام عند أبو أميرة. قال له الزباين مقاطعيني يا ابو أميرة. أبو أميرة قال له إحنا ما بنعملش حاجة غلط يا اخويا. اطلع للناس وقلهم كدا. الناس عاوزة تعرف ف دماغك إيه. وعلي دفن وجهه بين كفيه. لحظات طويلة: طويلة. ثم نظر لأبو أميرة وألقى بمونولوجه:

- تعرف يا ابو أميرة. زمان، أما كات حاجة تحسلي، كنت أقول تلاقبها كابوس. وكنت استريح كدا. بس دلوقتي أنا تعبت، التفكير تعبني، وربنا مش عاوز يفرجها من عنده. دنيا بنت وسخة. أنا قلت هتخلو. بس شكلها ولا عاوزة تخلو ولا حاجة. حتى المرة سابتلي البيت وطفشت. الدنيا بقت صعبة أوي ياخويا.

بناوله أبو أميرة سيجارة الحشيش: شد يا علي. شد، وما تفكرش يا خويا. التفكير بيتعب.

علي يشد. يشد. ينظر فجأة لأبو أميرة وعيناه محمرتان. أحيه. حشيشك مضروب يا سعاد!؟

يضحكان بمنف. يخبطان على الأرض، وعلى الحيطه. يمشان على أربع كالكلاب، يطاردان بعضهما في البيت، يعملان نفسهما سحالي ويحاولان تسلق الحيطه فيقمان، يعملان نفسهم طيور. ويحاولان الطيران. يقفان فوق

الراهبيرة. واحداً وراء الآخر، فيسقطان، فيضحكان، ويركب الواحد منهم على الثاني. ويواصلان الضحك.

الشيخ حسن لم يفد علي كثيراً في أزمته الحالية. الشيخ حسن نفسه كان واحداً من الناس الذين تجنّبوا علي. سلامو عليكم وعليكم السلام وخلص. حاول علي الاقتراب منه ولكنه تفرع بالحاجة للوضوء. وسوسو وعادل ابتعنا كذلك. هذه حالة دالة، سوسو وعادل يعرفان كل شيء عن علي تقريباً قبل الغضبة. ليس مثلاً أنهما انصدما في الملاك الطاهر الذي اسمه علي. ما الذي دفعهما إذن إلى تجنّبه في هذه الفترة؟ عزز هذا لدى علي فكرة أن هناك شيئاً ما. يعني مثل توجيهات، أو أوامر، بتجنّبه، بمحاصرته وعزله. أم أميرة حكومة؟ لقد شغله السؤال لفترة طويلة وهو يلف سجائر الحشيش، وهو يعد بلاطات البيت، وهو يلعب جيمز عالموبايل، وهو يضرب الدبان بالضرب. وهو يفحص الناموس بإيديه. عندما فاض به سأل أبو أميرة إن كانت أم أميرة حكومة فأجاب بأنه لا ينفع أن تكون حكومة.

هل أبو أميرة حكومة، كان هو السؤال التالي.

لا، لم يكن سؤالاً، لقد كان حقيقة. علي كان يحلل كل الأمور وهو جالس في بلكونة شقته. من الذي استقبله بمجرد وصوله من القاهرة، من الذي سهل له كل شيء في اسكندرية، من الذي زقّه لقدام، وكبره، وجعل منه بني آدم (هكذا يؤمن بمرارة على كلمة أم أميرة). من الذي سلط عليه مراته لينام معها. ومن الذي سلط عليه امرأته لتفضحه، ومن الذي يعرف عنه كل شيء، بدون أن يسأله؟ يهرش علي في بتاعه. يتف على الشارع. ثم ينزل ليجلس مع أبو أميرة على المصطبة خارج البيت. يعطيه سيجارة. يولع له. يصمت، ثم يلتفت له

ويقول، انت حكومة يابو أميرة. أنا عارف دا، ومش زعلان منك. بس ليه ماقلتش ياخويا؟ أبو أميرة لا يرد. فجأة يلتفت له ويقول بصوت بطيء، أنا حكومة يا علي؟ بتقول عليا أنا حكومة. علي يبتسم بعصبية. أنا مش زعلان منك. وربنا ما زعلان. أبو أميرة تتصاعد نبرته. يهز علي من كتفه، أنا حكومة يا علي، أنا حكومة؟ بعد كل اللي عملتهولك؟ وعلي يحاول التخلص منه، يرفسه بركبته في صدره وهو ينازع، عملتلي إيه يا رمة يا معفن؟ أبو أميرة يبرك عليه، علي ينقره من عليه ويقف ويزعق: ماحدث عملي حاجة. أنا عملت نفسي. ماحدث له فضل عليا. أنا فضلي عليكو كلكو. صوت علي مرتفع. يصرخ تقريباً. يقف الآن فوق المصطبة، يواصل الزعيق، أنا فتحت بيتكو واللي فاكر نفسه له فضل عليا يوريني نفسه.

كانت أعصاب علي تتجه نحو التلف السريع. لقد بدا فجأة لأهالي الإسكندرية أن الشيخ الشاب الذي منحوه ثقتهم يسير نحو الجنون، وأن أحداً ليس يهديه تغيير هذا القدر.

ولماذا لا تكون إنجي هي الحكومة؟

من الذي ظهر فجأة في حياة علي، بدون سابق إنذار، وأقنعه بالسفر المسعبد. وورطه في جريمة قتل، من الذي استدعى من قلب الماضي قصة ثار لدبمة. وخطط لتحويل علي من بياح ملابس يمشي في حاله إلى مجرم، من الذي كان متحمسا لقرار علي بقتل أخيه؟

صحيح أن إنجي كانت هي من قامت بكل هذا، ولكن لأجل اتهامها بأنها حكومة، يلزمنا بعض التريث أولاً. ولنلق نظرة على بعض التفاصيل.

إنجي امرأة، والمرأة قد تغفر كل شيء، كل شيء، ما عدا أن تُهان كرامتها. ومشهد أم أميرة وهي مسحولة على التراب وتفضح جوزها مزقها من الداخل. لت هدمها وأخذت ابنها الصغير وقررت الانطلاق نحو بيت الحاجة اعتماد. قالت لها يا حاجة يا بني آدم حيوان وما عندوش نظر. تخيلي بينام مع أم أميرة القرعة (أم أميرة مقدمة شعرها خفيفة) في بيتي أنا. في بيتي أنا اللي أنا فتحتهوله بفلوسي. أخذت تططبب عليها الحاجة. قالت لها أشياء من نوعية أن كل الرجالة كنا. وإنجي لم تقتنع. قالت أنها تريد أن تبدأ حياتها من جديد بعيداً عن هذه الوساخة. قالت هذا وانفجرت في البكاء. سكتت الحاجة قليلاً ثم أشارت عليها بشقة في عمارة تملكها في كرموز. ماحدث يختي يعرف حاجة

عن العمارة دي. اقمديك فيها يومين كدا لغاية ما تهدي وربنا يفرجها من عنده.

في كرموز عرفت إنجي نوعاً جديداً من الحياة. بدأت من جديد، صحابة بطيبة أولاد البلد الحقيقيين، الجدعان، الذين ساعدوها على تجاوز محنتها سريعاً. لم تملك إلا قلوب الناس حولها، بعكس علي الذي لم يفقد إلا قلوب الناس. من البداية رجعت إنجي تحفظ الأطفال دروس القرآن في الجامع. بالإضافة إلى دروس الإنجليزي والكمبيوتر. لم يكن المال هو ما تحتاجه بالتحديد، ولكن المستقبل. أرادت الاندماج في المنطقة. أرادت أن تصبح شيئاً، من الناس وإلى الناس.

الحب أيضاً لم يكن بعيداً عنها. الشيخ خالد كان يقوم بتحفيظ القرآن أيضاً في نفس الجامع. كانا يلتقيان بعد صلاة العشاء، هو بلحيته القصيرة وهي بنقابها الذي صارت ترتديه منذ جاءت كرموز. يتمشيان حتى المنشية. يجلسان على البحر. يأكلان نرة، هي تأكله من تحت نقابها، وهو يأكله من فوق نقه، في النهاية، تختلط الغفائيت بكليهما. قماش النقاب وشعر الذقن. يشعران بهذا كنوع من الابتلاء من عند الله، الابتلاء الذي يوحدهما، وإذا صبرا عليه فيكافئهما الله، بأن يجعلهما معاً. كانت الأفكار تتسارع في عقليهما، وينظر كل منهما إلى الآخر. ويبقسم بامتنان.

للعشاق طرق تفكيرهم الخاصة.

إنجي مرت بالكثير، منذ عرفت علي وهي تتبهدل في حياتها، سفر وخلفة ومرمطة وقرف، ولكن جسمها كان مازال كما هو، نار، يتحدى العواصف. وهي أيضاً، برغم النقاب، إلا أنها مازالت تحب الدلع. في طريقة مشيتها، في إمساكها بذراع الشخص اللي جنبها وهي بتعدي الشارع. كلامها

(في عبارات حميمية تمتعلها مع الكل: خلي بالك من نفسك. وحشتني، طمني عليك وحياتك)، وهذه الأشياء كلها يلاحظها الشيخ خالد. ولا يتكلم، فقط تمسك يده وهي تعدي الشارع فيضع يده على كتفها وهما لا يمديان الشارع، ويريد أن يقول لها شيئاً هاماً فيقبض على فخذهما وهما جالسان، وينتهز جلستهما خلف الصخرة على البحر فيرفع النقاب قليلاً ويقبلها على خدها، وهي ترتجف.

في البدء كانت ترتجف فقط، فيما بعد بدأت ترتجف وتبارس. إنجي تحتاج للعواطف. إنجي إنسانة. وما يريد الشيخ خالد ليس حراماً. هو يريد متعة الله الحلال. الاثنان التقيا في الجامع وعلى حب كتاب الله. وخالد عندما يدوسها على خدها (لم تسمح له بتجاوز هذا) يقول لها هامساً، انتي حلالي. وهي أصبحت تمسك يده وتضعها على كتفها، وتتحسس صدره. وتلمس بطرف إصبعها حلمة صدره. إن كانت بارزة، وتقرصها إن لم تكن بارزة، فتبرز، فتلمسها بطرف إصبعها. لا شيء، يمنعها عن تحقيق هدفها.

كلمت إنجي الحاجة اعتماد، أخبرتها بكل هذه التفاصيل. كانت مكسوفة جداً. ولكن الحاجة قررت زيارتها بنفسها في كرموز. ضحكتنا مع بعض كثيراً ثم انفكت عقدة لسان إنجي. هي على نمة علي لا زالت، وتخاف أن تفضب ربنا. ولعت لها الحاجة سيجارة حشيش، وأخذت تسمعها، أنا مش هاكذب عليك يا حاجة، أنا بقيت أخاف أغضب ربنا، والإنسان مش معصوم من الخطأ، الشيخ خالد بيحاول طول الوقت. وأنا مش عاوزة أخد خطوة لغاية أما اتكلم معاك. الحاجة اعتماد تسمع بجدية شديدة. ثم تسألها عن موقفها من علي. أنا هطلب الخلع منه. دا يعتبر قواد يا حاجة، غير انه كان بيخونني. والحاجة تسمع. ثم تقول، وانت ياختي هتفضلي حارمة نفسك لغاية ما

المحكمة تقول تخلمي ولا ماتتخلميش؟ لا ترد إنجي، تميل عليها الحاجة. اهتمي بنفسك شوية يا إنشي. ربنا عالم انك زي اختي الصغيرة. والشيخ خالد راجل طيب. ومش بتاع غلط

قلب إنجي يشرق بالفرح. النصيحة تأتيها من أعز الناس على قلبها الآن. في المرة القادمة، عندما يهمس لها الشيخ خالد بأنها حلالة، ستنظر في عينيه بشغف. تسأله، فعلاً؟ يبتسم بطيبة. ويبوسها على رقبتها، فتسمح له أول مرة بقبلة في الفم. لا، ليس الموضوع إنها تسمح له. هي التي تبادر. هي التي تنفض على شفتيه فمقصهما. هي التي تدخل لسانها داخل فمه. هي التي تعض لسانه عندما يحاول التسلل، هي التي تلحس بعضاً من لعابه، وتمرر بعضاً من لعابها على لسانه. هي التي تشير للمشروع. وتقول خالد إلى شفتها في كرموز.

البهدلة والحرمان الطويل جعلتا إنجي تهيج على أي شيء. حتى لو كانت كلمات الأغاني، حتى لو كانت كلمة مثل التي قالها الشيخ وهو يبوس حلمة صدرها وينظر لها هامساً: "عاوز أزي بيكي". أو وهو يعضا عضاً خفيفاً في رقبتها، وهو يخربشها في ظهرها. كل هذه الأشياء كانت تهيجها أكثر أمام القادم الغريب. وفي النهاية، تمسك بميايته. تمررها على حلمتيها المنتصبتين بشدة. تقول له هامسة شوف عملت فيا إيه. وهو يهيج أكثر وأكثر. وهو فوقها يقول لها لاهناً إنه سيقسمها نصفين. فتهيج أكثر. تمسك هي قضيبه وتدخله بنفسها. لا تستمتع تماماً. أثناء غيابها عن علي، وبعد مرحلة النقاب، لم تستلم إنجي للعذرية التامة. لقد أدمنت العادة السرية. أدمنت يعني أدمنت، صارت تفعلها خمس مرات أو أكثر في ساعة أو ساعة ونصف.

هذا الأمر هو ما عطلها عن الاستمتاع المطلق أول مرة. يمكن القول أنها لم تصل. استمتعت في البداية ثم استعانت بأصابعها، بجانب قضيبه، ثم توقفت

متعتهها تماماً. بدأ الأمر يتغير مع المرة الثانية والثالثة، حتى استطاعت الاستغناء عن أصابعها تماماً. ولاحظت أن خالد هو أيضاً قد استغنى عن أصابعه. لأن كل تجارب خالد الجنسية من قبل. وهذه معلومة نقولها الآن للمرة الأولى. لم تكن إلا ضرب عشرات.

المهم، هذه كانت الليالي الأولى للمحبين، ومثل أي ليالٍ أولى، لا يفكر فيها أحد في مستقبله، الحكاية دائماً تكون في الدلع والحنن والمنى. ومشكلة الليالي الأولى الوحيدة أنها تمر. وأنها لولا أنها تمر لما كان اسمها الليالي الأولى. ربما كان يصبح اسمها الليالي الوحيدة. الليالي الرهيبة. الليالي العربية. المهم. الليالي الأولى مرت، واختفى الشيخ خالد.

بحثت عنه إنجي في كل مكان. اختفى من الجامع، من المنشية، من كرموز. من اسكندرية كلها. سألت الحاجة اعتماد فأكدت أنها لا تعرف شيئاً. أوشكت على الجنان. قرضت أظافرها. وقطعت شعر رأسها، وعندما شاهدته لأول مرة بعد ثلاثة أسابيع يركب الترام هجمت عليه، همست في أذنه إنت فين يا خالد قلقتني عليك، وأبعدها هو عن طريقه. واصلت الهمس. أنا إنجي. فأبعدها بقوة، فرفعت النقاب حتى تؤكد له أنها إنجي، فزقها بعيداً، وركب الترام.

حكيت إنجي القصة كلها للحاجة اعتماد. الحاجة فكرت قليلاً. ثم نادت منة بنتها. استمعت لها منة باهتمام، وبدافع من الامتنان لتلك التي علمتها الإنجلش في شهور قررت اتخاذ موقف. دخلت على إيميل الشيخ خالد. أضافته. وتكلمت معه طويلاً، سهرت ليالي وليالي تتحدث معه. وصرة في مرة في مرة طلب منها أن تركب الكفرة، وبعد تركيب الكفرة طلب أن يراها، وبعد أن رآها

ورأته، ويعد أن بدأ يكون عن نفسه فكرة أنه المونجوان الأول والآخر، طلبت منه الطلب الحاسم: أن يوصلها للقطر. ستزور خالتها في دمنهور.

في المحطة يقفان وحدهما. تظهر إنجي من الفراخ. تسلم على منة. يتظاهر بعدم معرفتها ولا يجرحها هذا. بعد قليل يحاول الانسحاب. عنده ميعاد. ولكن الأوان يكون قد فات. القطار قادم من خلفه ومن خلف منة. إنجي تلاحظه. بركة واحدة يرقد الشيخ خالد أسفل القطار. بركة واحدة يتحول إلى لحمة مغرومة. تمضيان، منة وإنجي. خارج المحطة. الناس مرعوبة. الصراخ يتصاعد. والكل يفسح لهما الطريق. منة مرعوبة وأنفاسها مكتومة. أول مرة تفعل شيئاً من هذا النوع. وإنجي تخطت هذه المرحلة من زمان. إنجي فقط موجوعة. إنجي تذكرت قتيل محطة القطر برميس فجأة. تذكرت علي. إنجي يقتلها الحنين. تفرقض أظفارها طول رحلة العودة. الحنين يدفمها لقرقصة الأظافر.

مع الوقت بدأ موضوع الشيخ خالد ينكشف. أهل الإسكندرية الطيبين لم يعرفوا الفاعل. لفوا حول أنفسهم وداروا وسألوا وتشككوا واحتاروا، ولم يعرفوا الفاعل، حتى تطوعت الحاجة اعتماد بنقل الخبر إلى بواب عمارة كرموز، وبدأ الشعب يلعب لعبته.

جزء مهم من التمرد السكندري على مر الأيام لم يكن ضد السلطة فحسب، بل ضد الظلاميين أيضاً. شعب الإسكندرية مستنير بطبيعته. ويكفي على هذا مثال واحد: الكرنقينا. في الواقع فلقد ظلت هذه المنطقة بحي القباري غرب الإسكندرية، منذ أن كانت معسكرات للإنجليز. بؤرة مهمة لتمرد السكندريين على الأصولية التي كانت تجتاح المجتمع شيئاً فشيئاً، فلقد تركز بها، قبل

الثورة، بعض السكندريين من عملاء الإنجليز، الذين كانوا يشاهدون تنامي حركتي الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، والذين اختاروا مواجهتهما بديمقراطية الحلفاء. فباعوا واشتروا، ونقلوا أخباراً ومعلومات للإنجليز، وتحقق هدفهم في النهاية. انتصر الحلفاء وانتهت الحرب بإسداد الستار للأبد على النازية والفاشية وشموليات القرن العشرين. في نفس الوقت، وبشكل مفارق، فلقد أسدل الستار أيضاً على تواجد البريطانيين بالشرق الأوسط قامت الثورة ورحلوا. الثورة حولت مساكن الكرنيتينا إلى مساكن إيواء. وبالقرب من مساكن الإيواء هذه نمت الأسطورة الحقيقية للكرنتينا، عشش صفيح، دكاكين، مطاوي وسنج ومخدرات. فقراء الإسكندرية قرروا السكنى هناك، والاندرج في منظومة مصرية واسعة تسمى العشوائيات.

العشوائيات اسم ظالم بالطبع، فهذه المساكن ليست مجرد مساكن لمن هم تحت خط الفقر، وليست مجرد مساكن للمجرمين وأصحاب السوابق. هذه "العشوائيات" تقوم بدور مهم في التمرد على سلطة وقوانين المجتمع المصري المحافظ، والذي تتسرب إليه شيئاً فشيئاً عادات وهابية وأصولية لم يعتد عليها. بتركز الجريمة فيها، وتركز عادات فوضوية مثل شرب الخمر وتدخين البانجو والبلطجة، أمكن لسكان "الكرنتينا" مواجهة القيم المحافظة، والهابية أحياناً، للطبقة السكندرية الوسطى. هكذا كانت الضربات تتوالى على يد أهل الكرنيتينا إلى الحليفين، السلطة والتيار الأصولي الزاحف. وهذا لم يكن مرضياً بالطبع للنظام القائم. ثم هدم عشش الكرنيتينا في خطوة عنيفة من المحافظة قامت بها في أوائل الألفية الجديدة، وتم إحلال مجمع مدارس بدلاً منها. تشرذم الأهالي في كل مكان، ولكنهم ظلوا يحملون في قلوبهم أسطورة الكرنيتينا وحلمها الجميل: مجتمع سكندري فوضوي يتحدى النظم السائدة.

على الناحية المقابلة. كان الشيخ خالد نموذجاً مثلاً لكل ما يكرهه
 الإسكندريون. أنهى دراسته بكلية دار العلوم بالقاهرة، ثم سافر إلى
 الإسكندرية، مع أفكار متطرفة استقاها من مدينة الألف مائة. التزم فوراً
 عاد. ربي ثقته. حرص على ارتداء الجلباب الأبيض طول الوقت، وفوقه سويتر
 في الشتاء. والسواك بجيبه الأعلى. في البداية. انتظم للصلاة في الجامع، ثم بدأ
 في تحفيظ القرآن، إلى هنا والأمر طبيعي، إنجي مثلاً تفعل هذا، ولكن ما لم
 يغفره الإسكندريون أبداً هو اعتراضه المارة في الشارع ودعوتهم للصلاة في المسجد،
 وتضمن خطبه التي يلقها يوم الجمعة عبارات ذات طابع أصولي متطرف.
 وعندما يعترض واحد من أهل المنطقة يتحدث عليه الشيخ خالد، وسلاحه دائماً
 هو قال الله وقال الرسول، وهو ما كانت تنفيذه الطبيعة المتسامحة لأهالي
 الإسكندرية. الذين بدأوا في التوجس من هذا الغريب القادم من القاهرة.
 وحاولوا إيقاله عند حده، ولكنه كان يتعمق، ومعه يتعمق شبح الإسلام
 الأصولي، والضحية دائماً هي الشعب.

لكل هذه الأسباب، فلقد تحولت إنجي، بعد معرفة الجميع بقتلها
 لخالد. إلى بطلنة من نوع خاص. وبدأت عبارات التحية والتقدير تنهال عليها في
 كل الشوارع التي تتحرك بها، وهو الأمر الذي لم تجربه سوى مع علي، قديماً،
 في حياتها السابقة التي تركتها في كامب شيزار. لا يدعها أحد تحاسب على
 شيء، والأهالي يدفعون بأطفالهم إلى دراسة القرآن والإنجليزي والكمبيوتر
 عندها في الجامع، هي مطلوبة بالاسم الآن، وهدايا صغيرة تصلها في كل مكان،
 بالإضافة إلى هدايا كبيرة وهدايا متوسطة، وطلبات أيضاً. مثلاً، البلدية لت
 بضاعة أحد الباعة على رصيف سعد زغلول، مش عاوزين نضايك يا شيخة
 إنشي، اللي ربنا بتدرك عليه اعمله. والشيخة إنشي تذهب بنفسها للنقيب

عمرو. تكلمه بالحسنى. تقول له إن العيل اللي خد بضاعته يخصها. فيقول لها
ماحنا كمان عاوزين نشتغل يا شيخة. فتقول له اشتغل في أي حطة، بس وعزة
الله لو قربت من حطتي يا حطة نقيب بشخة لآكون باعتاك على سيدي جابر
دوغري. يخاف الضابط من تلميحها له بالقتل. تعود البضاعة لشارع سعد
زغلول، ولأيام طويلة تخف قبضة البلدية على الباعة هناك. لسنوات بالأحرى.
طبعاً هذا لم يكن ما حدث بين إنجي والنقيب عمرو. ولكن هذا كان ما تناقلته
الناس. ما حدث بالضبط لا أحد يعرفه حتى الآن.

طبيب، خفة قبضة البلدية على شارع سعد زغلول كانت له نتيجة أخرى
مباشرة. واحد من الباعة الدائمين هناك هو عادل. أخو أبو أميرة. كان من أكثر
الناس حماساً لترويج الرواية السابق ذكرها بخصوص ما حدث بين إنجي
والنقيب عمرو. همس بها لكل زملاء المهنة. وزملاء الدماغ. ولكل أقربائه،
ولأبو أميرة، حتى وصلت إلى علي. علي كان ما يزال حتى الآن يلف سجائر
الحشيش. ويعد بلاطات البيت، ويلعب جيمز عالموبايل. ويضرب الديان
بالمضرب. ويقصص الناموس بإيديه.

عادل نفسه زار الشيخة إنجي. قال لها إنه ليس طرفاً في المشكلة بينها
وببين علي. قال لها إنه في البداية كان منحازاً لعلي. لأنه كان صاحبه، ولكنه
الآن منحاز لها ويشرفه أن يكون صبي من صبيانها. إنجي كانت حاسمة، علي
دا اللي أنت بقول عليه يا بابا اسمه الشيخ علي. ويبقى جوزي وأبو ابني
الصغير، وعمره ما كان صاحبك، ولا كان بماحبك، علي صاحبه أبو أميرة.
صمت عادل مكبوساً. واصلت هي. شوف يا عادل، بلغ زملائك انهم أهلي،
وانت زي اخويا الصغير. أي حاجة تحملهم أنا موجودة. تربت ربطة خفيفة

على كتفه، فيكاد يدمع. يعود لكاتب شيزار. لا يحدثهم هناك عن شيء. يكتب الموضوع بداخل نفسه. ويبدأ نور الروحانيات في الشروق بداخله.

تجلس إنجي مع ابنها حمادة كل يوم، تحفظه القرآن، تكلمه عن تاريخ عائلته. تكلمه عن أبيه، وحمادة يفهم الكلام، عمره سنتان الآن باسم الله ما شاء الله، تقول له إنها هنا بسبب يوم بعيد، بعيد جداً، حدثت فيه حادثة بعيدة. في بلد اسمها سيدي جابر، الحادثة اسمها أخ يقتل أخوه، ثم تستدرك وتقول لا، الحادثة حدثت في بلد ابعد، اسمها القاهرة، واسمها رجل ينتقم لشره. ثم تستدرك الاستدراك الأخير وتقول. يا أخي البلد اسمها الصعيد، والقصة كانت تار. وحمادة الصغير يضحك ويقول جملاً مكسرة، وتمسكه هي وتبوسه في كل حنة في وشه، يا خلاصي أنا دلوعة ماما أنا.

•••

البيزنس ابتداءً. عرفت الحاجة اعتماد على مدام نادية، امرأة هاي كلاس من كرموز، لديها قرشين وتريد استثمارهم. نصحتها الحاجة اعتماد بافتتاح انجليش وكمبيوتر سنتر. المكان في الدورين اللي تحت من عمارة الحاجة. والإدارة تترك لإنجي، هي تفهم في هذه المواضيع. رحبت إنجي بالفكرة. إنجي لم تنس ماضيها أبداً كإنتلجنسيا، ووجدت في هذا فرصة للعودة إلى الماضي البعيد. ومدام نادية كانت سمعت عن امرأة جديدة في كرموز وفي اسكندرية كلها تصعد بقوة، والناس تتكلم عنها بين وقت للثاني. قررت الجلوس بنفسها معها. وإنجي عادت لطبيعتها الأولى بشكل تلقائي. تخلط بين الكلمات العربية والإنجليزية بلكنة أمريكية. مع الحرص في نفس الوقت على ألا تبدو ابنة امبارح. إنجي أعجبت مدام نادية. قرت الفاتحة وقالت مبروك.

مدام نادية كان عندها تحفظ واحد: النقاب. كلمت إنجي في هذا فابتسمت الأخيرة وقالت إنها ليس لديها أية مشكلة مع الأخريات، سواء كنّ بنقاب أو بحجاب أو حتى نيكبد تماماً، مادام أن ذلك نير فري تشويس، انا بالنسبة لي يا مدام نادية مش مهم الواحد أو الواحدة تلبس إيه، فعلاً إت نزلت مائر بالنسبالي. اللي بجد مهم هو قد إيه الواحد مقتنع بلبسه. أو مستريح فيه. صديقي الشخص ممكن يفرض نفسه ولبسه على أي حد وف أي مكان، طالما فيه سلف كونفيدننس. إنجي استطاعت فرض منطقتها على مدام نادية، لأن منطقتها كان محملاً بالكثير من السلف كونفيدننس.

استلمت إنجي إدارة المركز، وعلى حسها تقدم كثيرون وكثيرات للدراسة هناك. أعجب هذا مدام نادية، التي تذكرت أنها لم تعرف عن إنجي الكثير، فسألت. أخبرها البعض بأشياء، ولكن المعلومة الهامة تأخرت قليلاً: إنجي قاتلة يا مدام نادية، إنجي قتلت في مصر وقتلت في كامب شيزار وقتلت في كرموز، والله أعلم بالباقي. هذا الكلام لم يقل بفرض التشفيغ، وإنما بالعكس، بفرض التباهي بابنة كرموز. ووصل الكلام إلى المدام بهذا الفرض. زارت إنجي في مكتبها. كانا في نهار رمضان. أشعلت سيجارة. إنجي لم تعقب. المدام هي التي عقبته: "السجاير مابتفطرش يا إنجي. هو كان فيه سجاير أيام الرسول علشان تبقى بتفطر؟" سكتت إنجي. قامت المدام، أنا عاوزاكي في مشوار معاها يا إنجي، هنرجع على طول ماتخافيش.

المدام قادت إنجي بالعربية إلى بيتها بغيط العنكب. شقة تملكها بالطابق الأرضي. دخلتها. معتمة قليلاً. المدام تسير وإنجي وراءها. لا ترى جيداً المدام تفتح باباً في ركن بعيد (يخيل لإنجي أنه بعيد) وتدخلان. الغرفة بالداخل أكثر إعتاماً. إنجي لا ترى شيئاً تقريباً، برغم النهار. تسمع خشخشة خطوات المدام

فقط في يمين الغرفة، تسمع نحنحتها. ينقطع الصوت تماماً. إنجي تريد المناواة عليها ولكن صوتها يروح. وترتبط في ذهنها الحقائق. قتل الشيخ خالد. مدام نادية تنتقم، بعيداً عن كل شيء، في غرفة مظلمة لا أحد يعرف عنها شيئاً. فجأة تسمع صوتها، من أقصى اليسار. إنني يمكن ما تعرفيش حاجات كثير عني يا إنجي. بس اني نعرفو عنك كل حاجة. ماتتكريش انك اشتغلتني معايا علشان عجيني كلامي معاكي. انتي اشتغلتني معايا علشان كلام الناس عنك. قلت هي دي اللي انا عاوزاها معايا. بس انتي لازم تعرفي حاجة الأول.

“يا إنجي انتي مابتسألش على حاجة أبداً. كُتي اسالي ياختي. كنت نفيدك. فيه ناس كثير قبلك حاولوا يعملوا اللي بتعمله دا. بس ما توقفوش. الحاجات دي بتاعة ربنا يعني، هو اللي بيوقف عبده أو مايبوقوش. خدي بالك ان دا ممكن يبقى ابتلاء كمان.”

“شوفي يا بنتي، انتي صغيرة. الحكاية اللي هاحكيمالك دي ادبها عشرين سنة. كتي انتي عيلة اما حصلت. ومأحدش يعرف حاجة عنها ولا الجرايد كتبت عنها، ولا جت ف التليفزيون.”

“الحاجة اعتماد اللي انتي تعرفيها دي، واللي انتي شايفانا أصحاب وحبايب مع بعض، دي كانت ضرتي ف يوم م الأيام. وكنا مانطيقوش بعض خالص. بس الزمن بيمر يا إنجي يا بنتي. الزمن بيمر. معقول نبقى ستات كبار وعاقلين ونتعاركوا علشان راجل. مش معقول طبعاً.”

“الراجل مش غريب يا إنجي. هو مات دلوقتي أديله خمستاشر سنة. انتي يمكن ماتعرفيهوش. بس تعرفي اخوه. الشيخ حسن. الراجل اللي فتح بيتكو اول ما جهتو اسكندرية. راجل طيب، مش كدا؟ واخوه هو اللي ولع اسكندرية من عشرين سنة.”

شخص غامض، يرجح أن أصله يعود إلى الصعيد. ظهر في سماء كوم الشقافة. اسمه محمد حربي، ولم يعرف إلا باسم حربي. لم تعرف عنه حرفة معينة. قيل أنه مجنون. وصحيح، كان يقوم بأشياء غريبة. بدأ بأفعال مبررة، بثبت شخصاً بسيف ويأخذ ما معه، يتعارك مع صاحب محل فيعود بالليل مع أصحابه ليحرق المحل بالبنزين، يعتدي على قاصرات، وغير قاصرات. كل هذه الأشياء معروفة، ومعظمنا مارسها بشكل أو بآخر في طفولته. ولكن الجديد هو الأفعال غير المبررة. يعني. في عام ٩٢ وقف حربي في منتصف طريق الكورنيش بميامي، ويده كرسي بحر، فرشه على الأسفلت وجلس ينظر للسيارات القادمة باستهزاء. تفادته السيارات بأعجوبة. استوقفه أمين شرطة وحاولا جذبه بالقوة إلى الرصيف. أخرج بسرعة سيفاً من تحت الجلابية، كان يربطه حول وسطه. ولوح به بقوة فجرح نراع أحدهما. تراجع الاثنان، وهو ما كان كافياً له ليجري، برغم الإعاقة الخفيفة في قدمه، ويلتقط مشروعا من على البحر ينقله إلى الشاطبي. هنالك فرش كرسيه، في نهر الطريق أيضاً. خمس دقائق وزهق. طوى الكرسي وعاد.

لمن لا يعرف، لمن لا يذكر، فالإرهاب كان يجتاح مصر في هذه الأثناء، ولذا فقد أمكن إلصاق تهمة الإرهاب بمحمد حربي. وذلك لأن حربي قد تخصص أيضاً في أمر آخر، إطلاق سراح البهائم من الحجر الصحي، قام بهذه العملية مرتين، على رأس رجال من كوم الشقافة. حرروا البهائم وسلموها للتجار الذين قادوها بدورهم إلى العامرية للإتجار بها هناك. قيل عن البهائم إنها موبوءة، ولكن حربي كان له رأي آخر، البهائم بتخش الحجر الصحي سليمة وبتطلع عيانة. وانقائاً لها من هذا المصير، قام بعملتيه. على العموم، في هذا الوقت كان حربي قد أصبح إرهابياً في عين الحكومة، وليس بعد الإرهاب نذب.

في الوقت يا يا إنجي كان اتعرف على مراته الأولانية واتجوزها. اعتماد
اللي انتي عارفاها. بس ما استريحش معاها. وأنا كنت اعرفه من بعيد. بيني
وبينك يا إنجي يعني كات عيني عليه. وهو كمان كات عينه عليا، وكان بيلمح
لي بين وقت والثاني. بس مارضيتش ندخل بينه وبين مراته.

هو تعب مع مراته خالص. وأنا قلته بسببها، عشان ماتتعيش معاها
كمان، بس هو قال لا، اتجوزك وافضل متجوزها كمان. انا بيني وبينك كنت
صغيرة. وكنت ملهية ف الدنيا. والناس كلها كات بتتكلم عن حربي، كان زي
زعيم ف كوم الثقافة. المهم وافقت. وقلته اوعدي يا محمد تطلقها، فقالي
أوعدك.

هل كان محمد حربي مجنوناً؟ لا أحد ينطق بهذا، وإن كان الكثيرون
يعتقدون به. على العموم، ليس هذا وقت محاسبته. المهم أن كثيرين آمنوا به،
وأن كثيرين اتبعوه، وأنه شكل لسنوات (صحيح أنها معدودة. ولكنها مؤثرة)
أسطورة الإسكندرية وفكرتها عن ذاتها. الشخص الذي تحدى الحكومة، والذي
قاد واحدة من أكبر الحركات الاحتجاجية العنوية التي يقوم بها فرد واحد
(غير متعلم، غير منظم. غير ذي خبرة بالحركات الاحتجاجية). الشخص
الذي لم يهدف نشاطه الأساسي لا إلى مال أو نساء أو انتقام وإنما إلى مواجهة
السلطة وتحدي فكرتها المستقرة عن نفسها. هنا هو التاريخ الحقيقي
للإسكندرية.

ودا يختي اللي لازم تعرفيه. ما انتي لو فردتي صدرك كدا وانتي مش
عارفة حاجة مينفمش. انتي عشان تكلمي اللي عمله عمك حربي لازم تعرفي ايه
اللي عمله الأول. مش كدا؟ وانتي متعلمة وتعرفي لغات وان شاء الله ربنا
هيجيبلنا الفرغ من عندك. لهذا. أضافت الدمام، فإنجي هنا، في الغرفة

الشخصية لحربي. بين متعلقاته، بين سيوفه ومطاويه، -الأوذة دي إن شاء الله تبقى من نصيبك، أو من نصيب الناس القريبين ليكي. بس لو عجبتيني يا إنجي، وأنا عارفة انك مش هتخبيي أملي فيكي.

مشهد مقتل محمد حربي كان من أهم المشاهد في التاريخ البصري للإسكندرية: "هو كان زي ما تقولي الحكومة بتدور عليه وهو بايت عند واحد صاحبه. ف الشبان السلمين. طلع مرشد بعد كدا. هقولك دلوقت أنا عرفت منين. اني مابنجيش على حد. صاحبه دا استغره. قعد يسم بدنه ويقوله انت مابقيتش حربي بتاع زمان وقاعد ف البيت زي الحرير عشان خايف م الحكومة. حربي كان دمه حامي، ماستحملش، ربط السيوف على وسطه ونزل الشارع. أول ما نزل لقي العساكر والظباط ف الشارع. أتاريهم كانوا عامليناه كمين ومتفقين مع صاحبه دا. الراجل جري وتغه يجري لغاية اما وصل شارع فؤاد، عدى الشارع وهو بيجري، اتاري كان فيه عربية مستغناه هناك. طلعت العربية وخبطته."

تصمت دقيقة: "عارفة يا بت يا إنجي. جسمه زي اللي لزرق ف العربية. والعربية تنها طالعة لغاية ما قابلتها نص نقل جاية من شارع تاني، العربيتين لبسوا في بعض." تصمت طويلا. الذكرى أليمة. لا يحتملها إنسان. مشهد جسد محمد حربي وهو محشور ومتطبق بين العربيتين. شيء آخر تتذكره المدام، نداء طويل، درامي، اقترن بلحظة الموت، نداء "ولا يا حربي"، الباء ممدودة، وطويلة، حتى يأخذ الصوت في الخفوت، "ولا يا حربيييي"، في نهاية النداء يلتفت حربي، ويجد موته أمامه. من صاحب هذا النداء، صاحب السيارة البيجو، صاحب النص نقل، عسكري كان ينتظره أسفل البيت، وفي أية لحظة قيل. والأهم، كيف تتذكر حتى هذه اللحظة نبرة العبارة، مادامت لم تشهد

الحادثة. وإنما سمعت عنها. "ولا يا حربي" مذنبه ومحذرة. "ولا يا حربي" معيبة ومقاتلة. "ولا يا حربي" غامضة، مقطوعة من كل السياقات المحتملة. "ولا يا حربي"، بباء معدودة، باء معدودة بفاء.

الهواء يصفق الشيش فجأة، ينفث الشيش. سحب من التراب بين ثنياته تجتاح الغرفة، والأهم من التراب، النور، تمتلئ الغرفة بالشمس، تنكشف تفاصيلها، إنجي تكح كحة خفيفة، ثم تنفخ عينيها، سيفان طويلان معلقان على الجدار، ومدفع آلي، وطبنجة تسعة مللي. وعدد من المطاوي مفروزة في الخشب المشقق لسطح المكتب. مدام نادية في أقصى اليسار، جالسة، تبكي. تمسح دموعها بأصابعها، تمسح بربورها وتلقيه أرضاً بسبابتها وإبهامها. الأرض مليئة بالدموع وبالمخاط.

مركز "إنجي سنتر" يستقطب زبائن جدياً يومياً، زبائن للدراسة. وزبائن للعب الجيمز والثات في السايبر الصغير، وزبائن للحب. غرفة صغيرة بالطابق الثاني من السنتر بدأت ككافيتيريا متحررة نسبياً. من ناحية السماح بحركات وأوضاع معينة بين الشاب وصاحبه. ثم متحررة بشكل واضح، ثم بشكل مطلق، حتى انتهت إلى شقة كبيرة مخصصة للسكس. لم تخط إنجي خطوة واحدة غير محسوبة، كله بمعرفة الحاجة اعتماد مدام نادية. بدأ التفكير في هنا المشروع بالتزامن مع تعرف إنجي على قصة محمد حربي، أي في عز رمضان. لم تمنع الحاجة اعتماد، فقط أرجأت التفكير في هنا إلى ما بعد رمضان. وكذلك مدام نادية. إنجي وحدها كان الحماس يقاتلها. أخذت تفكر وتحسب وتسترجع تاريخها القديم مع علي في بيت كامب شيزار. قالت للمدام إنها تريده شيئاً مختلفاً، محترماً. ليس مثل الأماكن المفضلة الموجودة حولهم. "زبوننا راقبي،

واحنا كمان لازم نبقي راقيين. رداً على هذه الجملة أعلنت مدام نادية موافقتها الحاسمة. الطموح القديم للمدام كان الخروج من كرموز. مرت السنين، وكونت ثروتها. ولم تستطع الخروج، وتبدل حلمها القديم: أن تقوم هي بخلق كرموز جديدة. تنتشر المايبرات والكافيهات في أنحاءها. يدرس جميع أبنائها وبناتها إنجلش وكمبيوتر. في الواقع يمكننا فهم الكثير من شخصية مدام نادية إذا فهمنا هوسها بالتحديث (modernization)، وإنجي استطاعت فهم هذا. ودخلت لها من مدخل زبائن الهاي كلاس الذين سيتردون على السفر بفضل الشقة الجديدة. "عرب وظباط جيش وشرطة. انا اعرفهم من أيام كامب شيزار". اهتمت مدام نادية، واهتمت الحاجة اعتماد. وواصلت إنجي صعودها.

موضوع حربي نسي تماماً. لم تعد المدام للحديث معها عنه. والحاجة اعتماد أشارت إشارة واحدة له. سألتها إن كانت نادية كلمتها عن حاجة فسكنت إنجي. ألحت الحاجة. سألتها بمراحة إن كانت حكمت لها قصة حربي فأومات برأسها. واصلت الحاجة، هو كان عشيقها، ماكانش جوزها، المرحوم ماتجوزش غيري، ولا خلف غير منة بنتي. لو سألتها مش هتذكر، هي بس بتتكشف تقول لا.

لفترة طويلة كانت هذه هي الإشارة الوحيدة لقصة حربي. ولكن إنجي لم تنس، حلمت به ذات يوم. كان يتقدم جيشاً طويلاً من البشر. بذقن سواء وشعر رأس خفيف، يصرخ بعنف كما يفعل راسل كرو في أفيش فيلم المصارع. من ضمن أفراد الجيش كانت البيت غادة، واحدة من البنات اللاني يعملن معها في السنتر. تراها غادة فتلوح لها فرحة، ثم تأخذها من يدها لتعرفها بحربي. تصحو إنجي عرقانة. تجفف عرقها وتبتسم. تكلم غادة في التليفون. تقول لها

إنها وحشتها. إنجي دائما حريصة على علاقتها بالعاملات معها. لا تسميهن شراميط، وإنما تيتشرز، أو ويترز، حسب وظائفهن الأصلية. وهذه الأشياء تفرق. هذه الأشياء تفرق كثيراً.

وحلم آخر متكرر: هي وعلي جالسان في بيتهما القديم بكامب شيزار. علي يلاعب حمادة، يناغيه ويطعمه إصبعه، وينظر لها، ويبتسم. فتبتسم هي وتقوم إلى غرفة النوم. يلحقها، يلاعبها ويداعبها، وتمتجيب هي، وتبدأ في الابتلال، تصحو قبل أن تصل. تعزي نفسها بأن التعب من أجل الوصول للشيء أفضل من الشيء نفسه. ومستعينة بمشاهد الحلم، تمارس عاداتها السرية اليومية.

في الليلة التي تلت مقتل حربي رأت اعتماد، زوجته. كابوساً. كانت تسير في طريق يشبه القبو. القبو مليء بالمشايخ الذين يقرأون القرآن على جانبه. نظرت لأحدهم. كانت عيناه معلقة بحجره. رفع لها وجهه فجأة. كان أعشى. عيناه كانتا مفرغتين تماماً. لدرجة أنه أدخل إصبعه المسبابة في تجويف عينه اليسرى وأخذ يضحك. فمه كان بلا أسنان وانكشف الآن. حاولت اعتماد الركض بعيداً، ولكن القبو كان ضيقاً، بالأحرى، أصبح ضيقاً، وواطئاً، اكتشفت فجأة أنه عليها الانحناء، فانحنيت. شيخ آخر كان يقرأ -قل أعوذ برب الفلق-، وأخذ يكرر كلمة "الفلق" بشكل هستيري. والقبو الضيق والواطن كان يردد صدى صوته. وجدران القبو تحولت إلى جدارية ضخمة. جدارية مرسومة عليها أعضاء بشرية، أذرع وخصلات شعر ودماء وسيقان، وأعضاء تناسلية، ذكرية وأنثوية، والأعضاء التناسلية تنتشر حتى تصبح لها الغلبة، وعبرة -ولا يا حربيبي- تتردد. في كل مكان تتردد، واعتماد تعي الآن أنها تحلم، وتحاول

الاستيقاظ ولا تستطيع، تحاول هز ذراعها وساقها وجسمها كله مخدر. "ولا يا حربي". ولا يا حربي" ويد تمتد لجسمها، يد واحد من المشايخ. تهب مغزوعة. مئة ابنتها توقفها، تهز كتفها. مئة تهتف بيأس "يا ماما اصحي".

الأيام التي أعقبت مقتل حربي كانت كارثية بالنسبة لاعتماد. استلمت للاكتئاب. رفضت الأكل والشرب ولم تفعل شيئاً سوى تقطيع شعر رأسها في حركة عصبية، وشم الكوكايين في شقة صغيرة بالشاطبي. في هذه الظروف الوسخة تعرفت على نادية. اعتماد عقلها سايح من الشم وتأتي واحدة لتتعرف عليها وتخبرها أنها كانت مرات جوزها. اعتماد مش فاهمة. تجلس معها نادية وتشرح لها القصة، من أول لقاء لها بحربي وحتى العلاقة بينهما ووعده لها بأن يتزوجا، تمسك اعتماد بخناقها: "يعني كان مرافقك. أومال إيه كنتي مراته يا وسخة؟!"

كان هذا هو اللقاء الأول، فيما بعد نمت صداقة بينهما. جمعتهما ذكرى الرجل الغائب والأحلام به. يظهر من عمق البحر. يفزل من السماء. يقف أمام الكارثة ويضرب نار على جميع الداخلين إلى الإسكندرية. يزك وهو يجري، وبرغم زكته هذه يدوخ الحكومة وراه. ويكذب الكيروسين على بحر الإسكندرية ثم يشعل فيه بالكبريتة. النيران تلتهم كورنيش الإسكندرية كله. الإسكندرية مدينة مشتعلة بالنار والبهاء. حربي يظهر من قلب النيران، عملاقاً، قوياً، بساق سليمة. وفجأة: "ولا يا حربييي". تصحو كل منهما عرقانة. تشرب كل منهما كوباية مية، تقول باسم الله الرحمن الرحيم، وتعاود كل منهما النوم.

•••

في الليلة التي سبقت مقتل حربي صحت نادية من النوم قرب الفجر. عطشانة. ذهبت لتشرب. أمسكت زجاجة الماء فوقعت وانكسرت منها. انحنفت

لتحاول ثم الزجاج المكسور فانجرحت يدها. أجلت العملية كلها للصباح وغسلت يدها وعاودت النوم. في النوم حلمت بزجاج مكسور كثير. زجاج وماء سائل ودم ووجه متشنج، متقلص وقبيح. الحلم كان كابوساً. ما الذي يجعل الحلم كابوساً؟ لا شيء، لا تيماته ولا أجواءه ولا أبطاله. فقط هكذا، يتحول لكابوس، في منعطف ما منه، لحظة محورية حاسمة، يقرر الحلم تغيير هويته الجنسية. يتقلب على نفسه، يظهر الجانب الخنثوي فيه، هازناً وساخرأً، ويطل وجه الشيطان. صرخت نادياً.

في اليوم التالي اتصلت بالشيخ حسن. ذهبت للقائه في الجامع. حكيت له عن الحلم. قالت له إن قلبها واكلها على حربي. إنها ملهوفة عليه، وتتمنى لو تزوره وتراه ولو دقيقة. في الأول نزلت دمعة، وحيدة ومنفردة. ثم دمعة أخرى. لم تمسحهما، حاولت المقاومة. قالت بصوت متهدج "بس ألس جسمه". انهارت مقاومتها. نهنت، وتشنج وجهها، تقلص، أصبح قبيحاً، قبيحاً جداً. دفنت عينيها في حصيرة الجامع، وارتبك الشيخ حسن، لم يعرف هل يطيطب عليها أمام الناس أم لا، قرب كفه منها، عمل نفسه كأنه يطيطب عليها، ثم أعاد يده لجواره. وهي تنهار كل دفاعاتها. بقيت مش قادرة خلاص، تعبت يا إنجي.

"كان قلبي حاسر يا بنتي. كلمت عمك حسن وقلقله، بس هنعمل إيه. ربنا كان أمر خلاص". (لحظة صمت. تنظر من الشباك وتحرك شفطيتها. تدرب نفسها على النطق بعبارة ما. تكررهما بصوت خافت ثلاث مرات، ثم تلتفت لإنجي وتلقبها كلها مرة واحدة، بلا تردد أو لعثمة) الأمر طلع والتنفيذ ابتدا واللي عاوز يعترض بقى مافأيدوش حاجة".

أثناء مقتل حربي كانت الإسكندرية كلها نائمة. الإسكندرية نسيبت
بطلها القومي. وبدأت تعود لروتينها اليومي. ساد الاعتقاد بأن حربي قد همد،
إنه خلاص، كما قال صاحبه، لم يعد مثل الأول. وتجهز عدد من الصغار
للانتفاض على تركته الرمزية، سيد وسيكا وسلمان، أعمال بلطجة صغيرة
كانوا يقومون بها هنا وهناك ظنوا أنها قد تؤهلهم للحلول محل حربي في قيادة
دفة التاريخ السكندري، ولكنها، فضلا عن صغرها وتفاهتها، لم تستمر. جاء
مقتل حربي ليضع كل شيء في مكانه الصحيح. انطلقت بسرعة أسطورة حربي
لتشعل الإسكندرية كلها، ومن تجرأ سابقاً، بالكلام، بالعمل، بالحركة، ولو
بإيماءة صغيرة. على حربي، سرعان ما تم نيذره. ألقى في مزبلة التاريخ. دخلت
الإسكندرية عصر الظلام. خرجت القمصان والبناطيل والجلابيات السوداء من
الدوايب، أطفأت المحلات والقهاوي أنوارها ليلاً، وسلط الآباء أبناءهم ليزقوا
أعمدة النور بالطوب. منذ هذه اللحظة، أصبحت الإسكندرية مدينة سوداء.
"الحكاية اللي بنحكيهاك دي مش هتلاقيها ف الكتب ولا ف المدارس.
الحكاية دي احنا بس اللي نعرفوها. لو سألتني ألف من يدلك، لكن ماحدث
هيكتهها."

الوحيد الذي لم يبتعد عن علي في هذه المرحلة من حياته كان أبو أميرة، ورغم كل شيء. علي كان متشككاً في الجميع. القعدة الطويلة في البيت أثرت بالسلب على أعصابه، بلا شك، وابتعاد زوجته وابنه أيضاً، كان له المزيد من الأثر السلبي. ولكن أبو أميرة ظل ملاصقاً له.

الآن يمشي علي في الشارع فلا يعرفه أحد، يبتسم أبو أميرة ويقول، أحسن، سيبيهم ينسوك شوية. دا أحسنك. والترجمة كما يفهمها علي، عندما لا يعرفه أهل منطقته فهنا أفضل من أن يعرفوه ويبصقوا عليه. وابتسم بمرارة. يضطر لتأجير شقته إيجار جديد. ومن فلوس الإيجار يعيد النشاط لمحل السيديات. يعمره بالمزيد من القرآن، يربى له ذقناً خفيفة، ويلبس الجلابية. ويضيف ركناً لمحل. للسبح والجلاليب والطاقيات البيضاء. علي أصلاً بتاع هدوم، وجزء من بضاعته أعطاه لعادل لبيبهه علي الرصيف في محطة الرمل. ما لم يقل هنا هو إن تدخل إنجي لصالح باعة سعد زغلول كان في مصلحته أيضاً. إن جزءاً من البضاعة كان يخصه. كل هذا كان يشاهده علي من بعيد، ويحفظه. علي كان يقوم على رجله من جديد، ببطه شديد، وليس بثبات، ولكن المحصلة كانت أنه يقوم. باب آخر للرزق انفتح أمام علي. الإنسان وهو مضطر يفعل أي شيء. البداية كانت في بيته. يرن الجرس في الثالثة فجراً، الرائد أكمل. يدخل. يشرب شايه، ويفاتح علي في الموضوع: "أحنا عاوزينك تبقى الراجل بتاعنا.."

فيه حاجات انت ممكن تعرفها واحنا مانعرفهاش، عاوزين معلومات معينة، ممكن مانحتاجهاش دلوقتي. بس توقع اننا ممكن نحتاجها في أي وقت. وطبعاً يا شيخ علي أي حاجة انت عاوزها احنا هنعملها لك. اشترط علي شيئاً واحداً، خطأ أحمر إننا جاز التعمير، أبو أميرة: "الراجل دا يعتبر خيره عليا، وانا مش عاوز أذيه"، ابتمم الرائد أكمل، ووضع يده في يد علي.

علي كان قد فقد الكثير من قوته في هذه الأيام. وهذا أفضل، يجعله أكثر أمناً. لا أعداء له، لا أحد يتعقبه، الناس أكثر اطمئناناً له. صحيح أنه أقل تورطاً، ولكنه مازال يعرف أشياء، ديلرز صفاراً، وتجاراً كباراً، ومحلات تخفي وراءها مخدرات، ومعارك بالسيوف والمطاوي، وأين ومتى يكون فلان موجوداً، وأين ومتى لا يكون موجوداً. هكذا، استطاع علي توسيع محله. واجتذاب الزبائن من جديد.

زيارة الرائد أكمل له في بيته كانت الأولى والأخيرة. حرصاً على اللقاء بعيداً عن كل الدنيا، في كافييه سياحي فاخر بأول طريق القاهرة، بجانب كارفور. علي وأكمل، بالملابس المدنية طبعاً، يدرشان كل ليلة خميس. يشيشان ويضحكان وينبسطان. بالإضافة إلى خط تليفون خاص امتلكه علي بغرض الاتصال به. بدأ علي يخرج من حالة الاكتئاب التي انتابته، ويحتك بالناس، والزبائن بدأت تزاد، وعلى استحياء. عاود العرب الظهور في شقة علي، عاود علي نشاطه في شقته المخصصة للقاء العرب بالبنات اللاتي يدله عليهن الرائد أكمل. صحيح أنه فقد الدعم الشعبي الجارف، ولكنه كسب الغطاء الرسمي، وبالغطاء الرسمي بدأ في اكتساب القليل من الدعم الشعبي. بدأت تندخ، قال هذا للرائد أكمل، فابتسم وقال له. لأنك ماشي صح يا علي. احنا مش عاوزين غير مصلحتك. وطبطب علي كتفه بحنان. وضحك علي من قلبه.

علي، كأي رجل، كان يغار من نجاح زوجته. وكأي رجل، لم يكن يصرح بهذا. اعتبرها مرحلة منتهية في حياته خلاص. في يوم من الأيام سيترد قوته بالكامل، ويسترد زبائنه بالكامل، ويسترد ابنه، وعندها فقط، يرسل إلى إنجي ورفقتها. كانت هذه هي النذبة التي لا يمكن ترميمها. الجرح العميق والمكتوم في لعبة السلم والتعبان التي يلعبها. أخبره عادل مرة أن إنجي دافعت عنه، عن علي، أمامه، فابتسم. ولكن لم يذب حقه. قبل نومه، كان يفكر في إنجي، وفي ابنه. كان يقول لسة بتحيني، انا عارف، بس انا مش هساحها عمري. بهذه النتيجة التي يصل إليها، ومع إقناع نفسه أنها هي التي تريد وهو الذي لا يريد، كان يمكن للنوم أن يواتيه، مبتسماً، رانقاً، وهادئاً كاللائكة. عندما يصحو كان يلعب في ترنج أزرق من هدم إنجي، تركته بعد مشيائها، وعثر عليه بالصدفة، ملقى أسفل الغسالة. في البداية كان يشعه، وعندما ضاعت رانحته، تعود على اللعب فيه بأصابعه. لم يحب علي الترنج الأزرق يوماً، ولكن الوضع مختلف الآن. قد يُجبر المرء يوماً على حب ما لم يحبه سابقاً. سنة الحياة.

لم يتحدث علي قط مع أبو أميرة في موضوع إنجي. كان يتوقع رده مسبقاً. أم حمادة ما غلظت. إن كان فيه حد غلط فيبقى المرة بت الكلب مراتي. سيقول أبو أميرة هذا ويتحاشى النقطة العينة، المسكوت عنها، سيتحاشى ذكر أنه كان متجوز شرموطة نامت مع طوب الأرض. لا أحد يفتح هذا الموضوع، علي معتن لأبو أميرة ليس لأنه لم يقتله، بل لأنه حتى لم يلح له تلميحاً واحداً. لأنه لم يضع صداقتهما على المحك. أبو أميرة كان يفهم الرجولة بمعناها الحقيقي. شيء آخر لم يفتح علي فيه أبو أميرة. بعد أول زيارة من الرائد أكمل له. تمنى لو حكي لصديق عمره عن حيرته. تمنى أن يسمع منه، ولو كلمة واحدة، ولو

هزة رأس. ولكن أبو أميرة كان مستحيلاً كالضمير. علي لم يتدر على المواجهة.
الجرأة لها ناسها.

”اسمعي كويس يا شيخ علي، بدأ الرائد أكمل الحديث وهو يشد ثفنناً
من الشيخة الكنتالوب، ”احنا تقريباً عارفين عنك كل حاجة. وصدقني
بنحترمك جداً، أنا مش بتكلم هنا عن نفسي، بتكلم باسم الداخلية كلها، انت
بالنسبانا نمودج لواحد قدر يعمل نفسه بنفسه. طموح وعارف هو ماشي رايح
فين، ودي حاجة مش كتيرة لاف البلد دي ولا ف الزمن نا.“

أشار علي للنادل بأن يبدل حجر المعسل، مال عليه الرائد أكمل: ”أخبار
حمارة إيه؟“ لم يرد علي. تلجلج. واصل أكمل: ”مانفسكش تشوفه؟“. ابتسم
علي ابتسامة مرتبكة. لعب في شعر دقنه ونظر إلى ضاقره. قال: ”فيه حد
مانفسوش يشوف ابنه يا باشا؟“

”جميل. طبعاً يا علي إنت تعرف أكثر مني اخبار طليقتك إيه، الجو
بتكهرب، يواصل الرائد: ”هي لسة على ذمتك بالمناسبة؟“
”لسة يا باشا.“

”طيب. نا حلو أوي. احنا عاوزين معلومات عنها.“
”معلومات عنها ازاى يعني.“

”يعني معلومات عنها يا علي. بتعمل إيه، إيه نشاطاتها، مين اللي
واقفين وراها، قرب منها يا أخي، اعصر على نفسك ليمونة وقرب منها.“
يضحك.

.....

”شيخ علي، صدقني لو قلتك الخدمة دي مش ليا، أصلاً هي مش تبعنا، دي خدمة لواحد صاحبي، ومقابلها، ابنك هيرجعلك، وهرجع ثاني المعلم علي بتاع زمان.“

.....

”انت عارف الرجالة اللي نامت معاهم، عارف انها خلت الناس تضحك عليك، عارف الكلام اللي بتقوله عليك. انا ماكنتش عاوز اقولك حاجة من دي، ومش عاوز اقولك على حاجات اكثر.“

علي يطلب الحساب، يأتيه فيدفعه. يقوم مع أكمل خارج الكافية.

علي مستند على عرييته، وأكمل قصاده.

”اللي فهمته منك يا باشا إنك عاوزني ابقى مرشد على مراتي. صح.“

”مش بالظبط كدا، ممكن تقول.“

(بصوت أعلى) ”اقرب منها واجيبلك معلومات، يعني عاوزني ابقى مرشد

على مراتي. دي مافيهاش ممكن تقول.“

”يا علي..“

(بصراخ هستوري) ”انت عاوزني انا، عاوزني انا، ابقى مرشد على

مراتي، على مراتي أنا (المارة يتوقفون. رواد الكافية من الداخل يتظلمون).

الرائد أكمل بيتعد. يلحق به علي. يشده من قميصه. يمد أكمل يده على

خصره ليخرج الطينجة، فيسارع علي ويخرج الطواة من تحت شرابه. يفتحها،

يصرخ: ”هتضرب نار عليا انا.“ يلوح بالطواة فيجرح كتفه، ”انت نسيت

نفسك، اتجنيت انا اسمي المعلم علي لو انت ناسي.“ تلويحة أخرى وجرح

آخر في كتف آخر، ”انت عاوزني أنا ابقى مرشد على مراتي، انا“ الرائد أكمل

يجري في عرض الطريق السريع، وعلي وراءه. وفجأة، المصير المحتوم. الرائد

أكمل مببط على الأسفلت، وسط دمه وبعيداً عن طهينجته بسنتيمترات، والسيارة تهرب. رواد الكافيه كلهم متجمعون في الخارج. ينظر علي إليهم. يجمر: "إيه. فيه إيه؟" ويركب عربيته. يديرها عائداً، قدمه على دواصة البنزين، ركبته تترعشان، ونيضة متسارع.

•••

يوماً ما، قال أبو أميرة لعلي: "خلهمم [الناس] ينسوك شوية". هذا كان جيداً لعلي في فترة ما، وتحت ستار النسيان نفذ أشياء، وكبير بالراحة وفي هدوء. ولكن الآن، على العكس، فإن الذكرى تندلع من مكنمها لتجتاح كل شيء. جملة "عاوزني ابقى مرشد على مراتي" تنتشر في الإسكندرية كلها. يرددها الجميع، رجال أعمال ووكلاء وزارة وسائقون وتجار مخدرات وربات بيوت وممرضات وطبيبات وأطباء، ويعود علي ليكبر ويكبر في عيون الناس. يستعيدون القصص القديمة، والقصة الجديدة، يستعيدون قصة إنجي، يتواصل الفصل الأول من التاريخ في الفصل الثالث، يتم صحو الثاني تماماً، ونكتشف سويماً أن نسيان الناس لم يكن نسياناً، كان مجرد تعطيل طفيف للذاكرة، برهة يتوقف فيها كاتب التاريخ عن الكتابة.

حمادة الصغير، حمادة علي محمد سيد، يصبح نجم الفصل في مدرسته. أحد التلاميذ يفتن للمس: "دا باباه هو الشيخ علي اللي موت القاطب". والمس تعرف. المدرسون يحاولون التقرب منه والدرشة معه، ما هو إحساس ذلك الطفل الصامت والسمين، الذي لا يتحدث إلا نادراً، وأمه إنجي وأبوه علي؟ هل يعرف أي طفل كُتب عليه أن يكون؟ وحمادة ينظر للجميع ولا يتكلم، كأنما باستعلاء، ويعود لأمه ويحكي فتحضنه. وتحكي له عن أجداده، وعن أبيه، وعنما هي شخصياً. يسألها الطفل عن باباه، فتجيبه بأنهما زعلانين مع بعض.

ولما زعلانين يا ماما، فتجيبه بأنهم اتعاركوا مع بعض من زمان، ثم ترتبك ولا تكمل.

الشيخ علي هو نجم الإسكندرية هذه الأيام بأعين الجميع، كما سلف الذكر، باستثناء جهاز واحد، الشرطة. داهمت قوة من مباحث الآداب الشقة التي يملكها وقبضت على الزباين بالملايات. وقبل خروجها من كامب شيزار تم إطلاق النار عليها، من أماكن مختلفة. فجأة حدث هذا، النيران كانت تنطلق من كل مكان. علي، الذي كان نائماً ساعتها، استيقظ. ارتدى ملابسه وخرج مسرعاً للمشاركة في المعركة. على باب بيته، شاهد شاباً طويلاً. اقترب منه الشاب وقال بغلظة: "شيخ علي، خليك انت بعيد، ارجع البيت. ماحدث هياخد زباينك، ولو حد عملها مش هيطلع حي." عاد علي. والنيران مازالت تتواصل في ذلك الشارع الصغير بكامب شيزار. تحت حمايتها استطاع الزباين الفرار. وأصيب أفراد الشرطة بالجنون، أطلقوا النار في كل اتجاه، أصابوا ذراع أبو أميرة، وجرحوا آخر في ساقه، وقتلوا امرأة كانت تقف في البلكونة لتشاهد ما يحدث. سقطت المرأة على الأرض من طبقتها الثالث. هنا فقط أمر النقيب، قائد القوة. أفراد قوته بالانسحاب.

هدوء حذر ساد كامب شيزار الأيام التالية. الحياة كانت في مكان آخر، في الفيسبوك والمونات والصحف المستقلة. استطاع شخص ما (هل كان موجهاً؟) تصوير واقعة مقتل المرأة وسقوطها من الطابق الثالث، وسرعان ما انتشرت القضية في كل مصر، الشرطة تقتحم بيتاً آمناً (الزباين هربوا) وعندما يحاول الأهالي الدفاع عن أنفسهم تقتل الشرطة امرأة منهم وهي في بيتها. بهدوء وبون خرق للروتين، انتشرت أشكال جديدة في الشارع، رجال طوال ويحملون سلاحاً آلياً ينتشرون في كل مكان. تحول الشارع إلى ثكنة مشتعلة استعداداً لهجوم آخر

يقوم به البوليس. أصبح واضحاً أن أية حركة جنونية أخرى من الشرطة ستنتهي بمذبحة. خاصة في ظل اشتعال الرأي العام المصري ضدها. علي نفسه استقبال ضيفاً في اليوم التالي للمعركة. الضيف كان حاسماً. قال كلمات قليلة: "احتمال يستدعوك علشان يحققوا في موضوع الرائد اللي اتقتل. ماتروحش ماتخرجش من بيتك وتروح أي حطة، إحنا هنا حاميينك كويس وماحدث هيقدر يقرب." قبل انصراف الضيف قال كلمات معدودة: "بالمناسبة، الشيخة إنجي بتسلم عليك." ابتسم علي.

لم يخرج علي من بيته هذه الأيام. راقب السلاح وهو يغزو الشارع الصغير، اللافئات وهي تُعلق فوق المحال. تم تثبيت الشفرة: "الزمالك". يعني الحكومة. و"الاتحاد" هو فريقنا، هو نحن، هو الشيخ علي وأبو أميرة ومدام إنجي واعتماد ونادية وساتقي المشاريع والشيخ حسن وباعة الفلافل والشرايمط والناشطون السياسيون. "مرحباً بالجميع في كامب شيزار، ما عدا الزمالكوية"، "الإسكندرية مقبرة الزمالك"، "الاتحاد أسهاد البلد، أسهادكم يا قازورات"، وهكذا، ومع كل لافتة صورة للشيخ علي.

أبو أميرة، بذراع مجروحة، زار علي في بيته. لف له سيجارة، وناوله. سأل لماذا لم يخبره أنه عمل فترة مع المقدم أكمل. لم يرد علي. كان مشغولاً بالتقاط الكرة في الجيمز على موبايله، ولم يفلح في التقاطها. رمى الموبايل. سكت قليلاً ثم نظر إليه وقال: "ماقدرتش يا أبو أميرة. اتخرجت منك." هز أبو أميرة رأسه متفهماً. تناول الموبايل من علي. فتح اللعبة. وأخذ يلعب. يلعب دقيقة ثم يضغط للإيقاف ويأخذ نفساً من سيجارة الحشيش.

”الحتة هنا مش هتستحملك يا علي.“

ينظر له علي.

”الفاس اللي حاميين الحتة مش منها، واللي منها ميفهموش ف
السلح.“

.....

”شوية والحكومة هتسيطر. انت عاوز حتة تانية.“

”يعني امشي؟“

”انت هتمشي وانا هامشي. انا مش عاوزك تفهمني غلط. فيه زبون عاوز
ياخد الشقة بتاعتك. بيعها ونروحو حتة تانية. مافيهاش حاجة دي.“
قام علي. دخل الحمام. جلس على الكبانية ودفن وجهه بين كفيه. رفع
وجهه وتف تفة على الأرض. من الخارج وصله صوت أبو أميرة.
”إنجي مراتك عاوزة تشوفك. قفلتها تعدي عليك بكرة. هتيجي ومعها
الواد الصغير.“

ترتيبات محموعة اجتاحت الشقة المهمة. طلب علي من أبو أميرة أن
يرسل له بنتاً تنظف الشقة في ساعات. أرسل هدمه لتغسل، بالإضافة إلى بعض
الكيك والساقع الذي احتل مكاناً في الشلجة أخيراً. شغل قرآناً لمدة ثلاثين ساعة
متواصلة في البيت، عسى أن يهدئ من نبضات قلبه المتسارعة، ولكن لا شيء،
ينفع طبعاً. في الساعة بق جرس الباب. دخلت إنجي، بنقاب أسود وجلباب
أسود واسع. وراءها حمادة. ألقَت السلام فسمع علي صوتها فتذكر كل شيء.
العينين والأنف الدقيق وعين شمس وقطار محطة مصر والأيام القديمة. حاول

الاقتراب من ابنه ولكن الولد كس واحتمى بأمه. جلست إنجي على الفوتيه، بدأت بالحديث، بنبرة رصينة:

“انت لازم تنقل مكانك يا شيخ علي. الناس هنا مش هيمتحملوا اللي هيحصل الأيام الجاية. الناس هنا معاك بس دا مش كفاية. الناس في كرموز استعداداتهم اكبر وهيقدرُوا يحموك اكثر. والمنطقة هناك متأمنة أحسن. أبو أميرة قالي إن فيه مشتري للشقة. وقالي انه عارض مبلغ مش وحش. بيعها وتعال عندي ف كرموز، اشتري الدور اللي فوق السنتر بتاعي. دا هيبقى احسن ليا وليك.”

“يمكن انت ماتعرفش انت عملت ايه يا شيخ علي. اللي اقدر اقولهواك ان فيه حرب ابتدت، وان مبقاش ينفع تتراجع دلوقتي. ولو ماضربناش بقوة ممكن نتداس. ومش هنعرف نضرب في منطقة مش متأمنة.”

“فيه حرب هتحصل في اسكندرية. والحرب دي ماينفمش انت تدخلها لوحداك. فرصك هتبقى قليلة. ممكن انا اشارك فيها،” ضحكة قصيرة ومغتصبة، “حاجة على قدنا يعني.”

تصتت إنجي طويلاً، طويلاً، وفجأة، بصوت متهدج، “علي”، ينظر علي.
“أنا آسفة، بس انا بجد مش قادرة اسامحك.”

الغفران شيء، يمنحه الله. الله يمنحه.
كل شيء بيد الله، لا أحد يجادل، لا أحد يملك القوة ليجادل. ولكن الغفران وحده لا يد للبشر فيه. الله هو الغفور العفو، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وكل من تورطوا في التاريخ السكندري بتلك السنوات كانوا شخصيات مؤمنة. لم يستطع علي الدفاع عن نفسه أمام إنجي. أثار وجهه

الناحية الثانية، وقام ليحضر لإنجي شيئاً تشربه. عندما عاد كانت قد خلعت النقاب. ظهرت كما كان يعرفها منذ أربع سنوات. وجهها امتلاً قليلاً. تجعيدة طفيفة فوق شفتيها ظهرت، وخط صغير من الكحل الأسود سال على خدها. الولد الصغير اقترب منه. مد يده إلى لحيته فحاول علي احتضانه فكش مرة أخرى في حضن أمه، التي أبعدته هذه المرة. قالت له: "مش هتبوس بابا؟". اقترب منه الطفل. باسه بسرعة وعاد لأمه مرة أخرى. ابتسمت إنجي، ابتسامة دامعة ومشرفة. قالت لعلي: "هكرة هياخد عليك." وطبطب عليها علي، ثم أخذها في حضنه، ثم قال لها، وحشتيني أوي.

•••

وافتت الحاجة اعتماد علي تمليك علي الطابق الثاني من عمارتها، وبسر مرتاح. شيئاً فشيئاً، صارت تفقد أرضاً في عمارتها، ولم يقلقها هذا. كانت، مثل عموم السكندريين، متحمسة تماماً لرياح التغيير، حتى وإن هبت - في الأول فقط - ضدها.

لا أحد يفعل شيئاً لوجه الله. حتى في هذه اللحظة المشحونة بالآمال الوطنية الكبرى. الكل يسعى وراء المقابل، ولكن تحديد ماهية المقابل هي التي تفرق وتضع الأمور في نصابها. طلبت الحاجة من إنجي تعليق صورة كبيرة لها في مدخل العمارة، ووافقت إنجي. الحاجة كانت تشعر أن التاريخ يُكتب الآن، وأن سطرأ واحداً يكتبه التاريخ عنها سيكون عدلاً. هذا كان المقابل الذي طلبته. لا تطلب شيئاً لنفسها ولا لزوجها، كل شيء تطلبه كان لتشرّف أولادها من بعدها.

عربة نصف نقل حملت العفش من بيت كامب شيزار إلى بيت كرموز. العفش القليل (علي كان قد بدأ يبيع عفشه في الأشهر الأخيرة) تم حمله في نقلة

واحدة، مصاحبة بإطلاق نار ولافتات مودعة، غناء، رقص، دموع، وذبح
 أضاحي في الشارع وغمس الأكتف في الدماء ووشم الجدران بها.
 السوزوكي النصف نقل كانت تجتاز الكورنيش. علي واقف على كنية
 محملة على متنها، بالجلابية والدقن والكوفية التي تتطاير في الهواء
 وبالبندقية الآلي. من أمامها طابور من السيارات ومن خلفها طابور آخر،
 والجميع يطلقون النار. وعلي وتلات رجالة معه يقفان فوق الجميع، مع كاسيت
 عملاق. عماد بعروور يصدح على مسمع من أهل الإسكندرية والبحر ورناد
 البحر: "علي يا علي يا علي يا علي، علي يا علي يا علي يا علي يا علي". عند
 "هو فين علي دا"، يتم إطلاق النار ويصيح الرجال ويلعبون بالنار الخارجة من
 أنابيب البوتاجاز، ويشير المارة على الكورنيش إلى علي وهم يرقصون. لا شيء
 يهم. الشيخ والرجالة واقفون في وجه الجميع، في وجه الحكومة والأعداء. اليوم
 بداية تاريخ جديد، وأهل كرموز يستقبلون القادم بزحف النخيل.

- حبيبي مالو؟

- مالو يا طه؟

- حبيبي مالو؟

- مالو يا طه؟

- كشفني

- بالهوي

- كشفني

- يا لهوي

شافني واقف في البلكونة، قام حادفني بالليمونة، قلت حاجة مش
مضمونة، اني اسيب قلبي ف ايديه-

انني اسيب قلبي ف ايديه-

خفت منه قلت اسيبه، بس ازاي ارجع واجيبه، قلت جايز يوم يسببه،
من كلام الناس عليه-

من كلام الناس عليه-

-علي يا علي يا علي علي يا علي-

-علي يا علي يا علي علي يا علي-

-اتدلع يا حبيبي.. على راحتك خالص-

-قيد ناري وزيد لهيبي.. وبراحتك خالص-

-أوتعلم، إن عيونك، شاغلة فؤادي، وللدرجة دي، هواك مش عادي.
ومالهبوش حل-

-أوتدري، إن أنا أدري، ازاي اسببك، كدا من بدري. يا روحي يا عمري،
يا سيد الكل-

-عمي يا عمي يا عم الناس-

-سدي يا سدي يا سيد الناس-

-علي يا علي يا علي علي يا علي-

-علي يا علي يا علي علي يا علي-

عند المنشبة انحرفت السيارة يساراً، وبدأت الزغاريد تلعن. والشوارع تصبح أكثر ضيقاً، والوزوكي واقفة أغلب الوقت، والرجال يرقصون أمامها وبحناؤها بالسلاح، والترام القادم يتوقف، وركابه وسائقه وكمساريه ينزلون للمشاركة في الموكب. وعلي يا علي يا علي علي يا علي.

عند مدخل كرموز ينزل الشيخ علي، يمشي على قدميه محاطاً بالرجال والصحاب والحبايب. أبو أميرة، سوسو، عادل، الشيخ حسن، وكل الناس، من نعرفهم ومن لا نعرفهم.

عند مدخل العمارة علقت يافطة مرحبة "إنجي سنتر ترحب بابين الإسكندرية، الشيخ علي السيد"، دخل علي، بجانبه أبو أميرة والشيخ حسن، وباقي الزفة تتواصل بالخارج. تلفت نظره صورة كبيرة للحاجة اعتماد معلقة في المدخل. ينظر له أبو أميرة. لا يعلق علي. عند باب الشقة في الطابق الثالث يتوقف. تفتح البت عادة، علي لا يعرفها، تنطلق الزغاريد من الداخل، الحاجة اعتماد ومدام نادية وأخريات جالسات. إنجي بينهن، بالنقاب. وجهها في الأرض. يقترب منها علي، يلتقط كفها الأيمن، يقبلها، وبصوت خافت، وإنما واضح وسموع للجميع، يقول: "أنا آسف يا ست الكل". تنظر له إنجي، عيناها من خلف النقاب مبتسمتان، تقول بصوت مداعب: "علي إيه ولا إيه يا شيخ؟"، فيضحك، "عديها بقي". ويضحك الجميع. عادة البنات يرقصن. والرجال ينسحبون لمواصلة الزفة تحت البهت. فقط علي يبتي. إنجي تخلع النقاب، تتحزم به، وترقص، وكارول سماحة شغالة، طب علي يا بن عمي، ياللي بتجري في دمي، وإنجي تشير لعلي، وتميل عليه، وتتدلع. والستات يمسون بيديه، "ارقص يا شيخ. باه عليك ترقص يا شيخ". ويقوم علي، يمسك حمادة، يحملها على كتفه. ويرفع كوفيته. ويميل بها على إنجي، يخذها على رأسها،

يحركها للوراء والخلف فتتحرك معه، وتميل عليه، فيميل عليها، ويربط رأسه ورأسها بالكوفية، ويبوسها من تحتها، والولد الصغير رجله تخبط في كتف أمه، ويضحك وهو فوق، ويسقف.
أحلى ناس.

طبعاً المواضيع لم تحدث بهذه السلاسة في البداية. يعني أخذ علي وإنجي فترة حتى يعتادا على بعضهما من الأول. مع بعض العوامل المحفزة لكي تنمو بينهما الألفة من جديد، الاهتمام بتفاصيل الولد الصغير، متابعة الملسل، والمعارك الصغيرة. بعد انصراف الجميع سكتت إنجي، لم تتكلم، الواد نام وحل عليها الصمت، حل عليها الصمت لساعات طويلة، ليس هناك إلا سلامو عليكم وعليكم السلام. علي اعتقد أنها مكسوفة، سألها المطبخ منين، فأجابته بجفاء، "عندك اهو"، لم يفهم فواصلت بعصبية، "الباب اللي وراك يا أخي." سألها مالك فقاتلته يا علي انا عاوزاك ف حاجة. يا علي إحنا مبقيناش زي الأول، وضعنا اختلف.

- يعني إيه؟

- يعني انت لازم تراعي انت بتعاملني ازاي وانا بعاملك ازاي قدام الناس.

- (يطبطب على شعرها فتبعد يده بعنف)

- يوم زي كذا ماكانش لازم تهزر معايا بالطريقة دي، يعني إيه تقولي عديها بقي.

-

- يا أخي كان ممكن تقول انك ندمان، أو متضايق، انما يعني ايه تخلي
الناس كلها تضحك عليها كدا.

- الناس ماضحككش عليكى، الناس كانت مبسوفة.

- وافد؟ ولما بنت شغالة معايا تقولي "عديهاه"، وتضحك، تبقى مبسوفة
برضه؟ مش فاهمة كان ممكن يحصلك ايه لو قلتى انا اسف.

- انا قلت انا اسف.

- تقولها تاني.

- اه ان شاء الله. يا حبيبتي دانا لما اغلط ف رئيس الجمهورية مش
هقولها تاني.

- (تصرخ) يعني إيه؟ غلطت ولا ماغلطت.

- لا ماغلطت.

- إيه؟ إيه دا بقى؟ أومال امي اللي غلطت.

- اتكلمي باحترام.

- (تلوي بوزها) انا محترمة غصين عنك.

ينتهي الحوار. تقوم لتفتح شنطه واحدة واحدة. تخرج ملابسه وترميها
على الفوتيه. فجأة يقرصها برغوث. تنظر بقرف نحو الشنطة المفتوحة، ثم إليه
بغضب مكلوم. هو ينظر للأرض، خجلاناً من حياة البهايم التي كان يحياها
الفترة الماضية. بلا نظافة، بلا اعتناء، بلا حموم ولا غسيل هدم. ثم يواجهها
بعينه فجأة هادراً:

- لاء بقى. أنا ماغلطت. انتي اللي ماكنتيش بتشوفي طلباتي، وانتي اللي

اجبرتيني اني ابص للولية دي.

- ليه ان شاء الله. ما انت كنت زي العجل كل شوية عاوز عاوز حتى لما بتحايل عليك اني مش قادرة.
- لا يا حبيبتي. الست هانم كانت زعلانة م الناس الشعبيين ونفسها تروح لامي وبابي ومش طايقاني ولا طايقة الناس هنا.
- فين دا؟ ازاي؟ يا زفت انت انا كنت لسة نايمة معاك قبلها بيوم.
- قبلها بتلات تيام يا أهلة. احسبها كويس. وكمان كنت انا اللي طلبت منك. عمرك ما جيتيلي من نفسك وقلتيلي اني واحشك.
- يوم واحد، ركز يا بابا. وانا اللي جيتلك وانت قعدت تهزر وتقولي انا تعبان.
- لا طبعاً. وكنتي لابسة الترنج الازرق، وانت عارفة اني مبحيوش.
- أولاً الترنج الازرق كان ضايع مني، ولما مشيت من عندك ماخدتوش معايا. أنا أصلاً ماعرفش هو فين.
- (باستهزاء) وثانياً؟
- (تدير وجهها) ماعرفش ثانياً. ما فيش ثانياً.
- يبقى تخرسي خالص وماتخلينيش اسبلك الدين.
- وانت ماتخلينيش اسبلك ستين دين.
- (يهدر بغضب) إيه ستين دين دي إن شاء الله، ما فيش حاجة أصلاً اسمها اسبلك ستين دين.
- (تنظر له متحدية. فجأة تنتبه لجملة الأخيرة فتضحك) إنت؟ إنت مش معقول.
- (الظنرة الغاضبة تتواصل في عينيه. بعد ثوان يبتسم. بعد ثوان يضحك).

نقار هنا أو نقار هناك، يسهم في تلطيف الأجواء بينهم. ولكن أيضاً التوحد ضد الأخطار يفعل فعلته. الحكومة زرعت رجالاً في المنطقة، رجالاً كثيرين، أكثر من أن يعرفهم رجال إنجي، المزروعين على القهوة المقابلة لإنجي سنتر. واكتشاف مرشد واحد يتحول إلى يوم عيد، يفعل معه واحد من الرجالة عركة، يفضحه في منتصفها، فتتحول حياته في المنطقة إلى جحيم. وأحياناً ما كان هذا ينتهي بالدم. تعويرة صغيرة كانت تنهي حياة العملاء في المنطقة. المذبحة لم تبدأ بعد، وإن كانت كل المؤشرات تدل على أنها تقترب.

توضيح بسيط: في الفترة التي ظل فيها علي معزولاً، عن الحياة والناس وصراته وابنه، لم يضيع وقته. كان يستمع إلى الحكايات، عن اسكندرية وأهلها، كان يلف على القهاوي، ويجلس، ويفتح كلاماً مع الناس، حفظ تاريخ الشوارع التي كان يمر بها، كأنه كان يعوض ما نقصه بسبب عدم تعليمه بالإضافة إلى عدم انتمائه إلى جنور اسكندرية واضحة. لقد بدأ يخلق هذه الجذور بنفسه. كان كالتلميذ الذي يناضل ويتعلم وقلبه مدرسة شعبية. القصة الأبرز التي سمعها في تلك المرحلة كانت قصة الكرنيتينا. مجتمع اسكندري كامل يتم اجتثاثه من تربته وتشتيته في منفى طويل وعريض بحجم الإسكندرية.

أين ذهب أهالي الكرنيتينا بعد أن تم اقتلاعهم من عشهم وبناء مجمع مدارس مكانها؟ كيف اندمجوا بسائر نواحي الحياة الاسكندرية، وهل اندمجوا حقاً؟ هل مازال من الممكن استعادتهم إلى حضن بينتهم الأصلية؟ وكيف يحدث هذا؟ تشاور على مع إنجي في إطلاق اسم "الكرنتينا" على القهوة المقابلة لإنجي سنتر. غالى في اقتراحه أيضاً، استبدال اسم إنجي سنتر نفسه باسم الكرنيتينا سنتر. إنجي، التي لم تستبعد وجود شبهة غير زوجية وراء اقتراح محو اسمها. رفضت في البداية. ولكن علي كان أكثر إقناعاً، مضي يشرح فكرته:

- انا قرريت كثير يا إنشي، قرريت كثير أوي، في كل حاجة، وعرفت كل حاجة، الكرنيتينا دي كانت حاجة كبيرة، كبيرة أوي، وناسها كانوا جدعان، ناس حلوة، انا قعدت مع ناس منهم، عاوزين الخير لينا وبيحبوكي، بيبحبوكي ياما. واستعداداتهم كويسة، ممكن يشتغلوا في أي حاجة. لما نسمي السنقر بتاعنا على اسم منطقتهم هيبجوا. هيتلموا علينا ويبجوا، واللي لسة ماسمش عنك هيسمع. يا إنشي الحرب جاية. واحنا عاوزين رجالة جمبنا، رجالة سلاح.

إنجي صامته. تبدو على وشك الاقتناع. ينتهز علي الفرصة ليضرب ضربة أخرى.

- وكمان الصورة اللي ف واجهة العمارة.

- صورة إيه؟

- صورة الحاجة اعتماد، مينغمش تبقى موجودة هناك.

- ليه إن شاء الله؟

- طيب يا ستي، خليها، بس نحط صورة كمان جمبيها، أبو أميرة خدمنا كثير، ويستاهل نحط صورته.

- علي، انا مش هتكلم ف الموضوع نا ا

.....

- ماتجننيش. مش نا المرص اللي خلاك تنام مع مراته؟

- وطلقها لما عرف.

- لا. طلقها لما انت قلتله يطلقها. هو كان عارف من الأول.

- أبو أميرة صاحبي يا إنجي، ماتكلميش عليه كدا، انا ما استحملش حد يجيب سيرته بكلمة.

- صاحبك دي حاجة ترجعك وترجعله، أنا الحاجة اعتمد شيلتني
أمانة، قالتلي صورتها تفضل هناك لوحدها.

- والحاجة اعتمد دي يا ماما مش هي اللي عصتك عليا؟

- هي اللي كبرتني.

- وأنا مالي انا، انا مش ملزوم منها، هي عاوزه تجاملك تجاملك بعيد
عني، وعشان تبقي عارفة، مش بس صورة أبو أميرة اللي هنتحط، صورة الشيخ
حسن كمان. العمارة دي انا ليا فيها نور كامل، بتاعي وملكي ويخصني.

- علي، ماتخليش الموضوع بينا يوصل للدرجة دي.

- (يقرف) انتي اللي بتوصليه.

هكذا كان الأمر في الحقيقة، هكذا كان الوضع والمذبحة تقترب، والحكومة
تقرر التدخل وتفجير العائلة السعيدة من داخلها. الموضوع كان معقداً أمام
الحكومة من الناحية الظاهرية، السلاح يزداد والرجال يكثرون وشعبية علي
وإنجي في السما. ولكن لا شيء مستحيل. الموضوع لم يحتج أكثر من مخبر واحد
يجلس على القهوة. يفتح حواراً مع أحد الزبائن العابرين (لا يجرؤ على
مواجهة الزبائن المقيمين). يسأله عن صاحب مركز الكمبيوتر واللغات في
العمارة المقابلة، فيجيبه بأنهما رجل وامرأته، شيخان صالحان، يعملان من
أجل المنطقة وأهل المنطقة. يتشعب الحوار. وينطق المخبر بالمعلومة الذهبية، انا
عارفهم، من عندنا من اخميم، ابوه اتقتل ف مصر. والواد ماخدش تاره، ف
البلد الراجل الي انت بتقول عليه دا ماخدش بيحترمه. القار عندنا ف الصعيد
شيء أساسي يا صاحبي. اللي مياخدش تاره الناس تستحقه خالص.

صوت غليظ انطلق من الخلف هدد بإشعال الموقف: مين الحلو دا اللي
الشيخ مش عاجبه؟ أنهى المخبر حوارته مرتبكاً، ولكن الكلام ينتقل بسرعة.

والكلام ينتشر. والكلام تصعب السيطرة عليه. هذه طبيعة الدنيا من زمان. بدأ علي يسمع كلاماً هنا وهناك. أخبر إنجي، لوحث بوجهها وقالت، عشر سنين واحنا هنا وانت لسة ماخدتش بتارك، عاوز الناس تستنى عليك لغاية إمتى. بدأ علي يتخفق. الآن هو بين طرفي المقص، إما أن يخاطر بفقدان شعبيته أمام الناس، أو يشتت جهده في الصعيد، في منطقة لا يعرف عنها شيئاً. وقد تنتهي المخاطرة بفقدانه حياته. على الأقل، على الأكيد، ستنتهي بإخلاء الجبهة السكندرية أمام الحكومة لتدمير المنطقة بأكملها. هكذا، المذبحة لا تقترب ولا نيلة. لعبة الحكومة كانت أذكى من الدم وضرب النار. صحفي كبير يكتب في جريدة يومية عن "الشيخ الصالح" الصعيدى الأصل الذي يتزعم مجموعة من البلطجية في الإسكندرية وهو لا يستطيع أخذ تاره، أي سقط في ألف باء امتحان الكرامة بمفهومها الصعيدى. وعلي في الحمام، ينزع بالمقاط شعرات بيضاء قليلة في ذقنه، يستحضر كل شيء، كل التاريخ الأسود والأبيض، وصولاً إلى هذه اللحظة. يخيظ بقوة على المرأة أمام الحوض فتتكسر، تنجرح ذقنه، وصرخة رهيبة بأصداثها تتردد، ماحدث هيكسرتي، سرتي، سرنبيبيبيبيبيبي. هل انطلقت الصرخة من قم علي، أم أنها تردت في داخله؟ لا أحد يعرف، ولا علي نفسه. الأكيد أن أحداً لم يسمعها غيره.

يلبس ملابسه بسرعة، ينظر إلى جسد زوجته الناعمة. وينزل. حين يصل لكامب شيزار يكون الفجر قد أذن. في موضة الجامع يرى أبو أميرة، يمضيان معاً والماء يقطر من جلبابيهما المشردين. يعيل عليه علي ويقول له: "بعد الصلاة هنقعو مع بعضنا حبة. عاوزك ف استشارة كدا."

في بيت أبو أميرة يجلسان معاً. يحكي له علي المشكلة كلها، فيهبز أبو أميرة رأسه. بعد انتهاء علي من حديثه لا يعقب. يصمت طويلاً. عشر دقائق

مثلاً، ثم يقول: "بكرة بعد أذان العصر بمشيئة الرحمن هتلاقيني عندك، وهقولك ايه الحل لشكلتك دي." تلتتمتع عينا علي. يقترب منه ليطبب علي كتفه، ولكن أبو أميرة ينسحب. بعد دقيقتين يواصل: "انا عمري ما طلبت منك حاجة قبل كذا مقابل اي خدمة. بس المرة دي اني هانطلب."

باختصار، أبو أميرة هو من سيتولي هذه العملية. يقاطعه علي قائلاً إنه يحتاجه هنا في اسكندرية، فيواصل أبو أميرة كلامه، لن يسافر هو سوهاج، سوسو أخوه هو من يسافر. سوسو شارك في عمليات كتلك من قبل، ولكن الآن البطولة الرئيسية ستكون له، وهي فرصة لأبو أميرة أيضاً لكي يكبر أخاه قليلاً. هل علي الآن هو علي بتاع زمان، وهل أبو أميرة الآن هو أبو أميرة بتاع زمان؟ طيب، يبقى ليه نمع ولادنا واخواتنا الصغيرين انهم يكبروا زينا. مش صح؟ يتكن أبو أميرة على الكنية ويواصل:

- أنا بالفكر اكبر الولا سوسو. هيمعك كل اللي انت عاوزه ف الصعيد. ولو قتلته اقتل المحافظ هيقته. بس هو عاوز محل هنا ف الشارع، يعمل سفوتشات كيدة وسق وأكل وحاجات زي كذا، ويحميك ف نفس الوقت. علي كان يقص أظافره. قص جميع أظافره وتبقت قماسة بإصبعه الأصفر. نزعها بأسنانه وتفلها في قعر فنجان صغير على الطاولة. لم كل أظافره المقصومة ووضعها في الفنجان. ثم استل خلة من فوق الطاولة وأخذ يملك أسنانه. كان يتكلم وهو يملك. الكلمات كانت تخرج غير واضحة:

- لا يا ابو أميرة. مش سوسو بس. انت كمان هتيجي هنا. انا هافتح محل هدمو باسمك، يبقى ليك ولعادل اخوك بعد ما يخرج م الحبس إن شاء الله. وكمان محل صغير لسوسو. انا عاوزكو تبقوا جمعي. بس على شرط زي ما لقيت

ابويا ميت ومرمي قصاد الصحل، انا مش عاوز اسمع عن حد من عيلة أمين
عايش. مش عاوز حد من الخولات يقول الشيخ علي مش عارف ياخذ تاره. صح
يا صاحبي؟

- صح.

- من النهاردة انا هعتيرك من رجالتني. أهم واحد من رجالتني، انت
واخواتك يا ابو اميرة.

...

- جايز انا ماقدرتش اقولك الكلام دا قبل كدا، أو جايز إن الوقت ماكانش
مناسب، أو جايز إنني كنت مستني اللحظة المناسبة، لكن انا باقولها لك اهو، انا
مش عارف من غيرك كنت عملت إيه يا ابو اميرة.

...

- لو ربنا رجعتني ف الزمن ورا يمكن كنت رجعت عملت كل حاجة
عملتها. (لحظة صمت) يمكن مفيش حد منا ببختار قدره. لكن علشان كدا ربنا
بهدينا الحلو والوحش. والشاطر هو اللي بيحمد ربنا ع الحلو، وبيصبر ع
الوحش.

...

- جايز كل حاجة ف حياتي كات وحشة، جايز اكون اتورطت في
حاجات انا مش قدها، لكن كفاية ان ربنا عرفني بيك.

...

- (يرمي الخلة جانباً، يخرج بإظفره نسيئة لحم كبيرة من بين ضروسه)
صحيح انت هتبقى واحد من رجالتني، لكن الحقيقة اني انا اللي كنت باتعلم
منك. الحقيقة اني انا اللي كنت صغير طول الوقت، وانت اللي كنت كبير.

- يا شيخ علي..

- (يضع نسيئة اللحم في قعر الفنجان) كلم أخوك يا أبو أميرة. خليه يسافر سوهاج أول الأسبوع الجاي. لو الموضوع دا خلص هيبقى دين ف رقبتي مش هنسأه.

- يا شيخ علي..

- انا رايع انام دلوقتي يا أبو أميرة. (يبتمس) سامحني يا صاحبي. مانعش من ثلاث تيام. انت خليك زي ما انت. بس وانت خارج م البيت اظفي النور.

ما أراد أبو أميرة أن يقوله لعلي ولم يستطع كان حكاية قديمة. تعود لأول يوم التقيا فيه.

سوف نحكي هنا قصة قصيرة، قصة عن القدر والعلامات والأطفال الذين يموتون والآباء ذوي الميول الروحية والشباب الذين لا يؤمنون إلا بما تراه أعينهم.

في يوم ١٥ / ٦ / ٢٠٠٥ توفت أميرة، ابنة أبو أميرة ومانحته لقبه الشهير. لم تشك من مرض قبلها. فقط لعبت في علبة كهرباء أسفل البيت فماتت، ماتت صعقاً. أبو أميرة لم يكن شخصاً مهووساً، لم يتصور أن في الموضوع شبهة قتل مثلاً، ولكنه أيضاً لم يكن ساذجاً. عرف وقتها أن موت طفلته لم يكن موتاً لطفلته فحسب، وإنما موت محتمل لآلاف الأطفال مثلها. من ترك علبة الكهرباء مفتوحة مثلاً؟ ألا يحتمل أن يخلف هنا الأهمال وراءه عشرات الضحايا في الشارع، وتخلف إهمالات مماثلة عشرات أخرى؟ طيب. من دفع البنت الصغيرة للعب في الشارع في الوقت الذي كان يفترض فيه أن تكون في

المدرسة؟ أليس هو النظام التعليمي المتردي الذي يدفع آلاف التلاميذ للتسرب منه سنوياً، والنظام الاقتصادي المتردي الذي يجعل آلاف الآباء غير قادرين على دفع نفقات تعليم أبنائهم؟ من المسؤول عن مقتل طفلة؟ كل شيء كان يشير في رأسه إلى أن القصة أكبر من مجرد طفلة تلاقي حتفها بسبب إهمال غير مقصود. القصة يمكنها بسهولة أن تصبح قصة عن أطفال البلد المعرضين للموت في كل لحظة. هذه الأفكار، على هذا النحو، لم تخطر على بال أبو أميرة، فقط أفكار قريبة. شعر ببؤسه في هذه اللحظة مضاعفاً، ببؤسه وبؤس من حوله، ببؤس عمله وعملهم وحياته وحياتهم وأسرتهم وأسرههم. صعبانة عليا نفسي أوي، يعني هو اللي زيننا مايمرفوش يعيشوا ولا يبقالهم عيال، هكذا قال لأم أميرة بعدها بعدة أشهر في قعدة صافية. طبطبت هي على كتفه، وهو كان متأكداً إنها تحس بما يحس به بالضبط، إن لم يكن أكثر.

في يوم ٢٠٠٦/٦/١٥ رأى علي لأول مرة. جاء به سوسو إلى البيت. قدمه لهم بوصفه البشمةهندس علي. الليلة كانت السنوية الأولى لأميرة. ولكن أبو أميرة حزنه في قلبه. شربا وحششا، سأله أبو أميرة عن رأيه في المنطقة. فلم يخف علي عدم حبه للمكان، الإهمال والزبالة في كل حته. لكن الشيء الأخطر هو علب الكهرياء المفتوحة في كل حته، وقد تقتل العيال الصغيرين الذين يلعبون في المكان. الليلة هي السنوية الأولى لأميرة. وأبو أميرة يؤمن بالعلامات.

بعدها بأيام، احتاج عادل كيسة بلاستيك يضع فيها عدة كلاسين وفانلات وهو خارج. بحث في البيت كله ولم يجد. لمح أبو أميرة شنطة المدرسة الخاصة بابنته الصغيرة، مهملة ومتربة وملقاة تحت الكنية. أشار عليه بأن يستعملها مؤقتاً. ولكي يساعده أخذ في إفراغ محتوياتها. كراريس وكتاب وقلم رصاص وبري قلم وجومة وورقة. أعطى أبو أميرة الشنطة لعادل أخيه ومضى يتأمل

الورقة. كان مرسوماً عليها رجل وامرأة وبينهما طفل صغير وسمين. شيء ما دق في صدر أبو أميرة عندما رأى الرسة، اسم علي، الرجل الذي رسمته ابنته قبل أن تموت بثلاث سنوات على الأقل هو الشخص الذي التقاه منذ أيام. لم يحدث أحداً عن هذا الأمر. ظل ساكناً. وعندما ولدت إنجي ابنها الصغير اكتملت النبوءة المنقوشة على اللوحة. طفلة صغيرة رسمت قبل موتها العائلة التي ستأثر لدمها. تقريباً كانت تتنبأ. أكهد كانت تتنبأ.

فيما بعد سيهتم علي نفسه بإصلاح علبة الكهرياء المفتوحة، فيما سيشكل علامة أخرى تنضم إلى ألبوم العلامات التي يحتفظ بها أبو أميرة في عقله، والتي أدت به إلى أن يقول للشيخ حسن مرة وهو يتودود معه بعد العشاء: "علي دا ولي من أولياء الله." ثم يحكي له قصة صغيرة: "شفت امبارح رسول الله يا شيخ. كان مقرب مني ومعاه عيلة صغيرة. المرحومة. سألتها يعني انقي مثلاً ابوكي ماوحشكيش يا بت يا أميرة عشان ماتجيش تعيدي علينا المنة دي. قالعلي يا بابا ان شاء الله كلنا هنعيدو سوا، بس انت خد بالك من الشيخ علي عشان ربنا يكرمك. وبصيت على الرسول لقيته بيضحك وسنانه باينة. لما صحيت قمعت رايح مهلي ركمتين نه، ولقيت نفسي مستريحة أوي."

الثار هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير، إلخ، إلخ، وعلي لا يعرف الكثير عن الثار القديم في الصعيد. استقبل سوسو في بيته. حكى له عن عيلة أمين وعن ثار عمره عشرون عاماً. لم يزد حرفاً عما يعرفه أي طفل صغير في إخميم. هذا كان يزيد مهمة سوسو صعوبة، ولكن الشغل شغل. قبل أن ينصرف طلب منه علي مبتسماً: "ابقي أسأل لنا هناك على عيلتنا، عيلة العلايلي، شوفهم حلوين ولا وحشين ولا وضعهم ايه ف البلد." فطر سوسو لسوهاج بعد ساعتين، سيصل اليوم وفي اليومين القادمين سيتوالى وصول الرجال هناك. الدنيا كانت فجر، في عز يناير، سوسو كان يرتدي الجينز وفوقه سويتر جلد سميك وكوفية. قبل أن ينزل أحكم ربط الكوفية على وجهه، لأيام طويلة لن يتذكر علي من وجه سوسو سوى هذا الوجه، سوى هذا النصف وجه، وغير زكته الخفيفة وهو نازل. سيحاول استحضار وجهه الأصلي طويلاً ولن يفلح. ربما سيكون في هذا شيء، ما من السماء، فسوسو الذي ذهب لن يكون هو سوسو الذي سيعود، سيختفي تماماً وسيحل محله شخص آخر. الأيام تغير الكثير.

بعد نصف ساعة نزل علي لصلاة الفجر. عندما عاد كان يترنح تقريباً، وضع نفسه على السرير ونام. سقط بالأحرى. شعرت به إنجي،

قامت لتنتظر إليه فوجدته غاب في النوم. ابتسمت. حنونة إنجي. حنونة جداً.

•••

ما الذي كان علي يعنيه بسؤاله: "أبقي اسألنا هناك على عيلتنا، عيلة العلابلي، شوفهم حلوين ولا وحشين ولا وضعهم ايه ف البلد." الجملة بدت غريبة جداً في أذن سوسو، وفي السياق بشكل عام، إذا أتيت لنا أن نتأمله من بعيد، أي من دون التورط في أن نكون جزءاً من المشهد أو من أحد الشخصيات الرئيسية للعبة فيه. في الليلة السابقة تحدثت إنجي مع علي. قالت له مبتسمة إنها غيرانة من سوسو. ليه يا نوجة؟ كنت عاوزه اروح انا الصعيد، (لحظة صمت)، علي إنت عمرك ما فكرت ف جدوك اللي ف الصيد؟ يعني عيلتك هناك. الناس بول موجودين من إمتى. ومين أول واحد ف عيلتك؟ طبعاً علي لم يكن يفكر في هذه الأشياء ولا بطيخ، ولكنه ضيق عينيه وقال لها إن هذا هو موضوعه الأساسي للتفكير منذ كان طفلاً، وعندما شعر أنه ليس مقتنعاً بما يكفي بالنسبة لها أضاف بعض التفاصيل: "أبويها كان لما يسيبيني في المحل لوحدي كنت اتفرج على الصورة اللي ع الحيطه، كنت اقعده اتفرج عليها ياما، صورة فيها ابوكي واقف معاه، وهما حاضنين بعض وهما صغيرين، وكنت اقعده اسأل نفسي ياترى ابوهم الاتنين، جدي الكبير يعني، كان شكله إيه، وكان بيعمل إيه وعاش فين."

- كان ف الصعيد طبعاً!

- أبوة. هو انا مش عارف يعني؟ يعني إيه معنى الجملة دي؟

- مش فكرة مش عارف، بس..

- مش فكرة مش عارف، بس فكرة ان انتي اللي عارفة كل حاجة، صح؟

- لأمر ص.ح.
- طبعاً مش ص.ح. إنتي ولا تعرفي أي حاجة. مش انتي فاهمة أوي الصعيد، طيب، أهلك، اللي هما مش حاجة بعيدة عنك، كانوا فين قبل ما يروحوا على إخميم؟
- ماعرفش طبعاً. إيه السؤال يا؟
- (يضحك ضحكة قصيرة ومستهزئة).
- ولا انت تعرف بالناسية.
- سمعت بسيط، ثم يرفع نظره لها- أيوه أنا ماعرفش، بس ع الأقل مابقولش اعرف وأنا ماعرفش.
- (تضحك ضحكة قصيرة ومستهزئة).
- (يشخر في سره).

•••

المخلص: في الحقيقة، فلقد آمنت كل شعوب العالم بالمخلص في وقت ما، وبالأخص في عصور الانحطاط، عندما لا يتبقى أمامها أي أمل سوى الأمل. الالتهاج شوقاً للمخلص هو ظاهرة أنثروبولوجية معروفة، لها رموزها الدينية، يسوع المسيح، المسيح مخلص اليهود، المهدي المنتظر، الحاكم بأمر الله، ورموزها العلمانية، ناصر، جيفارا، ماو، وحتى عبد الحليم وألفيس بريسلي. الأمل هو ما كان يدفع الشعوب للتفكير في الخلاص، الشعوب الراضحة تحت نير الظلم والظلمة. في هذه الأيام انتشرت أغنية لمغنية لبنانية من مغنيات الفيديوكليب. الأغنية كانت تقول كلماتها: - أيوه فيه أمل يا عينها، مع بعضينا الصبحية، تططبب وتدلع فيا. -

في تاريخ سابق للإسكندرية. وفي الساعة العاشرة صباحاً من يوم الجمعة ما، تقدم شخص يدعى أبو خيرة إلى مسجد المرسى أبو العباس ببكري. كان معه رجلان سهر معهما طول الليل يضربون كيميا، وعندما طلع الصبح كانوا قد اقتنعوا بأنه خلاص، آن لكل هذا الظلم أن ينتهي. وصلوا إلى باب الجامع المغلق، وطرقوا عليه. لم يفتح أحد. ركلوا الباب وأحضر أحدهم مطرقة ضخمة، وأخنوا يضربونه حتى انكسر. اثنان كانا يقومان بالعملية والثالث كان يقف على مبعدة منهما لتهديد من يفكر في الاقتراب. دخل الثلاثة الجامع. سعد أبو خيرة على المنبر، وتجمع الناس داخل الجامع بدافع الفضول. أذن أبو خيرة للصلاة. ثم رد: "الله أكبر الله أكبر. الله أكبر والله الحمد." ونظر للحضور: "خلاص يا إسكندرية. قرفنا بقى." الناس أخذ يزيد عددهم. وأبو خيرة يندفع في خطبة الجمعة. قبل موعدها الرسمي بساعة ونصف. يقول أولاً إن خطبة الجمعة بدعة. إنه راح السعودية ورأى خطبة الجمعة هناك لا تستمر أكثر من خمس دقائق، وإن الناس تجادل، طول الوقت الناس تجادل، وتتكلم، وكله بقى بييلت، وكله نازل لت، ولا أحد يفعل شيئاً. وقال إن سنة الرسول حلوة، لكن الناس لا تأخذ بها. ثم الناس تسأل لماذا ربنا مش عاوز يكرم؟! في سهرته. خلط أبو خيرة بين عدة أنواع من الكيميا والخمرة. لهذا كان يشعر بدوار وهو يخطب، يميل أمامه حتى يكاد يقع ثم يرجع إلى الورا، ثم يمكت دقيقة ويتقياً ما بجوفه، ويستط القى، على بعض الحضور، ثم يواصل كلامه، خلاص، خلاص، آن لهذا الفجر أن يزقزق، يا أمة محماد. اسمعوني كويس، أنا باقول الآن اني قرفت، وان اللي هيكلمني كلمة مالهاش لازمة ورحمة أمي اني هانتغابي عليه. خلاص يا إسكندرية!!!!

ثم راح في غيبوبة. سقط من المنبر، تدرج على درجاته، ونام في منتصف السلم.

يصعب تحديد مؤشرات بعينها تدل على أنه سيظهر يوماً في التاريخ شخصان يعيدان المجد للمدينة المنسية على البحر، ولكن التأويل يفيدنا، والتأويل أفاد أهالي الإسكندرية أيضاً، خطبة الشيخ أبو خيرة، مع أغنية المطربة اللبنانية، مع أحلام الناس، كل هذا كان يقطع بأن الإسكندرية دخلت في عصر المخلص. والمخلص، الموكل بالتعبير عن آمال شعبه وقيادة شعبه نحو النور، عليه أن يكون ابن ناس. ابن ناس هنا تعني ابن ناس. له نسب. ولو فقير، ولو متواضع، ولكن أن يكون نسبه معروفاً، أن يكون متصلاً في التاريخ، وثانياً، عليه أن يكون متصلاً في التاريخ السكندري بالتحديد. على مخلص المدينة أن يكون ابن المدينة. وعلى وانجي لم يكونا من أبناء المدينة. ولم تكن هذه مشكلة سهلة. دعونا نتابع الأحداث.

خط التليفون ظل مفتوحاً بين الشيخ علي وسوسو في الأيام التالية. في الغاضبة والمليانة يتصل سوسو. يسأل عن أشياء لا تعني الكثير، ربما ليهدد إحساسه بالقربة في أرض الصعيد القاحلة، هو ابن رائحة اليود والسكك. كل يوم يشحن بعشرين جنياً ويتكلم. أحياناً يكون علي في السنتر، وأحياناً يكون في القهوة، وأحياناً ينسى موبائله في البيت، أو في المكتب، وأحياناً ترد إنجي بدلاً منه. طيب، هذا يحدث كثيراً، ليس أنه مجرد "أحياناً". إنجي ردت ذات يوم عليه فحكى لها سوسو عن البلد، عن ناسها الطيبين، وعن العلاقات بين الناس التي يجتهد لفهمها، وحكى لها عن الجد، جدّها، أبي جدّها المباشر، بخيت. الرجل الذي يحكي عنه أهل البلد كلهم، عنده مزارع وعزب وأطيان

وبهايم- لكن ربنا حرمة من الولاد. ترد إنجي : ربنا حرمة م الولاد ازاى انا دا
كان جدي يا سوسو؟ ليرتبك سوسو: آه، هو اللي حكالي القصة حكاهاالي كدا،
بس بصي: انا هساله بكرة استفسر منه، لإن المعلومة دي كانت تايمه عنه.
يسكت قليلاً ويواصل: هو ممكن كان متجاوز ستك مثلاً، وهي تكون مخلفة من
قبله، هنا ناس كتير بيعملوا كدا. الصعيد اتغير كتير على فكرة. ويتكلم،
ويرغي، وإنجي تسمع، تتدخل لتصحيح معلومة، أو تتركه ليكمل ولا تصحح.
سوسو يحب الكلام، ودمه خفيف، وإنجي ساعات تتجاوب معه. هل حدث
استلطاف بينهما من نوع ما؟ الأيام ستكشف لنا. نحن لا نعرف إلا ما أرادت
الأيام أن ترينا إياه. نحن مجرد وسيط.

مع الوقت تزداد التفاصيل في حكايات سوسو، يحكيها لعلي وإنجي
سويًا. بمجرد أن يسمع قصة جديدة يسرع إلى التليفون. يشحن، ويتكلم. سوسو
أهيل؟ لا، هو مجرد عميل خفيف. يحب الكلام الكثير، وإنجي عرفت عنه هذا.
وإنجي تحب سماع القصص عن بخيت، الأب الأكبر، الأصل المقدس، وسوسو
دمه خفيف كما أشرنا. يقول نكتاً، يدخل من موضوع إلى موضوع بسلاسة. لا
شيء يقف في وجهه. وإنجي تتجاوب. وإنجي لم تكن لتتجاوب لو لم يكن هناك
استلطاف. الأيام أجابت.

في هذه الأثناء كان علي يقف مع العمال. النشاط يتغير بالتدرج. إنجي
سنتر للكمبيوتر واللغات يتحول إلى الكورنتينا سنتر، والكورنتينا سنتر يغطي
عليه الكافية - الذي كان كافيتيريا بالإضافة إلى سايبير صفير- وينسحب دور
السنتر نفسه الخاص بتدريس الكمبيوتر واللغات. الكافية يتوغل، بشكل
أخطبوطي عنكبوتي، ثعلباني وأفعواني، يحتل طابقتين. وكورسات اللغة تأتي
أو لا تأتي. الزبائن على كل حال تأتي للكافية، تشيش وتشرب وتلعب وتترفع

على ماتشات الكرة وفي الدور الأعلى يتم إصعاد زبائن مخصوصين مع بنات السنتر. وصورة أبو أميرة يتم تعليقها بجانب صورة الحاجة اعتماد في مدخل العمارة. وصورة علي بلحيته وأنجي بنقابها أيضاً تحت "قل أعوذ برب الفلق".
بدا واضحاً أن كرموز تدخل مرحلة جديدة. بكافيه واحد مبني على أحدث الطرق والتصميميات يمكنك إدخال الحداثة لحي فقير وقديم. إنه حلم الـ **modernization** من جديد.

- بتحب مصر يا سوسو؟
 - دي بلدي يا شيخ، يعني أهلي فيها.
 - بتحب أهلك طب؟
 - نولا أهلي يا شيخ، يعني نولا الناس اللي عايشين معايا في بلدي.
 - حبيبي يا سوسو.
 - باحيك يا أبو حمادة.
- الحوارات بين علي وسوسو كانت - بالإضافة إلى فائدتها الجمعة - محملة بالكثير من القنشات اللذيذة والمرح الهادف.

بخيت، كان هذا هو السر الذي حمله سوسو لعلي في الأيام التالية. الجد بخيت لم يكن صعيدياً أصلياً، كان قادمًا من وجه بحري. أضاف سوسو، بفضل انه اني هانوصل لمعلومة هتبتطك، هتدعيلي لما تعرفها ياما، بس اصبر بس. وصبر علي، وبعد أيام اتصل سوسو مرة أخرى. الرؤية باننت يا شيخ علي. بخيت جدك أصلاً دا يعتبر اسكندراني، ومن بحري كمان. إيه رأيك بقى يا معلم؟

علي لم يثق بسوسو يوماً، لم يستخونه ولكنه لم يحترمه. لم ير فيه ذلك الرجل الذي كان يراه في أبو أميرة مثلاً. كان يعرف شطارته في القتل وتثبيت العيال واللعب مع الحكومة، أي في كل ما يتصل بالأكشن، ولكن شيئاً خطيراً افتقده في سوسو، الرزانة. سوسو كان عبداً للخبر الثير، وليس الخبر الحقيقي. وهذه نقطة ضعف قاتلة في شغلانة زي شغلانتنا، يقول علي لنفسه.

هذه المرة كانت الوقائع هي ما تؤيد سوسو. والأهم من الوقائع، الرواية المتماسكة، الجد كان ضابطاً برتبة يوزباشي عندما تم نقله من الإسكندرية إلى سوهاج، تزوج هناك وأقام عائلة. سوسو كان يتحرك في كل مكان، ويسأل عن أصل العائلة. لا أحد تذكر ما هو أبعد من بخيت، وامرأة عجوز تذكرت لحظة وصوله إخميم، شاباً بهياً بطربوش وشارب منقصب وأزرار نحاسية لامعة. بخيت الشاب الذي كان ووداً على غير العادة سرعان ما اقترب من أهل البلد، وأعجبته إحداهم، فاطمة بنت أحمد زكي، أرسل بالبوسة لأبيه في الإسكندرية يقول لهم إنه وجد حياته هنا، في الصيد، وأنه قرّف من حياته — كانوا يفضلون أخاه الأصغر عليه، وهذه كانت عمدة من عقد حياته الكثيرة — وأنه عاهد ربه ألا تطأ قدماه أرض الإسكندرية مرة أخرى، حتى ولو لشغل، حتى ولو كان فيها جبل المشنقة، ورد عليه أبوه برسالة يقول فيها إنه لم يعد يعتبره ابناً له وأنه فوض أمره فيه لله، ولكن هذا لن يمنعه، كمسلم وموحد بالله، من أن يمنحه نصيبه من الميراث بحق ربنا. وعندما مات أبوه زاره إخوته في بيته بإخميم وأعطوه ما قالوا إنه نصيبه، وقبل هو. لم يجادل. لم يشكك.

المعلومات كانت تتلاحق في مكالمات سوسو مع إنجي، بتفاصيل مختلفة، وبعد لقائه بناس مختلفين: الجد السكندري الأصلي لم يأت من بحري بالضبط، جاء من كوم الدكة، ولم يقاطع أهله، الذين لم يبق منهم غير أمه العجوز.

بالعكس، ظلت ترسل له رسائل، يكتبها أحد جيرانها على ما يبدو، تقول له إنه واحشها وإنها تنتظر عودته، وتحدثه عن مبالغ مالية تحتاجها، وعن قبر أبيه الذي يحتاج بهائناً جديداً، وتطلب منه أن يفعل هذا في أول نزول له للإسكندرية. طيب، وتحدثه أمه في إحدى الرسائل عن ابن أخيها التعبان في عينيه، وتطلب منه أن يرجع بسرعة ليكشف عليه. إذن، فالجد بخيت كان طبيبياً، ليس ضابطاً. إذن، هيا بنا نضع استنتاجات:

الروايان كانتا مختلفتين، متناقضتين في بعض التفاصيل. ولكن هكذا هي الحقيقة التي نقوم بإطلاع الناس عليها قطرة قطرة، في الفترة نفسها التي نحاول فيها الوصول إليها وترميم شقوقها، ملأى بالتناقضات. وحتى الحقيقة الأخيرة، المكتمة، المختومة، المحررة جيداً، لا تخلو من تناقضات، فما بالننا بحقائق مختلفة يتم تجميعها من هنا وهناك ومن مين ما كان. سوسو أيضاً ربما لم يكن جادا في رحلة البحث هذه، سأل أشخاصاً قليلين، على مرتين، مرة كلم بعدها الشيخ علي فوراً، ومرة كلم بعدها الشيخة إنجي. سألته إنجي عن الرسائل التي أرسلتها أم بخيت إلى بخيت، فقال إنه رآها بنفسه. سألته عن العنوان المسجل عليها فقرأه لها. الأمر لا يحتمل الشك إذن. كما أن علي سأله عن رسالة أبي بخيت إلى بخيت فأخبره إنه رآها بنفسه. سوسو لم يكن يكذب بالمناسبة. سوسو كان يريد أن يضيء مصداقية أكبر على حقيقته التي كان يصل إليها بالتدريج. سوسو كان عبداً للخبر المثير، وليس للخبر الحقيقي.

فجأة، ودون مقدمات، حلم علي بجدته بخيت. كان هذا حدثاً خارقاً، لم يُعرف عن علي الاهتمام البالغ بأجداده من قبل، بالإضافة إلى أمر مهم، بخيت أصلاً كان وجهها جديداً في ذاكرته. لم يسمع اسمه سوى من سوسو، وصفاته التي

ظهرت في الحلم كانت ابنة لصفات سردها عليه سوسو، ظهر طويلاً، ضرب
 طولي وطولك يا شيخ ف اتنين تلاتة وهيطملك بخيت، حلو، وسميناً، حتة
 كرش يا شيخ، بيقولك كان بيتي ماشي أكن جبل ماشي ع الأرض، الدنيا تنهز
 تحته. انه أكبر يا شيخ. - النقيب بخيت يخرج على رأس دورية من شرطة
 الإزالة لطارة أحد باعة شارع سعد زغلول. لكن البائع - كان يشبه عادل أخو
 أبو أميرة - يهرب منه. بخيت الجالس في السيارة إلى يمين السائق يحتل هو
 عجلة القيادة ويطارد عادل. عادل يجري ويجري. بحر الإسكندرية يخلص
 وينكشف وراءه رجال القبائل في الصعيد، بجلالهب وشوم ويفنون -طلع البدر
 علينا-. عادل يظنهم يفنون له فيستجير بهم ولكنه يرفضون إجارتة، يعرفون
 أصله الخميس، ويصل الجد بخيت على حصانه فيرشونه بالملح والزغاريد،
 ونكتشف سوياً أنهم يفنون له. عندما استيقظ حكى لإنجي الحلم: "أنا كنت
 جمبه وهو كان عمال يوصيني على اسكندرية، وكنت ا قوله اسكندرية في عيني
 يا جدي، وجاب سيرتك، قالي مراتك ف عين واسكندرية في عين يا شيخ علي،
 لو دي وقعت دي هتقع."

إنجي طبعاً لم تنبسط من الكلام. أولاً، زوجها يحتكر الجد لنفسه، بينما
 الجد جدها أيضاً، ثانياً، زوجها يحتكر الإسكندرية لنفسه، والإسكندرية
 مدينتها أيضاً. هناك ألعاب وسخة تحدث في أحلام علي. وإنجي لم يكن يعوزها
 سلاح الأحلام. حلمت ببخيت هي الأخرى. في الحلم كان بخيت يجمع متاعه
 من الإسكندرية في بقجة صغيرة. يعلقها بعصا وراء ظهره ويمضي جنوباً. تحو
 وتحكي لعلني حلمها: "كان قاعد يقرالي الكف في العبادة بتاعته، قالي
 اسكندرية قربت تنضف بسببك يا إنجي. وقالي أنا مبسوط ياما، قلنله بس
 انت ادعيلي يا جدو علشان ربنا يكرم، قالي انا دعيتلك خلاص، وانا عاوز

نقولك خدي بالك من علي ، اشاركني معاه وماتخليش مركزك الكبير يفريكي
انك تظلميه معاكي."

علي لم ينيسط. نظر لإنجي وسكت.

توقف سوسو عن تليفوناتهِ المطولة. بدأ في الجِد. كان يحترق بنار التجربة
في أرض الصعيد. تليفوناتهِ أصبحت جملاً تلغرافية: "خسيت النص،
مابيوكلوناش هنا يا عمي، اهلك بخلا"، "ربيت شنب صغير"، "والنعة لو حد
شافني وأنا لابس صعيدي كدا ماهيعرفني، والله ما هيعرفني، إيه رأيك بقي؟"،
"خلاص يا عمي. يومين بعون الله وتشوف عيلة أمين متقطعين وكلهم مرميين في
النيل". الجملة الأخيرة كانت هي الأهم بطبيعة الحال، وبرزم هذا، فلم
يتحدث سوسو كثيراً عن محاولاته لاصطياد عائلة أمين. ترك علي وإنجي
عالقين في حيرتهم. كانا يعرفان أنه قادر على مهمته، ولكن شيئاً من القلق
داخلهما. القلق شعور إنساني.

إنجي تفعل ما تريد. دائما هكذا. تمشي بدماغها، منذ قررت العودة من أبو ظبي إلى مصر، وقررت دفع علي للأخذ بثأره، وحتى كونت إمبراطوريتها في كرموز طوبة طوبة. قررت إنجي أن تتقنع بنفسها خطى الجد الراحل. طلبت غادة، سألتها إن كان لها زبائن في كوم الدكة فأجابت غادة بالنفي. طيب يا غادة، الحاجة اللي أنا هاطلبها منك دلوقت دي ممكن تعتبرها خدمة شخصية، والمقابل بقاعها هيبقى كبير أوي. - أخرجت إنجي عنوان بيت كوم الدكة لغادة. صحيح أن بيت الجد بخيت تم هدمه منذ وقت طويل، ولكن الأكيد أن أمامه نسبة شاي، يقوم عليها رجل في الخمسين من العمر، الرجل ابن لرجل عجوز، والعجوز ابن الشيخ، والشيخ قد يكون قد حضر بخيت. كل ما تطلبه إنجي هو المعلومات. وكلامها واضح، معلومات أكثر تساوي فلوس أكثر، وفلوس أكثر لا تعني ألف أو ألفين أو حتى ثلاثة آلاف جني. إنما تعني عشرين ألف: -أنا عارفة يا غادة إنك ممكن تسيبيننا وتمشي لو خدتي الفلوس ف إيدك، زي ما تحبي. إحنا مش هنقفو في طريق سعادتك، بس أهم حاجة عندي تجيبيلي كلام مظلوظ عن الراجل اللي بقولك عليه. فهمتيني يا حبي؟

غادة كانت تفكر في أشياء أبعد من الجد، ومن العشرين ألف جني. غادة تجاوزت الثلاثين هذا الشهر. ويمنتهى الأمانة، فلقد زهقت من حياتها. غادة لم تولد هكذا، من منا ولد هكذا؟! غادة أكملت تعليمها في كلية تجارة، وكان

المفروض أن تصبح محاسبة قد الدنيا، لكن كذا قصة حب فاشلة دفعت بها إلى كافييه في المعمورة بدأت فيه طريقها نحو الانحراف. التقطنها الحاجة اعتماد. ودفعت بها للعمل كبيبي سيمتر في عدد من البيوت، وواصلت عادة طريق الانحراف في البيوت التي خدمت بها. الانحراف لذيذ في أوله فقط. وبعده العذاب والويل ودموع الليل. هذا ما آمنت به. لذا فقد أرادت أي مبلغ يسترها. فكرت في كذا مشروع. نصبة سمك، ككشك سجائر، تضع الفلوس ف البنك وتصرف على نفسها من الفوائد، ولكن المشروع الأهم، أن تشارك إنجي في الكافييه، هذا كان الأكثر ملائمة لطموحاتها. أخذت عادة نفسها إلى كوم الدكة، وقد عقدت العزم على النجاح في مهمتها.

الستحيل، كلمة لا تعرفها عادة.

الستحيل، كلمة لا تعرفها إنجي.

الستحيل، كلمة لا يعرفها عامة الباحثون عن الحقيقة.

إنجي لم تكن تبحث عن حقيقتها هي فقط. كانت تبحث عن حقيقة وطن. علي، في الفترة التي تركته فيها إنجي، أخذ يدرس ويذاكر تاريخ الإسكندرية، وهو ما لم يكن متاحاً لزوجته، التي كانت في هذا الوقت مشغولة بتكوين مركزها وقلوسها ومنصبها الكبير. لذا فقد أرادت إنجي تعويض هذا بالوصول إلى حقيقتها، جنورها، وعن طريقها سيمكنها أن تفهم شيئاً عما حدث في الإسكندرية على مدار قرن من الزمان. عاودها حلم كانت تحلم به زمان. تشهد مسرح عرائس، وتظل تضحك وتصفق، والرجل الذي بجانبها يزغر لها فترتبك. يشير لها إلى فوق رأسها فتتنظر لفوق وتكتشف أنها واحدة من العرائس المتحركة، وأن هناك خيطاً طويلاً ممدوداً إلى السقف حيث يقف الرجل الذي يحركها. تحاول شد الخيط ولكنه لا ينشد، فتحاول تسلقه. الموضوع معقد

جداً، تنجح مرة وتفشل مرات، وخلفية موسيقية شغالة في الحلم، "يا مسا الجمال والدلال والورد العالي"، وأنجي تصعد، والأغنية تصعد، مع الأصل نور. إنجي تقع من سقف مسرح العرايس. إنجي تقع من فوق السرير، إنجي لا تتمكن من التنوير ع الأصل، ولكل هذه الأسباب تقرر إنجي أن تحقق في الواقع ما فشلت في تحقيقه في عالم الأحلام الساحرة.

علي لم يكن يعرف شيئاً عن رحلة غادة، ويلزم القول أنه كان يشرع في رحلة جديدة، إنجي لم تكن تعرف عنها شيئاً كذلك. قرر الذهاب بنفسه إلى الأنفوشي، إلى العنوان الذي وصفه له سوسو، اطلع على مكانه، قهوة بلدي، ثم زار قسم الأنفوشي. هناك جلس مع المقدم كمال. تحدثنا سوياً عن حال البلد، المقدم قال له في معرض حديثه: "أوعى تفكر يا شيخ علي إني ضحك أو ضد مدام إنجي. بالعكس، الداخلية كلها تعتبر معاك، بس احنا مافإيدناش حاجة"، علي لم يستجب لهذا الإطراء، الذي يعرف أنه كاذب، وإنما لجأ إلى ضربة خاسمة من أول الحديث: "واحنا والله كلنا بنحبيكم. ولو طلب أي ظابط أي حاجة منفا عمرنا ما بنتأخر، الداخلية تعتبر هي الدرع اللي بيحمي البلد"، اتصل به رقم فكنسل عليه، ثم التفت إلى المقدم: "البنوتة اللي بعتناها لك الأسبوع اللي فات انشائه عجبتك يا باشا؟" هكذا، فعلياً، وبهذه الجملة، أصبح أرسيف قسم الأنفوشي في خدمة الشيخ علي، الأرسيف الشنهي طبعاً. المقدم كمال ظل يحكي له عن القسم، وعن ضباطه وعساكره وأمنائه، وعن تاريخه وتاريخ المنطقة، وعلي أخذ يبحث ويبحث ويبحث عن أثر في كلامه ليوزباشي اسمه بخيت تم نقله إلى سوهاج. لساعات طويلة ظل يسمع، هناك ثلاثة بخيت، الأول الرائد أحمد بخيت عبد الله الذي يخدم في القسم حالياً، والثاني سليمان

بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر وترقى من يوزباشي إلى صاغ ثم اختفت آثاره، لم يشر له المقدم، ولم يحب علي أن يسأله بشكل مباشر، والثالث اللواء بخيت عبد الصمد وانتقلت خدمته في الثمانينيات، والثاني سليمان بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر، والثاني سليمان بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر، عادت أن علي بسرعة لتتأكد من اسم الضابط. تأكدت من المعلومات المصاحبة. وبدأ عقله ينسج قصته.

برغم هذه الزيارة السريعة، والتي كانت تبشر بزيارات أكثر رواقاً وتمعناً، لم يشر علي لأي شيء. كان يقف صباحاً في الحمام. يغسل أسنانه ويهذب لحيته أمام المرآة، وتمر إنجي، فيتذكر رحلته. ويتذكر أنه لابد من إخبارها بشيء ما، ولو تلميح بسيط، يعني، حتى لا تتهمه فيما بعد أنه أخفى أشياء عنها. كان يفطر معها في الصباح رغيفين عيش وجبنة وشايًا، وكانت تنظر إليه، وكان يفكر رحلته، ويتذكر أنه لابد من إخبارها بشيء ما. كان ينزل معها إلى الكافيه ويقوم بتطبيع الحسابات، ويتذكر، ويتذكر، ولكنه يجبن في النهاية. علي كان يريد الالتحام بأجداده السكندريين. علي - المثقف في كل ما يتعلق بتاريخ المدينة - كان يتخيل التاريخ السكندري كأنه حلقة تلتحم ببعضها، مؤسس الإسكندرية القديمة، سليمان بخيت، يلتحم بحفيده، الشيخ علي. مؤسس الإسكندرية الحديثة. التاريخ السكندري هو تاريخ من التمرد، الجد تمرد على سلطة الدولة وهرب إلى الصعيد ليؤسس عائلة خارجة عن القانون، والحفيد يعود إلى الإسكندرية هرباً من عائلته ليؤسس عائلة خارجة عن القانون هي الأخرى، ولكن انتبه، خارجة عن القانون ليس لكراهيتها في فكرة القانون بشكل عام، ولكن لكراهيتها للقانون الحالي. قانون الدولة الفاسدة وحكم العائلة، علي كان يفكر في العدل، وليس القانون. إذا صح

التمبير. وكل هذا سيحفظ إذا عرفت إنجي بالأمر. ليس لأن علي كان يريد مجداً لنفسه، علي آخر حاجة فكر فيها هي نفسه، ولكن لأن إنجي تُعتبر واحدة ست غاوية نكد، أو تُعتبر مجنونة بمعنى أصح، وستدخل في كل كبيرة وصغيرة. سوف يخبرها يوماً ما، أكيد سوف يخبرها. في انتظار الوقت المناسب.

الثأر هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير. اقتحمت مجموعة من الغرباء الجامع الكبير بقرية جزيرة محروس، واحدة من قرى مركز إخميم بمحافظة سوهاج، وقاموا بذبح الإمام ومصليين اثنين عبر فصل رؤوسهم عن أجسادهم، وذلك أثناء صلاة العشاء، وقد انتابت حالة من الذعر المصلين، الذين تدافعوا هرباً من المسجد. وكان الغرباء فور اقتحامهم المسجد قد قاموا بإطلاق النار على لبات المسجد النيون مما أدى إلى الإطلام التام للمسجد وجعل التعرف عليهم مهمة مستحيلة، ثم قاموا بجريمتهم وفصلوا الرؤوس عن أجساد الأشقاء الثلاثة محمد وعبد الله وعبد الرحمن أبناء عبد الله أمين، وتركوا الجثث في المسجد، أما الرؤوس فقد قاموا بإلقائها من فوق الكوبري الجديد ليتم العثور عليها طافية على سطح النيل بعد ساعات.

في فجر اليوم التالي غادر سعيد رجب شحاتة، الشهير بسوسو، شقته التي كان يستأجرها بمدينة إخميم عائداً إلى الإسكندرية. يذكر أن سعيد رجب شحاتة قد ربي شنباً ربيعاً، ونزل كرشه بشكل ملحوظ، في الفترة التي قضاها في إخميم، ويذكر أنه فورما نزل في محطة مصر بالإسكندرية واستنشق بعمق

رائحة اليهود السكندري حتى وطى على الأرض وباسها، بدون تفكير ولا حسابات. يذكر أن العائد للإسكندرية كان يعشق الإسكندرية.

أرض كرموز كلها تم فرشها بالورد، وتم تشغيل اللمض في كل سنتي فيها ليلاً ونهاراً مع أغاني أسماء الله الحسنى وبسم الله الرحمن الرحيم وهنبأ الليلة منبعثة من ستيريوهات عملاقة ودي جي. وسوسو يخطو بداخلها على حصان أبيض قوي، بجلاية بيضا وعباية سوبا محيياً الناس باتجاه محل كتب عليه بخط رديء "كبدة الكرتينا، لصاحبها سعيد رجب الشهير بسوسو وأولاده من بعده إن شاء الله". سوسو ينزل من على ظهر الحصان، ويشاهد الناس علي وانجي يتقدمان من الاتجاه المقابل. يحضنه علي ويبوسه مشيراً إلى محل الكبدة الجديد في الشارع، وتسلم عليه إنجي وتضحك في وجهه. لا يسمع الناس ما تبادلان من حديث، صوت المزيك يغطي على كل شيء. إلى أن شوهدت الحاجة اعتماد قادمة من طرف الشارع، أشار علي للمزيكا بالسكوت، ثم صعد بجانب الذي جي، تناول المايك وبدأ في الحديث:

" دلوقتي أنا عاوز احبي الحاجة اعتماد. الحاجة اعتماد اللي وقفت معنا في أول طريقنا، وكان فضلها علينا بعد ربنا عز وجل كبير جداً، عسى الله أن يجعلها في ميزان حسناتها. الحاجة اعتماد اللي يشهد الله أن اللي جمعنا بيها مش هو الشغل ولا المصالح، إنما كانت بمسابة الأم الغالية وعمرها ما بخلت علينا بالنصيحة. ولذلك احب اقول إنه إنا ما كنا فيه من خير دلوقتي فبفضل الست الغالية علينا دي، وإنا كان شر فبسوء من عند أنفسنا."

الحاجة اعتماد كبرت وعندها مشاكل في الركبة. تسير مستندة على كتف ابنتها منة من ناحية، وعلى كتف رفيقة عمرها مدام نادية من ناحية

أخرى. تطيب بكفها على صدرها وتوطي رأسها عرفاناً. والشيوخ علي يواصل التحية:

دلوقتي احنا بنحيو واحد من رجالة الحتة، أحسن واحد في رجالة الحتة، رجالة كرموز. المعلم سوسو اللي دافع عن كرامة أهله وماقبليش على نفسه ان حد يشمت فينا، المعلم سوسو اللي اخوه يبقى المعلم أبو أميرة، الراجل اللي وقف جميعنا واحنا بنينو كرموز حتة حتة وعمره ما بخل علينا بحاجة، المعلم سوسو اللي أنا باعتبره بمسابة أخويا الصغير، ورب أخ لك لم تلده أبوك وأمك، واللي كبير دلوقتي يبقى راجل واللي بأشهد ربنا إنه لو عندي بنت اني هانتقدم لاخويا وصديقي أبو أميرة علشان اطلبه ليها، والله يشهد على ما أقول. لكن نقول الخيرة فيما اختاره الله وربنا بيقول الطيبون للطيبات واحنا مش هنلاقي أحسن من الآنسة منة، الآنسة منة اللي هي بنت أمنا الحاجة اعتماد، بنت الشهيد، ابن الإسكندرية البار، الحاج محمد حربي، الراجل اللي ماخافش ولا جاب ورا عشان خاطر الحتة وأهل الحتة. حاجة اعتماد، إحنا دلوقتي بنطلبو إيد مدام يلتنا الحلوة. الآنسة منة الله، للمعلم سوسو، أقسم بربي إنه ما حيا في دنيا أو مال أو سلطان وإنما حياً في هذا النسب الطاهر.

الحاجة اعتماد لم تعد تستطيع رفع صوتها كما كانت في البداية، تضحك بخجل وتميل على وبن مدام نادية توشوشها. ومام نادية لا تقصر. ترفع صوتها بزغرودة هائلة. وتتوالى بعدها الزغاريد. كل الحضور، رجالة وستات، بزغردون ويرقصون، وحدها منة جالسة في مكانها. تنظر بخجل إلى عريسها المستقبلي. الأنتى كائن جميل يتميز بالحياء.

قصة حب مئة وسوسولم تبدأ في هذا اليوم. لقد كانت ابنة سنتين
كاملتين. منذ أن رآها سوسو لأول مرة في بيت أمها وهو ينقل لهم شوية
طلبات، بدأ بينهم أحلى كلام من ساعتها، برغم الفارق الثقافي والاجتماعي
بينهما. قصة الحب البريئة هذه نمت تحت الأعين المراقبة للحاجة، والتي لم
تكن تتدخل إلا لتوجيه النصيحة الغالية والنصيحة الطيبة، وتحت أعين مدام
نادية، مدام نادية التي كان لها رأي في البداية، صرحت به مترددة للحاجة
اعتماد: "ماتخلي بتك ياختي تقعد ف بيت ابوها".

توجست الحاجة. الحاج حربي، الرجل الذي كانتا تتناقسان عليه في
الماضي هو محور الحديث: أنهى بيت ابوها يا نادية؟
- بيت ابوها يا اختي ف غيط العنب.

- دا مش بيت ابوها يا نادية. دا بيتك انتي.

- إخص عليكى. وهو انا وابوها إيه. مش واحد؟!

سواء قيلت الكلمات الأخيرة بحسن نية أو بسوء نية فلقد تكهرب الجو
بعدها. صرخت اعتماد: "لا يا حبيبتي مش واحد. واحد دي تقوليها لو كان
كاتب عليكى. انتي حيااه كان مرافقك وكان يرجعلي انا اخر الليل".

قالت هذا وقامت، وسيلزمها أسبوعان لتصحيح أثر هذا الكلام. العلاقات
بينها وبين نادية هي دائماً علاقات شد وجذب. مهما أخطأت الواحدة منهما في
الأخرى، وحربي دائماً هو محور الغلط، فإنهما ترجعان لبعضهما البعض.
ورجوعهما لبعض هذه المرة، أو مسامحة نادية لاعتماد، استلزم من الأخيرة
الموافقة على شرط الأولى: أن تكون شقتها السابقة في غيط العنب، وهي الشقة
التي قضى فيها حربي معظم أوقاته معها، هي شقة زوجية مئة وسوسو.

نادية أيضاً كان لديها تصور ما عن تاريخ الإسكندرية. التاريخ يلتحم
ببعضه. والمدينة التي كانت سابقاً محوراً لقاومة فعالة يقوم بها حربي ضد

السلطة في مصر، تصبح الآن محوراً لمقاومة أخرى يقوم بها جيل الكرنيتينا، هذا الجيل الذي يستلم من حربي الراية ويعلن نضاله في وجه الظلم. يجدر بنا أن نسأل الآن عن معنى تردد هذا المجاز: التاريخ السكندري يلتحم ببعضه، سواء في ذهن نادبة أو في ذهن علي أو في أنذهان الجميع. لم يكن هذا المجاز ملكية خاصة بهم. صاحبه الأساسي كان حربي. روت اعتماد فور موته أنه كان جالماً معها. كان يشيش في قلب الصالون، الذي لم يكن سوى أرض عارية وكرسيين وجهاز تليفزيون على ترابيزة، كانت تقنعه بأهمية أن تتعلم منة، التي كان عمرها عاماً واحداً فقط ساعتها، بشكل نظيف وراقي، أهمية أن تدخل مدارس نضيفة، حتى لا تكرر خيبتها. شد نفساً من الشيخة وقال لها: "مين قالك يا ولية إنني عاوزها تتعلم. انا عاوزها تكمل اللي بنعمله. عاوز اسكندرية كلها تعمل اللي اني بنعمله."

على العموم، القرار بإدخال منة المدرسة هو الذي انتصر، ولكن بقيت جملة حربي خالدة. روتها اعتماد لمنة عندما كبرت، وروتها لنادبة، وروتها نادبة لجميع من عرفتهم، ورواها جميع من عرفتهم لجميع من عرفوهم. تحولت الجملة إلى شعار. وكتبت بالأحرف الذهبية في كتاب التاريخ الشفهي للإسكندرية. الحلقات السكندرية تواصل بعضها، لا حلقة مفصولة عن الأخرى، سوسو ومنة سوف يعيشان في الشقة التي أدار منها حربي معاركه، علي وإنجي هما تجسيد حي ومستمر لحربي. وحربي تجسيد حي ومستمر لآخرين بعيدين في الزمن، وهكذا منذ بداية الخليقة، منذ اللحظة التي عشر فيها الإسكندر المقدوني على الإسكندرية. قطعة أرض مهملة على البحر.

- تعرف إيه عن التماسيح يا شيخ علي؟
- حيوانات مخيفة.

- طب مين بيخوف أكثر، هما ولا التعابين؟

- برضه التعابين تعتبر مخيفة.

- كل نعمة ربنا مخيفة.

- انت صح يا سوسو.

- انت مربيني يا شيخ.

إنجي كانت تبحث عن أصولها في مكان آخر، في كوم الدكة. لأيام طويلة لم تملها أخبار من عادة. عصيها هذا كثيراً. كادت تخبر علي، هو رجل وسيتصرف. ولكنها تراجع في اللحظات الأخيرة. أول اتصال من عادة بها حدث بعد أسبوعين. قالت لها إنها في الطريق إليها. في مكتبها بالكافيه حكيت لها عادة عما عرفته، عرفت ثلاثة رجال، أو رجلين وشاباً، منهم صاحب نصبة شاي كانت إنجي نفسها من دلتها عليه، كانوا يقولون إنهم يعرفون أشياء عن الجد بخيت. لم تطمان لأي منهم. نامت مع الجميع، ولم تطمان. عادة تعرف الكاذب من الصادق. وهكنا حتى التقمت بامرأة غريبة، كانت تشوي سكاماً في المنطقة. المرأة هي التي تقربت منها، وعزمتها عندها في بيتها، أودة صغيرة تحت السلم، وهناك سكرتها وسألته لمانا تبحث عن بخيت. عادة التي لم تكن رأسها قد لغت بعد قالت إنها تبحث عنه علشان حاجة كفاف دماغها، ورفضت الإفصاح. سألتها المرأة بوضوح إن كانت تبحث عنه من أجل المرة الحربية اللي اسمها إنشي؟ لم ترد عادة. واصلت المرأة: "أنتي نعرفها كويس. روحي قوليلها يا ختي. قوليلها إن طلبها عندي. الراجل اللي هي بتدور عليه دا حكاية قديمة في التاريخ، واني حافظها. قوليلها بس خالتك أم أميرة بتسلم عليكى."

غادة واصلت: -هي اسمها أم أميرة بس الناس في المنطة بيتولوها أم أميرة
القرعة. شعر راسها واقع خالص. منظرها يخض يا مدام إنجي والله. -
إنجي لم بيد على ملامحها تأثر. سألتها كيف يمكن الوصول لأم أميرة،
والأهم، كيف تثق فيها بعد أن ضللتها سائر الناس؟ كيف يمكن الوصول إليها
هذه بسيطة. ستذهبان معاً إلى النصبية التي تشوي عليها السمك، هي هناك
أربعة وعشرين ساعة. كيف تثق فيها قصة طويلة.

-أنا ماكنتش مصدقاها في الأول. الدليل اللي خلاني مانصدقهاش إن هي
اللي جرت ورايا، هي اللي راحتلي مش أنا اللي رحلتها، ودا أكبر دليل إن
ليها مصلحة. بس هي عطقتني صورة بخيت نفسها. -
قلب إنجي بق.

-أنا قلت مانوريهاالكيش إلا اما نحكيك القصة كلها. -أخرجت الصورة.
الصورة قديمة وتنتمي لأوائل القرن العشرين. الجد بشارب مغزلن وطربوش.
-سبحان الله يا مدام إنجي. الراجل الخالق الناطق حضرتك والشيخ علي. مش هو
يعتبر جدكو إنتو الاتنين. أنا اما شفتها ماصدقتش نفسي والله. قلت معقول فيه
شبه كدا؟ -

تركتها إنجي تتحدث وغابت في الصورة.

بق قلبها. هاهي تشهد ميلاد الأسطورة. أول لحظة في التاريخ.

غابت لحظة في التاريخ، هذا ما بدا. من وراء فتحة النجاب لمحت غادة
عينيها تلتعان بالماء. استأذنت إنجي وقامت لدقائق في الحمام. عندما عادت
كان وجهها كان قد أصبح أكثر إشراقاً. عيناها مبتسمتان: -شوفي يا غادة. إنتي
كدا علمتي اللي عليكي واكثر. الحاجة الأخيرة اللي أنا عاوزاها منك انك
توصليني بالست أم أميرة دي. وياريت لو تقدر تيجي الكافية هنا. -

طبعاً أم أميرة لا يمكنها زيارة الكافيه. عرضت عادة عليها هذا فثارت:
"وديني وما أعبد ما اعتب منطقتهم. دي حنة نجمة. لو عاوزين ييجوا يشربوا
شاي أهلاً وسهلاً وانى نقعدو هنا زي الملكة معززة مكرمة." قررت إنجي
زيارتها مع عادة..

أم أميرة فقدت شعر مقدمة رأسها تماماً، ولا ترتدي حجاباً، تجلس على
نصبتها. تشرب سجائر وتخرج قزازة الخمرة من عيها وتشرب منها. عرفت
إنجي برغم النقاب منذ رأتها قادمة عليها بجانب عادة. هتفت بلسان ثقيل:
"أهلاً بست البنات، تعالي سلّمي على خالك يا عروستنا." إنجي التي استاءت
من هذا الاستقبال - إنجي لم تعد هي مجرد ست البنات أو عروستنا، إنجي
هي الشيخة إنجي، أو مدام إنجي، ملكة كرموز - إنجي هذه مدت إليها
أطراف أصابعها. ولكن أم أميرة قفزت عليها وحضنتها وباستها، ثم قادتها مع
عادة إلى غرفتها الصغيرة. أصرت ألا تتكلم قبل أن يأكلوا شوية سمك شوتهم هي
بيديها. أكلن، وبدأت أم أميرة بالكلام:

"شوفي ياختي. أني بمبيكم أديلي سنين وسنين مرمية زي الكلبة هنا. ولا
حد يعرفني ولا حد يسأل فيا. لكن انا قلت معلش، مش هنعملو عقلي بعقل
واحدة من نور ولادي. صح ولا إيه يا أهلة، حتى لو كنتي انتو اللي وقعتموا بيئي
وبين جوزي، وحتى لو كنتو انتو سبب بهدلتي البهدلة دي كلها، بس اني
بنفسى وينسامح، بس دلوقتي جا وقت دفع الحساب. اني عاوزه نتموض،
ونتموضو كويس كمان، وقصاد نا هتعرفي سني كل حاجة عاوزه تعرفيها عن
جلك."

ما نوعية التعويض الذي تطلبه أم أميرة القرعة؟ ليس كثيراً. هو العدل
وليس أزيد مليحاً من العدل. تريد محلاً للسمك لها بجانب الكرنيتينا. هي

ليمت أقل من الواد سوسو الجربوع أخو جوزها. وعشر تلاف جنني في
إيدها، حقة واحدة، لا على دفعات ولا على شيكات. إنجي، التي كانت قد
خلعت نقابها وبخنت سيجارة، نظرت إلى أم أميرة ووافقت. لكن على
شرط، محل السمك لن تحصل عليه قبل سنة، عندما تقارن إنجي بين كلامها
وكلام الناس الثانية، في اللحظة التي يتم فيها الإعلان عن بخيت، طبيب كوم
الدكة القديم، بوصفه الأصل المؤسس لعائلة الشخة إنجي. ستمتلم أم أميرة
محلها.

”حلو يختي، النهاردة اني هحكيلك شوية حاجات كدا، وبكرة تشرفينا
مرة ثاني مع الممازيل عادة، وتديني فلوسي واديكي شوية صور وورق كان
المرحوم كاتبه بإيده.“ وافقت إنجي.

الحكاية طويلة، بدأت من طفولة أم أميرة. أبوها في آخر سنة يخرف.
طول الوقت يتكلم عنهم، عن ناس يسحرون له ولبيته، وعن الشيخ حامد الذي
سيكون عنده الحل لكل شيء. كانت الخمرة قد خربت عقله تماماً، والأفيون،
والمن: ”اني ماكنتش نعرف مين الشيخ حامد دوت، قمت رايحة سألت أمي:
أمي كات ست على باب الله، كلنا على باب الله، بس هي كات زي ما تقولي
بغسل هدم وحاجات كدا للي عاوز، واني لغاية دلوقتي نتشرفو بيها قدام
أنخن تخين فيكي يا اسكندرية. هي بقى حكنتلي القصة كلها، الشيخ حامد دا
كان راجل بيمعبد ربنا في الجامع، وخلف خمس عيال. لسة فاكرة أساميهم
لغاية دلوقت. حسن وعبد الله وفادية وبخيت وحسين، دي كلها قصة في
التاريخ، كل دا حصل قبل اما اتولد بياما. أمي كات تحكي لي قصة الناس دي،
كلهم ناس حلوين والله، ما عدا بخيت النجم (تنظر لإنجي). تتابع رد فعلها.
لا رد فعل على وجه إنجي)، زي ما بنقولك كدا. الولا بخيت بعد ما أبوه صرف

عليه. وكح تراب عشان يعلمه قالك انا مسافر الفلاحين، (إنجي تصحح: الصعيد يا أم أميرة)، يختي اهو غار ف داهية وخلص، وهو الصعيد والفلاحين إيه، بقى يقول أني هنيقى دكتور ونافرو الفلاحين. أنا أبويا كان شغال عند الراجل حامد دا، كان بيجيبله طلباته ويظبطله قعدته، فكان بقى يسمع الراجل وهو بيتعارك مع ابنه ويقوله يا نجس يا وسخ، وبيا ابن كذا وكذا، كلام قدر يعني، بقى انا اصرف عليك وانت عاوز تسميني وانا بقيت كبير ف السن وتعبان. والثاني كان ركب دماغه خلاص. مابقاش فيه كلام ينفع معاه.

قبل أن يموت الشيخ حامد، سرق خادمه صندوقاً كبيراً من عنده كان يحتفظ فيه بأمواله، التي كانت عبارة عن أربعة وخمسين جنيهًا بالضيطة. تصرف في المال بسرعة، أما ما لم يستطع التصرف فيه فهو رسائل وجدها في الصندوق، من بخيت لأبيه، وصور للأولاد كلهم، وبخيت من بينهم. هذا الصندوق ظل ملك أبو أم أميرة. لم يتخلص منه على مدار حياته، وهو سبب عقدة الذنب الذي ظل يشعر بها تجاه الشيخ حامد. هذا الصندوق كله ملك أم أميرة الآن، وحصول إنجي عليه مرهون بدفع العشرة آلاف جني، ثم المحل فيما بعد.

إنجي كانت تدمع. كانت تخرج مندبلاً تلو الآخر من حقيبتها وتجفف دموعها. لدى سماعها الجملة الأخيرة نظرت لأم أميرة.
- الجوابات والصور ديت تعتبر بقاعنا يا أم أميرة. إنتو تعتبروا سارقينها مننا.

- يبقى خديها ياختي. لو عرفتي تاخديها. وساعتها تبقى والله شيخة عن حق مش زي كلام النصب اللي بتقوليه. وابقى انا مش انا أم أميرة.

سكتت إنجي.

•••

في اليوم التالي. زارت إنجي أم أميرة. أعطتها المبلغ المطلوب، وأخذت كيس نايلون به عدة أوراق مہترنة. بعد انصرافها ذهب أم أميرة لتشتري خمرة. أعطها البائع زجاجة البراندي الذي تشربه. شربتها كلها في غرفتها ثم تلوت من الألم. أمسكت معدتها وحاولت التقيؤ ولم تستطع. سقطت على الأرض وقبضت على رجل الكرسي وعضتها وظلت ترفس في الهواء نصف ساعة. في نفس اليوم، وقبل أن يشم أحد من الجيران رائحة الجثة. اقتحم شابان غرفتها، أخذوا الحقيبة التي تحوي العشرة آلاف جنياً، ورجعا بها إلى إنجي. فتحت إنجي الحقيبة، عدت المبلغ جيداً، ثم أعطت الشابين حقهما.

•••

- ولا يا سوسو.

- عيني يا شيخ.

- الدنيا ابتدت ازاي يا سوسو؟

- الدنيا ابتدت لما ربنا سبحانه وتعالى خلق آدم.

- مش الفكرة، مانا عارف، هو انا مش عارف، الفكرة الناس كانوا

لايهين ايه، ببشربوا ايه، كانوا بيتكلموا لغة ايه؟

- الناس كانوا بياكلوا لغاية اما يشبعوا يا شيخ، وبيلبسوا هدوم،

ويعتبروا بيتكلموا بلفتنا.

- عيني عليك يا سوسو.

- (يضحك ويدمع ويخبط كفاً بكف) والمصحف انت غسل يا ابو حمامة يا

سكرة.

من هو اليوزباشي سليمان بخيت؟

تعب علي كثيراً بحثاً عن هذه المعلومة.

طوابير من نساء الكرتينا كن ييزرن قسم الأنفوشي هذه الأيام. كون علي له صداقات كثيرة داخل القسم. كان هذا هو العصر الذهبي في العلاقة بين الكرتينا والحكومة. سهر الشيخ علي مع الضباط يومياً، تعرف عليهم جميعاً بأسمائهم، من أول عسكري مجند إلى العقيد مأمور القسم. وطبعاً كل شيء، على حسابه. خدمته التي طلبها منهم بسيطة: الوصول لأي أثر لسليمان بخيت. والأثر كان ضائعاً تماماً. جلسة جمعتهم في إحدى غرف الكرتينا بالعقيد أحمد عمران والمقدم كمال والملازم مدحت بثت في قلبه شيئاً من الأمل. العقيد عمران كان صاحب النصيب الأوفر من الكلام: شوف يا شيخ علي. انا ما عرفش مين دخل في دماغك حكاية انه كان فيه ظابط اسمه سليمان بخيت بيخدم ف الانفوشي. (ينظر علي للمقدم كمال ولا يتكلم)، لكن دا كله كلام فاضي. ما حدش يابني يعرف الحاجات دي. انت لازم تطلع تسريح وتسريح تدور في المديرية، وتسريح ثاني وتسريح الوزارة، وتسريح ثالث ف دار الوثائق، الموضوع صعب. الموضوع مش سهل. (ينظر لن حوله) مش سهل خالص. مش كذا؟

الموضوع صعب صحيح، لكن الملازم مدحت لا يراه بهذه الصعوبة. الجميع كانوا سكرانين. لم يكن هناك مجال للتقاليد العسكرية الزائدة ولا للموافقة على آراء نوبي الرتبة الأكبر. رد مدحت: إذا سمحتلي يا عمران باشا الموضوع سعادتك مش بالصعوبة دي. هو تسريح واحد من دار الوثائق، الراجل اللي انت بتدور عليه كان في سنة الف تمنمية وحاجة. صح يا شيخ علي.

المقدم كمال مدافعاً عن روايته: بس يا عمران باشا انا موضوع سليمان
بخيت دا اللي حاكلي عليه العميد عبد الحميد، الراجل دا كان يعتبر مرجع في
تاريخ الشرطة.

العقيد عمران: يا ابني انت مين العميد عبد الحميد اللي انت بتتكلم عليه
دا؟ دا راجل يعتبر مش مرجع ثقة. انت عارف انه كان دفعتي؟ (يهز كمال
رأسه بالإيجاب)، ماتجيبنا قزاة ويسكي تانية يا علي يا بني.

الملازم مدحت: إنت عارف يا باشا إن العميد عبد الحميد دا درّسلي في
الكلية. إنت عارف بقى (يقمز، يبدو حريماً على ألا تُمسك عليه أي كلمة).

العقيد عمران: يا ساتر يارب. وقدرتوا تستحملوه ازاي يا مدحت؟
المقدم كمال: (يحاول الخروج من المأزق الذي وضع نفسه فيه بالإشارة إلى
اللوا عبد الحميد) انت بخيل ولا إيه يا شيخ علي؟ انت مش قعدت تقولنا هانمز
بحمام وجميري؟

الملازم مدحت: صحيح، فين الحمام يا شيخ علي؟

المقدم كمال: والجميري؟

العقيد عمران يدندن مسطولاً: فين الحمام يا شيخ علي (يهتفون: افه
افه 1)، ولا فين الجميري، (يا عيني، يا عيني 1)، ولا انت ليه ظالمنا معاك يا
راجل يا مفتري.

تصفيق حاد، ثم يهتفون فيما يشبه نغماً واحداً، وبأصوات متنافرة: يا
مفتري، يا مفتري، ياللي انت بتوعد بالجميري.

كورس: يا مفتري يا مفتري، يا شيخ علي، ياللي انت راجل مفتري.

الملازم مدحت كان هو أول من اتصل بالشيخ علي ليبشره بالوصول إلى طرف الخيط وطرف الخيط اسمه فعلاً سليمان بخيت. صدقت الرزيا إنن. سافر الملازم للقاهرة، اطلع على وثائق متحف الشرطة، ووثائق وزارة الداخلية ووثائق دار الوثائق، وعاد بما يشبه الحقيقة المكتملة. اليوزباشي سليمان بخيت غادر الإسكندرية عام ١٨٩٠ إلى الصعيد، كان موقف إسكندرية كلها على رجل، كان ضابط شاطر وكان يكره الإنجليز، فيه ناس بتقول إنه اتنقل الصعيد علشان كان يبشجع عرابي، في وقت كان هذا يعتبر فيه قصة الخيانة، خيانة عظمى يعني يا شيخ. أخذ الملازم مدحت يحكي عن بطولات اليوزباشي الراحل. وقوفه على يمين عرابي وأمام الخديو توفيق يهتف بقوة: أقسم بالله العلي العظيم إننا لن نستورث بعد اليوم. ومال عليه فجأة: دلوقتي يا شيخ علي، انا ماكانش ممكن اعمل الحاجات دي كلها من غير إمضة العقيد عمران والمقدم كمال. هما بيمألوك على حقهم. أجاب الشيخ علي بأنه من الغد سيكون مبلغ خمسناشر ألف جنيه قد أودع في حساب كل منهما وفي حساب الملازم نفسه أيضاً. ابتم الملازم: طيب والحلاوة بتاعتي أنا بقى؟

لم يفهم الشيخ علي. شرح الملازم: انا عاوز حلاوة مخصوص ليا، مش فلوس. زي ما تقول كذا انا واخذ اجازة طالع اصيف في الساحل اسبوع. البت ايمان اللي شغالة عندك دي عاجباني، ايه رأيك تبعتها تسافر معاها، واهو تغير جو وترجعك مفرشة. دي حلاوة مخصوص ليا لإني لسة ماقلتلكش على كل اللي عندي.

ما كان عند الملازم هو أكثر من كنز. أخرج قصاصة من جريدة قديمة، مكتوباً فيها خبر عن نقل اليوزباشي سليمان محمد عبد الله إلى سوهاج بالصعيد. قرأ علي الخبر مرتين. ثم سأل عن اسم "بخيت"، فابتم الملازم مدحت: يعني

تلاقيه اسمه ف البطاقة. بس اسمه الثلاثي سليمان محمد عبد الله. هما مش هيكاتبوا اسمه الخماسي يعني، ولا عاوزهم يعملوله فيش وتشبيهه كمان، ولا انت فاكرايه يا شيخ علي؟

ضحك الملازم، وضحك الشيخ، أخذ القصاصة، قرأها عشرات المرات، والملازم أمامه. كان بيتسم وهو يقرأها، وكان يدمع وهو يقرأها، وكان يمسح دموعه وهو يقرأها. وإيقاع أغنية حزينة تتردد في خلفية عقله.

“يا مسا الجمال، والدلال، والورد ع العالي، ع الأصل دور، ع الأصل دور، ع الأصل دور.”

اليوم التالي كان يوم عيد بالنسبة لعلي. لم يخبر أحداً بعثوره على جده. سوف تكون مفاجأة للجميع. أفاق صباحاً وانجي نائمة. ارتدي بدلة على غير عادته. حشر القميص حشراً في البنطلون لأول مرة منذ سنوات. معانداً كرشه الضخم. لمع زجاج نظارته السمكة المشروخة. ونزل إلى المكتب. اتصل بأبو أميرة، بحمادة، بموسو ومنة، بمدام نادية، طلبهم للحضور على وجه السرعة. حضروا واحداً تلو الآخر، وبدأ في طرح فكرته:

قريباً ستحل الذكرى رقم عشرين لوصولهما، هو والمدام، إلى الإسكندرية، يوم واحد ستة ٢٠٠٦، وهذه المناسبة تستحق احتفالاً. الآن، لينظر كل منكم حوله، هل الإسكندرية هي نفس الإسكندرية. هل الإسكندرية التي عانى أهلها من الظلم والجوع والتشرد والحرمان قبل هذا التاريخ هي الإسكندرية اليوم، الوثيقة بنفسها، القوية والعنيدة والتي تكتب مستقبلها؟ ألا يستحق هذا احتفالاً بسيطاً. الباب مفتوح لتلقي الاقتراحات. أبو أميرة اقترح إقامة ليلة ذكر، ومدام نادية اقترحت تعليق أنوار في المنطقة وتأجير سيارة بميكروفون

تسير في كل شوارع الإسكندرية تسرد ما حدث خلال العشرين عاماً، ومئة اقتрحت نشر إعلان في الأهرام. وأيدها سوسو، وعلي لم تعجبه أي من الاقتراحات.

نظر إليهم جميعاً، بس، خلاص؟ مفيش حاجة ثانية؟ ولم يرد أحد، فتحدث هو.

الكرنتينا ليست نتوءاً في تاريخ الإسكندرية. هي ابنة لهذا التاريخ، ولتاريخ مصر بأكملها. أجداننا الفراعنة عندما قرروا تذكير الناس بعملهم بنوا الأهرامات، ولم ينسهم أحد من ساعتها، حتى الناس اليونانيين والرومانيين بنوا أشياء حلوة ومفيدة خالص. ما يقترحه علي هو تعثال ضخم، يقام مقابل الكرنتينا كافيته، بحيث تجتمع فيه الذكرى الخالدة والمنظر الطريف، تعثال يعبر عن كفاح أهل الكرنتينا وكفاح السكندريين أيضاً. سكت علي ولم يتحدث أحد.

ظلوا صامتين تماماً، لدقيقتين كاملتين، ثم قطعت مدام نادية الصمت وهتفت: وردة جميلة.

نظر إليها الجميع. ارتبكت لثانية ثم غالبت ارتباكها وشرحت الفكرة. الكرنتينا وردة جميلة في اسكندرية. الناس يجدون فيها الراحة الحلوة والراحة النفسية. التعثال سيكون لوردة عملاقة، ويقام في حديقة صغيرة خضراء مساحتها عشرون متراً مربعاً. بدأ في نظر أبو أميرة شيء من القرف وهو يسمع اقتراح مدام نادية. علق قائلاً إن الوردة والبطة والبجعة هي أشياء للأطفال، بينما الكرنتينا بنيناها بالدم والعرق والسلاح، يد تحمل مدفعاً آلياً وتنشق الأرض عنها هي الرمز الذي يستحقه كفاحهم. احنا تعبنا يا اخواناً

وجيل الشباب لازم يعرف إن مفيش حاجة بقت سهلة الايام دي، كله بقي
بدراعك.

سوسو بدأ كلامه بتأييد كلام أبو أميرة، أخوه وابوه وأستاذة، ولكنه
انتهى إلى نتيجة مختلفة، يعني إذا كان احنا تعينا فيبقى لازم احنا ندي أمل
لجيل الشباب، اني عاوز اقترح نعملو تمثال كبير لوش بيضحك وفرحان
ونكتبو من عليه "جيل الشباب". وأيدته منة.

حمادة ليس مجرد إنسان عادي. إنه فنان في أعماقه. كل شيء فيه يشي
بهنا. لقد رضع بذرة الفن من الحكايات التي كانت تحكيها له أمه طفلاً ومن
حصص الرسم التي كان يبدع فيها، وهو عاشق للطبيعة أيضاً، يجلس يومياً
ساعتين أو ثلاثاً على التربة يتأملها، بلا كلمة واحدة، وينهر من المشاعر يتدفق
بداخله. لم يتحدث حمادة طوال الجلسة. الآن فقط يقرر الحديث، بترو وهدوء
وعقل. فكرة سوسو صح جداً. إحنا لازم ندي الأمل لجيل الشباب، وفكرة بابا
صح، إحنا مش لوحدها. إحنا حتة من اسكندرية، واسكندرية حتة من مصر.
ومصر دي بلدنا كلنا. بدير وجهه بينهم. ثم يقوم. يتمشي في المكتب بينهم، من
أول يوم بابا وماما جُم اسكندرية فيه، ومصر كلها على بالهم، (بتوقف بجوار
أبيه، وجهه مقابل لهم جميعاً)، أنا بافتخر بإن الراجل دا (يشير لأبيه)،
أبويا، جاي من مصر، وجنود جاي من الصعيد، وانا جيت من اسكندرية. اللي
عاوز اقوله دلوقتي إن مصر كلها لازم تهجي على بالنا. مصر، الفرخة الجميلة
اللي حاضنة بيضها، اللي هيغفس كتاكيت، والكتاكيت هما شباب مصر
(يستدير بكل جسمه لأبيه)، هو دا التمثال، فرخة. فرخة باصة للسما، يعني
باصة لبكرا، وراقدة على بيضها، وعمود نور، وعمود نور متعلقة فيه شمس

كبيرة، والشمس دي هي الكرنطينا. هي الكافية دا، (لأبيه) هي إنت، وأنا، وكل الناس الطيبين دول.

يقوم علي من فوق كرسيه. يحتضن حمادة بقوة. ثم ينظر لجميع من حوله. يشهدهم على الغنان الذي أنجبه. يطبطب عليه. ثم يقرأون الفاتحة.

هكذا بدأ العمل في بناء الفرخة المصرية العملاقة، وشمس الكرنطينا تشرق فوق الجميع.

علي وإنجي اليوم، ولأول مرة في تاريخ البشرية، رائقان. حمادة مع أصحابه، وأجازة الكافية اليوم الجمعة. خرجا من الحادية عشرة صباحاً. ركبا حنطوراً يسير بهما من أول الأنفوشي إلى المنتزه ورجوعاً.

طلب علي من سائق الحنطور أن يغلق المظلة. لأن المدام عاوزة تكشف وجهها. تحت المظلة تنام في حضنه. ياااا! منذ كم من الوقت لم تنم في حضنه وتشعر بكل هذا الأمان، وهو، مثل مراهق وليس مثل زوج قديم، يدخل يده تحت عبايتها السوداء، يلمس إصبعه طرف السنتيانة، فيغمز لها بعينه. وهي تقمرغ في حضنه أكثر وأكثر، يمرر يده من تحت، تلمس أصابه صدرها. يشعر بانتصاب حلمتيها، فيلاعبيها بسرعة ورشاقة، الواحدة تلو الأخرى، وهي تنظر له بامتنان وتتدلع، أحبه عليك يا شيخ علي، كفاية بقى! محطة الرمل، جامع إبراهيم باشا. تنظر له وهي في حضنه وهو يلعب في صدرها: تعرف، أنا عمري ما هانسي إنك كنت عاوز تسيبني. بيتسم، هو انا اقدر اسيبك أبداً يا عمري؟! إنجي كانت تحتفظ بذكرى سيئة من الأيام الماضية، عندما رأت أم أميرة مجدداً استرجعت كل التاريخ المظلم. تواصل الابتسام، أبوة. ماتستعبطش. كنت عاوز تسيبني عشان الولية الجربانة اللي اسمها أم أميرة دي. يواصل

الابتسام، ناوية قلبها نكد! تبدأ في التكشير، لأ وعلى إبه اقلبها نكد. أهي

غارت في ستين داهية خلاص!

- ماتعرفش حاجة عنها؟

- عن مين؟

- عن أم أميرة.

- (تصمت قليلاً) ماتت.

.....

- (تصمت لفترة أطول من سابقتها) علي، إنت عارف كل حاجة. انا

قتلتها يا علي، وانت عارف.

يتكهرب علي فجأة. يدفعها بعيداً عنه. ينظر في عينيها بحثاً عن أي أثر

لمزاح فلا يجد، قتلتيها، يعني إيه؟ تحاول استرجاع المود الصافي الذي كان

بينهما منذ دقيقة فلا تنجح، علي، دي واحدة ست وسخة، دي كانت عاوزه

تيجي عندنا تاني وتفتح محل في المنطقة، دي كانت بتقزني يا علي.

كات عاوزه ترجع تلعب عليك تاني، الولية المقرقة دي.

علي لا يفهم شيئاً. تضطر لأن تشرح له. قصة بخيت التي وجدتها عندها،

واستغلالها للموقف، تصور يا علي، كل ميزتها إن ابوها سرق جوابات جدي،

وعاوزه تستغلني بيها.

الأزاربطة، دخولاً إلى الشاطبي. كازينو الشاطبي يتم هدمه. منذ أكثر من

عشرين عاماً وهو يتم هدمه. يصمت علي دقيقة، يدفن رأسه بين كفيه، ثم

يرفعها ببطء: بصي يا ماما. كل اللي ف دماغك دي قانونات.. أولاً، الست دي

كانت نصابة. ولا كان عندها جوابات ولا حاجة. جدي، اللي هو جدك، ما انا

وصلتله خلاص، دا كان ظابط هنا وراح الصعيد وخلص، هي مالهاش دعوة بالموضوع دا. دا أولا، ثانيا بقى...

- ثانيا بقى دا مش صح، انا عندي جوابات منه، وشفيت صورته، ولعلا يشبهنا.

- (يزعق) ثانيا اللي بقولها لك هو اللي صح وانتق تحطى جزمة ف بقك وتخرسي خالص.

- انت ماينفمش تكلمني بالطريقة دي!

- ينفع ونص. انتي بتدوري على حاجة في دماغك انتي، وقتلتني ولية مجنونة وهتخسريني أعز صحابي علشانها.

- مين أعز اصحابك؟

- أبو أميرة أعز صحابي.

- لا أبو أميرة مش أعز اصحابك.

- لا أعز اصحابي.

- (بمقل وحكمة) لا يا علي. لا يا حبيبي. أبو أميرة بتاعك دا راجل ابن

كلب، إنت عارف إن هو اللي قتل اخوك.

- قتل أخويا! أبو أميرة قتل أخويا! آه أبو أميرة قتل أخويا. استريحتي،

بسي كمان وقف جنبنا لما كنا عاوزينه.

- آه وقف جنبنا صح. مش علشان تشغله عندك ولا علشان تشغل اخواته

عندك ولا علشان يقبضوا فلوس ماكانوش أصلا يحلموا بيها.

- (للسائق) يا اسطى. (لإنجي)، أبو أميرة هو اللي وصلنا لكل دا.

(للسائق) يا اسطى لف وارجع لو سمحت. (لإنجي) الراجل عمل اللي عليه من

غير جزء ولا شكوراً (للسائق) يا اسطى، يا ريس، يا حبيبي، يا بني آدم،
هابوس إيدك يا شيخ عشان تلف وترجع بينا؟

تلف العربية. علي يهدأ قليلاً. بصي يا إنجي يا حبيبتي، من ساعة اما
اتجوزنا وانتي ماشية بدماغك يا ماما. بتعملي اللي انتي عاوزاه، ولا كأن ليا
لازمة، صح؟ طيب، لأول مرة هاطلب منك موضوع جدك دا تنسيه، دا حاجة
اخترعتها الولية دي علشان تنصب عليك، وانتي خدتي حلك وقتلتيتها. مش
صح؟ مش خلاص كدا؟ مش كفاية؟

- لا يا علي مش خلاص. انت اللي ظباط الشرطة كانوا بيلعبوا بيك، وانا
عارفة دا ومتابعة دا كويس. وزارة الداخلية كلها اللي انت بتصرف عليها من
فلوسنا بتضحك عليك يا علي.

- أنا اللي بيتضحك عليا وانتي اللي فاهمة كل حاجة يعني؟ زي العادة
يعني. (يعاود دفن وجهه في كفه، يرفع رأسه بعد ثوان وقد بللت الدموع لحيته
ذات الشعرات البيضاء المنتشرة. ينظر للسماء: يوم حلو. يوم حلو يارب واحد في
حياتي. يارب ارحمني برحمتك وأنت أرحم الراحمين).
(صوت أذان الجمعة يبدأ في التردد من بعيد)

•••

أحياناً يحتاج الإنسان للنظر حوله. الإنسان بجعله (يقول الله عز وجل عن
الإنسان: إنه كان ظلوماً جهولاً) يتقدم في طريقه، يهتم بقطع مئات الأميال،
ولا يتوقف مرة واحدة للنظر حوله. خلفه، فوقه وتحتة، لمأينة موقعه من
ذلك الفراغ البشري الكبير المسمى الكون، والمسمى التاريخ. لن نرتكب هذا
الخطأ. سننظر حولنا.

لا يزعم أحد أن بإمكانه تغيير التاريخ كلياً، مرة واحدة وإلى الأبد، بحركة واحدة. التاريخ دائماً يسير على مهله. كل ما يستطيع الأبطال فعله هو بذر البذور لتطور التاريخ. هذا ما فعله علي وانجي، منذ قدومهما إلى الإسكندرية، لقد كانا يبذران البذور، والبذور منها ما كان صالحاً للنمو، ومنها ما لم يكن صالحاً. رأينا منذ قليل كيف أن كازينو الشاطبي يتم هدمه أمام أعين علي وانجي وهما في الحنطور. هذا الكازينو الذي احتضن آلام وآمال السكندريين القدامى والجدد لعقود طويلة، والذي شكل متنفساً يمكن أن يبعث منه السكندري، والمصري بشكل عام، شكواه إلى البحر العاتي من خلفه. ما يعنيه هذا أن الجهد الإصلاحى لعلي وانجي في الإسكندرية لم يسفر عن تغيير المشهد بالكامل، وأن الرأسمالية، بالاستمانة بالحكومة، ماتزال قادرة على سلب الناس لحظاتهم الحلوة. هل يعني هذا أن لا شيء قد تغير؟ لا بالطبع. واليكم التفاصيل:

ذات يوم، قرر محافظ الإسكندرية إعلان مدينته مدينة -خالية من الدخان-، وأعقب قراره هذا بمنع تدخين الشيثة في القهاوي، القهاوي التي على البحر في البداية ثم التي بالداخل، وفشل قراره أمام احتجاج القهوجية، فلجأ إلى القوة الناعمة، الشيثة لا يتم منعها من الإسكندرية، الشيثة تخفي من تلقاء نفسها، وكان هذا هو أسوأ ما في الأمر، لولا وجود علي وانجي.

علي الذي كان مدمناً للمعسل القص، لم يقتنع أبداً بالكلام عن مدينة خالية من الدخان ومن حقلك أن تدخن ومن حقي أن أستنشق هواء نقياً وكل هذا الهجص. كان ينزل أي قهوة، معه رجلان أو ثلاثة من رجاله، يشيئون للصبح، وسرعان ما تمتلئ طاولته بالفقراء والبسطاء من أهل الإسكندرية، من يطلب مصلحة شخصية له، ومن يرغب في مناقشة قضية عامة، ومن، ببساطة،

لا يرغب في شيء سوى الجلوس مع الشيخ علي بنفسه. الجلوس كان شرطه الشيعة، ومن لا يشرب يبقى يروح بيتهم، ويقعد عند مامتهم. السخرية دائماً سلاح فعال ضد التطهرين. قعدة أخرى كان يرأسها أناس مثل أبو أميرة، والمعلم سوسو، مع زوجته منام منة، والشيخ حسن، وحتى الحاجة نادية، في أماكن مختلفة بالبلد. تزايد عدد طالبى الشيعة، ومع الوقت، بدأت بورة المعسل اللانهائية تدخل في حسابات القهاوي. مثلما حاولت الحكومة أخذ حق ليس لها بالأدب والاحترام، فلقد منعه عنها رجال الكرنطينا بالأدب والاحترام أيضاً، بدون طلقة نار واحدة. كانت هذه معركة نظيفة تماماً. ولكن كانت هناك معارك غير نظيفة.

دفاعاً عن أي شيء يحاربون. هكذا تساءلت صحيفة قومية معروفة بانتماها للنظام الحاكم، ومتمن المقال نفسه كان أقل ما يقال عنه إنه مثير للريبة. يزعمون أنهم يدافعون عن الدين، هذا الذي يسمى نفسه "الشيخ" علي، وزوجته المتنقبة "الشيخة"، إنجي. ويديران بيتاً للدعارة وبييعان الخمر. بالذمة، هل هذا اسمه كلام؟ واصلت الصحيفة.

طيب، علي وإنجي بكل تأكيد لم يكونا من أنصار الإسلام المتشدد، كما أنهما لم يكونا من أنصار الإسلام المعتدل، "الإسلام" كله، مع احترامنا البالغ له، لم يكن عنواناً لنضالهما. يمكن ببساطة وصف الصراع بأنه كان ليبرالي النزعة، وتصادف أن من يقوده هما شخصان مؤمنان يعرفان الله. الموضوع بسيط جداً. ليبرالية الثلاثينيات والأربعينيات هي التي حاول علي وإنجي إدخالها إلى الإسكندرية، الإسكندرية قبل حكم العسكر، إسكندرية الأجانب والحياة المفتحة، الإسكندرية مدينة العالم، الإسكندرية قبل ظهور التطهرين الجدد. هنا الكلام لم يفكر فيه علي وإنجي بذلك الوضوح، وبالتأكيد فإن كلمة

كوزميوليتانية- لم تخطر على بالهما، ولكن هكذا هو التاريخ عندما نقرأه من بعيد، لا يتحدث فيه الأشخاص بلسان حالهما، التاريخ هو الذي يتحدث. نحن الذين نتحدث، نحن التاريخ.

رداً على تساؤل الصحيفة، الذي لم يكن أبداً مفهوماً ولا مبرراً، اقتحم ثلاثة شباب مقر الصحيفة في القاهرة، قلبوا المكاتب وركلوا أجهزة الكمبيوتر، داسوا على الأوراق، حاول رجل الأمن اعتراضهم فجرحه أحدهم بمطواة. اقتحم اثنان منها مكتب رئيس التحرير، ووقف الثالث على الباب يهدد من يحاول الاقتراب. ثم خرجوا جميعاً. كانت لهذه الضربة نتيجتان متناقضتان: أولاً، زيادة التعاطف مع علي وإنجي اللذين انتقما للشارع المصري كله من أكاذيب الصحيفة وتدليسها، وثانياً: تبرئة علي وإنجي - نفسها - من تهمة تدبير الحادث. تصاعدت دعاوى على الإنترنت تفيد بأن ما حدث كان من تدبير الصحيفة نفسها التي تحاول إيجاد عدو وهمي لها. وواصل علي وإنجي صعودهما.

الانتصارات لم تكن حليفهما على طول الخط. معركة كازينو الشاطبي كانت من أبرز المعارك المتواصلة. لم يتم الحسم فيها لأي من الطرفين، علي وإنجي من ناحية والمحافظة من ناحية. رجال الأعمال عرضوا على المحافظة شراء الكازينو، وأثيرت أخبار عن هذا في الصحف. سمعت إنجي من بعض النساء في الكافيه بعض هذه الأخبار، وقررت اتخاذ خطوة الرأسمالية لن تتمكن من الانتصار، قالت لنفسها. كلمت حمادة ابنها في التلفزيون، طلبت منه ترك المدرسة والعودة فوراً. في المكتب شرحت له القصة. الكازينو ليس ملك رجال الأعمال، الكازينو ملك الناس، وهناك قانون في البلد. صح؟ وفوق هذا وذاك، فالكازينو يأتي منه لقمة عيش لهم، تعودت بعض بنات الكرنيتينا على

اصطياد الزبائن من هناك، والعودة بهم إلى الكافية. أيهما أفضل، رجل أعمال يشتري مكاناً عاماً من أجل مزاجه، أم أناس يمنحون المتعة للبطء مقابل أجر زهيد.

قام حمادة (شاب طويل وسمين الآن يخزي العين، يدرس في الثانوية العامة)، بتأجير عدد من أصدقائه. ذهبوا إلى الكازينو وزرعوا أمامه يافطة كبيرة الكازينو بتاع الناس، مش بتاع واحد من الناس، رأيهم غير فطلب منهم الانسحاب. هبوا فيه، وتضامن عدد من المارة مع الفقير، بوصفه رجلاً عجوزاً زي أبوهم، فوقعتم المذبحة التي تم الإعداد لها، تم جرح اثنين من المارة، أما الفقير فقد قلعوا له عينه اليمينى. حضرت الشرطة وتم اقتياد حمادة وأصدقائه إلى الحبس. حكم عليهم بأحكام متفاوتة. كان من نصيب حمادة شهران فحسب. قضاها وخرج أكثر قوة، هابه الناس أكثر، ولم يعد أحد للاقترب من الكازينو لعدة أشهر. الناس خافت.

ولكن المعركة تجددت عندما تجددت أعمال هدم الكازينو. قاد حمادة معركة أخرى قتل فيها أحد عمال الهدم، وهرب. لم يمسكه أحد. وتوقف العمل شهوراً أخرى، ثم تجدد، وهكذا وهكذا وهكذا، ما كان يقف أمامهم الآن هو رغبة متوحشة في مواصلة هدم الكازينو، ما كان يقف أمامهم هو وحش جبار اسمه تحالف السلطة مع أصحاب الثروة. وأعمال الترهيب لم تعد ترهب أحداً. يرفض العمال مواصلة العمل لأسابيع ثم يعيدون. ولكن علي وإنجي لا ييأسان بسهولة. المعركة متواصلة.

كل هذا كان يدفع بمزيد من الثقة إلى نفس السكندريين. هناك أشخاص يدافعون عنهم. طول الوقت كانت تتزايد أعمال الشغب والعصيان. الانتصارات كانت تزيد من ثقة السكندري بنفسه، والهزائم لا تحبطه. والشيخ حسن،

بسمته الطاهرة، بوصفه أبا الشهيد، يردد طول الوقت في خطبة الجمعة،
ومعه شيوخ آخرون، إن تكونوا تألون فإنهم يألون كما تألون، وترجون من الله
ما لا يرجون، وفي أحيان أخرى تتردد آيات أخرى، يا أيها الذين آمنوا كتب
عليكم القتال وهو كره لكم وعمى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وغيرها.

كل هذا والحكومة، التي تكاد تكون تقبض مصروفها من علي وانجي،
تصر على وصفها بأنهما بلطجية. هي التي تبلطج، هي التي ترهب، وهي
التي تصفهما بالبلطجية. كل هذا كان سبباً في إحساس بالمرارة لا يروح من عند
علي وانجي وحماة.

أصيبت إنجي ذات يوم بانهيار عصبي. جاءها الخبر بالقبض على إحدى
البنات العاملات لديها في شقة بالهانوفيل. صرخت في المكتب، إنتو عاوزين
مني إيه، عاوزين إيه، نزلت على السلالم بوجه سافر، بدون النقاب. ركضت
باتجاه قسم كرموز. حاولت اقتحامه. منعها العساكر الواقفون على الباب.
لظمت على وجهها العاري وقطعت شعر رأسها، إحنا عملنا لكوا إيه،
ماتسيبونا، ماتسيبونا في حالنا. وضت على الأرض وغطت شعرها بالتراب، هو
دا حلال اللي بتعملوه، هو دا حلال؟ جاء علي بنفسه وقيدها دافعاً بها في
سيارته. أخذ يطبب على رأسها وأجبرها على ابتلاع حبة مهدئ. راحت في
النوم بعد عشر دقائق.

كل ما يتذكره الناس من هذه النوبة هو وجه إنجي، الذي لم يروه أبداً من
قبل، عجوزاً، مجمداً، بشعر يأخذ في الابيضاض.

وجه إنجي في هذه اللحظة كان وجه امرأة مجنونة. هنا ما تذكره أهالي
كرموز.

علي لم يصب أبداً بانهايار عصبي. ظل محتفظاً بعقله طول الوقت، حكيماً
ونكياً، حتى وإن كان، بنظارته السميقة المشروخة التي لم يحاول أبداً
تغييرها، يثير انطباعاً غير هذا.

كان يجلس مرة في البيت، يشيش ويأكل تفاحة. وفجأة تذكر شيئاً ما. رن
لحمادة على تليفونه. وصل هذا بعد نصف ساعة. أعطاه علي تفاحة ومضى يلعب
في أسنانه بالسواك، وسكت. سكت طويلاً وهو ينظر في عين حمادة. الشاب
الصغير لم يفهم المطلوب منه، ولكنه التزم الصمت هو الآخر. بعد عشر دقائق
تكلم علي، أمك يا حمادة. أمك اتجننت.

وضع الولد رأسه في الأرض. الأب واصل: أمك عاوزه تقتلني. ولم يكمل.
لم يملك الأب معلومات ليقدمها لابنه، كان يملك إحساساً. يشعر بهذا في
كل شيء، في نظرات زوجته وحركاتها وكلامها، في كراهيتها التي تملن عن
نفسها في كل كلمة تقولها.

- ويمكن عاوزه تقتلك كمان.

أضاف أنه غسل التفاحتين، تفاحته وتفاحة حمادة، خمستاشر مرة. يأكل
الآن أكله من برة أغلب الوقت، خوفاً من السم، أنا عاوزك تاخذ بالك يا ابني،
أنا مش بقول كذا علشان هي وحشة، بس هي بتكرهنا جامد، مابتحبناش.

عثر علي ذات يوم على كتاب قديم عندها، على الشوفنيرة. الكتاب كان
يتحدث عن أنواع السموم وأخطارها، كان فيه ورقة متنية جوا الكتاب. زي ما
تقول الحثة اللي وقفت عندها يعني وهي بتقرا، الصفحة دي كات بتتكلم عن
سعابين أفريقيها، أمك عاوزه تسمنا بسعيان أفريقي يا حمادة.

حمادة كان يحب أمه. لم يمترح لإخفاء أسئلته عنها. سألها عن سر
وجود هذا الكتاب على الشوفنيرة، فابتسمت بمرارة وقالت له اسأل ابوك.

الكتاب كتاب الشيخ علي. سكتت إنجي وأضافت: عمره ما فكر في حاجة ثانية، طول الوقت بيفكر يموتنا ازاى. واحنا عايشين ومستحملين.

بسُعبان أفريقي يا علي. هي دي آخرتها!

هكذا رددت إنجي وهي تنهذه دافئة رأسها بين كفيها.

ماتت الحاجة اعتماد.

قبل أن تموت كانت قد زارت مئة ابنتها في بيتها بغيط العنب. كانت متعبة وتشعر بالنهاية القريبة. أخبرتها أنها ستموت قريباً، أنها حلمت بالحاج حربي يتقدمها في شارع مظلم ويصعد في عمارة مهجورة، ثم يظل وجهه من بلكونة الدور الأول ويحثها على الصعود، مستنية إيه، ما تظلمي ياختي! ابتمست الحاجة بتسامح وقالت لابنتها: أنا مش زعلانة، اوعي تفتكري اني زعلانة. انا بس عاوزه نحكيك على حاجة كدا.

الحاجة كتبت الطابقين المتبقين من عمارة كرموز للشيخة إنجي، ويضاف إلى هذا طابق تملكه الشيخة وطابق يملكه الشيخ علي. لم تصدق مئة ما سمعته. ظنت أن أمها تخرف. ولكن الحاجة أكدت كلامها، طلبت من بنتها ألا تزعل منها، أنا حسبتها كويس، هما أكثر ناس تعبوا في البلد دي، وانشي دي تعتبر زي اختك الكبيرة، أنا وصيتها عليكى ياما. اوعي تزعلي منها يا حبيبتي. سوسو كان جالساً معها. انتفض، بتقولى إيه يا ولية؟! هجم عليها ولكن مئة منعتة. دخل غرفته بالعافية. الحاجة اعتماد أشرت الإهانة في نفسها وضت. بعد عشرة أيام ماتت.

علي هو من أقام العزاء لها، لا مئة ولا سوسو، اللذين لم يحضرا أصلاً. بدا هذا إعلاناً للكراهية، للعداوة، ولأمواج الدماء القادمة. بدا أن الكرنطينا الآن على شفا الاشتعال.

قصة قاتل

”بخصوص إصبع مبتور لا تظهر به الدماء“

الفن حريق.

لا أحد يعرف على وجه التدقيق متى يبتلى الإنسان به، ولا كيف. كم من إنسان ناجح في حياته ابتلي بالفن فأحرق روحه وهبط بها إلى أسفل سافلين، وكم من إنسان لا يعرف عنه أحد شيئاً أحرقه لهيب الفن فصار يشار إليه بالبنان. الفن ابتلاء من عند الله، والابتلاء قد يكون خيراً أو شراً.

منذ زمن طويل، والسینما المصرية مفرمة بمفهوم الفن. نتذكر جميعاً مشهد أنور وجدي مع فيروز مرتديين ملابس الحواة المرقعة وبرائيطهم الطويلة ويفنيان، كروان الفن ويلبله، موش لاقى حد يؤكله. كما نذكر سجالات بين عبد الوهاب وبيرم التونسي الذي كتب، يا اهل المبنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله، فمات به عبد الوهاب برقة، مما دفعه لكتابة قصيدة تقول، الفن يا اهل المحبة، روح تخاطب روح، بلغاها. هذا الارتباك في تحديد ماهية مفهوم الفن يثبت فكرتنا: الفن لعنة، حريق، لهيب يشعل الإنسان، الفن هو جنة الإنسان أو جهيمه.

منذ طفولته وحمادة مبتلى بلعنة الفن.

صمته، تأمله، مشاعره الدفاعة، حتى سمته، كلها أشياء لا تنتمي لهذا العالم، لعالم البشر الفانين، وإنما لعالم آخر، عالم يسرح فيه الفلاسفة والمفكرون والأدباء والفنانون والحكماء والأنبياء. ذات مرة، حكى له أمه عن

جده الذي كان يعيش في أبو ظبي. أصيب الطفل بصدمة، ليس لأن جده بعيد، وإنما لأنه لم يتخيل أن هناك مكاناً اسمه أبو ظبي. كان قد بدأ يتعلم الكلمات، عرف معنى الظبي، وعرف معنى الصبي. وبالاستعانة بكليهما تخيل جده على هيئة طفل، طفل بلحية بيضاء طويلة ويجلس جنب غزالة، وأحبه على هذا الحال.

الصورة البصرية الحرفية لازمت حمادة في أشياء أخرى. سمع أمه يوماً تقول لطنط نادية "إحفا بنمفي اسكندرية"، ساعتها تخيل الإسكندرية على هيئة بناء حجري كبير، وأبوه وأمّه واقفان أمامه ويضعان طوبة على طوبة فيه، ثم يجلسان على ظهره ويهجان من الحر والعرق. ذات مرة سألته المدرسة عن مهنة بابا وماما فقال لها إنهما يبنيان الإسكندرية، وضحك الفصل كله. سأله زميله يبنيان فيها إيه إذا كانت الإسكندرية كلها مبنية من زمان. في يوم لاحق، عرف الفصل أن هذا هو حمادة الذي قام أبوه بقتل الضابط، وقال حمادة لزميله بغيرة تشف واضحة "شفت بقى"، ولكن الولد أصر على الإنكار. قال له إن أباه إذا قتل الضابط فهذا معناه إنه قتل الضابط وليس معناه إنه يبنّي الإسكندرية. سكت حمادة ولم يرد. شالها في قلبه. وبعد عشر سنوات عرف السر، وهو على أعتاب الجامعة، الولد الذي تحده من أتباع النظام. اتصل به حمادة، ونكره بنفسه وطلب منه أن يلتقيا في كافيه بكرموز. وصل الولد إلى كرموز وبمجرد أن رآه حمادة أشار لسوسو. انهالت طلقات النار على جسم الولد. تمزق جسمه عشرين حبة.

والفن لا يعرف الحدود. اكتشف حمادة موهبته منذ الابتدائية، في حصص الرسم. كان يحب رسم الورد والشمس والحدائق. ثم توسعت موهبته لتشمل البشر والمباني والسيارات، ثم توسعت موهبته أكثر وأكثر وخرجت من

حدود الرسم لتشمل الموسيقى. كان يدندن في الشارع وهو عائد مساءً، ويدندن وهو في الحمام، وهو يسوق سيارته، ويدندن وهو يشرب. دخل مرة إحدى الكافيتريات بالمنشية طلب بيبسي، وعندما جاءه البيبسي صب عليه من زجاجة ويسكي كان يحملها معه. ثم أخذ يفني بصوت عال جفنه علم الغزل، أتاه النادل ليخبره بأن هذا ممنوع. الخمرة ممنوعة في الكافيتيريا، والإزعاج غير مرحب به. حمادة كان عميانياً، لم يكن يرى ما أمامه، ولكنه انصاع حاسب النادل وأعطاه بقشيشاً جيداً واعتذر له. ومضى. بعد ساعتين عاد في سيارة نص نقل. نزل منها ومعه عدد من الرجال. اقتحم باب الكافيتيريا، أخرج مدفعاً آلياً من تحت السويتير، فتح النار، وانتشر رجاله بالشوم في كل مكان يكسرونه. قُتل خمسة في هذه العملية وجرح تسعة. وعاد حمادة إلى بيته. هكذا تحرك الفنان الذي بداخله، الذي يغار على فنه، الذي يحارب من يمنعونه من الغناء. مضى في البيت يفك أجزاء السلاح وينظفها، ويعاود دندنة جفنه علم الغزل، هاتها، هاهاهاهاها. نوم نوموم نوموم نوموم. كانت الأغنية قد التصقت برأسه.

على خلاف والديه، اللذين كانا يشربان على خفيف فقط، فإن حمادة قد أدمن الخمرة منذ سن صغير. منذ الثانية عشر من عمره بالأحرى. كان في السنة الأولى الإعدادية عندما تنوق أول قطرة كحول في حياته. شرب ثلاث زجاجات بيرة يومها، وتقياً كثيراً. بعدها صار يشرب يومياً تقريباً. يصعد إلى بار الكرتينا ويشرب ما يريد، أو يشتري ويذهب ليشرّب على البحر. ربما يكون الكحول هو سبب ضخامة حجمه منذ سن صغير. كان طويلاً، سميناً، أبيض البشرة وذا عيينين ميتينين. ولكنه لم يشمر بأية مشاعر سلبية تجاه جسده. أو أن مشاعره كانت مختزنة في داخله، لم يفصح عنها لأحد. (الفنانون، وخاصة

أشدهم حساسية، على عكس الاعتقاد الشائع. نادراً ما يفصحون عن مشاعرهم الحقيقية). كان حمادة يسخر من جسده، ويتقبل سخرية الناس منه، ولكن في لحظة واحدة يتضح مدى الألم الذي يعانیه جراء هذا. حينما تزيد السخرية عن حدها، ساعتها يرتكب أي فعل جنوني. قلع مرة عين زميل له بالثانوية، ومرة برك على آخر وأخذ بعضه في وجهه حتى أدماه. ومرة تعالک نفسه ولم يفعل شيئاً. وعندما عاد إلى البيت كتب قصيدة حزينة، يقول مطلعها، أنا وحش يا زماني ولا الدنيا وحشة؟ ليه تظلمني معاك وتقولني الدنيا وحشة؟ لو تشوفني يا صاحبي تقول مجرم قاتل قتييل، وأنا في الحقيقة شاعر وإحماسي جميل.

نظرة واحدة إلى غرفة حمادة في البيت كانت تدل على طبيعته. لوحة كبيرة خلف السرير لنظر الغروب، ولوحة أخرى لشلال جميل، وموسيقى رومانسية تنبعث من جهاز الكمبيوتر، ورائحة ورد، وناقذة الغرفة التي تطل على أجمل عمل فني في التاريخ. تمثال لفرخة تنظر إلى السماء وترقد فوق بيضا، وتشرق عليها شمس كبيرة كُتِبَ عليها "الكرنتينا"، مع كتاب ملقى على السرير بعنوان "أجعل أغاني العندليب"، ومخدة هي عبارة عن قلب أحمر قطيفة مكتوب عليها بخط ذهبي: "حتى متى ستظل يا قلبي خالي؟"

غرفة حمادة هي واحدة من أهم عناصر تكوينه، وأهم المفاتيح لفهم شخصيته. منذ طفولته وهو شخص انطوائي، يعتمد بالرفقة طول الوقت، ليلوذ بها من قسوة العالم بالخارج. طول الوقت يلعب الكمبيوتر الشطرنج أو يحل ألغاز السويكو بالجريدة، أو يرسم، أو يفرق في أحلام اليقظة. فشل أبوه وأمه في محاولة نمجه بالعالم. حاول علي اصطحابه معه إلى المسجد، ولكنه رفض. كل ما أحبه في هذا العمر (١٦ عاماً) هو الجلوس على البار وشرب الخمر، وتأمل النجوم. وذلك حتى أحب صباح.

انا هاعرفك دلوقتى مين اللي راجل ومين اللي صباح. اتنفض الشاب فعاجله حمادة بلكعة آخري من يمانه المثقلة بالخواتم. تراجع الولد مرعوباً نحو المطبخ ليتحصن به، وركض وراءه حمادة. التقطت زجاجة ويسكي من على البار. وبخبطة واحدة كسر باب المطبخ. هنا ارتجف جيب بنظونه الأيمن، موبايله يرن رنقه المقتطعة من قصيدة رومانسية قديمة، "الرفاق حائرون، يفكرون، يتساءلون. في جنون"، ولكنه وراءه أشياء مهمة الآن. الولد كان قد أمسك سكينه مطبخ كبيرة ليدافع عن نفسه، ولكن حمادة كان أسرع منه. هوى على رأسه بزجاجة الويسكي، ثم تناول سكينه المطبخ وطعنه طعنة في قلبه. بعدها أخرج الموبايل من جيبيه وعاود الاتصال بأمه، التي أمرته بالعودة فوراً إلى الإسكندرية بدون إتمام المهمة. الولد دفع لصباح فلوسها. والبنيت هي التي طمعت في المبلغ واخترعت هذه القصة. أزمة أخلاقية عابرة اجتاحت قلب حمادة لثوان. جلس بجانب الجثة دافئاً رأسه بين كفيه. بدرت حركة من الجثة. نظر إليها ثم رفع السكينه وطعنها خمس طعنات أخرى. ثم واصل معاناته الأخلاقية في السيارة. ألف قصيدة وهو يسوق: عشانك انتي انا بقيت قاتل، وباتعذب ومقيش حد سائل. عشانك انتي سافرت من بلد لبلد، وعشانك كمان الحزن في قلبي اتولد. كانت هذه واحدة من أولى المعارك التي خاضها حمادة من أجل صباح، والتي قدر له أن يرتبط مصيره بمصيرها ليشكلا معاً أجمل قصة حب عرفتها الأيام.

•••

تمثال الفرخة يتطلع يومياً في الصباح إلى غرفة حمادة. يجلس هذا بجانب الشباك، ويفكر.

ذات مرة، قرر أن يأخذ خطوة إيجابية. نزل من البيت. جلس عند قاعدة التمثال الذي يحتضن بيضاته الأربع. وبقلم فلوماستر سميك كتب على البيضة الحجرية الأولى اسمه، حمادة، وعلى الثانية اسم صباح، وكتب على الثالثة، أولاد حمادة وصباح، وعلى الرابعة، ولاد ولدنا بإنن الله.

الكتابة تم محوها بعد أيام بفعل الشقا المنهمر. وكتبها حمادة مرة ثانية، ومحيت مرة ثانية، وثالثة، ورابعة. ما ظل متبقياً من كل هذه الكتابات، ما ظل صلباً وثابتاً لا يروح مع المطر هو الدلالات. حمادة كان يرى في صباح الزوجة المستقبلية بلا جدال. ليس هنا فقط، كان يرى نفسه استمراراً لعائلة علي وإنجي، ويستشرف بعينه مستقبلاً يصبح هو فيه أباً للعائلة، ويهذب أبناء يصنعون الأيام القادمة لمصر. أبداً لم يتصور حمادة أن يكون تاريخ باباه وامامته مجرد سيرة ذاتية عابرة لمجرد رجل وامرأة ثوريين. بدون الالتحام بتاريخ الوطن لن يكون لتاريخ الفرد، الفردين في هذه الحالة، معنى. هذا ما وعاه حمادة منذ سن مبكرة.

ولد حمادة بدون أبيه، لا يذكر عن علي في أيامه الأولى أشياء كثيرة. كل ما يذكره هو إنجي وهي تدلعه وتحكي له تاريخها، حكايات كثيرة، عن عين شمس ومدينة نصر وسيدي جابر وكامب شيزار وميدان رمسيس وأبو ظبي وكرموز. عندما كانت تحكي له عن بابا لم تكن تطيل الحكى. بابا بعيد. بابا يحبك. بابا سيرجع قريباً. بابا سيرجع لكن ليس الآن، قد يتأخر قليلاً. قد يتأخر كثيراً. انت عليك عفريت اسمه بابا! خلاص، أبوك غار ف ستين داهية، استريححت يا ابن الكلب. وتحت وطأة المعلومات المشوشة نشأت شخصية حمادة، لا تعترف بالحقائق المتعاسكة، وترى الكون كله مفتوحاً على الاحتمالات، كما يجدر بشخصية فنان.

عندما رأى أباه للمرة الأولى كان خائفاً. منظر أبيه بذقنه ونظارته السميكة المشروخة والوسخة جعله يلتصق بحضن أمه. وعندما جاء أبوه ليعيش معهم بدأ يقترب منه على مهل. كان يسأله عن القصة كلها، ماذا ولماذا وأين ومتى وكيف. وعلي كان يحكي له قصصاً أخرى. كان يحكي عن شخص اسمه أنكل أبو أميرة وسوسو والشيخ حسن وعادل المحبوس في السجن ظلم. وكان يحكي له عن جيمز الموبايل. عندما تكتمل ثلاث كور من نفس اللون جنب بعضها تنفجر تلقائياً. لهذا يا حمادة فكلنا بعيدون عن بعضنا. أنا وأنت ومامتك هنا، وسوسو وأبلة منة في غيط العنقب، والشيخ حسن في كامب شيزار. تعلم حمادة يومها درساً مهماً سيفيده في مستقبله، كما تعلم درساً آخر من الجيمز. عندما تجتمع ثلاثة إكسات بجانب بعضها تتمكن من تدمير الكائنات المنفردة. ولهذا فكلنا هنا بجانب بعضنا، أنا وأنت وماما وأنكل أبو أميرة ومحل سوسو. الاتحاد قوة يا حمادة. في هذا السن نظر حمادة إلى فرخة الكرنتينا بوصفها الرمز الذي يجتمع حوله الجميع. الفرخة هي أكثر من فرخة، وبيضاتها الأربع هي أكثر من بيض مسلوقة متحجر. أبوه كان يرتكن على الكنبه ويواصل الحكيم:

“ذات يوم يا حمادة، كان الكون بسيطاً، كان مفهوماً وواضحاً. الخير كان بسيطاً والشر كان بسيطاً. وقتها حاول اثنان، بإمكاناتهما الضعيفة، أن يتحديا الظلم السائد. لم يملكا شيئاً. لا شيء إلا إيمانهما بالحق والعدل والخير والجمال. ولكن الله لا ينسى عبده. لقد سخر الله المكة الحديد في خدمتهما. وقتها كانت عربات القطار تتخلص من الظالمين. عربات سائرة في جميع الاتجاهات، من محطة مصر إلى سيدي جابر، ومن سيدي جابر إلى رمسيس، ومن رمسيس إلى سوهاج. (بغمض عينيه طويلاً ثم يفتحهما) ثم، روجي يا أيام، وتعالني يا أيام، وتظهر السيارات، وتظهر الميكروباصات، ويظهر

التوتكوك. ويتعاون جميع جنود الله للتخلص من أعداء الله. الآن نسمع عن أشياء غريبة. سنج ومطاوي وسيوف وسلاح آلي. الله يسخر العلم الحديث لخدمة الناس يا حمادة.

•••

كل هذا لم يربك حمادة. سار في طريقه بقوة وثبات. كان يجلس أمام باباه وامته ويسجل لهما على الموبايل حكاياتهما. ويخطط لكتابة ملحمة شعرية عملاقة عن قصتهما. كانت تبدأ ببيتين شعبيين، أحسن حاجة يا جماعة نصلي ع النبي، النبي حلو ونكره حلو والصلا حلوة والنبي. حمادة في الجامعة الآن، في كلية تجارة. يكتب قصائد ويردها على زملائه، فقط لم ينشغل بالمسابقات الشعرية مثل زملائه القافهين، وبالطبع ولا اتحادات الطلبة. الفن مش تجارة يا صاحبي، لم يحاول أن يبيع فنه لأي من كان. والزملاء الذين طلبوا منه قصائد يرسلونها لصاحباتهم لم يحصلوا على حق ولا باطل. بظلة قصائد حمادة كانت فتاة مجهولة اسمها صباح. لم يعرف أحد من هي ولا لانا أحبها الشاعر السمين إلى هذا الحد. ولا لانا كتب اسمها خربشة على جانب الجيتار الضخم الذي كان يأتي به إلى الجامعة. ولا لانا حدث المشهد التالي:

حمادة يلعب بعنف فوق أوتار جيتاره لحناً هفي ميقال، ويقني صارخاً، يا صباح، يا حبيبتي، يا نور عيني، يا صباح، يا روح الروح، وصوته يعلو، ويصرخ أكثر، ويعرق، حتى يسقط من على البنش بالدرج. يقيم حمادة في البيت أسبوعاً. ينام ليلاً ويصحو نهاراً. يستيقظ مرة فيجد شخصاً بجانبه. يخبره أن اسمه فاروق، وأنه جاء لهسأل عليه. يتشبهت حمادة بكثفه ويسأله إن كان هلوس كثيراً وهو نايم. يرد فاروق، كنت بتشخر. يقول حمادة بحنين، أنا نطقت

بأغلى اسم ف عمري وانا مغمى عليا. أنا نطقت باسم صباح. خدت بالك؟ وفاروق يهز رأسه.

أصبح فاروق هو أقرب الأصدقاء لحمادة، هو صديقه الوحيد بالأحرى. نار به هذا في أنحاء الكرنيتينا. فرّجه على أهلها. جلسا عند قاعدة الفرخة، كتب حمادة على واحدة من بيضاتها، حمادة علي بخيت، فاروق، الكرنيتينا، ١٦-٣-٢٠٢١، صداقة لأبد. ثم سعد به ليشربا شيئاً في البار. فور دخولهما توقف حمادة فجأة. أمسك بيد صاحبه. وسأله، سامع قلبي بيدق ازاى. هز فاروق رأسه فأشار حمادة إلى صباح الجالسة بالداخل مع رجلين.

صباح، في الأول وفي الآخر، هي جثة. جسم عظيم. دهن ولحم، فخذتان هائلتان عاريتان تضع إحداهما على الأخرى، وضرعان عملاقان ويطن عارية مرسوم عليها، أسفل السرعة، تاتوه طويل، على هيئة نقاط زرقاء، تمتد إلى أسفل، حتى تنتهي في لعر الجبهة القصيرة. طبيعي إذن عندما يراها أي شخص أن يهرش في قضيبه. هذا ما فعله فاروق، ولاحظه حمادة ولم يعلق. شربا وسكرا وانبسطا. وفي منتصف القعدة هجم حمادة على صديقه الجديد. ناوله لكمة هائلة في خصيته، ثم أخرى، ثم أخرى. ثم صرخ، بتهرش فيه فداسي. وحياة أمك هقطعهولك المرة الجاية. الولد كان قد سقط بجسمه كله على الأرض. سحبه حمادة من ياقته وجرحه خارج البار. رماه على السلم. ثم عاود جلوسه طالباً كأس تكيلا، نظر إلى صباح وقال لنفسه وهو يخاطبها، بصوت منخفض وحالم، من أجلك أعتقتُ نسائي، وخسرتُ أعز الأصحابي.

صداقة حمادة بفاروق لم تنته بسبب هذه الواقعة. في اليوم التالي قابله بعد المحاضرة وأخبره أنه كتب فيه قصيدة شعر اعتذاراً منه. قرأها عليه ثم أقسم عليه بأنه أن يزورا الكرنيتينا اليوم مرة ثانية. زارها مرة ثانية، وثالثة.

بدون أن يدفع الولد شيئاً من جيبه طبعاً. كان حمادة يعد صديقه لمهمة عظيمة، قال له مرة، أنا عاوزك تبقى انت دراعي اليمين، عاوزك لما اجي اقرا شعر انت تسقطني، ولما اغني انت تقول ورايا، عاوز قلبك يبقى عليا يا صاحبي. وفاروق هز رأسه. وحمادة طبطب على كتفه في حركة ثقة.

في اليوم التالي تكلم حمادة مع باباه. قال له إنه عرف صديقاً جديداً وأنه يرشح هذا الصديق للعمل معهم في الكرنطينا. الولد كويس ومصدر ثقة غير محدودة، وإن شاء الله سيفهم في الشغل بسرعة. هذا أول شيء، ثاني شيء إنه يشعر بشيء، يشعر بمشاعر غريبة عليه، هذا شيء يشعر به لأول مرة، إنه يشبه شيء عجيب، أجنّ، أكن، ثم ألقى الجملة، أنا عاوز اتجوز صباح. سأله باباه صباح مين فارتبك. لعب أبوه في ذقنه وسأله، صباح الشرموطة؟ قال حمادة في سره، اسمها ويتر يا جاموسة انت، وهز رأسه. لم يرد علي. بعد قليل فقط قال، جهزلي سجادة الصلا وحضر الشيشة. حمادة لم يفهم هذا الرد، ولكنه اعتبر أن أباه يقف في طريق حبه، فقام. قرر أن يغادر البيت للأبد. كلم فاروق وأخبره أنه سبببت عنده الليلة. نزل إلى الشارع، سار منتهي متراً ثم تذكر أنه نسي الموبايل في البيت. عاد ليأخذه، وعندما عاد كان قد تعب من المشي. نام عشر ساعات، وعندما صحى نسي الموضوع كله.

حمادة مثل أي شاب مصري في ظروفه. كان ينظر بلهفة إلى تركة أبيه وأمه. بوصفها ولكنه المستقبل. لذا فقد حاول إثبات ولاءه بأكثر من شكل، بخوض المعارك، الدعاية عن الكرنطينا، تطبيق الحسابات، وينقل أخبار العاملين لعلي وانجي. فقط النهج كان مختلفاً، علي وانجي كانا سياسيين بالأساس. استطاعا تحقيق ما حققاه بالقليل جداً من الدم والكثير من المناورات.

ولكن الأيام الآن اختلفت. الدنيا أصبحت صعبة جداً، وكل شيء بالدرع كما قال أبو أميرة يوماً. ولذا فلقد آمن حمادة بالعنف الثوري. لم يؤمن به بالضبط كان العنف الثوري هو ما فُرض عليه فرضاً، لأن الحياة بقت صعبة والناس نفوسها اتغيرت. عندما توفت الحاجة اعتماد كان حمادة في البكالوريوس. أرسله أبوه إلى سوسو ليفهم منه ماذا ينوي فعله بعد وفاة الرحومة. أين سيقام العزاء مثلاً وهل يحتاج هو وزوجته أي شيء؟ كانت هذه أسئلة علي، ولكن الصياغة هي التي تفرق دائماً، والأهم من سؤال "ماذا نقول" هو سؤال "كيف نقول". أراد حمادة إضافة كلمات تثبت أنه أصبح رجلاً يفهم في كلام الكبار. قال لسوسو، شوف يا أبيه سوسو، أنا مش عاوزك تبقى زعلان من الرحومة عشان كتبت العمارة باسمنا، إنت راجل مؤمن يا أبيه، وعارف إن دي أرزاق، وأكد عينك ماكاتش على ورث مراتك. سوسو نظر لحمادة بقرق، ثم قال، العزاء خليه يعمله، احنا ما عندناش فلوس نعملو بيها عزا، الحاجة الثانية ان انا عمري ما بصيت لقرش مش بقاعي، بس الصح مايزعلش، وابوك عارف كويس ان دا مش حقه. فهمت يابو شخة انت؟ حمادة، الرقيق ونو الشاعر المهفة، جرحته الكلمة. قذف سوسو بطفافية السجاير في وجهه وصرخ بصوت هادر، إنت تتكلم بشكل موحتر!!!!!!!!!!!!. انقض عليه ولكن سوسو كان أسرع. عاجله بضربة على رأسه بالشومة، ثم دفعه بفراعه خارج باب البيت وهو يصرخ، ورحمة أمي اني هانعرفك نفسك يا عجل يا ابن المرص.

لسنوات طويلة ظل علي يلوم ابنه الوحيد لكونه السبب في الحرب التي اندلعت بينه وبين سوسو ومنة. ولكن حمادة كان عنيداً وصلباً في كل ما يخص قناعاته. الزمن تغير، ودبلوماسية الأيام الماضية لم تعد تنفع. دنيتنا بقت مرار. وحتى إذا افترضنا أن حمادة لم يستغزه، هل كان هذا ليعطل بحر كراهية

سوسو، سوسو الذي لم يتمكن لهم الخير في حياته. كان مذهب حمادة يعتمد على التعجيل بالحرب لينتصر فيها. ومنحبه علي وانجي يعتمد على تأجيلها، تأجيلها وتأجيلها وتأجيلها حتى زهقنا يارب، احنا في عصر السرعة دلوقتي يا فاروق، وهما لسة يعتبروا ماشيين بالطرق التقليدية، كان حمادة يشرح لصديقه الفرق بين الأيام الماضية وأيامنا.

•••

الأصعب من الوصول للقمة دائماً هو الحفاظ عليها. وعى حمادة هذا الدرس بقوة، وجاهد لتدريب نفسه كل التدريبات الصعبة، تدريبات الذكاء بالأخص، فالعصر القادم ليس عصر العضلات ولا القوة البدنية وإنما هو عصر العقل والمعلومات. كان يقضي أوقات فراغه في حل الكلمات المتقاطعة والسودوكو، وفي لعب بنك الحظ مع فاروق. فاروق لم ينتصر أبداً في بنك الحظ. حمادة كان ينتصر طول الوقت، وأشخاص مثل حمادة لا يسبهم الانتصار، بالعكس، لأن الهزيمة تعلمنا أشياء جديدة، والانتصارات تقف بنا حيث نحن. كان حمادة يعقد صفقات مهمة بنقوده ولا يلتفت لها فاروق، يقع في الفخاخ، ولا يلاحظ أتفه الألعاب. وكان حمادة يحكي. استطاع اكتساب مهارتين في نفس الوقت، اللعب والكلام، وحتى لو كان كلامه في أثناء اللعب يدور عامة عن اللعب، فإن ذلك كان مبشراً بوقت يستطيع فيه شراء مدينة حلب مثلاً والكلام عن صباح حتى الآن لم يستطع فعل هذا، سيفعله يوماً.

“عارف مشكلتك إيه يا فاروق. أقولك. إنت غيبي يا روقة. ماتزعلش مني يا صاحبي. مش عاوز ازعلك. إنت إنسان جميل، فنان كبير. بس الفن مش كل حاجة يا صاحبي. إنت لازم تبقى ذكي كمان. خدني كنمونج. أنا فنان. باعزف الحان. لكن عمري ما انفلبت في اللعبة دي. لأن دلوقتي اللي بيتغلب في بنك

الحظ مابقالهوش مكان بينا. شغل الكرتينا عاوزة الذكاء والفن مع بعض. أنا دلوقتي باقولك إنك مش مفيد ليا. إنت مابتعلمينش حاجة جديدة. مين اللي علمك تشتري الجراج يا روقة. مين اللي علمك تعمل سوق في بني غازي، مين اللي فهمك اللي مكتوب ع الكروت واللي مش مكتوب ع الكروت. أنا علمتك كل حاجة يا فاروق. وانت تعتبر ولا حاجة. إنت غبي يا فاروق."

فاروق كان إنساناً متسامحاً، لم يرد على إساءات صديق عمره. كان ينظر له ويبتسم ويشترى بيتاً تافهاً في مدينة أتفه، وهذا كان يجنن حمادة، الذي منذ مرة اللوح وقذف به في وجه صديقه. تناثرت الأوراق والزهر والبنكنوت على أرض القهوة وأخذ فاروق يلملمها بتسامح نادر. كان جسم حمادة يرتعش. أخفى وجهه بين كفيه ومضى يردد بصوت هستيري، يا ابن الغبية، يا ابن الغبية، يا ابن الغبية. وفاروق يضع كل ورقة بنكنوت في مكانها على اللوح، وينظر لحمادة ويطبب على كتفه بيد مرتبكة.

الروح دائماً عرضة للخداع، الجسد ملموس ويمكن الوثوق به. ولكن الروح هي ما تفتقد الأدلة على وجودها. والفنانون بالتحديد هم أكثر الناس عرضة للاضطرابات النفسية. يعرف علماء النفس البشرية هذا بوصفه اقتران الاضطرابات العقلية بالإبداع. جميع الفنانين الذين أثروا حياتنا بالأعمال الفنية الجميلة كانوا يعانون من إدمان الخمر والمخدرات، ومن العصبية الشديدة، ومن الميل للاكتئاب والانتحار. وحمادة كان فناناً حتى أعماقه.

لم يفهم حمادة أبداً لماذا تعامله أمه بهذه الطريقة. كانت تعتمد عليه في أشياء كثيرة، ولكن أشياء أكثر كانت تتحاشاه فيها. مثلاً، حمادة خبير في أنواع الحشرات والزواحف، أخذ يثق نفسه بنفسه طول عمره في الثعابين. اشترى

كتباً كثيرة في هذا الحقل المعرفي النادر والمفيد. كان يتركها في كل مكان بالبيت، عسى أن يراها أبوه وأمه يوماً فيستعينان به فيما هو أكبر من تكسير قهوة أو ضرب بنت علقمة موت لأنها أخفت عليهم واحدة من طلعاتها. ظل حمادة حزينا لأن أمه لم تمتعن به أبداً في تنظيف البيت من الحشرات.

طول الوقت كان النعل الفارسي يغزو البيت، مع جحافل الصراير، وبالأخص في الصيف. حمادة كان يجلس أمام أبيه ويحدثه عن الفرق بين أنواع الفعل المختلفة، والشعابين الأفريقية، وكيف تفتق الصراير بيضها، ويخبره عن صفات الصراير المجنحة، وبرغم هذا، ففي كل صيف تستدعي إنجي شركة إبادة الحشرات. يرش العامل البيت وينقل أهله للإقامة في شقتهم الجديدة بالمعجمي. كان هذا جارحاً لحمادة. ليس عدم إشراكه في تخلص البيت من الصراير فحسب، وإنما عدم الثقة به في كل العمليات المشابهة. قال لمامته مرة إنه يشعر كما لو كان صفراً على الشمال. شيء بلا جدوي، وبكى، وأمسك بذراع أمه بقوة. رن جرس الباب ودخل فاروق مبتسماً كعادته. كانت هناك بقية من دموع في عيني حمادة. نظرات فاروق المندهشة حتمت على صديقه أن يشرح له المشكلة، فمضى يحكي بصوت مخنوق، وينظر لأمه ليشهدها على كلامه لفاروق، وينظر لفاروق ليشهده على كلامه لأمه. إنجي بدت قرقانة، أو على الأقل، غير مكترثة للمشهد الدرامي الدائر أمامها. فجأة نطقت بصوت بارد، حمادة يا حبيبي، مافيش حد اسمه فاروق، مافيش حد معنا هنا في البيت. إنت بتكلم الهوا يا بابا.

تشج حمادة، ترددت صرخته المذعورة، اسكتي، اسكتي، ثم أخذ ينظر لفاروق ويمسكه من ذراعه، ويشعر بلمس ذراعه بين أصابعه، ذراعه فحسب. فاروق كان يتبخر شيئاً فشيئاً. اختفت رأسه في البداية، ثم رقبته، ثم بطنه، ثم

ساقاه، ثم النزاع اليمنى، وبقيت الذراع اليسرى وحدها معلقة في يد حمادة. حتى بدأت تختفي هي الأخرى، الكتف ثم الكوع ثم الأصابع. وجلس حمادة على الفوتيه وأجهش بالبكاء.

هذه الحادثة، أي اكتشاف حمادة أن فاروق هو مجرد شخص متخيل، لم تؤثر على علاقة الاثنين ببعضهما البعض. ظلا صديقين وقيين، مع عتاب بسيط ظهر في عيني حمادة تجاه صديق عمره، لماذا لم تخبرني يا صديقي، لماذا خدعتني، لماذا تركتني أقع في الحيرة، لماذا، لماذا، لماذا. وفاروق ينظر له ويتمم ابتسامة بلا معنى.

إنجي كانت تستلطف سوسو. هو الوحيد الذي ظلت تستلطفه وتستخف
 دمه بين عائلة أبو أميرة كلها. تستلطفه هنا كانت بمعنى تستلطفه، ليس بأي
 معنى آخر. كان يلجأ لها في أزماته ويسألها أعماله إيه يا ست الكل، وهي كانت
 تشكو له من علي، دا بني آدم غيبي يا سوسو، مابيفهمش حقيقي. بدأ
 الاستلطف بينهما، كما نعرف، من محادثات سوسو المطولة معها من الصعيد.
 وفور عودة سوسو، كما يعرف جميع سكان الكرنطينا، تزوج منة، وبالتالي فلم
 يعد ممكناً للاستلطف أن يأخذ صيغة أخرى غير الاستلطف.

السكس كان يتم بين علي وإنجي بانتظام. مرة يوم الخميس، ومرة في وسط
 الأسبوع. كانت العملية الجنسية جيدة بشكل عام، ما عدا بعض القصور المعتاد
 بالنسبة لزوجين قديمين، وتقريباً منذ رحلة سوسو لموهاج وإنجي تتخلله
 عندما تكون تحت علي. وعندما عاد، بشندب جديد وجسد جديد، مليء وليس
 سميناً، صارت صورته تزورها كل مرة تنام فيها مع علي. منّت نفسها أنه ربما
 يأتي اليوم الذي تصبح فيه الدنيا عادلة معها وتنفصل عن علي وتتزوج سوسو.
 ولكن الحاجة اعتماد أفسدت كل شيء عندما كتبت ما تبقى من عمارتها
 باسمها. كرهت الناس فيها، وأشعلت غضب سوسو ومنة مراته، وأفسدت أي
 احتمال لأي دلح يحدث بينها وبين سوسو في المستقبل.

لسبب ما أو لآخر، لا يمكننا إلا أن نمزوه للخلط الذي يقوم به البعض بين شخص ما وآخر. فلقد خلطت إنجي بين علي وبينها. عندما تصورت أن زوجها هو السبب في القطيعة بينهما وبين سوسو. برغم أن العمارة، وهي أصل كل المشاكل، مكتوبة باسمها هي وليس باسم علي؛ فلقد ظلت تلوم علي بنظراتها. وعندما اندلعت الحرب بين بيت علي وبيت سوسو، فضلت هي نور الطابور الخامس، المتواطئ مع العدو، المهون من شأن خطورته، على دور الوطني الغيور. كس أم العالم كله، بما فيه علي، أو بالأخص علي، الذي يريد أن يحرمها من شيء تريده بقوة.

لا نجزم أن هذه المشاعر كانت متبادلة. سوسو لم يكن مشغولاً بالگراميات والعاطفيات وما إلى ذلك. سوسو كان يبني نفسه بنفسه. يبني إمبراطوريته ويحطم إمبراطوريات الآخرين. عندما انسحب برجالته من محله، وفتح محلاً آخر في غيط العنب حيث يسكن، كان هذا إيذاناً ببداية الحرب. علي لاحظ هذا، إنجي لم تلاحظه، وحمادة ظل يغلى بالغضب خمس ساعات. في البداية، صار رجال سوسو يجلسون بالقرب من بيته، وهم من كانت مهمة حماية الكرنيتينا كافيته مستحيلة بدونهم. لم يتخل سوسو عن محله القديم، فقط قام بتأجيريه لواحد من رجالته. رمضان المعدول. رمضان المعدول ليس فقط من رجالة سوسو، هو مرشد للحكومة أيضاً. سوسو يعرفه جيداً، ولا يتكلم. حتى مرشو المباحث قد نحتاجهم يوماً ما، لشخصهم أو لصفاتهم. وعلي لم يغفر هذه الخطوة. قام ثلاثة من رجالته بطرد رمضان من المحل وكب الزيت والكبدة على الأرض. هذه كانت عملية صغيرة. ولكن سوسو كان يحتاجها ليرد عليها ويثبت مكانته الجديدة التي ادعاها لنفسه. اقتحم عشرة من رجالته الكرنيتينا كافيته، صدوا إلى الدور العلوي، أخرجوا الرجال والنسوان بالملابس الداخلية. سار الجميع

عرايا في كرموز كلها، ورجالة سوسو خلفهم بالسلاح. وعندما حاول علي الرد على الضربة، لم يجد رجالاً. كلهم أصبحوا الآن في غيط العنب مع سوسو. وإنجي كانت ضد فتح النار على سوسو، وأبو أميرة شهادته مجروحة. الوحيد الذي التفت علي ليجده بجانبه في هذه اللحظة كان حمادة. حمادة، يرضيك صباح تمشي عريانة في الشارع؟ اشتعل الغضب بداخل حمادة. أبوه الآن بجانبه في كل خطوة. حمادة يكون جيشاً وسلاحاً بدلاً من سلاح سوسو الذي أصبح ينفجر في وجوههم. وبالإضافة للتوجيه اللوجستي على الأرض، كان علي يزود ابنه بتوجيهات من نوع آخر. تاريخية كلها، عن أسلاف سوسو ومصادر تأثيره. مثلاً، صحيح أن ضبط الرجال والنساء وإخراجهم عرايا من الكافية كان عملاً من تدبير سوسو، ولكنه لم يكن من إبداعه. لقد حاكى سوسو بهذا العمل عملاً آخر. موعلاً في التاريخ. لشخصية من الشخصيات الكسندرية الأبرز في العقود الأخيرة، سيكا.

كما اتفقنا، فالتاريخ الكسندري هو حلقات تلتحم ببعضها البعض، وسقوط حلقة من هذه الحلقات، لا يعني مجرد سقوط للحلقة، المفردة الوحيدة. وإنما سقوط لجميع الحلقات التالية والسابقة. لهذا سيكون لزاماً علينا سرد قصة هذه الحلقة الهامة في التاريخ، قصة سيد وسيكا وسلطان. أو الثلاثة سين، كما صاروا يُدعون اختصاراً.

•••

بدأت القصة تحت الشتاء، بأول شتاء، ظهر سيكا. شارب ضخم ومقدمة شعر خفيفة. وذيل حمان من الخلف وقميص مشجر مفتوح حتى السرة مع سنلة ذهبية معلقة على صدره الشعر، يبتسم فتبدو أسنان مسوسة ومتناثرة مع نظرة شر رهيب في العينين. الإسكندرية كانت تشتهي بقوة. رعد وبرق ووحل

ومؤثرات أخرى في يوم من أيام منتصف التسمينيات. دخلت عربية شرطة شارعاً صغيراً في أبو سليمان. تصدى هو للعربية. قذفها بالطوب وبقذاز البيبس من سطح إحدى العماثر. وفي لحظة غباوة قفز من فوق سطح العمارة. وجده الضباط والعاكر بينهم. رأوه يذبح ضابطاً بسيفه، وفجأة، فيما يشبه معجزة، يختفي. لا يعثر عليه أحد لأسبوعين كاملين، ثم يعود. سيكا كان يحب بنتاً من المنطقة. أبوها مدرس ابتدائي. كلم أباهما فقال له إن البنت صغيرة، في إعدادي مازالت. ولكن سيكا مجرم. خطف أخت البنت وخبأه ثم قال لأبيها إنه قادر على أن يفعل في إيمان ما سبق وفعله في الظابط أسامة، وقادر على فعل أشياء أخرى، ماء النار، الاعتصاب، القتل. في النهاية تزوجها، وقبل أن يتزوجها كان قد نبح الضابط، كانت هذه الأيام هي ذروة شعبيته. كنّ شهراً في البيت بعد زواجه. ثم عاود طريقه. لسبب ما أو آخر، دخل في عقل سيكا أنه أسطورة أبو سليمان وونجت والإسكندرية كلها. كانت أسطورة حربي قد بدأت بالخفوت. حربي مختف ولا أحد يعرف مكانه، وظهوره من قبل أكد أن الإسكندرية تحتاج بطلاً شعبياً، وسيكا كان مستعداً للفرغ، وبخباية، دعونا نعترف. اعتدى على بنات مدارس قاصرات، وباع مخدرات مغشوشة، وقتل، وهجم على شقق وسرق أصحابها، ولكي يفرض على أهل المنطقة الولاء له، نشر رجاله في المنطقة، وأخذ منهم إتاوة أول كل شهر وفي الأعياد. لم يكن هنا كافياً، الدنيا ولعت خالص من ناحية الأسعار، والجني بقي صعب. الإتاوة كانت تزداد شهراً فشهراً، حتى رفضت عائلة كاملة دفعها. دخل سيكا البيت الذي رفض الدفع مع خمسة من رجاله، انتشروا في شقعه الأربعة، فرضوا على جميع سكان البيت، رجالاً ونساءً، أن يخلعوا ملابسهم، أخرجوهم عرايا من البيت وهم من خلفهم بالسنج وقرن الغزال والسلاح الآلي. كان كافراً بلا ملة. لم يرهب هذا الناس.

ظلوا يتحينون الفرص للإيقاع به. في هذا الوقت تحول جميع أهالي أبو سليمان إلى مرشدين للشرطة، مرشدين بهدف واحد: الإبلاغ عن أخبار سيكا. وعندما داهمت قوة من الشرطة بيته قام. ضرب نار وضربت عليه نار. كانت الدنيا تمطر أيضاً. خلصت القصة تحت الشتاء، بثاني شتاء، قُتل سيكا.

عندما وقعت هذه القصة كان سوسو مازال عيلاً صغيراً. سمع الكثير عن سيرة سيكا. قرف منها، وتعاطف معها. عندما كبر واشتد عوده في كامب شيزار تعرف على واحدة من عشيقات سيكا، في إحدى ديسكوهات العجمي. عرف قصتها ثم قام بتشغيلها في شقة كامب شيزار. حكى له عن تفاصيل حميمة: "أكثر واحد بسطني كان سيكا، عمره ما قالي لأ، كان يقضل واقف طول الليل، مرة ورا مرة، مابيهمدش، (وبنظرة خليعة) ولا انا كنت باهمد انا كمان". إذا كان التاريخ نوعان، تاريخ رسمي وتاريخ بديل، فإن التاريخ الرسمي كان هو الذي يصف سيكا بالبلطجة والإجرام، والتاريخ البديل، التاريخ بحسب عشيقته، هو الذي يصفه بالقوة الجنسية. سوسو لم يؤمن أبداً بالتاريخ الرسمي، كان يؤمن بتاريخ الناس، الحقائق المتناثرة، التفاصيل الصغيرة، الميكروتواريخ، وسيكا كان رجلاً جامداً، ليس بلطجياً، هكذا تحدث الناس.

كان من ضمن رجالة سيكا شاب نحيل وأنيق اسمه سيد، سيد، نظارة هاف فريمبس صغيرة وأنيقة، وجه نحيل ودقيق الملامح مع ندبة عند الجبين، بلا شارب وذقن تبدو كما لو أنها لم تنم أصلاً. كان يبدو خارجاً من الجامعة نتوه. شاهد سيد معلمه وهو يُقتل فهرب. هرب من أبو سليمان كلها. خاف من غضب الناس. كان واحداً من مدبري حادث إخراج النساء والرجال عرايا، وكان مسؤولاً عن تعرية بنت بعينها من كل ملابسها، وهو الذي قلع لها الكهلول والسنتيان بيديه أيضاً، انتقاماً منها بعد رفضها الزواج به منذ أيام. لم يحتمل

البقاء في الإسكندرية فسافر مطروح لشهرين وعاد بأهله إلى المنطقة. كان عصراً من سيطرة عرب مطروح على أبو سليمان. هو، بأهله، ببقايا من أعوان سيكا، استطاع تكرار أسطورة معلمه بعد أشهر. تم تقفيل المنطقة تماماً. الشباب أصبح يشرب الحشيش كمنشآت في الشارع وعلى القهاوي، وعربية الشرطة إذا دخلت ستفترك ستين حقة. في هذه الأوقات، تكون الغلطة بموتة، والغلطة الدرامية لسيد لم تتأخر: أدخل شخص في ودته إن المعلم رجب في الوردان يبيع البضاعة بسعر أرخص لعلم في القباري اسمه سلطان، لأن الاثنين يرتبطان بصلبة نسب. بدأ الدم يغلي في دماغه، وقرر الشراء من معلم آخر بالوردان لتحديه. تزامن هذا مع أعراض لجنون العظمة أصابته، بالضبط مثلما أصابت سلفه سيكا. زاد الإتاوة المفروضة على الناس في أبو سليمان، وقتل عائلة كاملة حاولت التهرب من دفعها، رجلاً وزوجته وأمه المجوز وطفليه. في الليل، هجم عليه رجال سلطان، الذي كان يعمل عند المعلم رجب، وقتلوه. وهلل الناس لسلطان. كان وجهاً جديداً ومبشراً بالخير ساعتها.

عندما حدث هذا، كان سوسو في الإعدادي. يعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً، وفلاناً يوصله بفلاناً آخر، وفلاناً الأخير يوصله بفلاناً الأول. الدنيا صغيرة. جلس سوسو مرة مع واحد من زملاء سيد بكلية الآداب. حدثه الشاب وقتها عن تفوق سيد عندما كان في الجامعة، عن ولعه بعلم النفس، وفراسته في كل مايتعلق بنفسيات الناس. ها نحن نصل مرة أخرى إلى معضلة التاريخ الرسمي والتاريخ البديل. الرسمي يقول تاجر مخدرات والبديل يقول متفوق وعنده فراسة. انحياز سوسو دائماً هو للتاريخ البديل.

منذ عام أو عام ونصف تقريباً كان المعلم سلطان قد ظهر في القباري. المعلم سلطان، معلم حقيقي، جلابية ووجه غليظ وشارب ضخم وصلعة، النظرة غاضبة

ولكن طيبة، فيها شيء من الأصالة. لم يكن ظهوره بمعزل عن ظهور حربي. قاد حربي عدداً من العمليات لصالح المعلم سلطان، ولصالح المعلم رجب أيضاً. وعندما اختفى حربي، تعامل سلطان مع آخرين. سواء سلطان أو رجب، كانا ينتميان إلى عائلة كبيرة بقنا. هاجرت العائلة إلى الإسكندرية في السبعينيات، استقرت في القباري، ثم رحل رجب للورديان، وبقي سلطان بالحي الذي كان قد تعود عليه. لكل هنا كان طبيعياً أن يتزوج سلطان من أخت رجب، تربوا مع بعض وعرفوا بعضاً من زمان. البلد واحدة والكار واحد والمصير واحد إن شاء الله، خيراً أو شراً. في البداية، كان سلطان ذلك النوع من المعلمين الأخيار. لم يعاند رجب في شيء، ويمشي جنب المحيط، ولا يقوم إلا بالمهمات التي لا تتعارض مع صالح الناس، مثل قتل المعلم سيد مثلاً. إلى هنا والمسائل جيدة، ولكن حربي كان له تأثير كبير. كلام الناس عن حربي في كل مكان جئن سلطان. ما الذي فعله الولا ولم يفعله هو. ومثل سابقه، وعى أن هناك تغييراً يحدث في الإسكندرية. وبحس أولاد البلد الحقيقيين التقط التوق الكاسح للتغيير بين أبناء شعبه. وطرح نفسه بهذه الصفة. توقف عن تزبيط رجال الشرطة وإمدادهم بالمخدرات. كانت هذه هي المرحلة الأولى، المرحلة الثانية كانت قتل من يتعامل من رجاله مع الشرطة بدون علمه، والمرحلة الثالثة، قتل من تعامل من رجاله ولو لمرة واحدة مع الشرطة حتى لو حدث هذا في الماضي السحيق، أي من يوجد في تاريخه أي أثر للتعامل مع الشرطة. بدأ المعلم سلطان حملة تطهيرية واسعة النطاق في القباري، تحت شعار "الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً"، قرر بتر جميع أعوانه ممن يشتبه في أي صلة لهم بالداخلية، وقتل زبائنه ممن يشتبه في أي صلة لهم بأعوانه الذين يشتبه أن لهم صلة بالداخلية، وقتل الزبائن الذين يشتبه في صلتهم بالزبائن، إلى آخره. في كل يوم كان المعلم سلطان يكتشف هدفاً

جديداً مرشحاً للقتل. والحملة التطهيرية وصلت إلى مدى أبعد. أصبح للتعامل مع الشرطة تعريجات أكثر اتساعاً ومطاطية، مثلاً، صار على الشخص الذي يدخل قسم الشرطة لاستخراج بطاقة شخصية أن يثبت عدم تعاونه، و صار حتى المحبوس سابقاً مطالباً بإثبات أنه لم يتم غسل دماغه داخل السجن ولم يعرض عليه أحد التعاون. أهمل المعلم سلطان الشغل وتفرغ لتحقيق نبوءته، "القباري، أول منطقة حرة من الحكومة"، وهو الشعار الذي كتب على حوائط القباري بخط يد أسود غليظ. وعلى قدر ما كانت حملات التصفية تتواصل، كان سلطان يفقد الكثير من قوته، يفقد أعوانه وأعوان أعوانه الذين قرر قتلهم بنفسه. وبرغم ضعفه الظاهري، كانت روحه تزداد قوة وصلابة وإشراقاً وهو بأي يوم إلى سريره ويغمغم برضا وصوت خافت، الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً. وعندما أصابته رصاصة القدر المحتومة ذات يوم أنهى فيه تنفيذ إحدى الإعدامات المتكررة، سقط على الأرض وغمغم بنفس الجملة، وبفلس النبرة، نبرة الرضا والصلابة والتسامح، الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً.

هنا كان التاريخ الرسمي والتاريخ البديل يلتقيان. الحديث هو عن المعلم سلطان بوصفه شخصاً إصلاحياً أكثر من كونه تاجر مخدرات، شخصاً حاول تحدي سلطة الداخلية وتأسيس يوتوبيا سكندرية، ولكن المتضررين من مشروعه الإصلاحي لم يدعوه يكمله، بالضبط كما حدث في ١٨٤١ و ١٩٦٧. سكتت كل هذه الأصوات، أصوات سيد وسيكا و سلطان ومن شابههم، فور موت حربي، أثبت مشهد قتل الأخير في عرض الشارع للناس أن الملك لا يزال هو الملك. كل شيء عاد كما كان قبل حربي، المخدرات موجودة، والبلطجة موجودة، والإرهاب موجود. ولكن بلا أفكار عن التغيير. بلا كلام كبير. بلا مسحاء أو أنبياء

كذبة. في النهاية. فإن أكثر شخص ارتبط به خطاب التفسير كان هو حربي. كان الزمن هو زمن حربي، والباقون متطفلون عليه.

الآن، بعد هذه النظرة السريعة على منتصف التسعينيات، عودة إلى عصرنا الحالي، منتصف عشرينيات القرن الواحد والعشرين: سوسو يقرأ تاريخ أسلافه، تاريخ الثلاثة سين. سوسو يذاكر كل هذه التفاصيل، حتى لا يتهمه أحد بتجاهل التفاصيل والقفز إلى الأحكام العامة. ويعد أن يذاكرها، سوري. آسف جداً، سامحني. يقول سوسو، حربي كان شخص قذر، مجنون أو بمعنى أصح مش عارف هو عاوز إيه، واللي عملوا اسكندرية بجد هما الثلاثة سين. هكذا كان سوسو يعيد صياغة تاريخ الإسكندرية في رأسه، يعيد قراءة ما بين السطور، ويتحدى الرواية المؤسسة بروايته هو، "هو" تأتي هنا بمعنى شخصي: سوسو كان يرى نفسه رابعهم، رابع الثلاثة سين ومحقق ما فشلوا في تحقيقه. التاريخ السكندري تلتحم حلقاته ببعضها البعض، كما قلنا مليون مرة من قبل.

هذه كانت قصة الثلاثة سين، وعاشا سوسو جيداً، علق صوراً لهم في كل مكان قرب بيته بغيط العنب. صور سيكا وسيد وسلطان في كل مكان الآن بكرينتين غيط العنب. سوسو لم ينل نصيباً جيداً من التعليم، إعدادية وخلص، لا دبلوم حتى. لذا فمن الطبيعي ألا تكون مخارج الألفاظ عنده بالدقة الكافية. سوسو من زمان لا ينطق اسم الكرنتينا كما يجب، يختصره، الكرانتينا، وأحياناً الكراسينا، أو الكراتسيفا، أو، ينطقه ساخراً: "الكرابنتينا". وشي، ما هو الذي كتب الخلود للام الأخير. عندما انشق عن علي أخذ معه الاسم. أطلق - أو أجاد إطلاق - على محله اسمه "كيدة الكرنتينه". وعلق على بيته باظفة "عمارت الكرنتينه"، وبالتدرج نطقت

منة مراته الاسم بهذه الطريقة، ونطقه رجاله بهذه الطريقة. نحن الآن نشهد تحول الكرانتينا إلى منطقتين، ونشهد بذور تكون اللهجات المختلفة بين المنطقتين. المنطقتان صارتا واحدة لعلّي وإنجي وحمادة عند الترام، تسمى الكرنتينا، تمتلئ بصور حربي. والثانية في غيط العنب، تسمى الكريبتينة، وتمتلئ بصور الثلاثة سين، ورابعهم سوسو. لم يكن الموضوع إذن هو مجرد شخصين يواجهان بعضهما البعض، ولا منطقتين، وإنما قلمفتان، تاريخان ولغتان ومعياران للقيم، كل منهما يزعم تأسيس الإسكندرية الحديثة. وفي هذه الأمور. فإن الحسم يكون صعباً جداً، مستحيلاً تماماً.

الانشقاق صار حاداً. لاحظته الجميع، حتى أبو أميرة العجوز والمريض وهو يزور أخاه الصغير في غيط العنب. نزل من سيارته ليجد سوسو في انتظاره بالتوكتوك. سارا معا في شوارع الكريبتينة. أبو أميرة يشاور على الصور ويسأل سوسو:

- مين دول يا خويا؟
- دا سيكا ودا سيد و دوت سلطان.
- المجرمين؟
- الأبطال.
- المجرمين يا سوسو؟
- الأبطال يا حاج.
- معلق صور المجرمين يا سوسو؟
- معلق صور الأبطال يا حاج.

سوسو يهين الشيشة في بيته. يحضرها لأبو أميرة فيعتذر هنا، الدكتور مانعني جامد، ويعتدل في قعدته، شوف ياخويا، انا بقيت راجل كبير في السن، ومش عاوز اشوفك بتقمارك مع الشيخ علي وانا ف نهاية حياتي يُعتبر.

- هو اللي ابتدا يا حاج، خليه يرجع حقنا في البيت.

- البيت يا باسم مراته شرعي وقانوني يا سوسو.

- شرعي وقانوني؟ شرعي وقانوني؟ وهو شرعي وقانوني يخلوا البيت من

حق واحد مجرم؟

- الشيخ علي راجل بطل.

- وهو شرعي وقانوني يخلوا الولية تكتب البيت باسم مجرم؟

- الحاجة كتبت البيت باسم البطل.

- ويخلوك انت، كحاج أبو أميرة، تدافع عن راجل مجرم؟

- انا بدافع عن راجل بطل.

سوسو يقدم لأبو أميرة نصف فرخة في يده وهما يتغديان. بوق دي يا حاج، هاتعجبك أوي. كل نعمة ربنا حلوة يا سوسو. أبو أميرة صحته لم تعد مثل الأول. يأكل نسيلة من الصدر ثم ينظر لأخيه:

- ماكانش بصح برضه يا سوسو تخرج الرجالة والفسوان عريانين.

- يا عم وهو انا خرجتهم من الجامع؟ ما هو مكان نجس واللي فيه

أنجس منه.

- أنا مش عاوزك تتجادل معايا. أنا عاوزك تروح تتأسف لعلي وتقوله انا

اسف ياخويا وماعفتش اعلمها تاني.

- طهيب..

- الحمد لله.

- بس مين قالك إنني ماعنتش أعملها ثاني.

- (لا يرد)

- بعون الله ماحدث هيعلمه الأدب غيري.

- (لا يرد)

- شوف ياخويا. إنت اعتبره القرد بقاعي. نتسلو بيه ولما نزهق نعملو

الصلح اللي انت عاوزه. بس طالما اني لسة مازهقتش، يبقى ادينا بنلعبو معاه.

- (لا يرد. ينشغل بتسليك سفانه من نسيلة الفرخة)

- فين صور حربي يا سوسو؟

- حربي مين؟

- حربي. نسيت حربي يا ولا. ابو مراتك اللي انت قاعد ف بيته. المعلم

محمد حربي.

- أبوة عارفه. بس سامحني ياخويا، متأسف خالص، آني مانعلقوش

صورة حرامي في منطقتي.

- يعني دلوقتي حربي حرامي يا سوسو؟

- حرامي آه.

- يعني دلوقتي الحاج حربي أخو الشيخ حسن إنت بتقول إن هو حرامي.

- أبوة حرامي يا حاج.

- يعني دلوقتي...

- (يقاطعه بنبرة صوت متصاعدة) حرامي يا حاج، بلطجي، إنسان قنر.

كل أفعاله قنرة زيه، (يسكت قليلاً. يهدأ) أجيبك الشاي يا حاج؟

- خفيف يا اخويا الله يرضى عليك.

•••

صينية عليها كوبا الشاي، مع شيشة. أبو أميرة لا يمانع هذه المرة. جالس على الأرض يشيش ويركن راسه على أسفل الفوتيه.

- أكفك مش عاوز تعلق صورة حربي في المنطقة تحت يا سوسو؟

- آه مش عاوز.

- (يصمت رقيقة) غريبة أوي، أصل زي ما تقول وأنا جاي شفت صور

ناس تانيين كدا. بس زي ما تقول شكلهم ماكانش غريب عليا.

- نول سيكا وسيد وسلطان يا حاج.

- (يشرد. ينظر جانباً) غريبة أوي. البلطجية؟

- (لا يرد. يتشغل برص حجر الشيشة)

•••

يشربان الحشيش من الكوباية. الاثنان غائبان تماماً.

- شوف يا سوسو، ماتفكرش إن علي باعتني ليك.

- ماחדش يقدر بيعتك يا حاج.

- ماחדش يقدر بيعتني. صح. إنت قلت الصح. أنا إنشي مراته هي اللي

باعتاني ليك.

- إنشي مين؟

- إنشي مرات علي.

- (يمحو قليلاً) عاوزة إيه إنشي مرات علي؟

- بقولك يا سوسو هي بتحبك ومش عاوزة الشر ليك.

- (سرحاناً) بتحبنى ومش عاوزة الشر ليا؟

- ويتقوّلك عشان خاطرها أقصر الشر من عندك انت.

- (سأهما) عشان خاطرها؟

- هي مستنياك تروح عندها وتتفقوا مع بعضيكو.

- (شارباً) مستنياني أروح عندها؟

•••

الإعصار يجتاح المدينة. مئة زوجة سوسو تفتح الباب فجأة. بشعر هائش وقميص النوم والغضب في عينيها. وربنا العبود يا حاج، إن ماحدث منا هيحط إيده ف إيد العالم الزبالة دي. وأقسم بالله إن جوزي اللي انت شايفه قدامك داهون، لو راح عندهم أني م النهاردة هانعتبره مش راجل. ويبقى يوريني هيروح أزاي.

•••

مئة الله محمد حربي: عصبية، عنيدة، تحب الناس ولكن فيعما لا يضر مصالحها. هي العامل الخفي وراء إحياء قصص الثلاثة سين، وتقديم الوجه المظلم لقصة حربي. أبيها الذي لا تذكر عنه شيئاً نا بال. تذكره جالساً في البيت يشيش باللباس القطن. تذكره وهو يضرب أمها حتى تعطيه عشرين جنفي ينزل يصرّفها على القهوة، وهو يلعب الكوتشينة بالفلوس مع أصحابه في البيت ويخرج قزازة الخمرة من جيب الجلابية. اختصاراً، لم تكن مئة تحمل ناحية أبيها ذكريات إيجابية كثيرة. ولكن هل كان هذا هو الدافع وراء محاولتها تشويه صورته وتصويره كمجرم وبلطجي ومواجهة قصته بقصص سيد وسبكا وسلطان؟ ليس بالضبط الأمر قد يكون أبسط من هذا بكثير. عندما يحاول شخص أركن سيارته في مكان ويجد أن غيره قد سبقه إلى هذا المكان، فإنه على الفور يركن في مكان غيره. هنا لا يحتاج فذلّكة. الأمر مشابه هنا. كل ما في

الموضوع أن علي وإنجي قد ربطا نفسها بقصة حربي، وأصبح تحدي هذا الربط مهمة مستحيلة. ميشن امبوسيبول بمعنى أصح. لذا، قررت منة أن تترك سيارتها في مكان آخر. بدأ الأمر بدرشة مع سوسو. قال لها إن الوسخ علي يحاول التمسك في أبيها، فقالت له إن إنجي لا تقل وساخة. طول الوقت تتحاشى في صورة حربي الطاهر، وأنا أقولك مين حربي دا، مش دا ابويا، لكن انا عارفاه كويس، هو يعني الواحد هيروح النار لو قال الحق! ابويا كان راجل كويس وكل حاجة بس كان كله عيوب مثلاً. وكان فيه واحد اسمه سلطان كنا بنسمعو عنه من زمان، والمصحف برقبته. أخذ سوسو يقلب الأمر على أوجهه المختلفة، ويتذكر حكايات قديمة، أشخاصاً قابلهم. عركات شاهدها، وعركات تورط فيها، ودار ولف وسأل، وعاد بالتاريخ البديل الذي قام بتحريره بنفسه. مبتسماً وهادئاً ووثقاً بنفسه. نام سوسو في حضن مراته.

لسنوات طويلة ظلت منة تشعر بالامتنان لإنجي. أحببتها من كل قلبها. تذكر الآن بمرارة أن أول جريمة قتل قامت بها كان من أجلها هي. قتلت شيخ جامع غرر بإنجي وهي في بداية حياتها. قررت الانتقام لمعلمتها حتى لو رموها في السجن بسبب هذا. كل شيء كان جيداً في ذلك الزمان. لماذا إن حدث ما حدث؟ لا أحد يستطيع إيجاد أسباب معقولة لتحولات الناس. المصالح ليست سبباً كافيًا، ولا الغيرة، ولا الرغبة في الانتقام. كل شيء حدث فجأة. شعرت منة أن إنجي يستهبل مع سوسو. والأهم أن سوسو لم يكن يمانع، والأكثر أهمية أن إنجي ملكت كل شيء، البرستيج والسمعة الجيدة والبيت الذي كان من حقها. طيب، مانا نفعل؟ ولا أي شيء أبداً. سكنت منة. وكتمت في قلبها،

وقررت أنها في يوم من الأيام، كما انتقمت لعلمتها من قبل، فإنها اليوم ستنتقم منها.

لسنوات طويلة لم تتجرب منة، ولم يلح أي أمل في الإنجاب. دمرها هذا. شعرت أنها متروكة في العالم وحدها، بلا أب ولا أم ولا طفل، وبزوج تمنّت. بعد سنوات الحب والشوق والغرام، لو كانت قد تزوجت غيره. المشكلة طبعاً ليست في سوسو نفسه، سوسو أحسن من ناس كثير. ولكن منة، ابنة عالم الإنترنت والشات والفيديو، كانت تطمح في زواج ينقلها من عالم كرموز، منمنقة معفنة وعالم رمة، ولكن مع كل خطوة تخطوها في حياتها يزداد تورطها أكثر فأكثر، يعني هي بقت كدا يعني خلاص يا دنيا؟ وتنزوي منة. تبكي بدموع العين. تبكي مرارة الوحدة وغدر الأيام وخيانة الإخوان، أو من كانت تظنهم إخوان. ولكنها سرعان ما تفيق، تنفض عن نفسها دموعها. تتحدى. تواجه نفسها في المرآة وتقرر: إذا كان قد حكم عليها بهذه الحياة. لتكون قوية إن. كن نثياً وإلا أكلتك الذئاب في الغاب. جمعت منة مع سوسو القصص عن سيد وسبكا وسلطان. تولت جمع صورهم وتكبيرها في مكتب كمبيوتر. وفي عقلها أقامت حواراً مطولاً مع المعلم سلطان.

لسنوات طويلة ظلت منة تقول لنفسها إن هناك أشخاصاً في حياتنا، رحلوا عن عالمنا أو مازالوا أحياء، نتمنى لو نقابلهم يوماً ما، أن نسمع لهم ونتعلم منهم. المعلم سلطان كان واحداً من هؤلاء الناس. بصفتها المسئولة عن إدارة حملة الدعاية للثلاثة سين، فلقد علقت على الجدران جملته "الإصبع المقطوع لا يدوحس"، بتنوعياتها المختلفة، المبتور بدلا من المقطوع، وتظهر فيه الدعايل بدلا من يدوحس. يعني. تنوعيات ضرورية حتى لا تشعر الناس بالملل. ومع هذا الشعار مرسومة صورة لكف معدودة وسكين تمتد على إصبعها السبابة

وتقطعها. كانت تنمو في رأسها الخطة. أي متعامل مع علي وأنجي وحمادة، وأي متعامل مع المتعاملين معهم، وأي متعامل مع المتعامل، كلهم مصيرهم مصير الإصبع الميتور. منة تعرف جيداً أن الخطة صعبة التنفيذ في البداية، ولكن كل حاجة بأوان. وما هو صعب اليوم لن يصبح صعباً بكرة أو بعد بكرة. تزامن هنا مع نمو دمل كبير في إصبع قدم منة، في البدء كان فمفوسة صغيرة. مجرد بثرة ينتهي أمرها بعد يومين. ولكن حماقة الإنسان لا تقف عند حد. لعبت فيها منة بأصابعها. كبرت البثرة وتحولت إلى دمل كبير. حاولت فرقعته بأظافرها، أخرج الدم القليل من الماء الأبيض وظل مليئاً بكتلة صلبة لا تلين. تركته يومين، فماد وصغر، فصعب عليها أن تنتهي الأمور بهذه السهولة. عادت ولعبت فيه بأصابعها مرة أخرى. كبر جداً. حتى ليس الصندل أصبح يضايقها من فرط تضخمه. احتاج الأمر في النهاية إلى عملية جراحية طفيفة. خدّر الطبيب الإصبع النوحس بهنج موضعي ومضى يخرج الصيد من داخله. كانت قرفانة من نفسها ومن حياتها كلها، وشعرت أن الدكتور سيقطع إصبعها نفسه بالشرط، وتمنت لو يفعل هنا ويرحمها من القرف. فجأة، فيما يشبه القدر، رنت في ذهنها الجملة الخالدة "الإصبع الميتور لا يدوحس أبداً".

ابتسمت، وتأملت في عقلها حكمة الناس بتوع زمان. لقد كانوا يتفأون.

مشهد مقتل المعلم سلطان كان أكثر من ملهم في حياة منة. الجميع تحالوا ضده، رجالته وأصحابه والحكومة والإرهابيين، وعندما قُتل لم يعرف أحد من الذي قتله، ولم يأخذ أحد بثأره. تركوا جثته في الشارع يوماً كاملاً ولم يتطوع أحد بدفنها. حتى زوجته وأولاده خافوا الاقتراب منها كي لا تصيبهم رصاصة أخرى. المعلم سلطان الذي قتل بيده ما يزيد عن عشرين شخصاً في الأسابيع الأخيرة من حياته، فقط لتطهير المنطقة من الشرطة والمتعاملين معها، يكون

هذا جزاؤه؟ طول عمر منة وهي تكره الفوغائية والبشر الفوغائيين. لم تحبهم أبداً.

تصورت منة المعلم سلطان في أوضاعه المختلفة. يأكل ويشرب ويسوق سيارته ويمارس الجنس. نهبت للقباري بنفسها لتتعرف على زوجته. شربت معها الشاي وحاولت دفعها لتفضض في الكلام، ولم تقصر هذه. بدت في الأول مكسوفة، ثم قالت كلاماً تقليدياً عن الناس الذين لم يعوبوا يقدرّون الناس الذين يظهرون كالشموع في حياتهم، ثم دخلت في التفاصيل. المعلم كانت أخلاقه وحشة خالص في بيته، يعني في الأول كان طيب وكويس، لكن بعدين جاتله حالة نفسية وبقي يكره مراته وولاده، بقى يقدم مع نفسه طول الليل والنهار بحسب حسابات ومين م الناس قابل مين ومين ماقابلش، وبأويله وبما سواد ليله اللي يتجادل معاه ويقول له عملت كنا ولا ماكانش يصح تعمله. ذات مرة، احتج ابنه عبد الله على مقتل زميله في المعهد على يد المعلم. اشتبك الأب وابنه في نقاش انتهى بأن أخرج المعلم طبيجته من جيبه وأطلق الرصاص، ولكن لحسن الحظ كانت الخزنة فارغة. المعلم كان كويس وكل حاجة، تضيف الزوجة، بس يعني ماكانش م النوع اللي بيخاف على ولاده وبيته ولا يراعي ربنا فيهم. تدون منة كل هذه الملاحظات وتخرج بنتيجتها اللامعة. حتى أولاد سلطان وزوجته لم يفهموه. الزمن كله تحالف ضده. وحمدت ربنا على نعمة عدم الخلفة، حتى لا تكتوي بنار جحود الأبناء كما اکتوى سلطان من قبلها. وواصلت مهمتها في نفث التراب عن هذا الإنسان النادر المتكامل.

هناك دائماً تسع طرق للرد بالإيجاب على سؤال مثل سؤال "العصر هيدن لسة؟"، أن تقول آه، أن تقول أيوة، أن تهز رأسك هزة خفيفة وواثقة بنفسها، أن تهز رأسك هزة متشنجة وغير واثقة بنفسها، أن تكرر السؤال بنبرة التقرير، "العصر هيدن لسة"، أن تقول إن شاء الله، أن تقول بأمر الله، أن تقول إن كان ليئا عمر. أن تقول إن كان ليئا عمر إن شاء الله العصر هيدن بأمر الله. ما نريد قوله أن علي عندما دخل الجامع في ذلك اليوم وسأل هذا السؤال، فلقد تلقى الإجابات التسع من تسعة مصليين يجلسون في الجامع. كل واحد رد بطريقة، وكان في هذا ملمح كابوسي تماماً بالنسبة لعللي.

الإجابات التسع لم تتكرر في نفس الوقت. دعنا نقول أنها تردت بالتناوب. ينتهي هنا فيبدأ ذاك، وإذا افترضنا أن الجلوس في الجامع كانوا تسعة بالضبط، وهو افتراض سليم، وإذا افترضنا، وهو افتراض سليم أيضاً، لا يقل سلامة، أن هناك اثنين يجلسان متجاورين أمام المنبر، واثنين بجانب الباب القبلي، وثلاثة بجانب الباب البحري، وواحد في قلب الجامع، وواحد قرب الميضة، وأن هذه الـرود التسعة، القادمة من أماكن متباعدة عن بعضها البعض، قد نُطقت كلها بصوت مرتفع، وبدون أن يغير أي من أصحابها قعدته. وبدون أن يوجه أحدهم بصره نحو علي، يمكننا بسهولة أن نفهم الملمح الكابوسي الذي رآه علي في طريقة الإجابة. أصحاب الإجابات التسع كانوا

يستهيون بسؤال علي. الرود كانت تحمل نبرة مستهزئة. أو على أقل القليل غير مكرثة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى.

علي، الشيخ علي، المعلم علي، علي بيه، علي باشا، كل هذه السميات بدأ أنها تخص عصراً ماضياً، ذهبياً، عصراً كان فيه الكبار يتمتعون باحترامهم. ما لم تنجح الحكومة والأعداء في فعله ينجح فيه شوية صبح واقفين على النواصي. إلى هنا. بدت معركة علي وكأنها مع أخلاق الزمن الراهن، تلك الأخلاق التي لم يعود عليها في حياته السابقة، هو الشيخ الذي يسير في عقده السادس الآن. يحارب الشيخ علي مفردات الحاضر بكل ما أوتي من قوة. ولكن -لم ينجح-، -لم يتأقلم-، -لم يتكيف مع الواقع-، كلها تعبيرات ملطفة تحاول إخفاء حقيقة أوسع، حقيقة بدأ أن علي لم يحب الاعتراف بها ولو أمام نفسه. لقد خبت أسطوره بالتدريج. لم ينطق أحد بهذا، استبعد الجميع هذه الفكرة بكل قواهم، ولكنها كانت تطل بين الوقت والثاني، في الأحلام والكوابيس وزلات اللسان. كان هذا هو جحيم علي، حتى حدث معه ما حدث، في أحد أيام شهر رمضان.

بعد صلاة التراويح، علي يتفرج على التلفزيون، وإنجي بجانبه. يأكل قطعة بسبوسة ويشد نفساً من الشبشة. إنجي تقطع برتقالة بسنانها ويدها اليمنى وباليسرى تتناول قطعة كنافه. وفجأة تظهر تترات برنامج للفناني في التلفزيون. علي غير منتبه تحت وطأة الإفطار والحلو والفاكهة والمشروبات والدخان. الشيخ في التلفزيون يتحدث عن شكوى أ. س. من أنها لم تعد تحب زوجها. ماذا تفعل؟ حواس علي تُستنفذ كلها. ينظر بطرف عينه إلى إنجي التي وضعت البرتقالة والكنافة في الطبق وقامت إلى المطبخ. يبدأ في التفكير، ماعنتش تحبيني يا إنسي خلاص؟ خلاص على كذا؟ وبتشكيني في التلفزيون؟ بدأ الأمر

يتضح في ذهن علي واحدة واحدة. ليست أخلاق الشباب الآن هي المشكلة، ولا تغير الزمن هو المسئول عن قلة احترام الناس. عدوه الأساسي الآن هو الدعوة إنجي سليمان عبد الله. هي التي تدير حملة دعائية ضده، تبدأ من كرموز ولا تنتهي في التلفزيون المصري. قرر الانتقام.

o o o

نخطئ، بل نخطئ جداً، لو تصورنا أن علي مجنون. صحيح أنه قد يكون مبالغاً في تصويره عن أ. س. صاحبة الشكوى، ولكن لا دخان بلا نار. إنجي كانت وقتها في مكان آخر. في مكتبها تكتب رسالة طويلة، مؤثرة، من أربع صفحات فولسكاب لمحرر باب صحفي جديد في صحيفة "الأهرام". الباب الجديد الذي حمل اسم "حلل المشاكل" عوض بوجوده باباً آخر، قديماً. كان يحمل اسم "بريد الجمعة". تابعت إنجي الباب الجديد بكل مشاكله ورسالته. بكل عذباته وآلامه وأشواقه ولحظات يأسه ولحظات فرجه الإلهي، وفكرت لأيام وليال في أن تكون واحدة من بطلاته. تعلقت بشخصية محرر الباب وبروديه، ولم تجد حرجاً في أن تكتب له مشكلتها. كانت هي المثقفة المتعلمة تولي هذه الأشياء أهمية بالغة، على العكس من علي الذي لم يفتح جرناناً في حياته. كانت الصحف جزءاً من يومها. لم تعتبرها مضيعة وقت أو كلاماً فارغاً كما كان يعتبرها جميع أهل هذه المنطقة المعفنة. كانت هادئة تماماً، تكتب بقلم رصاص، تبريه وترمي البري في الباسكت. وتمسح على أجزاء معينة وتعاود كتابتها. قررت أن تكون أكثر حذراً من أي وقت مضى، فما تكتبه الآن ليس مجرد كلام، إنه مغانر متشابكة وأقدار ومعلومات قد تذهب بالجميع في سجين داهية. بدأت أولى فقراتها:

"عزيزي محرر الباب الشهير "حلل المشاكل"، تحية طيبة وبعد..

أولاً أهني نفسي وأهنيكم بحلول شهر رمضان المبارك، أعاده الله عليكم
بالخير والبركات، وبعد..

فإنني أتمنى على الله أن تكون في أطيب حال أنت وأسرتك الجميلة،
وبعد، فإنني أريد أن أحكي لك قصتي، وهي قصة لو أسمع لك عشرات المرات
على صدقها، ونحن في أيام مباركة، فإنك لن تصدقني، لأنها قصة غريبة
وعجيبة، والأغرب والأعجب أنها حدثت لي أنا فقط بونا عن جميع الناس في
العالم.

أحيانا ما أجد نفسي أتماء، لما أنا، وهل لا يوجد أحد في الدنيا
غيري، ولا يكون الرد سوى أن هذه حكمة ربنا عز وعل، وإنني مهما وصلت إلى
حكيمته فلن أصل إليها أبداً.

وبعد، فأنا لا أريد أن أطيل عليك، وأنا أعلم أن عندك مسئوليات
ومشغوليات، فإن قصتي هذه بدأت منذ الكثير من السنوات، عندما تعرفت على
شاب مجتهد ومكافح وحملت بيننا قصة حب ملتهبة، وكان قد تصادف أن هذا
الشاب يمت إلي بصلة قرابة بعيدة. ولهذا فلقد أسلمت له زمام أمري. وقررت
أنه من اختارته لي الأقدار فارساً لأحلامي، فأنا كنت دائماً مثلاً للزوجة
المؤمنة الصالحة. والآن وبعد أن من الله علي بلبس النقاب منذ ما يقرب من
ثلاثين عاماً وأنا أعبد الله ولا أعصاه أبداً. المهم أنني تورطت مع هذا الشاب في
شيء لا أريد أن أذكره الآن واضربنا (تمسحها ثم تعاود كتابتها بشكل صحيح)
اطربنا للسفر معاً إلى الإسكندرية، وفي الإسكندرية ظل بحر الحياة بتقلباته
العالية يحملنا عالياً ثم يقذف بنا إلى أسفل سافلين، ونحن في حيرة من أمرنا،
مانا نفعل. وكيف نواجه الحياة. فقد كنا شابان صغيران ليس عندهم خبرة من
أي نوع. المهم إن ما أريد أن أقوله إنني صدمت في زوجي المحترم صدمة عمري،

فلقد تماركنا ذات يوم حول موضوع ما وانتهى الأمر بأن قررت مغادرة البيت الذي لم أسترح فيه لحظة واحدة من عمري، ونهبت لأعيش بعيداً في منطقة شعبية بالإسكندرية. ولكن مرت السنوات، وتدخل أولاد الحلال بيننا حتى رجعت لزوجي العزيز مرة ثانية، وهنا وجدته وقد أصبح شخصاً مختلفاً كل الاختلاف عن الشاب الرقيق المهذب الذي كنت أعرفه. لقد وجدته يا سيدي الفاضل وقد أصبح قليل الاعتناء بمظهره وبنظافته الشخصية، حتى أن هناك رائحة سيئة تطلع منه دائماً. ولا جدوى أي جدوى من الكلام معه حول هذا، وعندما أتركه في البيت وأغادره فإنه لا يهتم بنظافة البيت وأرجع لأجد كل شيء في مكان غير الذي كان المفروض أن يكون فيه. حتى أن الترنج الفوشيا الذي تركته في البيت عندما غضبت منه رجعت ولم أعرف له مكاناً حتى اليوم. هنا ما فعله زوجي بي بإهماله وقلة اهتمامه.

تضع إنجي القلم على الورقة، تخرج إلى الشباك. تسترجع تاريخها بكثير من المرارة، وفي داخلها سؤال يدوي عالياً، "لماذا أنا، لماذا أنا"، تلاحظ أن الفانوس الذي أوصت بتعليقه على باب الكافيه يميل بزاوية. فتستدعي أحد مساعديها وتطلب منه أن يعدله. تعود لأوراقها. تواصل الكتابة:

"المهم لا أطيل عليك أن الله قد رزقنا طفل جميل عوضني به عن كل الحرمان الذي أشعر به وكل الحزن والهموم التي كانت قدرتي في حياتي الحزينة. ولقد تعهدت أنا وزوجي برعاية هذا الطفل حتى أصبح الآن شاباً يافعاً الطول معتلاً بالحياة. ولكن إذا كان رب البيت بالدق راقص، فإن هذا الطفل نشأ مهملاً كآبيه بالظبط وبرغم أن مركزنا أصبح كبيراً في الإسكندرية، وأننا نملك العديد من المسؤوليات والممتلكات، وأننا المفروض أننا نهجز ابنتا الحبيب لكي يتولى مسؤوليته في هذه الممتلكات. فإن زوجي لا يهتم مطلقاً بهذا. وهو لا

يفعل غير أنه يجلس أمام التليفزيون طول الوقت ويأكل، حتى أن وزنه أصبح ضخم جداً وأنا متأكدة أنه أصبح ٢٠٠ كيلو أو أكثر، بينما أنا أحافظ على رشاقتي وجمالي، حتى مع أنني أرتدي النقاب، هذا بالإضافة إلى ذقنه التي يتركها ولا يحلقها منذ سنوات طويلة حتى أصبح مظهره سيئ جداً، مع إن المظهر عليه عامل مهم جداً في مهنتنا هذه، التي أرجو منك ألا تسألني عنها فهي مهنة شديدة السرية.

قامت إنجي بمسح كلمة "سرية" بالجومة، وكتبت بدلاً منها "خطيرة جداً". ثم مسحت "خطيرة جداً" لتكتب "سرية" من جديد، هنا اكتشفت أن الورقة احترت من كل هذا المسح. فأخرجت ورقة جديدة. أعادت كتابة الفقرات الماضية عليها، ثم واصلت:

"أنا متأكدة يا سيدي أنك تتحرق شوقاً الآن لمعرفة من أكون، ولابد أنك تسأل نفسك من هذه المرأة الجميلة والمجهولة التي اقتحمت حياتي في هذا اليوم الجميل لتكتب لي مثل هذا الكلام الغامض والمجهول. وأنا أجيئك بأنني أرجوك بأن تعفيني من ذكر اسمي أو أي بيانات تدل عليه. حيث إن هذا فيه خطورة كبيرة علي وعلى زوجي الحبيب. ولكن ما أريد أن أقوله لك هو لم العجب، لم العجب في أن تكون حياة أمثالنا من المسؤولين هي أيضاً تحوي على تفاصيل شخصية. أليس نحن بشر في نهاية الأمر؟"

فكرت إنجي أكثر من مرة في إلغاء هذه الفقرة. كانت تريد لرسالتها أن تكون مختصرة ومركزة وتتكلم في المفيد والمفيد فقط. ولكنها عادت وقررت تركها. ثم عاودت سرد قصتها الحزينة:

"المهم لا أخفيك القول يا سيدي إن حياتي مع زوجي هذا أصبحت جحيماً لا تطاق. فهو يقشر البرتقال طول الوقت ويرمي القشر على الأرض. وكذلك

يقشر اللب. ناهيك عن كانزات البيبسي والميرندا. وعندما تتوسخ ملابسه يتركها في الدولاب ولا يكلف نفسه عناء أن يرميها في طشت الغسيل حتى. وذلك حتى تصدر منها رائحة كريهة. وهو يلعب في أنفه بشكل مفرز أمام طفلنا الوسيم الذي أصبح الآن شاباً يافع الطول، كما أنه يصدر غازات كريهة الرائحة طول الوقت. وهذا كله يضايقني جداً. حيث أنني أصلاً من عائلة في منتهى الأرستقراطية بينما هو من عائلة تعتبر من العائلات الشعبية في القاهرة، برغم أنني وأنه أقارب من الناحية البعيدة. ولهذا فأنا خائفة على ابننا أن يتأثر بعقل هذه السلوكيات، فمانا ننصحني أن أفعل يا سيدي؟

كتبت إنجي هذه الأوراق ثم وضعتها في الظرف. وأرسلت عاملة عندها لترميها في البوسطة. لم تكن قد كتبت اسماً لها ولا عنواناً. فقط مشكلتها المكتوبة في أربع ورقات، ملفوفة فيهم ورقة من فئة المتين جنيتها، على وعد بمبلغ مالي أكبر في حال تم نشر المشكلة بسرعة. كانت تعمي بالخطورة الكامنة في منحها الرسالة لشخص آخر لكي يرميها في البوسطة. فرسالة خطيرة، هكذا كانت تصف رسالتها، بالعلومات التي فيها. لا يجب على الإطلاق أن يعرف أحد من الذي أرسلها. كانت إنجي تفضح برسالتها جميع العالم، وتعرض حياة عائلتها الصغيرة لخطر محقق، ولكن ماذا نفعل؟ نحن في النهاية بشر، وللبشر طاقة على الاحتمال، وإنجي نفذت طاقتها منذ زمن طويل.

هذا ما كانت تفعله إنجي. أما علي فقد كان ينتقم. علي كان يضرب ضربته الأقسى. والتي ظل يخطط لها منذ شاهد الحلقة إياها في البرنامج إياه. لأيام بعدها ظل علي يصف هذه الفترة برمضان المفاجآت، تأتيه الضربات من حيث لا يتوقعها. ويردها إلى حيث لا يتوقع خصمه. بدا له كأننا. كلنا، ليس هو وعائلته فقط، وإنما كل البشر، غارقون في غسالة عملاقة. الغسالة تهيد

الجميع بداخلها، ما كان فوق يصبح تحت وما كان تحت يصبح فوق، الدنيا زي
الفسالة من تحت لفوق، ويخرج البشر منها في نهاية المطاف. صحيح أنهم
مغولون جيداً الآن، ولكنهم متعبون، ألوانهم باهتة، مقاساتهم مختلفة عما
كانت عليه قبل الغسيل. حتى الصابون الجيد لا تخرج من تحته الملابس بنفس
ألوانها القديمة. بهذه النظرية لم يكن يفكك البشرية كلها فقط، وإنما كان يقوم
بتفكيك الإعلانات التليفزيونية أيضاً. في هذه المرحلة كان علي يحارب الجميع،
من أول جوهر الإنسان وحتى شركات الصابون. علي كان نموذجاً للصوفي
الفيلسوف في هذه المرحلة، والفيلسوف الصوفي لا يخشى شيئاً طالما أنه مقتنع
بأفكاره.

•••

فتح علي لحمادة ابنه محلاً بجانب محل سوسو القديم المهجور. سأل
حمادة عن نوعية النشاط الذي يرغب في ممارسته فأجاب هذا بحماس، الرسم يا
بابا. فتح علي مرسماً لحمادة، أطلق هذا عليه اسم "الفنون والألوان". المرسم كان
ملاصقاً للمحل الذي ملكه سوسو يوماً والذي عرف باسم "كبيدة الكرتينا"،
والمؤجر الآن رسماً لشخص اسمه رمضان المعدول، ولكن فعلياً، لا يستعمله أحد
بعد هجوم رجال علي عليه وسكبهم الكبيدة على الأرض. وهكذا، في غفلة من
الزمان، مضى حمادة يوسع في مرسمه، أتى بصناعات أمام الجميع لفتح المحليين
على بعضهما، في تحد صارخ لسوسو. وبدأ يمارس نشاطه الرسمي، رسم
اللوحات للناس، وبيع بعض الحلويات والسجائر للأطفال، مع نشاطه
الحقيقي، تكوين نواة الجيش الذي سيتمكن به من محاربة سوسو يوماً.
العدو الأول للرجال بالطبع كان سوسو، ولكن هناك أعداء آخرين. في
الليالي الرمضانية. يتم رص الكراسي وتجهيز الشيش. ويجلس علي مع

الرجال في المحل. يحكي لهم تاريخ العائلة، وتاريخ الإسكندرية، ثم يمسح تلميحات بين السطور، مثلاً هل يعلم أحد أن إنشي، الشيخة إنشي المقتيبة التي تصلي الفرض بفرضه، تدير نشاطاً للدعارة في الكافية. طبعاً لا أحد يعلم. طيب، هل يعلم أحد أن إنشي هذه، هي قاتلة أيضاً، كم قتلت من أبناء الإسكندرية المحترمين الذين طلبوا منها بكل أدب واحترام أن توقف نشاطها. لا أحد يعلم أيضاً. طيب هل يعلم أحد أن إنشي كانت لها قصة قديمة مع شيخ طيب اسمه خالد، وإنما سلمت نفسها له وهي على ذمة علي لا تزال، وأن لها قصة جديدة مع سوسو النجم، تحبه ويلتقيان سراً (يكرر)، تحبه ويلتقيان سراً، بعد كل ما فعله سوسو ضدهما وضد الإسكندرية كلها. أبو أميرة يهمس لعلّي: ما كفاية حشيش النهاردة يا شيخ، فيبعده علي بقوة ويزعق، سيدي يا حاج، سيدي يا حاج. إنت أصلك راجل طيب مش فاهم حاجة. في النهاية، كما هي العادة، ينادي أبو أميرة حمامة لكي يسند أباه وهو يصعد البيت. علي لا يرى أمامه، أبو أميرة يقول هذا بسبب الحشيش، وعلي يقول هذه سكينه الغدر. سكينه الغدر انغرست في قلبه فطعنته، هو الشيخ الذي لم يعد يريد من الدنيا حاجة.

الكلام يصل لإنجي، فتجلس وتحاول كتابة رسالة أخرى للمحرر الصحفي، ولكن الدموع تغلبها. رقيقة لازالت إنجي، وتفهم إنه مهما عمل زوجها فلا ينبغي أن تظهر خلافاتها أمام الناس. فتصور علي بالكاميرا وهو يبلغ حياية فياجرا، ثم تصوره وهو مع إحدى الشرايط، ثم ترسل الصور إلى مباحث الآداب. تجلس أماماً وليالي تنتظر القبض عليه ولا أحد يتحرك. إنجي الغيظ يأكلها، ما هي بلد معرصة. تجلس في الجامع تعطي درساً للسيدات، تسألن بالله عليهن. كيف يرضين بأن يدار في المنطقة أكبر بيت دعارة عرفته البشرية. وهن لا يتكلمن. طيب. كيف تكون الدولة على علم بكل شيء ولا

تتحرك. مش دي تبقى بلد معرصة؟ ولا ترد إحداهن، ربما تزوم واحدة وربما تهز أخرى رأسها. توقن إنجي أن هذه البلد لا تستحق، وأن ابن الناس لم يعد له مكان في هذا الزمان، ف تعود لتكتب رسالة أخرى لمحرر الباب:

”عزيزي محرر الباب الشهير -حلال المشاكل-، تحية طيبة وبعد..

أنا زهقت خالص، أنا أفكر ساعات أن أموت نفسي ولكن أقول أنني ست مؤمنة ولا يجب أن أفعل هذا، لكن الدنيا أصبحت صعبة، وزوجي. أو الذي كنت أظنه زوجي، يقول عني كلام سافل في كل مكان، وأنا لا أريد أن أرد عليه لأنني ست مؤمنة. يقول عني أشياء اعفيني من ذكرها الآن. ولكنني أقول له من خلال هذا الباب الكريم، تصدق بالله يا أخي إنك إنسان قدر آخر قدارة. وإن حمسي الله ونعم الوكيل فيك يا رمة يا زبالة. يا زبالة الزبالة.

ترسل الرسالة تلو الرسالة ولا يتم النشر أبداً. إنجي مؤمنة كما وصفت نفسها، تعرف أن الدنيا فيها ابتلاء كثير، وأن الله سيموض الصابرين في الآخرة، فلا تيأس. تبكي بدموع العين، ومع الوقت، ومع الصلاة الكثيرة، تتحول دموع اليأس لدموع فرح بفرج الله القريب، دموع محبة لله.

وكان لا بد لرمضان المفاجآت أن ينتهي بأكبر المفاجآت: مات أبو أميرة. بعد انتهاء صلاة التراويح في ليلة القدر، عاد أبو أميرة، واسمه الأصلي عبد الحميد رجب شحاتة، إلى بيته. لم يسهر في الخارج. بقي في البيت يقرأ القرآن ويتعبد. في النهاية، على الساعة الواحدة، تناول سحوره ونوى الصيام في اليوم التالي، نام، ثم لم يقم.

الميتة، كما نرى، هي ميتة نموذجية لرجل ظل يعبد ربنا طوال أيام حياته. رجل كرس عمره لخدمة الناس ولذكر الله. وهذه هي الرسالة التي يبدو

أن السماء أرادت إيصالها لأهل المنطقة: لقد خسرتم رجلاً صالحاً وعلماً فذاً من علماء الإسلام. يصعب التكهن برد فعل أهله وأصدقائه على خبير الموت، وبالأخص علي، الذي كان يكن لأبو أميرة محبة من نوع خاص. ربما بكى أو صرخ، وربما سكت وتجرع في نفسه مرارة الأيام. ذهب الذين تحبهم يا علي، فإما أن تكون، أو لا تكون، لا مفر. في العزاء التقى علي بموسو للمرة الأولى منذ وقت طويل، بل وفرض الوضع عليهما أن يتصافحا وأن يتلقيا العزاء سوياً في الراحل العظيم. فكرة واحدة كانت تدور في خلد كل منهما، لقد راح الوحيد الذي كان يحوش بينهما. الآن يستطيع علي تدمير موسو لو أراد، ويستطيع موسو الرد بكل ما يمكن من قوة، ولن يفرض عليهما أحد أن يراعيا الشخص الذي كان يقف حائلاً بينهما. عاد علي من العزاء والدموع تبلل مقلتيه.

والآن لنحاول أن نستعرض سوياً بعض منجزات الراحل العظيم.

ولد عبد الحميد عام ١٩٦٥. في بيت فقير من بيوت حي الزنانيري، ولد لأب وأم صعيدة قادمين لتوها من سوهاج. الأب كان يعمل بواباً. ورث منه عبد الحميد المهنة، وورث منهن أخرى. تعلم كيف يلاهي الزبونة الصاعدة إلى شقة عازب لتدفع له أكبر إكرامية ممكنة قبل صعودها، وكيف يحصل على إكرامية معائلة من الشاب العازب بعد نزولها. بعد وفاة الأم والأب وبعد أن صار في رقبته أخوان عليه مراعاتهما وتربيتهما. توسع قليلاً في عمله، بالاتفاق مع أصحاب العمارات التي تان يعمل بها بالطبع. لم يفعل أي شيء بدون معرفة صاحب الملك. في أثناء هذا تزوج من إيمان حسني عبد الله، والتي قدر لها بعد ذلك أن تصبح أم أميرة، ثم، في النهاية، أن تصبح أم أميرة القرعة. تنقل بين الزنانيري والإبراهيمية والشاطبي. حتى انتهى به المطاف في كامب شيزار،

أنجب هناك أميرة وماتت. ثم وقع الحادث الأهم في حياته، كما صار يصفه هو نفسه بعد ذلك، قابل علي.

(يدعي الكثيرون أن الصداقة التي نمت بين علي وأبو أميرة، والتي استمرت حتى الموت. كانت بفعل الصلحة، أن أبو أميرة كان يعرف جيداً أن صلحته مع علي. وأنه دبر مقتل أخو علي بهذا الغرض، لياخذ علي نصيبه من الميراث ويكبر أبو أميرة معه. رداً على من يدعون هذا نقول لا. هذا ليس صحيحاً صحيح أننا لا نملك معلومات كافية ترد على هذا الادعاء، ولكننا نملك يقيناً كاملاً. ومعرفة لا تحتاج دليلاً على سمو أخلاق أبو أميرة ورفعتها).

كبر علي، وكبر أبو أميرة معه، ظلاً نموذجاً نادراً لصديقين وفيين لم يفرق بينهما سوى الموت. وعندما وقع الخلاف الأخير بين علي وسوسو. لزم أبو أميرة الحياد. كان صعباً عليه أن يرى كل جهده الذي أرساه من أجل بذر القيم الجميلة يضع هكنا في خلاف على شوية متاع زائل. يقول البعض أن هذا هو السبب الذي عجل بموته. قبل موته قال لعلي أنه لن يحب أن يشارك في حرب بين أخيه وبين صديق عمره. ولكن إذا حكمت الظروف، فلن يجد فرصة أفضل لتأديب أخيه على قلة أدبه. ابتم علي. ربت على كتف أبو أميرة، واعتبرها وصية. صحيح أن الصلح خير، ولكن على كل منا أن يحفظ أدبه.

مات أبو أميرة عام ٢٠٣٧. عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً، مكللاً بالمجد انتقل إلى الرفيق الأعلى، صارت روحه وبعثة في يد من لا تضع ودائعه. الفاتحة لروحه يا مسلمين.

في حياة الأمم هناك لحظات صعود وهناك لحظات تراجع. هذه حقيقة تاريخية.

السطور التالية هي سطور صعبة، يصعب الاعتراف بها، ولكن الاعتراف بالحقيقة هو جزء من واجبنا، وتقديمها – أي الحقيقة – بلا رتوش أو إضافات أو تجميل. إلى أيدي قارئنا الكريم، الذي سيعرف الحقيقة عاجلاً أم آجلاً، سواء كنا نحن قائلينها أو قالها غيرنا. ولذا، ولأن أقصر الطرق للإقناع هي الصدق، فإننا نعرض الصورة كاملة. في موضوعية وحياد.

يصعب القول أن هذه السنوات كانت هي أفضل السنوات بالنسبة لإمبراطورية علي وإنجي. كانت ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين هي واحدة من لحظات التراجع بالنسبة للثلاثين الذين أخذوا على عاتقهما تأسيس مدينة كاملة من لا شيء. بعد العشرينيات المزدهرة، والتي حقق فيها هذان الزوجان المتحمسان إنجازات على الأرض لا بأس بها أبداً، تأتي الثلاثينيات بفصلها الافتتاحي الكئيب، سوسو وهو يقود الرجال والنساء عرايا من الكرنيقنا كافييه، وما أعقب هذا من امتناع الناس عن ارتياد مثل هذا المكان، خوفاً من الفضيحة المؤكدة، ولكن، وهو الأهم، ما أعقب هذا من تشكك الجميع في أهلية علي وإنجي الكاملة لقيادة عجلة التغيير التي طالما حلم بها السكندريون.

بدا وكأن الاثنين قد شاخا، أو أنهما تفرغا لمعاركهما الداخلية، وبصعوبة كان الواحد منهما ينظر حوله، إلى منطقتيه وأهله وأبناء مدينته. بدا كأن الإسكندرية تنفض عن نفسها حملاً جميلاً راودها لفترة قصيرة من الزمن. في البدء قال الناس أن علي وإنجي ما يزالان كما هما، وأن ما يبدو بوصفه لحظة تراجع لم يكن إلا تكتيكا، ولكن التكتيك طال. وطال معه الانتظار. وتدرجياً، بات على الجميع الاقتناع بأن الزمن الجميل يوشك على الانقضاء. في البدء ماتت الحاجة نادية، لم يتذكرها أحد عندما ماتت. بدا موتها موتاً هامشياً. لم ينتبه أحد لرحيل تلك المرأة التي كادت تصبح زوجة حربي في يوم من الأيام. عائلة

حربي كلها تقوضت: أخوه الشيخ حسن مات. واعتماد زوجته ماتت، والآن نادية حبيبته وأقرب الناس إليه، ومئة ابنته تزوجت سوسو ولم يعد أحد يراها. وعائلة أبو أميرة تأخذ في الانهيار أيضاً. أم أميرة ماتت. أبو أميرة مات. سوسو انعزل وقرر العمل لحساب نفسه. وعادل خرج من السجن وسافر إلى ليبيا. عائلة علي وإنجي كانت صامدة أمام الموت، ولكن بشكل كوميدي. علي يجلس في القهوة طول اليوم، يلعب جيمز على الموبايل وبين الوقت والآخر يخرج مقعاً صغيراً من جيب جلابيته الأعلى ويقص شعرات وهمية في أنفه. إنجي تصبح أكثر وأكثر انشغالاً بقراءة الجرائد والمجلات، تقص منها صور الفنانين والشيوخ وتعلقها في المكتب، ثم تجلس لتكتب رسائل لمحور الباب. وحمادة يرسم الناس.

ولكن لا شيء يموت. علمنا أينشتاين زمان أن المادة لا تفسى، وإنما تأخذ أشكالاً أخرى. ثقل الكرنتينا تحول إلى حيث محل سوسو وبيته، والزوجان علي وإنجي نفسها، يتحولان إلى الزوجين سوسو ومئة، وبطولة حربي تحولت إلى بطولة سيد وسيكا وسلطان. مع كل ما يستلزمه هذا، قيم الماضي، قيم الشرف والأمانة، تحولت إلى قيم الفهولة والشطارة وجيبك سلاحك. أمام كل هذا الانهيار الحضاري الذي أصاب الإسكندرية في الثلاثينيات، مع الحروب الداخلية بين أبناء المدينة وبعضهم البعض، لم تقف الشرطة صامدة. كان يتم اقتياد الفتيات من الكافية في أي وقت في اليوم، ومعهن زبائنهن، ويتم تلفيق قضايا المخدرات لرجال المنطقة، وتعذيب البعض أيضاً، بالإضافة إلى أنواع معينة من الشباب، هؤلاء الذين رأيناهم من قليل لا يقدمون لعلّي الاحترام الكافي، كانوا يدخلون المنطقة، يشغلون الأغاني بصوت عال، يضايقون الرانح

والفادي، ولا أحد يقف أمامهم، لا أحد لديه النفس ليقف أمامهم. الجميع عينه مكسورة الآن.

بدأ التراجع السريع، رصيد كل من علي وإنجي يهبط في البنك. يسحبان منه بلا حساب، بدون إيداع مبالغ جديدة. اقترحت إنجي شراء أراض جديدة، في مناطق مثل أبو تلات وغيرها، ولكن هذا المشروع كان يوماً ما يتم تأجيله. الأسعار ولعت، صار من ينزل وفي جيبه ألف جنيه لشراء شوية جين وبسطرمة من السوبر ماركت، يعود وليس في جيبه حق التاكس. وعلي كان عاشقاً للبسطرمة، ولم يكن عاشقاً لشراء الأراضي.

عدنا إنن إلى نقطة الصفر. كل الثلاثين عاماً الماضية كان لم تكن. والناس عادت لمصالحها وأشغالها من جديد وهدأت فورة الروح الوطنية التي اندلعت فيهم لسنوات وسنوات. في هذه السنوات، توقف كاتب التاريخ العجوز عن التدوين. ذهب ليعد كوباً من الشاي، عاد وأشعل سيجارة، ثم فتح صفحة جديدة في كتاب التاريخ، ومضى يكتب عليها، بخط متردد وباهت: "هل انتهى كل شيء حقاً؟ هل أن هذه هي النهاية الحاسمة. والمروعة، لصفحة من أنصع صفحات تاريخ الإسكندرية والوطن في العصر الحديث؟ هل أننا نقول بهذا وداعاً، وليس إلى اللقاء، لحلم جميل عثر في الأذهان ثم ما لبث أن مات؟"

بدأ كاتب التاريخ يعانني ألماً هائلاً وهو يكتب: "بلا شك، فإن الإجابة على كل هذه التساؤلات هي نعم. الله كريم".

وهكذا أطفأ كاتب التاريخ نور غرفته، وذهب للنوم.

قبل مئة عام بالضبط من وفاة أبو أميرة، وبالتحديد في العام ١٩٣٣، كتب توفيق الحكيم رواية بعنوان "عودة الروح". يمكن لنا الحديث عن الرواية لساعات لو لزم الأمر، ولكن ما يعيننا فيها هنا هو فقرات كتبها وصاغ بها حواراً بين اثنين، مفتش ري إنجليزي، وعالم آثار فرنسي، حول طبيعة الشعب المصري. الإنجليزي كان ينظر للشعب بعين الاستعلاء والتعصب الأعمى ضد حضارات الشرق، أما الفرنسي فقد كان عاشقاً للجوهر الكامن للمصريين، وفوق هذا، كان هو الأكثر عقلانية في حديثه. سنقتطع هنا جزءاً من الحوار الدائر بين الاثنين، بخلاف الجزء الذي اقتطعه عبد الناصر بالطبع وهو يخطئ لثورته. يقول الفرنسي بهدوء مخاطباً زميله الإنجليزي: "ثق يا مستر بلاك أن الفاسد من هذه الأخلاق ليس من مصر، بل أدخلته عليها أم أخرى كالببو أو الأتراك مثلاً، ومع ذلك فلا يؤثر هذا في الجوهر الموجود دائماً"، يرد عليه الإنجليزي، ويمكننا افتراض أنه أطلق صفيراً مندهشاً وأزاح قبعته عن رأسه ليهرش شعره ويمتدح فيض الحقائق التي تنهال عليه الآن: "قل لي ما هو هذا الجوهر؟"، فيجيب الفرنسي، ويمكننا افتراض أن ثمة ابتسامة حكيمة وهادئة على شفتيه: "إنك ترتاب في قلبي ولكني أكتفي بأن أقول لك احترسوا احترسوا من هذا الشعب، فهو يخفي قوة نفسية هائلة!"

هكذا يقوم الفرنسي بوصف جوهر الشعب المصري في عبارات جامعة مانعة، تحوي الحكمة والإقناع والقوة والتحذير في نفس الآن. ولكن لا يمكننا أن نتجاهل للحظة أن كاتب هذه العبارات هو توفيق الحكيم نفسه، الذي عاش في باريس وأعجب بأهلها وبفكرهم، وعندما قرر خلق شخصية حكيمة متعاطفة مع المصريين، كانت الشخصية الفرنسية هي أول ما فكر فيه. وبالمثل، فقد كان حمادة أيضاً عاشقاً لباريس.

القوة النفسية الهائلة للمصريين، والتي تنبأ بها توفيق الحكيم منذ مئة عام، بدا وكأنها تجلت بالتحديد في حمادة، وفي مرسمه الفخم الذي حمل اسم "الفنون والألوان". بعد كل مظاهر الانهيار التي أسهبتنا في وصفها في فقرات سابقة، ظهر الرسم وكأن جذوة الحياة انتقلت إليه. يحافظ عليها حمادة، يخفيها عن الأعين ويحافظ على اشتغالها في الوقت نفسه، تأهباً ليوم تظهر فيه أمام الجميع.

القوة والحساسية كانا هما الجناحين اللذين اعتمد عليهما حمادة في عمله. القوة تأتي من الجيش الصغير الذي يربيه في مرسمه لتدمير سوسو، والحساسية تجلت في اللوحات التي كان يرسمها. لوحات فرنسية الإيحاء، رقيقة، تركز على العمق الداخلي للشخصيات وليس على الملامح الخارجية التافهة. بالألوان رقيقة، مثل الأورانج والموف والتركواز كان يرسم أجمل اللوحات. يعاونه في هذا صديق عمره فاروق. يحضر له الألوان وينصب اللوحة ويدل الناس عليه. يتقاسم حمادة معه المال الآتي من الزبائن، ويمنحه نظرات محبة وتشجيع. فاروق إنسان موهوب، يقول حمادة لنفسه، جواه فنان كبير، لو كان القدر اتغير، كنت هابقي مكانه وهو يبقى مكاني. رسم حمادة لوحة كبيرة، فيها رجل كبير وضخم بجانبه رجل قصير ونحيل، ثم رسم لوحة ثانية، فيها نفس

الرجل الضخم وقد تحول إلى شخص قصير، والقصير أصبح هو الضخم الطويل. وضع عنواناً للوحتين يقول: "آه من هذا القدر الظالم".

قوى الشر حول حمادة كانت كثيرة ومؤثرة. بدا وكأن الجميع قد توافقوا في تلك الأيام على إقناعه بحقيقة وحيدة، مفادها أن فاروق ليس إلا شخصاً وهمياً، ليس له وجود، وأنه مجرد خيال من خيالاته. رداً على هذه الادعاءات رسم حمادة لوحة لنفسه مع فاروق، يسلمان على بعضهما البعض ومن خلفهما البحر وقلعة قايتباي. ظهر فاروق في اللوحة بعلامحه الحقيقية، ضئيل الحجم، نظراته منكسرة، تحوي بعضاً من "الخلج الجميل" كما أطلق عليه حمادة. في يوم ما، شرب حمادة القهوة مع صديق عمره في قهوة سيدي بشر. قاده بعدها بالسيارة إلى كرموز. إلى رسمه، فتح باب الرسم ودخل. قال لفاروق إنه سي شاهد الآن تحفة من تحف السنين. رفع الستار بقوة عن اللوحة التي ظل يرسمها لشهرين. رأى فاروق صورته بريشة صديقه الفنان، فتأثر وارتجفت ملامحه من فرط التأثر. رفع حمادة اللوحة وقال لصاحبه. دي هديتك. دي مني ليهك، فامتدت يد فاروق لمحفظته كي ينفذ صديقه ثمنها. أمسك حمادة يده وقال له، عيب يا روقة، عيب، إنت صاحبي، وأنا رجل جدد. تعانق حمادة وفاروق في لحظة عاطفية مؤثرة.

أهم زبائن حمادة قاطبة في هذه المرحلة كانت صباح، الفتاة التي توله بحبها حتى ملكت عليه زمام أمره. تماماً. حدث هذا في نهار يوم حار من أيام شهر يوليو. كان منهمكاً في رسم لوحة جميلة عندما رن موبايله في جيبه، الرفاق حاثرون، يفكرون، يتساءلون، مع بعض الفبيراشن القوي. كان لابد لحمادة أن يسب الدين لهؤلاء الذين يزعجون الفنانين ولا يقدرن نعمة

الإحساس. أخرج التليفون ورد، وكانت المفاجأة. صوت نسائي مرتبك وناعم. ألو. أستاذ حمادة؟ أنا اسمي صباح، أنا شغالة عند الشيخ علي في الكافية، أنا كنت عاوزة خدمة من حضرتك. ممكن اجيالك في المحل إمتى؟

صباح، صباح، بق قلب الفتى بقوة. هاهي الأيام تحمل إليه أجمل هدية وتعوضه عن سنين الوحدة والحرمان. قال لها إنه ينقظرها الآن في الرسم، وأخذ يرتب المكان بشكل محموم. جرى نحو البيت، تحمم وتعطر وحلق ذقنه ولبس شيك، بدلة كاملة بكرافتة في عز الحر، ثم نزل المحل. شغل الموبايل على سلسلة من أغاني تامر حسني القديمة، وجلس في الانتظار، ثم قام، وأخرج اللوحة التي كان يرسمها، خلع ملابسه الشيك وارتدى لبس الشغل، بالطو مبعأ بالألوان وبيريها، وأخذ يرسم، حتى تأتي وتجده مستغرقاً في الفن، ثم خرج من المحل، جرى حتى آخر كرموز ليشتري بابيب. عاد ومعه كيمد تيغ، ومضى يحاول إشعاله في المحل، فشل مرة ومرتين ونجح في الثالثة. الآن هو الفنان المكتمل. بعد لحظات من صورة الفنان المكتمل. خلع الباطو والبيرييه، وعاود ارتداء البدلة والكرافتة، جلس على المكتب وفتح كتاب أجمل قصائد نزار قباني ومضى يردها بصوت حالم وإن كان مسموعاً. بعد قليل قرر اتخاذ خطوة أبعد، وضع الكتاب مفتوحاً على حامل اللوحة، وأخرج من المخزن جيتاره القديم. وقف أمام حامل اللوحة ومضى يلحن على الجيتار قصائد نزار قباني، يا كل نساء الأرض أحبيني، يا من أحببتك حتى احترق الحب، أحبيني، وظهرت صباح.

ببساطة، ودون الدخول في تعقيدات كثيرة، كانت صباح تريد لوحة لها. الأيام الحالية أهام صعبة بالنسبة لمن يعملون في مهنة مثل مهنتنا، والزبائن قلوبا ياما عن أهام زمان. أعدت صباح لنفسها عدة صور فوتوغرافية في براونيز،

وقررت إضافة اللمة الفنية، لوحة بالفرشاة والألوان الطبيعية، وكان حمادة هو المرشح الوحيد لمثل هذا العمل الفني الجبار. أخذت تشرح له وقلبه يدق بعنف. لم يكن يسمعا تقريباً. كان يحضر في ذهنه ما سيقوله لها بعد انتهائها من الكلام. لم يسعه عقله بكلام كثير. هو ملك الكلمة الحلوة والتعبير الرومانسي. فقط في النهاية، أو قبل النهاية بقليل، عندما بدا أنها ستتوقف عن الحديث، خطر على ذهنه الرد الأقوى، الذي سيزلزل قلوب أقوى النساء. استأذن منها، ودخل المخزن، ثم خرج ومعه لوحة كبيرة، أراها لها وهو يهمس، طلبك عندي يا ست الكل.

لشهور طويلة كان حمادة يرسم لوحة لصباح، كان قد حصل على صورة فوتوغرافية لها من ملفها المحفوظ بإدارة الكافيه، ومضى يرسم اللوحة بالاستعانة بها. اللوحة كانت مليئة بقلوب صغيرة متطابرة، واللون الموف الفاتح كان هو المسيطر عليها. كل شيء في اللوحة كان رقيقاً، فرنسياً وباريسياً في نفس الوقت. بدت صباح في اللوحة وكأنها امرأة أخرى، بلا نمش على وجهها، وبأنف أقصر قليلاً، ورموش أطول كثيراً، وتفتح فمها فتحة كلها إغراء ورومانسية. وعندما طلبت صباح من حمادة طلبها هذا، أيقن أن هذه هي لحظته الذهبية. بهذا، كما سيفكر فيما بعد، كسب شيئاً وخسر آخر. كسب أن صباح لاحظت اهتمامه بها، وخسر كونها لن تأتيه مرة بعد مرة لتسأله عن اللوحة. لقد خلص من أول مرة.

ولكن صباح جاءت مرة ثانية وثالثة. كانت خارجة لتوها من قصة حب عنيفة استغلها صاحبها فيها، وتحتاج إلى الصدر الحنّين، وحمادة تطوع بأداء هذا الدور. حكمت له عن ظروف حياتها الصعبة، عن الناس الطمعانيين في جمالها في كل مكان في العالم. عن صاحبها الذي تركها لأنها كانت تحكي له

بحماس بعض التفاصيل عن عملها، عن أبيه - الشيخ علي - وأمه - الحاجة إنشي - اللذين يحيلان حياتها جحيماً إذا خرجت في شغل خارج الكافية. العالم كله يتحالف ضدها، وحمادة، كفارس في زمن بلا لفرسان، كان يتطوع بأن يطبب عليها عندما تحتاج ذلك. قالت له إن الناس اللي زيها - هي، صباح - لا يجب أن يعملوا عند أحد، إنهم لم يتعبوا ذلك، وإن الناس اللي زيهم - هي، صباح، وهو، حمادة - لا يجب أن يتركوا بعض عندما يكونون بالعافية قد وجئوا بعض. فقال لها إن الحل لهذين المشكلتين هو حل واحد. لقد استيقظ بداخله الحلم القديم، سيتزوج صباح.

•••

سيكون من الصعب علينا القول إن هذا القرار من جانب حمادة قد قوبل بالترحاب. الناس في مصر لبسوا كلهم بهذه الطليعية الذي كان عليها حمادة. مواصفات النخبة وشروطها غير مواصفات وشروط رجل الشارع. في البدء لم تفهم أمه المطلوب. قال لها كلاماً كثيراً، مثل إنه أصبح رجلاً الآن وإن الدنيا تغيرت كثيراً، وإن زمنكو يا ماما غير زماننا، وإنه لازم يستمتع بشبابه. أشعلت أمه سيجارة، ومين بسلامتها التي فكر فيها، قال لها إنها صباح، فابتسمت بسخرية ودخلت أودتها. قال لأبيه فسأله أبوه إن كان أحب صباح الشرموطة لأنها صباح أم لأنها شرموطة، وارتبك حمادة. لم يعرف إن كان هذا رفضاً أم قبولاً. في اليوم التالي عاود الكرة. سأل أباه وسأل أمه، دخلت أمه أودته للمرة الثانية، وسأله أبوه نفس السؤال للمرة الثانية. مذكراً إياه بأنه لم يجب عليه امبارح. في اليوم الثالث عاود الكرة، مع إضافة جملة بسيطة، أنا هانتحر لو ماتجوزتش صباح. قالت له أمه، انتحر، وقال له أبوه، في ستين داهية، أما هو فلم يعرف ماذا يفعل. في اليوم الرابع قال لهما إن الرجالة الذين جمعهم الآن

في الرسم. الرجالة المقرر لهم محاربة سوسو في يوم قريب إن شاء الله. لن يفعلوا هذا. وإنه وزع عليهم تعليمات بمهاجمة علي وإنجي نفسها خلال أسبوع وقتلها. وأنه يمتزم زيارة سوسو غداً لعرض التعاون معه. نظر إليه علي وتف قشرة اللب من فمه ولم ينطق، وإنجي قامت لتشغل التلفزيون. ولكن حمادة رفع فعلاً تليفونه، أدار رقماً، ألو. صباح الغل يا معلم سوسو، أنا بكلمك علشان موضوع مهم جداً، سري للغاية، لا يا سوسو بيه مش هينفع في التليفون، هاهاها. إنت قلبك كبير يا معلم، ولازم تكون سامحت. هجمت إنجي على تليفون حمادة. ألقته على الأرض، وطت عليه وأغلقتة. وهكذا أمكن للنقاش حول صباح أن يبدأ.

كل الحجج من نوعية إن صباح ما هي إلا شغالة عندهم، وهي في النهاية، راحت أو جت، ليست الزوجة التي تشرفه في المستقبل، لم تؤت بشمارها. كان حمادة قد قرر خلاص، وكان في أقصى حالات عناده الآن. لم يرد، لم يناقش، فقط كان ينظر بثبات إلى أعين أمه وأبيه ويظل صامتاً. لم يشعر لدقيقة أنه ملزم بالرد ومقارعة الحجة بالحجة. ولأول مرة تشاهد إنجي هذه النظرة في عيني حمادة. كتكوتها الصفنن، ثابتة، بلا تعبير، متحجرة، وجه قاس، وشفقان تختلجان كأنهما على وشك الانفجار. خافت إنجي، خافت الأم من ابنها، وخاف علي. هكذا تزوج صباح.

•••

لم تكن لحمادة مغامرات عاطفية من أي نوع من قبل. كان يحب بقلبه فقط، وكان واثقاً أن من أحبهن كن يحبينه بقلوبهن، ولكن لا شيء أكثر من هذا. حمادة كان قد اعتنق منذ فترة طويلة نظرية الروح والجسد، ظلت روحه تعشق، وظل جسده بعيداً. كان يعارض العادة السرية بالطبع. كان قد قرأ عنها

منذ كان في الابتدائية، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول ممارستها. يحاول عصر قضيبه بيديه فلا ينزل شيء. فيعتقد أنه عاجز جنسياً، ويستلم للاكتئاب. في الثانوية العامة استطاع أخيراً إنزال ماء خفيف بلل رأس قضيبه. ابتهج وقد ظفه الماء المنشود. وقرر أن يعزم نفسه على ثلاثة برجر كومبو، وعندما عاد من هذه العزومة، التي. بالمناسبة، دمرت ريجيمه الدائم والمتواصل على طول حياته، حاول معاودة الاستمنااء فلم ينزل أي شيء. لم يزعل. طبطب على كرشه برضا وقال إنه جابهم النهاردة جامد.

تأخر الماء الحقيقي. جاء وهو في الكلية. جرب إن ارتعاش قضيبه وصعود اللذة فيه وانفجارها. وهذه المرة، أدمن العادة السرية، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وبفاء على تجربته معها، فلقد تخيل لنفسه صورة ملك الفحولة. الوحيد الذي توفرت فيه رقة الشاعر العاطفية وفيضان الذكورة المكتسح. وذلك حتى نام مع صباح للمرة الأولى في دخلته. طبعاً، لن يكون ضرورياً أن نقول إنه في اليوم الأول لم ينتصب. إنه نظر إلى الجسد الهائل لصباح وبدأ يشعر بانتصاب من نوع ما، ولكن عندما بدأت مرحلة البوس والتحميس، خطر على باله فجأة سؤال حزين. لقد تساءل في أعماق نفسه إن كانت الأنثى تلد أم تبيض، وهو يعرف إنها تلد، هو ليس غيبياً، ولكن إذا كانت تلد ولا تبيض، فلماذا سُمي المبيض بالمبيض؟ أخذ يفكر في حل السؤال ولا ينتبه إن قضيبه يصغر ويصفر. في النهاية، قبل أن يؤذن الفجر، همس لنفسه بصوت منخفض: "السر في البويضة". صباح كانت تشخر، كرر الجملة مرة وثانية كي يشهد لنفسه عدم فشله في حل اللغز. صحت صباح، سألته، فيه حاجة يا حمامة؟ فقبلها على جبينها، نامي يا حبيبتي. أنا بافكر في موضوع جامد كدا. وعاودت صباح النوم.

مرة واثنان وثلاثة حتى استطاع حمادة أن يدخلها، وكل مرة تطول مدة مكوثه بداخلها، وكل مرة يحتفل بانتصاره بزيادة عدد سندوتشات الكومبو. في هذه الأيام زاد وزنه أكثر وأكثر. بدأ يتحول إلى ذلك الإنسان كامل الاستدارة. كرة مستديرة هي الرأس، أسفلها كرة أضخم هي الكرش، أسفلها كرتان مدببتان من تحت هما الساقان، بالإضافة بالطبع إلى كرتي نراعيه. بعد شهرين كان السكس بينهما قد أصبح عملية معقدة للغاية، بسبب تضخم حجمه بالتحديد. كان يلهث ويعرق مع كل حركة، وينام عليها فتبدأ في التأوه من فرط ثقله. وموضوع أنها ترضع حلمات ثدييه كما أنه بالضبط يرضع حلمات ثدييها كان يشعره ببعض الخزي. ويرغم الريجيم الدائم الذي قرر منذ سن الثانية عشر أن يخضع نفسه له، فلقد كان كل شيء بلا طائل. عاوده الاكتئاب المزمع، وعاود ترديد قصيدته طول الوقت، قصيدته التي تقول إحدى أبياتها، تشوفني تقول دا مجرم وقاتل قتيل، وأنا في الحقيقة شاعر وإحساسي جميل. كان فاروق هو الشخص الذي أنقذه في تلك المرحلة.

بداية نقول، إن تضخم حجم حمادة إلى أبعاد جديدة وغير متوقعة، لم يكن مقلقاً في حد ذاته. ما كان مقلقاً هو نظرة السخرية التي كانت توجهها له صباح بين الوقت والآخر، وكان يشعر بها تخترق كرشه وثدييه. تشكل حمادة في كل شيء، في جدوى حياته وأهميتها وفي حب صباح له، حتى ذلك اليوم الذي التقى فيه بفاروق. بدا الأخير وكأنه يعاني أزمة نفسية هائلة. سأله حمادة عما به، فلم يرد، بحيائه المطلق وخجله الرقيق الذي عرفه عنه حمادة قرر التزام الصمت. نظر حمادة إلى ملابس فاروق غير المكوية وقميصه الخارج من البنطلون وشعره الهائش. سأله بمرارة: "إنت عاوز تنام مع صباح يا فاروق، مش كدا؟" لم يرد فاروق فواصل حمادة، "إنت حاولت دا، مش كدا؟" أطرق فاروق ونظر في

الأرض. وبدأ حمادة يحدث نفسه، لماذا. لماذا يحدث لي كل هذا يارب؟ وحانت منه التفاتة نحو فاروق الذي بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً. أن يدفع تهمة بحماس. أن يرد غيبة شخص ما، أن يؤكد أن العالم ليس بكل هذه القسوة. فهم حمادة، فاروق حاول النوم مع صباح، ولكن صباح ردت، رفضته بكل قسوة وعنف وكبرياء. فجأة، عاودت الدنيا الإشراق في عيني حمادة. مال على فاروق وحضنه وقبله في خده، إنت جميل يا فاروق، أنا باحبك أوي يا فاروق. عاد إلى صباح وفي يده صينية بسيوسة كاملة. بدا في هذه اللحظة وكأنه يريد احتضان العالم كله. هكذا تأكد حمادة من حب صباح له.

يمكن القول إن مركبة الحياة سارت بحمادة وصباح في هدوء وبلا مشاكل. الحياة تدير وجهها أخيراً لهذا الصبي المعذب، ومع عمله في مرسعه، ومع اجتماعه بالرجال الذين يفترض أن يحارب بهم سوسو يوماً ما، ومع قصة حبه الملتهبة لصباح، فقد كان حمادة الآن يحصد من الحياة أجمل ما فيها، وعندما أخبرته صباح يوماً أنها حامل بنا هذا تتويجاً لكل تلك السعادة. يوماً لم يأكل حمادة شيئاً، ولا حتى سندوتشات الكومبو. لقد تسامت روحه فوق شهوة الطعام.

ولدت صباح. ولدت توأماً، بنتين جميلتين. وكشاعر، لم يتجاهل حمادة أبداً أهمية القافية في حياة الإنسان. أطلق على ابنتيه اسمين موسيقيين، "يارا" و"لارا". كانتا، بالإضافة لأمهما، بهجة حياته في ذلك الزمان. كم مرة شوهد حمادة وهو يلعب معهما، يرقد على ظهره ويضعهما على كرشه. والبنتان تضحكان. رسم لهما عشرات اللوحات، وكتب عنهما مئات القصائد. ولحن آلاف الألحان. وعندما كان يخلد إلى نفسه، كان يتذكر أغنية قديمة، أغنية

تقول كلماتها، بس قلبي لسة خايف م الليالي، وانت عارف قد إيه ظلم الليالي. كان يخطر على باله أن كل هذه السعادة قد تكون سعادة زائفة، وأن الأيام قد تنقلب عليه. كان هذا الخاطر يلوح له لوهلة فيستبعده بسرعة. ربما كان هذا هو الخطأ التكتيكي الأول الذي وقع فيه حمادة بتلك الأيام. حمادة لم يحسب حساباً لبكرة.

في اليوم الذي عرف فيه حمادة أن بنتين هما من ببطن زوجته ظل قلقاً، أصيب بالاكنتئاب وانسدت نفسه عن الأكل. دعونا لا نتعجل إطلاق الأحكام. لم يكن حمادة من ذلك النوع من الرجال التقليديين الذين تسوؤهم خلفه البنات. إطلاقاً في الحقيقة فحتى نفهم قلقه لا بد لنا من الرجوع قليلاً للوراء، والغزول عميقاً للأسفل، في عمق هواجسه الطفولية. حمادة، بجسمه السمين، كان يعتقد أنه مخلوق غير محدد الهوية، شيء ما يقع في منتصف الطريق بين الذكر والأنثى، وربما كان هذا هو سبب مشاريعه الدائمة وغير المنتهية لتخصيس نفسه. ربي نوبة قر ذات مرة وهو صغير، رآها وهي تتحول إلى شرنقة ثم تخرج فراشة منها وتطير بعيداً. اعتقد أنه، بنفس الطريقة، فسوف ينتهي من كائن مخنث، رخو، برماني، يعيش بين تراب كرموز والبحيرة التي يقع في وسطها تمثال الفرخة، إلى الأنوثة الكاملة. تظل هرمونات الأنوثة تصارع هرمونات الذكورة داخل جسمه، تظل هرمونات الذكورة تخسر معاركها، تنسحب من مواقعها التي تسيطر عليها هرمونات الأنوثة فوراً، إلى أن يحدث الانفجار الكبير: ينفجر كرشه وتدياه ومؤخرته لتخرج من داخله أنثى كاملة، قوية وعنيفة وقاسرة على فسخ العالم في أفكاره. خياله لم يقف عند هذا الحد، تخيل هذه الأنثى بمجرد خروجها من جسمه وهي تنفض عن نفسها بعنف

الكتل الدهنية الرحيبية التي جاورتها سابقاً في حياتها بداخل كرشه، تمسك رشاشين، كل واحد بيد، وتطلق طلقات متتابعة. تنقص جميع العابرين بالشارع، وهي ترقص على أسطح العمارات، مرتدية، طبعاً، جيبه قصيرة وكولونا أسود شفافاً وحذاء ذا كعب مدبب. أنثى تقوم بتقبيل جميع الرجال في الشارع وتقتلهم بشفتيها المسممتين، أنثى تجتمع فيها الغواية بالقوة بالرغبة في في تحطيم العالم. سر لا يعرفه أحد إطلاقاً: لقد سأل حمادة أمه وهو طفل عن كيفية معرفة المرأة أنها حامل، بل وقررت مرة زيارة طبيب نساء للكشف عليه. لم يذهب، ولكن ظل هذا هو الخوف الأكثر تأصلاً بداخله، أن يتحول إلى أنثى.

ما نريد قوله إن ما حدث، بولادة صباح ليارا ولارا، لم يكن بعيداً تماماً.

يمكننا النظر إلى قصة حياة صباح بوصفها درساً مثالياً عن قسوة الحياة. لقد ولدت لأم تبغ المناديل في محطة الرمل، وأب مسجون في قضية مخدرات اتهم نفسه بها ليدفع التهمة عن واحد من المعلمين الكبار، ويضمن في مقابل هذا مستقبلاً معقولاً لأبنائه. ومنذ صغرها استطاعت صباح شق طريقها بنفسها، منذ بيعها للمناديل مع أمها وحتى عرفت طريقها نحو ديسكوهات العجمي، وبدأت ذلك الطريق المظلم، المعروف باسم "البغاء" في الحياة الأكاديمية المصرية، وباسم "الشرمطة" في حياة الناس الطبيعيين. لم يستطع أحد التعرض لها بغير رضاها. كان يساعدها بلطجيان، فتوتان، مجرمان، الأسماء لا تهم، هما أخوها. رافقها في كل مكان واهتما بها وكانا لها أفضل تعويض عن الأب السجين والأم المريضة. وعندما خرج أبوها من السجن بعد غياب خمس وعشرين عاماً، مهزوماً، نحيلاً، ولا يلزمه سوى عام حتى يعاود إيمانه للخمرة، كان

أخواها قد أتما السيطرة على العائلة. لم تعد العائلة معروفة باسم مؤسسها، حسني أبو صباح، وإنما باسم الأخوين، جابر حسني وعمرو حسني، المعروفين أيضاً بلقبَي "جابر الوزير"، و"عمرو الشيخ".

بعد زواجها من حمادة، تمكنت صباح، في لفظة امتنان منها تجاه أخويها اللذين وقفا بجانبها، من تقديمهما لزوجها. أعجب بهما حمادة. وقرر الاستعانة بهما في حربه القادمة مع سوسو. لكل من الأخوين خبرة كبيرة في تفصيل الشوارع وتثبيت الناس وأخذ الحق بالذراع. سألهما في بداية معرفته بهما عما يعرفاه عن تاريخ الكرتينا، فسارع كلاهما بتريده التاريخ الذي سبق وأن لقتنهما صباح إياه، بدءاً من حربي، مروراً بعلي وإنجي وأبو أميرة، وصولاً إليه، هو نفسه، حمادة. التجسد الأخير للبطولة السكندرية، مع فقرات مؤثرة عن وساخة سوسو ومئة التي خانت ذكرى أبيها. سألهما حمادة إن كانا مستعدين للعمل معه لتخليص كرموز من أمثال سوسو، فقالا نعم بحماس. ومنذ ذلك الحين، لم يعد أحد يراها سوى في مرسوم حمادة. يتناقشان معه حول أفضل الطرق لاقتحام غيط العنب. كلاهما، أحدهما بصوت مشروخ محطم، والثاني بصوت أبح، كانا يبهران حمادة بمعرفتهما الواسعة بغيط العنب وبيت سوسو ومحلله وبنوعية الرجال الذين يعملون معه. كلاهما كان يختار الألفاظ بدقة، وكلاهما كان يراعي في أي جانب فرض عليهما القدر الوقوف الآن. اسم سوسو اختفى من على لسانهما، تم وصفه بصفات عدة، الوسخ، الخول، النقن، مع ألفاظ الاحترام المناسبة لأبطال الكرتينا المعتمدين، حربي وأبو أميرة وعلي وإنجي واعتماد.

في هذه الأيام كانت ذكرى واحدة تهيمن على الجميع، سوسو وهو يقود رجال الكرتينا ونساءها عرايا من الكافية، وذكرى أخرى أقل هيمنة، رجال

علي وانجي وهم يقتحمون محل سوسو ويسكبون الزيت والكبدية على الأرض
ويطردون مستأجره، مع الاستعداد المتوقع لانتقام سوسو. ولكن لأن الهجوم هو
خير وسيلة للدفاع. هكذا قرر عمرو الشيخ، يبقى احنا مطلوب منا ومن الرجاله
دلوقت نحرقو محل سوسو النتن، ويا حبذا يا رجاله لو قتلناه كمان. ولكن بيت
سوسو ليس بهذه السهولة. البيت محاط بعدد من المحلات جميعها يستأجرها
رجال سوسو، والوصول لهذه المنطقة مستحيل على الأغراب. على من يريد
الوصول إليه اجتياز ثمانية محلات. كلها ملأى بالبلطجية وعيون سوسو، ثم
عبور أرض فضاء واسعة مملوكة لشركة الإسكندرية للبتروكيمائيات ولا
يجتاها أحد إلا للوصول لبيت سوسو، والذي لا يزوره بالطبع سوى خمسة أو
سنة رجال من أخلص خلصاءه.

•••

نحن نحتاج لعميل مزدوج، بدأ جابر الوزير حديثه بجدية بالغة،
محرراً يديه ومحدداً في أعين حمادة وعمرو الشيخ، -حسناً اسمعاني جيداً.
الموضوع ليس بسيطاً أبداً. نحن نحتاج لشخص ثقة، نزرعه بداخل غيط العنقب.
وهذه وحدها مشكلة كبيرة. نحن نعرف جميعاً أن لا أحد يستطيع العبور هناك
إلا بعد اختبارات عديدة، شيء مثل قفزة الثقة يعني. والأسوأ من هذا أنه لا
أحد يمكنه الإقامة هناك إلا من يعملون عند سوسو نفسه. نظر إليهم عمرو
الشيخ. هز رأسه وأكمل علي كلام أخيه: نحن نحتاج جاسوساً. جاسوساً
متمكناً. يفوت في الحديد. أفاقاً. أو بمعنى أصح نصاباً خفيف الظل. بلا ملة، لا
تعرف إن كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً. بجاسوس مثل هذا سنتمكن من إننا
نفشخ أمه بأمر الله، وحمادة، الذي كان يفكر بعمق، ركن رأسه على ظهر

الكرسي، نظر إلى البعيد. وغمغم كأنه يقول بينه وبين نفسه، نعم جاسوس،
وأني جاسوس!

المرشح المثالي لهذا كان هو رمضان العدول، رمضان يعمل عند سوسو
واستأجر محله بالكرنتينا، وهو الذي ضربه رجالة علي وكتبوا كيدته على
الأرض. بنا العدول مثالياً لأمر مهم، أولاً بسبب عمله عند سوسو، وبالتالي فلن
يتكلف الرجال شيئاً من أجل زرعهم هناك، بالإضافة إلى أن رمضان طول عمره
يتعامل مع المباحث. سوسو يعرف هذا، وعلي وإنجي وحمادة يعرفون هذا،
ولكن لا أحد غيرهم يعرفه. لدى حمادة من الإثباتات على تعامله مع المباحث ما
يكفي لتهديده، ولكن حمادة، الرقيق والمرهف، لم يفضل الدخول في سكة
التهديد. الترغيب دائماً أحلى من الترهيب. قال حمادة إنه سيعرض على
رمضان أن يرسم لوحة له مع زوجته، تبقى حاجة زي نكري جميلة أو
سوفونير يفضل معاه العمر كله. بهذا يشتري إخلاصه.

في اليوم التالي جلس حمادة مع رمضان. سأله عن الفلوس التي يأخذها من
سوسو. عرض عليه مبلغاً أكبر، كما عرض عليه اللوحة. حمادة كان يشاهد على
موبايله مشاهد تصور لقاء رمضان بنقيب في مكافحة المخدرات، ولكنه لم يتكلم
كلمة واحدة عن هذا التسجيل، تركه شغلاً وواصل كلامه مع رمضان. رمضان
الذي فهم الدرس، رمضان الذي أخذ يفرز عرقاً كثيفاً وهو يرى نفسه على
الموبايل المتروك بإهمال على نراع الكرسي، رمضان الذي بدأ طوال المحادثة
وهو ينظر نظرة استعطاف ذليلة، رمضان هذا طلب من حمادة أن يعتبره من
النهاردة ورايح بتاعه، واحداً من رجالاته، وكل المعلومات عن منطقة سوسو في
غيظ العناب سوف تكون في يده أولاً بأول.

•••

حمادة كان يحب الجميع ، ولهذا أحبه الجميع .

في أسابيع معدودة أصبح رمضان واحداً من أهم رجالاته. لم يلتق رمضان أبداً بحمادة أو عمرو الشيخ أو جابر الوزير داخل حدود كرموز. يوماً ما كانوا يجتمعون في بحري أو المنشية أو محطة الرمل. يخبرهم المدول عن التحصينات الجديدة التي أدخلها سوسو في منطقته، عن أسرارها التي يبوح بها في سهرات الخمر، ولكن الأهم من كل شيء، كان رمضان يخبرهم برجال سوسو المرشحين للعمل معهم. وكان يتفق معهم. ويحضر بعضهم للقاء الجماعة بنفسهم. مع توالي الأيام والليالي، بدت كربنتينة غيط العنب وكأنها في جيب الجماعة.

جميع الناس مستعجلة الآن. كم طلب عمرو الشيخ وجابر الوزير من حمادة في هذه الأيام تحديد ساعة الصفر بسرعة الجميع كانوا متلهنين على وراثة الإمبراطورية التي كونها سوسو، إمبراطورية المخدرات والسلاح الآلي. حمادة أيضاً بدأ متعجلاً، كان يريد أن يكتب بيديه أول سطر في تاريخ إنجازاته، ولكنه لم يستطع اتخاذ خطوة واحدة بدون إذن أمه وأبيه. أمه رفضت بحسب التنفيذ الآن، وأجلته لأجل غير محدد، وأبوه في هذه الأيام بدأ مشغولاً بأمر آخر. سال حمادة يوماً إن لم يكن قد لاحظ أشياء غريبة على إنجي الأيام الماضية. لم يفهم حمادة فتابع علي بأسى، إنت عارف امك مش عاوزاك تنفذ ليه؟ أمك خايفة على سوسو. أمك رجعت امبارح البيت الساعة حداثر. أمك ماكاتش ف الكافية يا حمادة، أنا نزلت وشفت.

لم يرفض علي التنفيذ، ولم يطلب تأجيله إلى أجل غير مسمى كما فعلت إنجي. طلب تأجيله فقط حتى يتأكد من معلوماته حول علاقة إنجي بسوسو. وحينها يقتل حمادة الاثنين، في حضن بعض، بالملابس الداخلية، ويعلق فوق

موقع الجريمة يافطة كبيرة مكتوب عليها بالدم "هذه نهاية كل خائن". تعرف امك تعرف سوسو من إمتى يا واد يا حمادة؟ من زمان أوي، فاكّر السُّعبان الأفرقيتي يا حمادة. أمك عاوزة تقتلنا من زمان يا حمادة، من زمان أوي. واناع الناحية الثانية عمري ما فكرت اقتلها.

الموقف، كما نرى، معقد جداً. هل يحتمل حمادة هذا الكلام على أمه، وإذا احتتمل، فهل يجرؤ على قتل أمه؟ لأجل الهروب من شبكة العلاقات المتشابكة تلك، بدأ حمادة يفكر في اتجاه مختلف. سيقوم هو بالعملية، بموافقة أبيه أو بدون موافقته. لن ينتظر شيئاً. أبوه، الذي بدأ يفقد عقله شوية بشوية، لن يتحكم في حياتي منذ الآن، أنا إسمي حمادة. أنا إسمي ليس علي، أنا ليس علي. أنا حمادة. حمادة. حمادة. مضي بكررها وهو يشرح للرجالة كل هذا التعقيد، بمنتهى الأمانة والشفافية. الرجال أيضاً كانوا متلهفين للسيطرة على الكرنيتينا بشقيها الآن. يوماً بعد يوم، كان القرار بسرعة التنفيذ ينتصر. ساد شعور، قومي أو وطني نو صبغة ثورية، بأن القرار قرارنا والتنفيذ بأيدينا. الأرض لمن يزرعها، لا لمن يملكها.

الجميع اليوم في مرسوم حمادة. عمرو الشيخ وجابر الوزير وصباح ورجالتهم، حتى رمضان المعدول كان بينهم، يحضرون لاقتحام كربنتينة غيط العنب في الفجر الذي سيحل بعد ساعتين. حمادة على وصول. الرسم مفلق من الخارج. يلتفت أحد الرجال إلى الاتساع البالغ الذي صار عليه الرسم. ينهمكون جميعاً في التنظيف. يسكبون البنزين على أرضيته وهم يغنون أغنية جديدة تبدأ بـ"هوباً يا هوباً"، ولا يتذكرون باقي الأغنية فيضحكون. رمضان يستند على باب الرسم من الداخل ويشعل سيجارة. ويرمي الكبريتة على الأرض. تلتحم نار الكبريتة بالبنزين المسكوب. يسارع واحد من الرجالة بمحاولة الإطفاء،

فيعاجله رمضان بطلقة من طبنجته. يسارع آخر فيقتله رمضان أيضاً. الحقيقة الآن لا لبس فيها أمام الرجال المشتعلين بالنار. صباح تصرخ والنار تلتهم نراعها العارية. علمتها يا رمضان، ورمضان يشتعل أمامها أيضاً. والجميع يهرعون إلى الباب لمحاولة فتحه ولكن رمضان المشتعل لا يتخلى عن طبنجته. يقذف الجميع بطلقات متلاحقة. محترق يطلق النار على محترقين. النار كتلة واحدة.

بعد نصف ساعة يكون كل شيء قد انتهى، رمضان وصباح وأخواها وعشرة رجال من خيرة من أنجبت الإسكندرية. عندما سيصحو الناس على الصرخ في الثالثة فجراً، وعلى الدخان المتصاعد من الرسم، سيكون قد قضي الأمر الذي فيه تستغيان، تماماً. أربعة عشر جثة متفحمة أمامهم. سيصل حمادة في الرابعة وعشرين دقيقة. سيرى المنظر أمامه. ثلاثة عشر جثة للرجال المتفحمين، وبعضهم برأس مفقوبة، وجثة رمضان تقف بعيدة، برأس سليمة، وملقى بالقرب منها طبنجة نغدت طلقاتها.

•••

طوال حياته السابقة، لم يكن حمادة يحلم وهو نائم أبداً، لحسن الحظ أو لسونه.

في هذه الأيام حلم لأول مرة. عرف معنى الكوابيس. رأى صباح وهي تحاول التخلص من ملابسها المشتعلة، وهي تمد يدها إلى باب الرسم. رأى جابر وهو يتعارك مع رمضان للوصول إلى الباب. رأى رمضان وهو واقف يدخن سيجارته المتروكة في طرف فمه بإهمال ويخرج موبايله ويقول كله تمام يا باشا. رأى صباح وهي تنزل من البيت تضحك وتهز مع أخويها، ومن خلفها يتردد هتاف، لا يفهمه حمادة في الحلم ولا يفهم مصدره. هتاف غريب، آت من زمن

غريب، ولا يا حربي، وتقدم صباح من الرسم، تدخل، فيتردد الهتاف بشكل أكثر سرعة، ولا يا حربي، ولا يا حربي. الهتاف يتحول لجملة محمومة وهستورية تتردد على مدار الحلم بينما باب الرسم يتم إغلاقه من الداخل. والدخان يتصاعد من الرسم المفلق والهتاف يتحول لجملة واحدة طويلة سرعان ما تتبدد في الفضاء، ولا يا حربييبيبي. تموت الجملة بالتدرج. تحترق.

رأى حمادة لوحاته في الحلم، لوحاته التي ظل خمس سنوات يرسمها، رأى النار وهي تندلع في قوائم مساند اللوحات، فتنهار وتسقط اللوحات على وجهها في قلب النيران. في وسط الناس الذين احترقوا، في وسط اللوحات التي رسمها منذ سنوات، رأى وجوهاً كثيرة، أبو أميرة، اعتماد، نادية، علي، إنجي، حتى أم أميرة، حتى مصطفى أخو علي، حتى سليمان أبو إنجي، كل هؤلاء رأهم حمادة مرسومين على اللوحات المحترقة. حتى سيد وسيكا وسلمان، حتى سوسو، رأهم يخرجون من اللوحات ويتبادلون أنفاس السجارة مع رمضان الواقف بجوار الباب، يهزرون ويتعانقون ويزغد بعضهم بعضاً، ويطلقون النار على الآخرين.

كان حمادة يستيقظ في عز الليل. يطمئن على يارا ولارا النائمتين في السرير بجواره. يتحرك بحذر من لا يريد إيقاظهما. يطلب التلفزيون، يتصل بمحل بيتزا الشيخ. يطلب بيتزا مشكلة حجم كبير. تأتية ويأكلها في عشر دقائق. يلقي قطعها المغموسة في السمن المجدد والدهن في فمه، بكتل اللحم المغموسة والمدق والسويس والبسطرمة والجبنة التركي. ثم يتصل بمطعم آخر، يطلب فرخة مشوية وبطاطس. يأكل ويأكل. وعندما يحمي الأكل على بطنه، يحاول شرب بعض البيرة، فلا يجد في بطنه أي مكان، يجبر نفسه على شرب ثلاث قزايز متلاحقة، ويعود لسريه وهو يعيل على جانبيه مثل البطريق. فور

وصوله للسريير يعيل على الأرض. يرجع كل ما بجوفه. لا يمصح القيء. يرمي نفسه على السريير. في الصباح يكون القيء قد تجعد على الأرض، ورائحته الحمضية ملأت المكان.
بارا ولارا تبكيان طول الوقت الآن.

•••

تصوف حمادة.

ترك نفته تماماً. ارتدى الملابس المبقعة والمزقة. حرص على صلاة الغرض بفرضه في الجامع. بكى وهو يصلى، بكى وارتعش جسمه وأخذ يردد وهو ساجد بصوت عال، فيما يشبه الصراخ، مولاي إني ببابك. توقف عن الشرب. فكر في زيارة سوسو. فكر في وعظه بصوت هادئ. فكر في الانتهاء من كل شيء وانتهاء كل شيء. يارب، أنا أضعف من كل هذا، فلا تكلفني إلى من لا يرحم ولا يدع رحمتك تنزل. اكتشف حمادة أن الصراع يحتاج شخصاً آخر. واجه نفسه بأن كل هذا فوق طاقته. تعرف على شيخ في الجامع اسمه الشيخ محمد. أعاد له الشيخ بعض الاتزان. حضرا سوياً الحضرات وليالي الذكر. وعزمه حمادة أكثر من مرة على الغدا في بيت أبيه وأمه، الذي سبق وأن انتقل للإقامة فيه مع ابنتيه. كان يقبض على قطع اللحم من الفتة ويعطيها للشيخ، ويرد الشيخ بجزاك الله خيراً، ويغرف بالمغرفة أرزاً بالصلصة ويضعه في طبقه، والشيخ يطيب على كتفه. سألته علي يوماً، بتعمل إيه يا حمادة. رد حمادة، باعزم ع الشيخ محمد يا بابا. رد عليه، حمادة، مفيش هنا غير أنا وامك. نظر حمادة إلى الشيخ محمد. رآه بيتسم ابتسامة نورانية وهو يختفي شيئاً فشيئاً. الطاقة البيضاء فالوجه الأبيض فالذوق البيضاء فالجلابية البيضاء فالصندل البني. أكتأب

حمادة. سب الدين لأبيه في سره ثم استغفر ربنا. انضدت نفسه عن الطعام، ونزل تحت ليكمل القعدة على القهوة مع فاروق.

كانت هذه مرحلة عابرة. تدريجياً، ومع الوقت، بدأت ستائر النسيان تنزل على الشهيد. اكتملت إعادة ترميم الرسم من أول وجديد. حلق حمادة ذقنه، وخلع الجلاية البيضاء وعاود ارتداء ملابسه القديمة، وعندما جدها ضاقت بشدة عليه، اشترى أخرى جديدة. قال في نفسه إن الخسائر كثيرة، خسر زوجته وأخويها ورجالته ولوحاته، ولكن لكل شيء ثمن. كسب حمادة من هذه الحادثة معرفته بواحد مثل الشيخ محمد. هكذا كسب صديقاً سيكشف الزمن عن إنه واحد من أخلص أصدقائه بجانب فاروق.

بعد سبعة أشهر من الحادثة، بدأ حمادة في تكوين نواة أخرى لرجال آخرين، رجال ستكون كل مهمتهم في الحياة الآن قتل سوسو.

في يوم بارد، سار الأمير رزق بن نايل في الصحراء وحيداً. كان مكروباً والبرد يخترق عظامه. الانتصارات لم تعد تهمة، باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح. يسترجع الأمير الماضي، فلا يقدر على حصر أعماله. يرنو إلى المستقبل، فلا يجد شيئاً، قفر، هباء كالصحراء، خواء في خواء في خواء. بماذا تفيد الدنيا والمعارك والحروب والانتصارات إن كانت كلها مصيرها لاشيء. حتى ذلك الحين، كان الأمير قد كبر في السن ولم يكن قد أنجب بعد، وكان يردد، رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً. بقية الحكاية نعرفها، سمع ندا من قبل الله، ياخي كل منا وسعيده، أي، كل منا وسعده، يا رزق اصفي على الله، تزوج بمكة السعيدة. تزوج رزق وأنجب فارس العرب أبا زيد الهلالي. شيء مثل هذا حدث هنا.

سوسو، مثل الأمير، كان فارساً من فرسان العرب. خالط العربان، عربان جبل أبو تلات، موردي الحشيش الأول في اسكندرية ومصر، أكل من أكلهم وشرب من شربهم وتطبع بعباداتهم، ومثل الأمير، وصل سوسو لسن الخمسين ولم ينجب. وهذه مشكلة كبيرة بالنسبة لقائد عظيم من قادة العرب. في عز انتصاره على سلالة علي وانجي، في عز تأهبه للوثوب على تركتهما، كان سوسو حزيناً. ذهب مع مئة مئة دكتور، وأكد الجميع أن المسألة مسألة وقت ليس إلا، والوقت، ليس هناك أكثر من الوقت، ترك سوسو الوقت يمر، والوقت

مر، وليس من أمل في أي شيء. كان هذا سر نظرة الحزن والأسى العميقة والدائمة في عيني سوسو، إلى أن حدث ما حدث.

سوسو يصلي الفجر في البيت. عنده بررد رهيب يمنعه من النزول للمسجد. يرتدي جلابية وتحته لباس قطني سميك، وفوقها عباية وسويتر وكوفية. وهو ساجد يكتشف أنه برغم كل التحصينات، فلقد دخل بسروب هواء إلى جسمه من تحت الملابس. يقوم ويسلم على الناحيتين قاطعاً الصلاة. يضبط ملابسه. يجفف المخاط السائل حول أنفه، ثم يأتي بلحاف سميك ويتغطى به ويعاود الصلاة. في سجوده هذه المرة يظل يردد، يارب هبني من لدنك الذرية الصالحة والمال والبنون، ثم بهستيريا، يارب ولد، يارب ولد. بعد يوم عمل شاق، وبعد أكثر من يومين ظل سوسو صاحياً فيهما بلا دقيقة نوم واحدة، كان لا بد أن ينام وهو ساجد. لم تكن هذه مجرد غفوة أو لحظة وسن، ربما كانت في البداية هكذا، ولكن سوسو سرعان ما انقلب على جنبه، وأخذ يشخر ويرفّس بقدميه في اللحاف، ولم يصح إلا في ظهيرة اليوم التالي، مع حلم رقيق ظل يناوشه في النوم: طفل أشقر، يصعد على منبر جامع المرسى أبو العباس، والناس تحت يديه صفوفاً صفوفاً، يناشونه باسم أمير اسكندرية. عندما صحا على آذان الظهر عرف أنها رؤيا، نبوءة أو بشارة بمعنى أصح. ذكر يولد من صلبه أخيراً، طبعاً، في اليوم السابق على النبوءة، كانت مئة قد أخبرته إنها حامل، وعندما نام تأكدت الرؤيا. طفل مقدس يولد بعد أشهر.

الطفل لم يأت طفلاً. أتى طفلة. كان هذا محبطاً لسوسو جداً، ولكنه لم يفقد إيمانه بالرؤيا. أطلق على ابنته اسم "أميرة" بدلا من اسم أمير الذي رآه في الحلم، وبهذا انصاع للنداء الآتي من قبل الله، وبهذا قام بتخليد ذكرى ابنة أخيه الراحلة أيضاً. وبالتمهيد لتحويل نفسه إلى "أبو أميرة" آخر. قرر سوسو

تكريس عمره لأميرة من الآن فصاعداً. الوقت الباقي قصير. وما تدري نفسه بأي أرض تموت. نظر سوسو إلى ابنته، الوحيدة والمتأخرة على ميعادها. بوصفها وريثته المستقبلية، وعاملها على هذا الأساس. أورثها ممراته القديمة، خيانة علي وإنجي له وسطوهما على العمارة التي كانت من حقه هو وممراته، بعد كل الخدمات التي قدمها لهما. بعد قتله لمصطفى أخي علي، بعد غربته في الصعيد ليأخذ بتار علي. وكما أورث ابنته ممراته القديمة، فقد أورثها ممراته الجديدة أيضاً. رجال علي وهم يطردون رجله من محله ويكبون زيتته وكبدته على الأرض. نخدم الناس بعيوننا ثم يظلمون أوسخ ناس. هذه هي ممراته العامة، لا القديمة ولا الجديدة، المرارة المتعالية على الزمن.

ممرات سوسو كانت كثيرة، ولم يكن أي منها بمعزل عن إعادة قراءة التاريخ. حكى لأميرة ابنته الحكاية كلها. قال لها إن أي شيء يأتي من عند ربنا فهو كويس. قال لها إننا لا نعترض لا سمح الله على شيء، ولكننا فقط نسأل لماذا حدث ما حدث. قال لها إن كل شيء بدأ عندما صعب عليه جاره في المنطقة. جار أذي كثيراً من أهله في الصعيد. أهله وقرايبه أنوه. وكان باباكي يا أميرة، يا ميرة، يا مرمر. هو الذي أتى له بحقه. منة بجواره، تصحح له، رجل وزوجته يا حاج، فيلتفت لأميرة ويهمس لها، رجل وزوجته يا حاج. جننت لهما بحقهما، أنا غلطان؟ وتضيف منة على كلامه، قتلت أخاه أيضاً يا حاج، وهذا كان قبل موضوع الصعيد. فبهرش في رأسه ثم يقول، لأ، الصعيد الأول. فتكمل منة وكأنها لم تسمعه، وقيل الصعيد وقيل أخوه سكنتوه عندكو وصرفتو عليه هو وممراته. فيحول سوسو نظره عن طفلته تماماً. يدفن وجهه في كفيه، لخمس دقائق يدفن وجهه في كفيه، ثم يرفع رأسه ويقول، شوفي، الصعيد. ثم أخوه. ثم سكناهم عندنا، وتقول هي، لا، أخوه، ثم سكنتوه عندكو، ثم

الصعيد، ثم قتلت ظابط الشرطة علشانهم. فيصح لها، ظابط الشرطة هي قتلتها، فترد هي مين؟ فيرد هي إنشي، فتقول له إنجي خوافة، إنجي وسخة، إنجي لا تفعل شيئاً بيدها. أنا عارفاها.

يخرجان ورقة وقلماً ويحاولان تدوين الأحداث. ولكن الأحداث كثيرة. يمزقان ورقة تلو الأخرى. يقضيان الليل كله يحاولان ترتيب الأحداث. ولكن لا شيء ينفع الآن. تميل منة عليه وتهمس له، نسأله؟ فيميل عليها ويهمس لها، نسأل مين ياختي؟ فتميل عليه وتهمس له، نسأل الشيخ علي، فينتفض ويصرخ، انتي اتجنيتي يا ولية، تغور البتاعة ع اللي عاوزين يعرفوها. فتستعطفه، انا معايا تليفونه، فيزقها بعيداً. ينقض عليها، ثم يتمالك أعصابه ويخرج للبلكونة ويدخن سيجارة. حتى الولاة لم تعد تولع في هذه الأيام.

•••

عاد عادل.

عادل، الأخ الأصغر والفائز لسوسو والراحل أبو أميرة، عاد منهكاً وتعباناً، بعد سنوات طويلة من البهدلة، في السجن ثم في ليبيا ثم في الحياة. بحث عن أخويه في كامب شيزار فلم يجدهما، بحث عنهما عند كوبري كرموز فلم يجدهما. قرب تعثال الفرخة الكبيرة جلس وبكى. شاهده واحد من المارة، سأل عما يريد. فقال له إنه يبحث عن بيت أبو أميرة، قال له الشخص لا أعرف، فقال له طب وسوسو، فقال الشخص لا أعرف، فقال له طب والشيخ علي. أشار الشخص إلى بيت علي ثم انصرف. هذا الشخص كلم آخر، والآخر كلم آخر، حتى وصل الخبر إلى حمادة.

في بيت علي جلس حمادة مع أبويه. قال لهما إن عادل رجع أخيراً، وإنه أمامهم حلان، واحد سهل، وهو طرده من المنطقة، والثاني صعب وهو احتواؤه

حتى يصبح عوناً لهم ضد سوسو (الاحتواء كانت الكلمة التي استعملها حمادة). علي بدأ قرفاناً من كل هذه الفرية، قال نذبحه وندفنه في الأرض. قالت إنجي نتركه حتى يتجمد من البرد. وقال حمادة أهم حاجة في المرحلة دي إننا نكسب الناس. عادل من النهاردة ورايح هيبقى بتاعي أنا. وانتصر رأي حمادة. حمادة بالتدريج كان يتحول ليصبح هو صاحب القرار، مع كامل الاحترام لمؤسي العائلة.

برماناً، والماء يقطر من جاكته القديم، وحذاءه مفتوح من جنبه ويفوص في الوحل، دخل عادل بيت الشيخ علي. شرب كوباً من الشاي وحكى عن ليبيا وسرت ورجال القبائل، حكى عن الحشيش والصحراء، حكى عن زوجته اللببية وطفليه المقيمين في بني غازي. قال إنه انقطع عن كل شيء يحدث في مصر الآن، باستثناء بعض طرايطيش الكلام. قيل له إن علي انتهى، وإن حمادة مش عارف يعمل حاجة، وإن سوسو أخاه الآن أصبح شيئاً آخر (يتكلم بحماس وبحسن نية، ينظر لحمادة وعلي ويضحك ببراءة. على قرفان. إنجي تتف. حمادة غضبان، ولا أحد يرد). الأيام بول، يوم لك ويوم عليك، وانت دلوقتي يا شيخ علي ناوي تعمل إيه؟ ينظر علي للرجل ذي الملابس القطعة الجالس أمامه ويتمتم بينه وبين نفسه، ناوي ابعيملك. يقطع حمادة كلامه ويقول، شوف يا دولة، إنت من النهاردة ورايح معنا هنا، هنقعدوك ف شقتي، وتبعت تجيب مراتك وعياللك. إحنا بنحبوك يا دولة وعاوزينك تستريح وتشتغل معنا. يوافق عادل. لا يملك إلا أن يوافق. يبتسم حمادة برضا، شكراً يا دولة، روح دلوقتي.

•••

(بعد شهرين)

- دولة. مين أول ناس قابلوك وانت جاي من ليبيا؟

- إنتو يا معلم حمادة.
- كان معاك فلوس وقتها؟
- لأ يا معلم.
- اوصلي كدا حالتك ف كلمتين اما جيت.
- كنت متبهدل خالص يا معلم.
- واوصلي كدا حالتك دلوقتي.
- رضا ونعمة.
- ومراتك وولادك حد يقدر يقربلهم؟
- ماحدث يستجري.
- بولة. مين خيره عليك يا بولة؟
- انتو يا معلم حمادة.
- يا ترى احنا مستفيدين حاجة من دا؟
- الثواب والعمل الصالح بس يا معلم.
- شكراً يا بولة. رُوْح دلوقتي.

•••

- (بعد شهرين من الشهرين)
- بولة. إنت شغال إيه يا بولة؟
- مش شغال حاجة يا معلم حمادة.
- يعني إنت عايش معانا شفقة مننا؟
- أيوة يا معلم حمادة.
- ليه إن شاء الله؟
- علشان قلتي هتخوفلي شغل وماشفتش.

- ولو قتلتك إن فيه شغل؟

- بيتي هشتغله يا معلم.

- شكراً يا دولة. رُوح دلوقتي.

(بعد شهرين من الشهرين الأخيرين)

- مين أوسخ بني آدم ف الدنيا يا دولة؟

- إبليس اللعون.

- بس إبليس مش بني آدم يا دولة.

- أومال مين؟

- أني اللي بنسالك، مين أوسخ من إبليس؟

- ماحدث يا معلم.

- فكر كويس. مش عاوزك تستغزني.

- الولا سوسو الفتنة.

- شكراً يا دولة. رُوح دلوقتي.

(آخر شهرين)

- إنت لسة مش شغال يا دولة، صح؟

- صح يا معلم.

- ليه؟

- علشان قلتلي إن فيه شغل بس ماقتلش عليه.

- مين صح يا دولة؟ الشيخ علي ولا الولا سوسو؟

- الشيخ علي يا معلم.

- والمعلم حمادة صح ولا الولا سوسو؟
 - المعلم حمادة.
 - صح كدا.
 - صح كدا إيه؟
 - صح كدا. إحنا عاوزينك تشتغل معنا.
 - اشتغل إيه؟
 - هتبقى العين بتاعتنا على سوسو. هنزرعك هناك ، وهتجيلنا أخباره.
 ...
 - خايف؟
 - شوية.
 - يا إحساس طبيعي.
 - هأذي أخويا؟
 - لأ. هتجيلنا أخباره واحنا هناخد حقنا منه. مش أزيد مليم.
 - يعني هتأذوه؟
 - دولة. مين خيره عليك يا دولة؟
 - إنتو يا معلم حمادة.
 - شكراً يا دولة. رُوح دلوقتي.
 هكذا بدأت خطوات زرع عادل داخل إمبراطورية سوسو.

لقاء عادل بسوسو كان حاشداً بالعواطف والمشاعر الغياضة. قال عادل لسوسو أنقذني يا أخي، جئتك من بلاد لا تعرف ربنا. اتبهدلت ياما يا أخويا. وسوسو سألت الدموع من عينه. قالت له أين مراتك يا عادل، أين ابنتك يا عادل،

فقال عادل تركتهم وجئت. قال سوسو طيب، عليا الطلاق ثلاثة ماهتعد في حته غير عندي، وابعت جيب الولية والواد. دا احنا لحم ودم يا اخويا. لم يخبره عادل أن لديه طفلاً آخر، وأن الطفل الآخر موجود في بيت حمادة. أي حركة غدر من عادل سيقابلها نبح الطفل أحمد ذبحاً، ليس هزاراً. حمادة كان قد تعلم من تجربته السابقة، لن يسمح لنفسه بعد ذلك بتربية عميل مزدوج الولاء.

أقام عادل عند سوسو، لثلاثة أشهر لم ينزل من البيت. أتى بطفله محمد وزوجته الليبية فاطمة، منذ البداية قيل محمد ابن عادل لأميرة بنت سوسو. والطفلان قاما بدعم هذه النبوءة. لقد أبديا اهتماماً ملحوظاً ببعضهما البعض، وكل شيء تحت عيون الأب والعم والمرأة. عادل كان يتعافى تدريجياً من رحلته الطويلة، بالسجن وبليبيا وببيت حمادة. امتلأ جسمه قليلاً ورتت الدماء في وجهه، ولكنه أبداً لم ينس الهدف الذي لأجله جاء هنا. أن يكون عيناً على أخيه. نصيحة حمادة له كانت أن ينشغل بتدعيم مركزه في البداية، ألا يلفت الأنظار إليه. ومع الوقت، سوف يطلعه أخوه على أعماله. وهذا ما حدث. إيمان سوسو المطلق بعائلته كان يدفعه للشد من أزر أخيه، اصطحابه معه في رحلاته المتكررة إلى الجبل والوردبان، وحتى إلى مطروح نفسها. عادل كان صامتاً أغلب الوقت. يراقب ويتعلم ولا ينطق. فقط بعد ستة أشهر من بداية إقامته عند أخيه التقى بحمادة في قهوة بدمنهور، بعيداً عن جميع العيون. قال له يا حمادة الوضع كذا وكذا واقتحام المنطقة سيتطلب واحد واثنين وتلاتة وهكذا. وحمادة كان يريه مشاهد فيديو لابنه التقطها على موبايله. الطفل يعيش في نعميم ما بعده نعميم. ولكن أي غدر سيدمر كل شيء. كل شيء يا دولة. مش هاتكرها، رُوح دلوقتي.

حماية هذه المرة كان واثقاً من الانتصار. استرد صحته وخف وزنه الذي كان قد تضخم إلى أبعاد غير مسبوقة. علق الزينات في منطقتيه وأمر بإعادة طلاء تمثال فرخة الكرنيتينا.

في الحقيقة، فإن هذه الفرخة كانت أكثر من تمثال. لقد تحولت حولها آمال وأحلام أبناء المنطقة لسنوات طوال. تم بناء الفرخة في أيام الازدهار، وقتها لم تكن هناك إلا كرنيتينا واحدة، لقائد وقائدة واحدین. بدت الفرخة وقتها عفية، ناظرة إلى أعلى، منطلعة للمستقبل، وكثيراً ما كانت تداري بجناحيها عشاقاً يسيرون متشابكي الأيدي في طريقهم للكازينو، وبيضاتها الأربع كانت تحمل أسماء تتغير كل يوم. كل من يرغب في تسجيل اسمه في تاريخ اسكندرية كان يكتبه على واحدة من البيضات. بدت كتابة الاسم هنا وكأنها نوع من توق المرء لأن يتم الاعتراف به، وتوق الحبيبين لأن يتم الاعتراف بحبهما. تصدرت صورة الفرخة المحتضنة لبيضاتها صفحات الجرائد لدى الحديث عن كرموز أو عن الكرنيتينا. لقد اجتمعت حولها أحلام الثوار وآمال الصبيين. ولكن الوضع اختلف الآن.

تحت وطأة السيول المتلاحقة سنوياً على الإسكندرية فلقد تشقق التمثال وسقطت بعض أحجاره. بدأ هذا رمزاً لزمان يتساقط أبطاله الواحد تلو الآخر. والفرخة، التي طالما شهدت صعود الثوار عليها لمراقبة عربات البوليس القادمة، ولبعض تبادل النيران من فوق جناحيها، نفضت عن نفسها كل هذا الزمن برموزه. نادراً ما يكتب الآن أحد على بيضاتها شيئاً، كما أن مظهرها الذي تحول للكتابة مع الأيام لم يعد يشجع أحداً على اتخاذها رمزاً. فأروق كان هو أول من لفت نظر حمادة لهذا. قال له مشيراً إلى رأس الفرخة: "الفرخة باصة لتحت شوية يا حمادة"، وهو التصريح الذي كان أكثر من موجه بالنسبة

للأخير. جاء هذا التصريح في أعقاب مذبحة الرسم، في أعقاب مقتل زوجة حمادة وصهره ورجاله. اعتبره وقتها حمادة سخرية مضمرة منه. كانا يجلسان على القهوة، التفت له حمادة، تصعد إليه يا فاروق، ولم يرد فاروق. فجأة عاودت حمادة نوبات الهستيريا التي طالما انتابته زمان. رفع الطاولة الحديدية وضرب بها فاروق في وجهه، ثم شاط حذائه بعنف في خصيته، زار بصوت هادر، وعزة جلالة الله يا فاروق الخول لو قلتها ثاني أنا هاقتك، هاقتك يا فاروق، هاقتك.

ولكن فاروق ممة حق. هكذا فكر حمادة وهو ياوي إلى فراشه تلك الليلة. الفرخة تنهار فعلاً، وربما كان تطاول أبناء المنطقة عليه وعلى أبيه وأمه حدث من جراء هذا الانهيار، الرمزي والواقعي. لأيام طويلة فكر حمادة في إعادة طلاء الفرخة وترميمها. ولكن تلك الأيام لم تكن هي أيامه الأفضل من الناحية الاقتصادية. سأل أباه عن هذا فقال له أبوه مافيش فلوس، ومش هاتيجي فلوس، سأل أمه فقالت له باباك عاوز يقتلني يا حمادة، إنت لازم تحميني. ظل حمادة في هذا الغلب حتى مجيء عادل وبدء تشغيله عيناً على سوسو. وقتها امتلأت قلوب الجميع بالأمنيات في مستقبل مزهر سيأتي سريعاً. وأصبح الآن ممكناً الحصول على قرض من البنك بضمان العمارة. وبدأ العمل بالترميم.

واحد من العمال الذين أتوا لطلاء الفرخة كان غريب. شاب مخلص، مستقيم، يحفظ التاريخ جيداً ويردده ناشئاً على مسمع الرجال. المقصود هنا هو التاريخ السليم، التاريخ بحسب علي وإنجي لا بحسب سوسو ومنة الله. يوماً كان حمادة يمر على الرجال فيجده يحدثهم عن أيام زمان والخير الذي كان في أيام زمان. اقترب منه حمادة، سأله مانا يعرف عن علي وإنجي فقال له غريب بحماس إنهما شابان سكندريان قاما ببناء جامع وسبيل للفقراء ثم ماتا. ولذلك

كل الناس تحبهما وتدعي لهما. انبسط حمادة بالإجابة، فحتى وإن عازتها بعض الدقة التاريخية، فهي تشهد على وجود جيل جديد يمكن استثماره في إعادة بناء إمبراطورية الكرنطينا التي كانت يوماً. قام بدعوة غريب على شاي يشربانه في القهوة، وفي القهوة أتى فاروق والشيخ محمد.

لم ينقطع حديث غريب طول القعدة، أما حمادة وفاروق والشيخ فقد بدوا مسحورين بحديثه. قال غريب إن الزمن القادم هو زمن حمادة. هو يعرف هنا لأن أباه قال له هذا، وأبوه يعرف هنا لأن أباه أخبره بهذا، هذه هي سنة الحياة. قد يزول العز للحظة، للحظتين، يا أخي قول ثلاثة، ولكن دائماً ما يعود الأصل لصاحب الأصل. طبطب حمادة على كتفه. في نهاية القعدة طلب غريب أن يدفع هو الحساب تعبيراً عن امتنانه لكونه التقى بحمادة نفسه، ولكن حمادة رفض، وألح غريب، وألح حمادة في الرفض. سأله غريب عن السبب فانتحى به جانبا، وقفا بجانب مbole القهوة. وطى حمادة على أذنيه وهمس له، شوف يا خويا، هنا المعلم صاحب القهوة مش هيصق إنك موجود، ممكن يبقى شايفك بعينيه بس هيكابر ويقولني لأ، صاحبك دا مش موجود وانت متخيله وكدا، دي هتبقى ف وشي انا يا صاحبي، مش كدا؟ ابتسم غريب باقتناع، وطبطب على كتف حمادة. في هذه اللحظة مر المعلم صاحب القهوة. نظر إلى حمادة وقال له بسخرية، بتكلم نفسك يا حمادة؟ لم يلتفت حمادة له، همس لغريب مبتسماً، مش قلتلك، جالك كلامي دلوقتي؟

الجديد هذه المرة أن غريب لم يختف من أمام حمادة. ابتسم بفران وعاد الاثنان معاً إلى جلستهما. بعد قليل فقط سيكتشف حمادة أن صاحبه الجديد

اختفى، لم يعد موجوداً. سبّال نفسه متى مشى، ثم سيواصل حديثه مع فاروق والشيخ محمد.

بعدها بأيام اختفى علي. لم يعثر له أحد على أثر. لف حمادة على جميع المستشفيات ولم يتم العثور عليه. إنجي كانت راقدة على السرير في البيت تعاني نوبة برد حادة وتنظر كل دقيقة لتليفونها المحمول. عاد حمادة لها في الثانية بعد منتصف الليل يخبرها ألا أثر له. لاحظ دمواً نزلت من عينيها وبللت اللحاف. قالت إنجي والنبي يا حمادة شوفهولي فين يا حمادة. أنا عيانة أوي يا حمادة. وعطست عطسة ضخمة سال على إثرها مخاط بلل اللحاف هو الآخر.

في صباح اليوم التالي رن التليفون في البيت. سال المتصل إن كان هذا بيت علي محمد سيد، فأجاب حمادة بالإيجاب. الصوت الآتي من الناحية الأخرى بدا متردداً. قال إن علي قد تم العثور عليه غرقاناً في ترعة المحمودية. أملى العنوان على حمادة، وركض هنا إلى العنوان المذكور. هناك شاهد جثة أبيه. بكى قليلاً وكلم أمه.

مرت أيام الحداد سريعاً. الشتاء يومه قصير وليله للنوم. فيما بعد، ستمحى هذه الفترة نهائياً من ذاكرة حمادة، سيتذكر تفاصيل مقناثرة، مثل العزاء الذي لم يحضره سوى قلة، على رأسهم فاروق وغريب والشيخ محمد، سيتذكر عراقاً مع المقرئ حول أجره الذي يطلبه، سيتذكر ليلة طويلة سهر فيها، وكان المطر يهطل بالخارج بضراوة، وأمه جالسة على الكنبه تعطس وتشغل بلوفرأ من التريكو وتساله فجأة، حمادة، إنت فاكرني هاموت دلوقتي، صح؟ لا يرد حمادة. حمادة، أنا مش هاموت دلوقتي، خلي بالك، والبيت مش

هاتورثه يا حمادة. إنت هاتموت وأنا هافضل عايشة. والببت دا هيفضل باسمي
لحد آخر ثانية ف عمري.

تفصيلة أخرى من هذه الأيام يتذكرها حمادة بكل وضوح: رفع الستار عن
تمثال الفرخة بعد أن انتهى طلاؤها وترميمها من جديد. يتذكر حمادة هذه
التفصيلة بدقة بسبب جملة انطبعت في رأسه عن الأحداث الثلاثة المتزامنة،
موت أبيه وافتتاح الفرخة وزرع عادل داخل إمبراطورية سوسو. تأمل حمادة
هذا وقال ببطه: شيء يموت وشيء يولد وشيء في طور التكون. هذه حكمة
الحياة.

لا شيء يعطل أهل الكرنطينا عن الوصول لهدفهم. حتى في عز الظلم والموت
والدمار. لا ينشغلون عن إعادة البناء. قديماً قال توفيق الحكيم: "احترسوا من
هذا الشعب، فهو يخفي قوة نفسية هائلة"، والآن يحقق أهل الكرنطينا هذا
الدرس القديم بأجسادهم. طول الوقت، حتى في أيام الحداد الباردة، كان حمادة
يلتقي بعادل أخي سوسو، في محافظات أخرى بعيدة، دمنهور وطنطا مثلاً،
وعادل لا يبخل عليه بأية معلومات يحتاجها. كان يمدّه بخرائط المنطقة وأسماء
الرجال وطبايعهم، وبنقاط الضعف في القلعة الحصينة التي بناها سوسو عند
كويري غيظ العنقب.

يجدر بنا أن نتساءل عن مشاعر عادل في ذلك الوقت. هل كان ذلك الفتى
الذي ذاق مرارة الغربة والحرمان والسجن وملاحقة البوليس ينظر إلى نفسه
بوصفه خائناً، خائناً لأخيه في المقام الأول، ولكن أيضاً خائناً للشخص الذي
استضافه في بيته وقام بإيواء زوجته وطفله؟ في الحقيقة. يصعب العثور على
دلالات مباشرة لشعور مثل هذا لدى عادل. لدينا فقط إشارات متفرقة. عادل

وهو يحشش مع سوسو ليلاً ويقول له بهمس، لو مت ابقى سامحني يا اخويا. يسأله سوسو يسامحه على مانا فلا يرد. عادل إنسان، يشعر بعذاب الضمير ولا يرضى بأن يخون بدأ امتدت له في لحظة ضيق، ولكنه أيضاً أب قبل أي شيء، أب لديه ابن محبوب ومعرض للقتل إن هو رجع عن تنفيذ مهمة ارتضى على نفسه في لحظة ضعف أن ينفذها. قال عادل لسوسو سامحني يا اخويا، واشتعلت لمبة حمراء في ذهن الأخير.

في يوم آخر، غلط محمد ابن عادل أمام سوسو، تحدث عن بيت حمادة من جوا. سأله سوسو أين رأى بيت حمادة من جوا، فغير عادل الموضوع. في يوم ثالث، كانت فاطمة زوجة عادل تتحدث مع منة زوجة سوسو، وقارنت بين الأنتريه في بيتها والأنتريه في بيت إنجي. نقلت منة الكلام لسوسو. الأخطاء كانت تتوالى، وسوسو إنسان ذكي.

في أيام سريعة استطاع سوسو تأمين مدخل الكريبتينا الخاصة به، وتبديل مواقع رجاله. وتكليف أحد معاونيه بتتبع خط سير عادل بدون أن يشعر الأخير. قدم الرجل تقارير لسوسو عن لقاءات تتم بين أخيه وبين حمادة في كفر الدوار. في هذه الأيام أكثر سوسو من الصلاة. كان كمن يستعين بربه على هذه الأيام الرهيبة، التي أتت والتي لازالت ستأتي. لأكثر من مرة بكى في حضن منة زوجته ليلاً، لأكثر من مرة ردد على مسامها بشكل محموم، أخويا بيخوني يا حاجة. أخويا، ابن ابويا، باعني للشيطان. وهي كانت تسمح دموعه بيديها. بدا وهو يسير في المنطقة، بزكته الخفيفة، والتي تحولت إلى ما يشبه العرج الواضح بساقيه، وبشاربه الخشن الذي ابيض، ويتجاعيد وجهه المتكاثره، وكأنه كبر عشرات السنوات. لم يعرف أحد ما الذي ألم بالعلم سوسو. العلم

سوسو، رابع الثلاثة سين ومحقق ما فشلوا في تحقيقه وصانع الإسكندرية الجديدة، كان يعاني ألماً هائلاً، لم تعرفه إلا منة.

•••

بعد رفع الستار عن التمثال المرمم لفرخة الكرنيتينا، فوجئ أهل المنطقة، في الأسبوع التالي، بالبيضات الأربع ملوثة بالدم.

تساءل الجميع عن مصدر الدم، حتى وإن تم تنظيف البيضات بسرعة، وإن تمت إعادة الفرخة إلى نقائها الأصلي، فإن السؤال ظل مطروحاً. بعد يومين عرف الجميع مصدر الدم. تم العثور على رأس عادل مقطوعة وملقاة بجوار الفرخة، وعلى إحدى بيضاتها مكتوب بالدم بخط واضح "سوسو: ٢-١-٢٠٤٤". وآها أحدهم فسارع بإبلاغ حمادة. نظر حمادة لها وارتج بداخله. رسالة سوسو إليه كانت واضحة. جن حمادة. فقد أعصابه، صرخ في الهواء الطلق وتحتمت الأمطار "كفأالية"، وركض نحو البيت. إنجي نائمة وبارا ولا را تبكيان، وبيكي معهما أحمد ابن عادل. لم يعرف ماذا يفعل. كان يصرخ ويخبط بقبضته على الجدار، وتظهر أمامه أشكال كثيرة لأشخاص كثيرين ثم تختفي. أيقظ أمه بالعافية وبكى في حضنها، وهي تعطس وتمسح أنفها. فكر في إلقاء نفسه من فوق سطح العمارة، كما سبق وأن ألقى أبوه نفسه في عمق الترعَة. ولكن أشخاصاً آخرين ظهروا لإثنائه عن الفكرة ثم عاودوا الاختفاء. بعد ساعة كاملة هدأ. ظهر الشيخ محمد فاستكان حمادة. نزلاً معاً إلى القهوة. في الطريق قال له الشيخ لا تحزن يا حمادة، لم يكن من أهلك ولا ناسك، كل ما في الموضوع أن الحرب تأجلت قليلاً. نظر حمادة له وابتسم. أصبح أكثر وأكثر هدوءاً وهما يجلسان على القهوة. لم يتكلم حمادة لدقائق طويلة. تذكر شيئاً فابتسم. وسأله الشيخ لماذا تبتسم. رد حمادة، تلعب بنك الحظ يا شيخ؟

يلعبان مع بعضهما الآن، أوراق البنكنوت حولهما، والشيخ محمد يحتل مدينة، وحمادة يحتل اثنتين، والشيخ يوجر جراجاً، فيوجر حمادة سوقاً، وعلى صوت الزهر الذي يلقيانه على اللوح، يبدآن في التخطيط للجولة الجديدة ضد سوسو.

أنا قتلت ابن أبي، أنا قتلت ابن أمي، أنا خنت أبي وأمي وروح أخويا الطاهرة. أنا أستطيع أن أسامح حمادة لأنه قتل رجالي أو حاول أن يقتلهم بمعنى أصح، ولكني لن أسامحه أبداً لأنه جعلني قاتل. أنا قتلت ابن أبي، أنا قتلت ابن أمي. كان هذا ما كتبه سوسو بدفتر يومياته في تلك الأيام. في ورقة أخرى كتب: -لا أحد كسبان في الحرب. كل الناس خسرة-.

القاهرة هي عاصمة مصر.

بعد كل حلقات الصراع التي شاهدناها على مدار العقود السابقة، بعد شلالات الدم المتدفقة، بعد البطولات والخيانات والنضالات، بعد التاريخ الجديد والقديم الذي كُتب، والتاريخ الجديد والقديم الذي مُحي، بعد كل هذا ظلت القاهرة عاصمة مصر، لا الإسكندرية.

إن السكندري يا أخي يتهمب شينين، القاهرة، والآلة الحاسبة. يمكن القول إن السكندري، قبل ظهور علي وإنجي في حياته، وبعد ظهورهما، لم يتخل عن حلمه القديم، أن تعود الإسكندرية، مدينته الحبيبة التي تحتضن العالم الحر في الشمال، لتكون هي العاصمة، كما كانت في أيام مجدها الغابر، لا القاهرة.

لا يمكننا فصل هذا الحلم عن احتضان السكندريين لعلي وإنجي في العقود الأولى لوجودهما بالثغر. كما سبق وأن أشرنا، فإن هذا الظهور قد صاحبتة نبوءات وبشارات بعودة المجد القديم لأصحابه. ولكن الأيام مرت، وتولت الحكم في مصر أسرة جديدة جاهلة، لا تقرأ التاريخ ولا تعبا بثقافة المكان. الأسرة الجديدة، المكونة من أخ أكبر يطمح لتوريث الحكم لأخيه الأصغر. لم تهتم إلا بصراعاتها الداخلية في أماكن سكنها بالشيخ زايد، ولم تر، أو أنها تجاهلت رؤية. التاريخ الجديد الذي كان يولد في الإسكندرية. كل هذا ولد

إحباطاً لدى المواطن السكندري العادي. يقول عم مصطفى، بائع بطاطا على الكورنيش، لجريدة "صوت الشجر" التي صدر أول أعدادها في بداية ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين: "إحفا يا أستاذة عايشين زي الأرزقية، لا حد بي فكر فينا ولا حد بي سأل علينا، وطول الوقت عمالين نقولو اسكندرية اسكندرية، لكن الواقع ماحدث مستعني يكلمنا ولا يقولنا هانديكو حتى كرسي في مجلس الشعب"، أما محمود رجب ريحان، وهو بائع سمك في بحري، فيقول لجريدة "بحر ونورس": "إحنا كشعب عايش في اسكندرية، إحنا نعتبر شعب غلبان، لكن الخوف إن الغلبان مايقالوش مكان، أقول لحضرتك ليه، لما حضرتك تاخدي بالقلم مرة واتنين وتلاتة، مش اللي قدامك هيعتبر إنك كإنسانة، لامواخذة ماتزعليش مني، مالكيش لازمة، وهيفضل يديكي بالقلم كل شوية". الصور الملحقة بالتحقيق الصحفي كانت لصخور الكورنيش المكتوب عليها: "عايزة ثورة يا بلادي".

في منتصف الأربعينيات صد عدد ممثلين إلى صدارة المشهد الفني في مصر. سهير نجيب كانت هي النجمة الأولى، لقبها هو "الزعيمة" تيمناً باللقب الذي أطلق على نجم السينما القديم عادل إمام. وجوارها برز عدة نجوم شباب احترقوا آباء الأنوار الكوميديّة، محمد بخيت وأيمن عبد الحميد وسلامة. أطلق على هذه الظاهرة ظاهرة "المضحكين الجدد"، واعتبر النقاد أنهم يكرسون لعصر من الانحطاط بإفبهاتهم الصارخة ذات المنحى الجنسي في الغالب. حتى سهير نجيب تنازلت عن أنوارها الميلودرامية التي رافقت ظهورها في العشرينيات، وانجرفت في تيار سينما الشباب. كتب أحد النقاد وقتها يتساءل: "هناك عصر جديد يظهر، عصر بلا ملامح. فهل سيكون هذا الانحطاط هو الذي سيتربى عليه أبنائنا في المستقبل". لا يمكننا فهم دلالة هذا

من دون الإشارة إلى حقيقة مهمة، فهؤلاء الممثلون، نجيب وبخيت وسلامة وعبد الحميد، جميعهم أتوا من أصول سكندرية واضحة، ومن أحياء لا يمكن التشكك في "سكندريتها"، رشدي وباكوس وسيدي بشر وبحري وغيرها. هذه الظاهرة التي صرخ بسببها واحد من رؤساء التحرير قائلاً في افتتاحية مجلته شهرية: "السكندريون يغزون مصر، بانحطاطهم الشديد".

إن، على عكس ما كان يفترض أن تؤدي هذه الظاهرة إليه، أي تحول مركز الحياة المصرية إلى الإسكندرية، فلقد ساهمت الظاهرة في النقيض، أي ظهور موجة من العنصرية ضد الإسكندرية والسكندريين، ومحاولة التضييق على أي من يخرج منهم إلى القاهرة. شخص وقع باسم جمال الدولي، وإن كان أكيداً أنه ليس هو، كتب على جدار ترام الإسكندرية قائلاً: "بعد الشيوعوفوبيا، والإسلاموفوبيا، هناك الآن الأليكسوفوبيا". ووضع علامة (: بجوار عبارته تلك.

لا يمكننا في الحقيقة فصل صراعات سوسو وحماة عن هذا التيار الجديد من الكراهية العمياء ضد كل ما هو سكندري. في الواقع، فلقد تم في الصحف استغلال صراعات الكرنيتها لإبراز همجية السكندريين. شيء ما على غرار، انظروا، هؤلاء هم شعب الحضارة الإغريقية والتفتح، شعب خالد سعيد والثورة والمليون الشهيد، إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، والشرطة تقف عاجزة. حتى المواطن العادي، المواطن الذي لا تحركه حسابات سياسية بعينها، نظر إلى الإسكندرية في تلك الأيام وكأنها غابة كبيرة لا يعيش فيها إلا المجرمون المتوحشون. قلّ بشكل ملحوظ عدد المصطافين بالمدينة، وبالتالي فلقد أغلقت مقاه كثيرة كانت تعيش على السياحة الداخلية، كل هذا، مع إهمال المحافظين للمدينة التي أخذت القمامة تتكوم بشوارعها يوماً بعد يوم، والتي تزايدت فيها

جرائم القتل الوحشية، ومع هجرة الكثير من السكندريين خارج مدينتهم. إلى القاهرة ولكن أيضاً إلى مدن أخرى، مثل دمنهور وبينها والقليوبية وحتى إلى مدن الصعيد، كل هذا أدى إلى النتيجة التي افتتحنا بها كلامنا هنا: بعد كل الأحلام العريضة، فإن القاهرة لا تزال هي العاصمة المصرية. وكان هذا محزناً جداً.

•••

يمكن للبعض بالتأكيد القول إن سوسو لا يختلف جوهرياً عن علي. مثل علي، فلقد بنى سوسو إمبراطورية كبيرة، ومثلما اعتمد علي على نشاط غير مشروع -قانوناً- وهو البغاء، فلقد اعتمد سوسو على الإتجار بالمخدرات، ومثلما تم تعميده علي بقتله لأخيه مصطفى، فلقد تعمد سوسو بقتله لأخيه عادل. شيء واحد كان يختلف بين كليهما: سوسو لم تكن لديه أحلام قومية بخصوص الإسكندرية.

سوسو، الذي لم يكن إلا ابن سوق يريد النجاة في عالم رأسمالي متوحش، وتأسيس تجارة ضخمة، لم يعن أبداً مثل سابقه بافتتاح عصر جديد في الإسكندرية. وحتى قصص سيد وسيكا وسلطان التي أعاد إحيائها، لم تكن إلا حيلة لمواجهة قصة جبارة أحيائها علي، قصة الشهيد حربي. على العموم، فنحن لا ندعي الموضوعية. ليست هناك موضوعية في العالم. نحن نتحدث عن التاريخ من وجهة نظر علي وانجي. نحن منحازون لعلي وانجي.

بعد مقتل أخيه بايام، بدأ سوسو يخطط لخبطته الأقوى، اقتحام كرتينة حمامة، قتل إنجي وقتل حمامة والاستيلاء على التركة الجبارة التي كانت أصلاً، هكذا يرى، من حقه هو وزوجته. دبر سوسو رجالاً من كل مكان، وحصل على سلاح يكفي لتفجير الإسكندرية كلها، الصراع الآن يصل إلى حده

الأقصى، وبعد أن دفعه حمادة لقتل أخيه عادل، لم يبق مكان للصبر ولا التسامح. دقات قلب كرموز تتسارع. الساعة تدق، والحسابات تقوم بالحساب.

•••

حمادة لا يفقد الأمل، بين الرجال الجدد الذين يعاونون سوسو الآن، زرع حمادة شخصاً ينتمي له. مع الوقت، وعدم انكشاف أمر هذا الشخص، زرع شخصاً آخر. وشخصاً ثالثاً. لم يلتق بهم هذه المرة. كلف رجاله بالالتقاء بهم، وفي محافظات بعيدة تماماً، القاهرة وبني سويف والمنيا على سبيل المثال. الآن جميع المعلومات حول سوسو كانت في يديه، ولكن ما الذي تجديه المعلومات، إذا كانت كلها انتهت إلى نفس النتيجة الكئيبة: لا يمكنك الآن يا حمادة أن تقتحم كرينتينة سوسو، والأخطر من ذلك، سوسو يخطط للهجوم على منطقتك، ولن تستطيع حياله شيئاً. لدى سوسو الآن سلاح بالهبل، لديه عربات مدرعة، ولديه، كما تناقل الناس وقتها، طائرة هيلوكوبتر. جواسيس حمادة اكتفوا بالتأكد على الميعاد الذي سيتم فيه دك الكرائنتينا، وعلى حمادة أن يجلس مثل الولايا في انتظار قدر ربنا.

في هذه الأيام، انشغل حمادة بأمر مهم، بالأمر الأهم في حياته. بعد أن جرب طريق الفن، وبعد أن جرب طريق التصوف، ولم يجد فيهما الشفاء لروحه الحائرة والمعدبة، انشغل بمشروع أخير سيقدر له أن يحتل المساحة الباقية في حياته: الوصول للحكمة.

في انتظار الهجوم الكاسح لسوسو، صار حمادة يجلس يوماً على سور تمثال الفرخة. يتشمس، هكذا بدأ، ولكنه في الحقيقة لم يكن يتشمس. كان يحاول الوصول لسر الوجود. لم يتحرك حمادة من مكانه لأيام طويلة. تلقى زخات المطر على رأسه بالليل وهبات الريح الماقعة بالنهار. وجهه موجه

دائماً باتجاه الفرخة، ينظر للأسفل، حيث صحن التمثال ملين بماء المطر، يتطلع إلى الدينان التي تسيح في الماء، يتساءل إن كانت سحكاً أم بسارية. يتساءل عن حياة كل بسارية منها، ويحاول الإصغاء إلى الأصوات المختلفة للوجود. بنا وكأنه قد كبر عشرات السنوات، هو الذي بالكاد بلغ الأربعين. نبتت لحيته، وبدأ يخس بشكل سريع. كان جسمه ينصهر.

كانت هذه هي أكثر فترة في حياته شرب فيها الخمرة. كان يصعد إلى البيت مرة واحدة في اليوم، يحمل ثلاث أو أربع قُرص وقزازه مية وقزايير البراندي والويسكي. وينزل. يتخذ موقعه على سور صحن التمثال. يفتح كيس القرص ويبللها قرصة وراء الأخرى بالماء ويبلعها. ثم يبدأ في عبّ قزايير الخمرة، وعندما تنتهي يرسل واحداً من العيال في المنطقة لكي يجلب له أخرى. ينظر إلى الماء ودينان الماء. طول الوقت ينظر إلى الماء ودينان الماء أسفل قدميه. ويفكر. من أجل الوصول للحكمة لا بد من التأمل، وحمادة لم يكن مقصراً، كان يتأمل كل نرات المياه أسفل منه. يا هلترى هذا الدود له حياة مثل حياتنا، ويا هلترى هل هناك ناس أكبر منا ينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى هذا الدود، يضحكون علينا ويستخفون بنا ولا يهتمون بقصصنا. ويا هلترى هل ممكن أن ننظر نحن إلى أنفسنا كما ننظر إلى الدود، يعني، هل ممكن أن نعرف بنفسنا الحقيقة التي عرفتها الكائنات الأكبر منا؟ نحن دود، قالها حمادة، جرع بق براندي، وأطلق بشفتيه صغيراً قصيراً، ثم عاود النظر إلى الماء.

من بعيد، سهبو حمادة وكأنه واحد من الشحاذين فاقد العقل المنتشرين في كل مكان وزمان، بملابسه المهيبة ولحيته السوداء النتنة وشمرة الطويل الذي بدأ يثمر عن حشرات ترعى على قفاه. يأكل عند الفرخة ويشرب عندها وعندما يحتاج للتبول يقف ويخلع البنطلون ويخرج مئانته ويطرطش بها على الماء.

ولكن كل هذا ليس إلا المظهر فحسب، وإن كان الوصول للحكمة ثمنه أن يبدو المرء مجنوناً، فما أرخص الثمن. يقول حمادة. من مكانه هذا، كان يشير للعيال الصغيرة، في البدء كانوا يخافون، ثم أخذوا يقتربون شيئاً فشيئاً، ويحدثهم حمادة عن الماء وعن الفرخة وعن الدنيا. قال مرة لواحد من الأطفال. هذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكرُ، قول إنك يعني إيه. لم يرد الولا. نظر حمادة للأسفل طويلاً ثم قال. يعني هذه الدنيا، الدنيا اللي احنا عايشينها، كتاب، وإنك فيه الفكر. قام نصف قومة ليعدل جلسته، والولا لم يحرم نفسه من هذه الفرصة، بعينه بسرعة ثم هرب.

لأجل اتقاء موقف كهذا، ولأجل اتقاء أمواج العيال التي تقذفه بالطوب وتضحك عليه طول اليوم، سعد حمادة يوماً إلى بيته، لم يكتف بالقرص وقزارة المية التي يأخذها كل مرة. عرج على الكنية بغرفة النوم. فتح الصحارة وأخرج منها الطهنجة، ونزل الشارع. في البداية، كان يطلق ناراً في الهواء عندما يتجمهر العيال حوله. ولكن ذات مرة استفزه عيل منهم ولم يهرب. أطلق حمادة طلقة ثانية في الهواء، وظل الولا واقفاً بسماجة أمامه. حينها شد حمادة الأجزاء وأطلق النار على كتفه. صرخ الطفل وركض بعيداً. أما حمادة فقد جرى إلى البيت. أخرج مدفعاً آلياً من تحت الصحارة ونزل به. وأمام الأهالي الغاضبين لإصابة ابنهم وقف مشرعاً مدفعه الآلي ومهدداً بقتل كل من يقرب.

تعلم حمادة من هذا اليوم درساً مهماً، صحيح أن الحكمة قد تكون كائناتنا ذا عقل راجح، ولكنها ذات جسد ضعيف. الحكمة تحتاج دائماً لمن يدافع عنها، لمن يدافع عنها ويتمكن من إيصالها للناس. تحت تهديد مدفعه الآلي، استطاع حمادة قيادة عدد من الأطفال إلى قمده عند الفرخة ليحدثهم عن الحكمة والوجود وعن الموت وال الميلاد. الآن يتكلم ببطه كمن وصل إلى الحقيقة، يؤكد على

كل كلمة، ويفكر كثيراً قبل النطق. ولا ينظر في عين محدثه وهو يتكلم، وإنما إلى البسارية السابحة في الماء. يصيح على الدوام جملًا قصيرة على شاكلة، المال يزول، لكن الأخلاق تبقى هي تاج الإنسان، أو الطائر له جناحين، أما الحب والرضا بالنصيب فهم جناحين الإنسان. أو النجاج لا يأتي صدفة. كان يلقي بالقول ثم ينظر بطرف عينه إلى الأطفال الجالسين أمامه ويتم على سلاحه ثم يعاود النظر في الماء. بعد قليل يرفع رأسه ويطلب من الأطفال فهم هذا الكلام جيداً لأنه سيألمهم فيه في اليوم التالي.

أول مدرسة في العالم لتعليم الحكمة، هكذا نظر حمادة إلى نفسه في هذه الأيام برضا. ولأنها مدرسة للحكمة، فالنهج التعليمي فيها مختلف. لم يكن حمادة يسأل الأطفال عما قاله لهم بالأمس، وإنما عما فهموه من حكمة الحياة على مدار يومهم الماضي، وكل واحد كان يتطوع، وحمادة يتم على سلاحه ويبتسم. ولكن الأطفال، الذين كانوا في البداية خائفين من السلاح، سرعان ما عادوا إلى استهزائهم القديم به. قرر حمادة يوماً أنه يحتاج لإعادة فرض سلطوته. سأل واحداً من الأطفال عن الحكمة التي تعلمها امبارح في حياته، فقال الطفل إنه تعلم أن الزعل وجش. أطرق حمادة قليلاً، اعتبرها إجابة خاطئة، وأخرج المدفع الألي وأطلق رصاصة على رأس الطفل. مات الولا.

الأيام القادمة ستكون أياماً صعبة. قتل طفل لم يعد أمراً سهلاً كما كان أيام زمان. أحاط حمادة جلسته بأنابيب البوتاجاز. حمل طبنجة في جيبه الخلفي وسلاحاً ألياً في ذراعه، وصار يكب البنزين كل يوم في صحن التعمثال، لتهديد كل من يقترب منه بإحراق المنطقة كلها، أنا مابقتش باقي على حاجة، بس اللي قدامي باقي، وباقي أوي كمان. الآن يجلس في قلعة حصينة. في النهار يطلع خارجها، يسحب عيلاً أو اثنين أو ثلاثة، وتحت تهديد السلاح يسوقهم أمامه.

يفتح باباً في دائرة أنابيب البوتاجاز. يدخلهم. يفلق الباب. يجلسهم حوله، ويمضي في تأمل الوجود، صامتاً، مهموماً، مغرقاً في التفكير. وعندما يسأله أحد من الأطفال عما يفكر فيه، يشير إليه أن يسكت. ويقول بعد قليل بنبرة بطيئة شيئاً على غرار: "الدنيا دي بقت مش ممكن خلاص". ثم يلتفت إليه ويبدأ في تفصيل كلامه، مع فواصل زمنية طويلة بين كلمة وثانية. ذات مرة قال فقرة واحدة في سبع دقائق ونصف كاملين. الفقرة كان نصها:

"قلتلها ياما إنتي مش قد الناس دول. خافي منهم. دول ناس كبار وإنتي طلعتي ولا نزلتي حتة شرموطة بخمسين جني. بس هما ولموا البنزين. وبعثوا راسها في علية، هنا، في الحقة دي، تحت رجلي. انت ماجيتش ليه يا فاروق. ولا انت يا شيخ محمد؟ هو إنتو مابتجوش ليه، مش تبقوا تيجو؟! خيارارارية. هيهيهي. فيه حاجات كتير انا مابتقتش نقدر عليها خلاص. يعني الصراحة انا كنت تعبان شوية، تعبان نفسياً يعني، بس دلوقتي أنا بقيت حلو، ماغنقتش تعبان نفسياً زي زمان. بس انا الدنيا قالتلي عافر فيها وانت تعبان كدا. وهو دا اسمه كلام؟ وهو دا يعني ينفع مثلاً؟"

لم يأكل حمادة إلا أقل القليل في هذه المرحلة، فقط كم قرصة بالجبنة كل يوم، مع بحار من الخمرة المضروبة. يشرب من أول النهار حتى نهايته. في بداية النهار، على العاشرة أو الحادية عشر صباحاً، يكون كلامه سناً. مع تقدم الوقت، يبدأ في إمالة رأسه على كتفه ويغمغم. يسأله واحد من الأطفال عما يقول فهوائل الغمغمة، ثم يرفع رأسه ويقول مثلاً: "كل الناس حلوين، ف عينيا حلوين"، ثم يركن رأسه على كتفه، أحياناً ما يقيء بسرعة في صحن التمثال، ثم يواصل إغلاق عينيه. فقد الكثير من وزنه في هذه الأيام. تبقى له فقط وجه مستدير، ثديين شبه بارزين وكرش صغير. وطول الوقت كان يهرش

في عانته وإبطه. ويغمغم بالجملة التي كانت سابقاً رنة موبايله: "الرفاق حائرون، من تكون، حبيبتي من تكون".

إنجي كانت تسمع عما يحدث. لم تكن سعيدة. هي أيضاً ابتليت في هذه الفترة بلعنة أن ترى كل شيء. منذ البداية خالص، إلى اللحظة الراهنة. ولكن إنجي قادرة على مواجهة كل شيء، بما فيها الذكريات. هي أيضاً. مثل حمادة، كانت تعرف أن النهاية هي مسألة وقت ليس أكثر. تعرف أن سوسو قادم بدياباته ليديك المنطقة تماماً، ولكنها، على عكس حمادة، لم ترض بالانتظار حلاً وحيداً. نزلت مرة والفجر يؤذن، تتوكأ على عصا وتتغطف بشال سميك. حمادة كان نائماً يشخر عند قاعدة التمثال. فتحت فتحة في دائرة أنابيب البوتاجاز ودخلت، حمادة لا يزال يشخر ولا يشعر بشيء. صغته بخفة على خده حتى يصحو. بدأ يفيق وهي جلست جنبه: "هانت عليك ماما يا حمادة؟ هانت عليك علشان تضحك علينا الناس؟ ما فكرتش ف الست اللي خلفتك وتعبت فيك؟ رائحة ننتة كانت تنبعث من كل سنتيمتر في جسمه، وتنبعث بقوة أشد من عانته، برغم هذا انحنيت إنجي على فخذه. دفنت وجهها في حجره ومضت تتكلم، كأنها تكلم نفسها: "يعني لما انت ابني تعمل فيا كدا، يبقى الغريب هيعمل ايه؟ يا حمادة دا بدل ما تدافع عني وتقول امي ست كبيرة وعاوزاني جمبها، يا حمادة دا بدل ما تراعي ولادك؟ دا بدل ما تروح تزور ابوك في تربته؟ بتوجع قلبي عليك، انا امك يا حمادة؟" كانت تغمغم بهذه الكلمات بصوت منخفض تماماً، وفي نفس الوقت كانت تحاول أن تكشف بأظافرها بقع الوسادة على بنطلونه، تتف تفة على إصبعها وتفرك فيها البنطلون. ولا شيء يروح طبعاً. القمر طالع ومكتمل، والجو لطيف. نحن الآن في الربيع. فجأة يقوم حمادة، يتنتر من جلسته. يصرخ: "اهدي. هاقنتك يا

ماما، هاقتك، وربنا هاقتك. يشهر فجأة مدفعه، ويطلق عدة طلقات متوالية في الهواء. إنجي تنتفض. تجري عائدة إلى بيتها. يلاحقها بطلقاته. تتمكن من الصعود للبيت وإغلاق بابها عليها. حمادة يركن السلاح خلف ظهره ويعاود النوم. بعد قليل يعلو صوت شخيره.

قُتل واحد من رجاله سوسو في خناقة بحري.

حظى هذا الحدث بأهمية خاصة في سلسلة الأحداث المتعلقة بصراعات الكرتينا، ليس لأنه كان وراء اتخاذ سوسو أخيراً القرار باقتحام كرتينة علي وانجي، ولكن لأنه كان وراء قراره بأن ينزل هو إلى الكرتينا، أن يحضر عملية الاقتحام بنفسه، بعد أن كان قد خطط لإيكال العملية كلها لواحد من رجاله. كان الدم يغلي في عروق سوسو، الذي اعتقد أن مقتل رجله بحري كان من تدبير حمادة. قرر الانتقام وقتل حمادة بيديه.

جهز سوسو الرجال والسلاح وانطلقوا. اقتحمت عربتا نقل محملتان بالرجال المنطقة. نزل الرجال منها. تصدت لهم مجموعات ضئيلة ومتناثرة لم تستطع الصمود لوقت طويل. ثم أطل فجأة رجال آخرون من شبايك بيوت الكرتينا، يطلقون النار على رجال سوسو بكثافة. الجحيم اشتعل فجأة. واحد من الضحايا كان بائع فاكهة يفرش بضاعته في الشارع. شاهد أمام عينيه تراقص حبات البرتقال واليوسفندي تحت وطأة الرصاص، وتناثر السائل الحمضي منها وإغراقه جلابيته. تماقظ بعض رجال سوسو، ولكن عربات النقل المحملة بآخرين لم تنته، ومن إحداهما نزل سوسو نفسه. مسبقاً بعدد من رجاله الذين يفسحون له الطريق ويحمونه صعد إلى بيت الكرتينا. دخل على إنجي التي كانت جالسة بجوار أم صلاح الشغالة تراقبان الأحداث من الشباك الموارب.

نظرت إنجي لسوسو، ونظر لها. ابتمت، ماتفيرتش كثير يا ولا يا سوسو. أخفى عينيه في الأرض. تعرف يا ولا، المرحوم كان على طول ف سيرتك، كان يكرهك أوي. هل يفعل الزمن كل هذا؟ يتساءل سوسو وهو ينظر إلى الوجه المتفغن والسافر لإنجي. يتذكر إنجي أخرى، من أربعين سنة، بيضاء وجميلة، بنظارة صغيرة ونصف كلامها إنجليزي. تميل الحاجة عليه بدلع، تتحسس صدره وهي تقول، أصله كان فأكرنى بحيك. يصل إصبعها إلى حلمة صدره فتقرص عليها بخفة، تتأوه كلبوة، تغمز بعينها اليسرى فيتغنض الجلد المحيط بها، تقول، بحيك إيه، هو يا كلام! دانت اخويا الصغير. ثم تنظر إلى عينيه وتبتسم، مالك يا ولا، مش على بعضك ليه يا ولا؟ ينترها فجأة بعيداً، غوري يا ولية يلعن شكلك. يجري إلى البلكوتة. من هناك يرى حمادة نائماً يشخر محاطاً بأنابيب البوتاجاز. يضرب الأنابيب بالنار فتفترج. حمادة الآن في قلب النار. والنار سرعان ما ستلتحم بالبنزين المسكوب على صحن تمثال الفرخة. حمادة، الذي حصن نفسه بالنار والغاز والبنزين لكي يمنع أحداً من التقدم إليه، سيكون مصيره الموت بنفس النار والغاز والبنزين.

يفيق حمادة، في ثوان يستطيع استيعاب كل شيء. يمد يده إلى سلاحه ويطلق النار على سوسو الواقف في البلكوتة. يسقط سوسو من البلكوتة. يجري حمادة، مشتعلاً بالنار المتدلعة من ملابسه، يخترق أنابيب البوتاجاز، ويجر سوسو جراً على الأرض. يرميه في وسط النار. وسوسو يعافر، يجذبه من بنتلونه. حمادة، الذي بدا للحظة وكأنه إله يشتعل. خلع كل ملابسه، بسرعة ومهارة فعل هذا. لم يخف من النار على أصابعه التي تفكك زراير القميص وتفتح سوستة البنطلون. خلع كل ملابسه ومضى بعيداً. صعد راکضاً على السلم. دخل الشقة ومضى يطلق النار بجنون على رجال سوسو المنتشرين هناك.

عرباناً، عرقاناً، ملتحمياً ووسخاً كان يطلق النار على الجميع بلا تمييز. في النهاية، دخل غرفة البننتين الصغيرتين، يارا ولارا، حملهما بيديه، ومعهما أحمد ابن عادل. وضعهم جميعاً بجانب أمه المختبئة في غرفتها مع أم صلاح الشفالة. نظر من البلكونة. لم يصدق المنظر. المعجزة تتحقق أمام عينيه، رجاله يلتقون برجال سوسو في النار. سوسو نفسه جثة متفحمة الآن. إطلاق النار يخف بدرجة كبيرة، والنصر محسوم لحماة ورجال حماة. القدر يلعب لعبته.

يبتمس حماة برضا. ينظر إلى الكرنتينا المشتعلة تحته. يتحسس جسده المجروح والنازف. تخرج يده ملوثة بالدماء والعرق والطين المتراكم. ينظر إلى البعيد. يشعر بدوار خفيف. يلمح واحداً من رجال سوسو يتحرك تحت. يخرج سلاحه بصعوبة شديدة. يحاول التصويب عليه ولكن توازنه يخونه. يسقط على أرض الكرنتينا.

عاريأ، نازفاً، مشتعلأ، وسخأ، شابأ، بكرش صغير، مات حماة، ولكن أيضاً مكللاً بهالة من بهاء سيظل يذكرها التاريخ.

•••

هدوء تام ساد كرموز في الأسبوعين التاليين. نادراً ما سُمع صوت عركة أو حوار أو شباب يضحكون. حتى الدجاج والبط لم يصدر صوتاً. لا يتردد الآن في كرموز سوى صوت الأذان وصوت أجراس الكنيسة، متعانقين متلاحمين، الكنيسة والجامع بناهما علي وإنجي يوماً ما. يتاح الآن لكرموز أخيراً كتابة تاريخها وتمجيد أبطالها، بهدوء ورواق.

بدا للجميع أن عهداً جديداً على وشك البدء، عهداً نعيد فيه بناء كل شيء من الأول. بعد مقتل سوسو وحماة وعادل. بعد انتحار علي. بعد موت أبو أميرة. بعد كل هذا بدا وكأن كرموز تتحرر من ثقل تاريخها. وتعود إلى ما قبل

تاريخها. الجميع الآن هادئون وناثمون، وادعون كالأطفال. في هذه الليالي أيضاً نامت وزارة الداخلية بهدوء، بعد أن تم أخيراً التخلص من سوسو، إمبراطور غرب اسكندرية. وبعد أشهر طويلة استطاعت فيها الوزارة تربية كوانر داخل الكرتينا تتمكن من التخلص من سوسو عندما يقوم هذا بهجومه الحتمي عليها.

الأيام التالية كانت محملة برياح وأتربة شديدة حجبت الرؤية في الإسكندرية كلها. بعدها أتت بلدوزرات عملاقة. قامت بهدم تمثال الفرخة تماماً. انهار التمثال أمام الأهالي المشوهين، كما قامت البلدوزرات بهدم بعض البيوت غير المرخصة، أما بيت الكرتينا نفسه، الذي تسكنه إنجي مع حفيدتها، بطوايقه الأربعة، فلم تقترب منه، البيت بأسطوره مازالا ينفرض سطوتهما.

في الأيام التالية قامت أم صلاح الشغالة بحمل أحمد ابن عادل، وذهبت به إلى كريفنتينا سوسو، أعطت الطفل لفة أرملة سوسو. ابتسمت تلك وجهزت لها غداء وشايًا. لم تتحدثا عن أي شيء. تجاهلتا كل بحار الدم والدموع وشربتا الشاي. قالت منة إنها مشغولة الآن بقربية أميرة ابنتها وبقربية أحمد ومحمد ابني عادل الخائن، هما مالهمش ذئب، الحاج سوسو كان راجل يعرف رينا، وعارف إن ماحدش بيتاخذ بذئب حد. رشفت رشفة من الشاي وأكملت، الولية مرات عادل اني طردتها، مرة لبوة ونجمة.

عندما عادت أم صلاح إلى بيت إنجي. وفي الطريق الذي سلكته بكريفنتينا سوسو السابقة، شعرت أنها آمنة، أن هذه المنطقة لم تعد مأوى للأوباش كما كان علي يحكي عنها. شعرت بالحرية. ونظرت للبيوت المهدمة والعربات التي تعمل على سفلطة الطريق وضحكت، وأخذت تضحك كثيراً، تضحك كمن

شعر بالتححرر أخيراً. قبل أيام، كانت الشرطة قد قامت بتطهير المنطقة أيضاً، ومثلما حدث في الكرنطينا الأصلية، فلقد تم الإبقاء على بيت سوسو، البيت القديم لحربي، المحمل بالتاريخ الثقيل والكنيب للصراع. وأم صلاح تضحك، تضحك وتتقافز في الطريق كالدبة.

ولأن آفة حارتنا النسيان، كما يخبرنا المثل الشعبي، فلقد مُحيت تفاصيل هذا الصراع من أذهان سكان كرموز. تبقت صور وحيدة وقليلة، على رأسها صورة حمادة، وهو عريان ومشتعل ويخلص المنطقة من الأشرار برشاشه من البلكونة، وحمادة وهو جالس قرب الفرخة مثل بونا، يعب الخمرة الرخيصة ويلقي بكلمة كل خمس دقائق تشرح أسرار الحياة والموت، ثم يعود ليتأمل الديدان العائنة في ماء المطر، وصور أخرى كثيرة.

الأعوام السابقة كلها كانت طينة بالدم، ولكن هذا العام وحده من حفل بمقتل كل هؤلاء الرموز في وقت متقارب للغاية، علي وحمادة وسوسو وعادل وغيرهم. لهذا السبب، ولأسباب أخرى، ظل العام الرابع والأربعين بعد ألفي عام من ميلاد المسيح هو العام الأكثر حسماً في تاريخ المنطقة، ما لم تتلوه أعوام أخرى أكثر حسماً.

تمكين المرأة

”قصة سبع نساء يحكمن العالم“

في أواخر الثلاثينيات تم افتتاح ثقب شانجهاي، وكان هذا هو الحدث الذي شغل بال العالم بأسره في تلك الحقبة من القرن الحادي والعشرين.

"ثقب شانجهاي" كان عنوان مشروع ضخم بدأ العمل فيه من ٢٠٢٨ تقريباً، ثقب طويل محفور في الكرة الأرضية يبدأ من شانجهاي بالصين ويمتد حتى الطرف الآخر من الكوكب، في المحيط الأطلنطي، بجوار الأرجنتين. المشروع يهدف بالطبع إلى اختصار المسافات بين آسيا وأمريكا اللاتينية، ولكنه يهدف أساساً إلى توفير المتعة للأثرياء الراغبين في مشاهدة جسم الكوكب من الداخل. قامت بالإشراف على المشروع شركة سياحة أمريكية، لم تكتم الشركة بثقب الأرض، وإنما قامت أيضاً بتصميم مركبات زجاجية مصفحة بحيث يمكنها تحمل الضغط والحرارة الشديدين بداخل الأرض، وصارت هذه المركبات تقوم برحلات يومية نهاباً وإياباً في ست حارات تكون منها الثقب، من الصين إلى المحيط الأطلنطي بجوار الأرجنتين وبالعكس، وتم وضع سعر ثلاثة ملايين دولار لتذكرة الانتقال. هكذا استطاعت الشركة تغطية نفقات إنشاء المشروع في أقل من شهرين.

الشركة، التي كان اسمها "بينيث" واتخذوا شعاراً لها "نحن ننظر تحت أقدامنا"، استطاعت صرف أنظار العالم كله من فوق إلى أسفل. بعد أن كانت سرعة القرن العشرين هي الفضاء والكواكب الأخرى، فلقد أصبحت سرعة القرن

الحادي والعشرين جسم الأرض نفسه. أنتجت هذه الشركة مسلسلاً يدور حول طفلين ركبا إحدى مركبات ثقب شنجهاي، وانفجرت المركبة بالداخل ولكنهما نجيا، في شبه معجزة. وقررا مواصلة حياتهما داخل الكرة الأرضية. اكتشفا الحياة داخل الأرض وهما مرتديان ثيابهما المضادة للضغط والحرارة، شادا شعوباً مختلفة وقاما بمغامرات مضحكة في كل حلقة. المسلسل كانت حلقاته لا نهائية، وأقبل كل العالم على مشاهدته، وزادت الطلبات على مركبات ثقب شنجهاي.

هكذا فكر الناس في أوائل الأربعينيات، بلا استثناء تقريباً. المسلسل شاهده الجميع، وحفر مزيد من الثقوب في الكرة الأرضية أصبح هو حلم جميع الدول. أعلن رجل أعمال مصري عن عزمه على أن يكون هو من يحقق المعجزة في مصر. صم شعاراً لشركته عبارة عن الكرة الأرضية وهي مليئة بالثقوب في كل مكان ومياه المحيطات تنسرب بين الثقوب وفوقها عبارة "نا هدفنا". الجميع الآن منبهرون بالمعجزة الأمريكية الصينية. وكرة أرضية مثقوبة كالصفاء هو الخيال الجنسي لشعوب العالم.

هكذا إذن. لم تكن مصر بعيدة عما يحدث. مجموعة مسلسلات وأفلام مصرية كثيرة حاولت تقليد المسلسل الأمريكي، بل يمكن القول إن بعضها كان ناجحاً وجيداً فعلاً. ولكن ما ظل ناقصاً هو المعجزة نفسها. معجزة النظر للأسفل. معجزة اختراق الكرة الأرضية. شيئاً فشيئاً. بدا أن الحلم قابل للتحقق على أرض مصر. وفي مدينتها الشمالية بالتحديد، الإسكندرية.

في الثالث عشر من نوفمبر عام ٢٠٤٨ تم افتتاح الخط الجديد لشبكة مترو الأنفاق بالإسكندرية.

•••

تم تصوير حدث افتتاح المترو، وتم بث صور وزير المواصلات وبجانبه محافظ الإسكندرية وهما محاطان بالأطفال من أبناء المنطقة. بنتان من الرحيين بالضيوف ظلقتا تضحكان بينما الوزير يمسك بالمقص ويقص الشريط. لاحظ الوزير ضحكهما فنظر إليهما بعد انتهائه من قص الشريط ولوح بالمقص في وجههما وضحك. نظرتا في الأرض بخجل وواصلتا الضحك.

نزل المحافظ والوزير وباقي المسؤولين ومعهم الأطفال الرحيون النفق وركبوا أول مترو إلى العمورة. الكاميرات التي صاحبت الحدث صورت هذه اللحظة الإنسانية الدافئة: المحافظ وهو يصنع تعبيرات مضحكة بوجهه للطفلتين. ثم تقرب إحداهما منه وتساءله، عمو، احنا هنرجعو تاني؟ فيقول المحافظ، انتي عاوزة نرجعو تاني؟ وترد، أصل تيتا لوحدها وانا وأختي عندنا هوموورك إنجلش في البيت. أختها، التي كانت تقف في الخلف، تشجعت وتقدمت. لاحظ المحافظ والوزير، ومعهم المشاهدون، التطابق القام في الملامح بين الأختين التوأم. سألت البنت، انتي اسمك إيه. فأجابت، أنا يارا، ودي لارا، لارا صرخت، لأه، دي متخلفة، ماتصدقهاش، الهوموورك اللي عندنا ساينس مش إنجلش، أما يارا فعقدت حاجبيها وقالت بعد لحظة تردد، أنا إنجلش، وهي ساينس.

عُرفت الطفلتان لسنوات طويلة فيما بعد باسم "فتاتي مترو كرموز"، بسبب هذه المشاهد التي أعيد بثها مراراً وتكراراً على التليفزيون المصري. أينما كانت تسير واحدة من الطفلتين، كانت الناس في الإسكندرية تتعرف عليهما، وتردد، أنا إنجلش، وهي ساينس. كان هذا ممتعاً للطفلتين بتيمتي الأب والأم واللتهن تعيشان حياة ممتعة مع جدتهما وتخلو حياتهما من أية متعة أو تسلية.

أنا إنجلش، وهي سايفس، حتى هذا اليوم مازالت كل من يارا ولارا تبتسم عندما تتذكر هذه الجملة، وحتى الآن تفرق كل من الشابتين الناضجتين في الضحك إذا ذكرهما أحد بلقب "فتاة مترو كرموز".

•••

هدم تمثال الفرخة عام ٤٤ لم يكن المقصود به الهدم في حد ذاته، بعد عام كامل بدا واضحاً أن ثمة محطة مترو أنفاق سيتم بناؤها هنا، في هذا المكان، أمام البيت الذي كان سابقاً بيت علي وإنجي والآن لا تسكن فيه سوى إنجي، الجدة الكبيرة، مع حفيدتيها والدة أم صلاح، بالإضافة إلى عدد من المتأجرين العابرين في العمارة. هناك محطة أمام بيت علي وإنجي، ومحطة أخرى في غيظ العنب، قرب بيت سوسو الراحل، سميت الأولى بـ"الكرنتينا"، وسميت الثانية، والتي تقع في نهاية الخط، باسم "الكرنتينة". المحطتان قريبتان مع بعضهما البعض، ويوماً يركب الناس من الأولى للنزول في الثانية أو العكس. لقد انتهى الحظر الواقع بين المنطقتين. لقد أصبح جزءاً من التاريخ.

•••

تعرفت أم صلاح على إنجي وعلي في بداية حياتهما. عملت عندهما بعض الوقت. تبهذلت كثيراً. وقتها كانت شابة يافعة اسمها غادة. تركت علي وإنجي بعد أن استطاعت فتح محل صغير لبيع السمك بكموم الدكة. هناك تزوجت وأنجبت صلاح وتركت العمل نهائياً بالكرنتينا. ولكن الظروف لاحقتها، سجن زوجها واضطرت للجوء لإنجي من جديد. طلبت منها مراعاة وضعها الحالي وأنها صارت زوجة وأماً. أقامت عندها، تمسح وتكنس وتطبخ، وعندما مات علي وحمادة أصبحت دادة للبننتين يارا ولارا. لقد تخلصت من تاريخها الأسود كامرأة لها ماضي.

قصة حياة أم صلاح قصة حزينة. عاصرت الحروب وعرفت من البداية أين يقع الخير وأين يقع الشر. كانت متعلمة، تخرجت من تجارة الإسكندرية، لا يمكن لأحد اتهامها بعدم الوعي. لذا أصبحت عنصراً فاعلاً في إدارة الصراع. دورها كان صغيراً ولكن محورياً. بالنصائح التي كانت تسديها لحمادة، وهدداتها التي تفنيها ليارا ولارا في مهدهما، وبردشتها مع علي وإنجي، تحولت أم صلاح الشغالة إلى شخصية مركزية في البيت. ولكن تغيراً حدث مع مذبحة عام ٤٤. بعد أن انتهى كل شيء وقُتل حمادة وقُتل سوسو. وبالتحديد في اللحظة التي عادت فيها أم صلاح من بيت منة. في هذه اللحظة انجلت بصيرتها إذا جاز التعبير. رأت كل شيء بوضوح أكبر وتسامت روحها فوق فاسف الدنيا الصغيرة. شعرت بالحرية، أنه يمكن لأي من كان أن يجول في أي مكان يحبه. شعرت أيضاً أن لا شيء يستحق كل هذا. يومها كانت الشمس مشرقة بعد أيام طويلة من الرياح المحملة بالأتربة، ومادامت الشمس تشرق، والدنيا مازالت بخير. فعلى أي شيء يتقاتل العالم؟ منذ هذه اللحظة وأم صلاح مصابة بمرض النسيان المتعمد لكل ما حدث في العقود السابقة. الآن تتكلم كما يتكلم جميع الناس. عن غلاء الأسعار وصعوبة الحياة وزحام المواصلات. قامت أم صلاح بنقل نسيانها هذا لإنجي أيضاً، والتي بدا أن المذبحة قد طهرتها. إنجي الآن امرأة حكيمة في منتصف عقدها السادس. خلعت النقاب أخيراً، لقد أصبحت من "القواعد من النساء"، وظهر وجهها المتغضن الأبيض، وضحكتها التي لا تزال جميلة. وجهها الآن مشرق بنور الله.

لم يكن هذا هو كل شيء. جميع سكان كرسوز بدوا كأنهم نموا، أو يحاولون نسيان الأيام الصعبة الماضية. حتى صور أبو أميرة والحاجة اعتماد ودمام نادبة تمت إزالتها من مدخل عمارة الكرنتينا. المنطقة كانت كشخص فقد

الذاكرة، وهذا كان أفضل. ومع افتتاح الخط الجديد لمترو الأنفاق. وظهر محطة مترو أمام البيت فلقد تغيرت ملامح الحياة تماماً، وساعد هذا على تنامي حالة الزهايمر. بدا أن الحكومة وحدها هي التي لم تنس، هي التي أطلقت على المحطة اسم "الكرنتينا"، وبهذا قامت بتثبيت قدر المنطقة وهويتها المستقبلية. على العموم، ليس هناك في عالمنا نسيان تام، ولا ذاكرة مطلقة. الأشياء تقع دائماً في المنتصف، غالباً يعني.

وعلى الناحية الأخرى، لا يمكننا أن نصف ما حدث في الأعوام التالية على العام ٤٤ إلا بتعبير واحد: معجزة الأم. في الحقيقة، فلقد أثبتتمنة جدارتها بحمل شرف الأمومة المقدس. لقد قامت بتربية ابنتها أميرة أحسن تربية، أدخلتها أحسن مدارس، وتجاهلت جميع مرارات الماضي. نشأت أميرة خفيفة كالفراشة، محلقة، وإذا جاز لنا أن نصف طفولتها فسوف نصفها باستخدام تعبير الطفولة السعيدة، وهو اسم مدرستها أيضاً.

أميرة، مثلها مثل يارا ولارا ابنتي حمادة، وأحمد ومحمد ابني عادل، وكانوا يدرسون جميعاً في مدرسة الطفولة السعيدة الابتدائية. لم تكشف عن أي اهتمام بمعرفة أي شيء عن أبيهما الراحل. كل ما كانت تريده هو شرب أكبر عدد من زجاجات الحاجة الساقعة في أقل وقت. لقد أدمنت أميرة الحاجة الساقعة، بالضبط مثل يارا، التي كانت أسمن قليلاً من أختها التوأم. الأختان التوأم أيضاً لم تهتما بمعرفة أشياء كثيرة عن أبيهما الراحل. بالإضافة إلى أن صورة حمادة نفسها في ذاكرة أهل المنطقة لم تتضمن معلومات مهمة. يوماً ما كان يقال إن حمادة بطل، لكن البطولة عادة تكون بطولة مع ناس وضد آخرين.

وحدها بطولة حمادة كانت بطولة في المطلق، بلا أصدقاء أو أعداء. الشيطان لم يكمن في التفاصيل. لأن التفاصيل لم تكن موجودة أساساً.

التقى الخمسة في الذهاب من المدرسة والعودة منها. المرح والبهجة هما اللذان سيطرا عليهم في هذه الرحلة. يضحكون طول الوقت، يحدفون الناس بالطوب، يقدفون أكياس الكشري في وجه بعضهم، يتبادلون مسبات رقيقة تبدأ من الأم ولا تنتهي عند الأعضاء التناسلية والدين. السود والمحبة الطيبة جمعتهم، وفرقتهم حرب القصب والسحالي.

•••

مثل جميع الأطفال، كان أبطالنا الخمسة يشربون عصير القصب في أكياس. سبقت يارا أصدقاءها في تجربة السائل الأصفر، الذي كانت تعبها عبا بجوار زجاجات البيبس والكولا. وقتها أطلقت على نفسها اسم عاشقة القصب، عاشقة القصب الأولى في مصر والعالم العربي وأفريقيا وآسيا والأمريكيتين. صارت تشتري كيمس في الصباح، تشرب واحدا في طريقها إلى المدرسة، وتضع الآخر في شنطتها. اكتشفت لارا هذا. فأخذت تسرق شنطات من الكيمس الخبأ أثناء انشغال أختها عن الشنطة، ثم انضم لها أحمد ومحمد وأميرة. وعندما اكتشفت يارا تناقص مشروبها الأصفر حرص الجميع على سكب بعضه في الشنطة، وادعوا بأن العصير يتناقص لأنه يندلق كله. قابلت يارا هذا بالغضب، ثم بمحاولة القطيعة. أختها لارا كانت أنكى من الجميع. أخذت يارا على جنب وأخبرتها أنها رأت أميرة وهي تشرب العصير، وبعدها رأت أحمد ومحمد يشاركانها. وثقت يارا بأختها التوأم، وقررت الاثنتان تنفيذ حيلة جهنمية: تعبئة الكيمس بالبول بدلاً من العصير. ووقفنا قريباً من الشنطة المتروكة وحدها لتراقبا ربود الفعل.

الضربة جاءت في محمد، أو حمأ، كما أطلق عليه. شرب شفطة وبصقتها بعنف وبكى وهو يغسل فمه عشرات المرات خلال اليوم. وعندما شاهد يارا ولارا تضحكان عليه فهم اللعبة. مسك البننتين وأخذ يضربهما بقبضة يده الصغيرة. برك فوق لارا وأمك يارا من ساقيهما وهي تحاول الفلصعة. انضم له أخوه أحمد وابنة عمه أميرة. مسك الثلاثة الأختين من ذراعيهما وسحلوهما على أرض الحوش المليئة بالرمل والزلط الجارح. صرخت البننتان، يا خولات، هانفشككو، والمصحف هانفشككو. ولكنهم لم يرحموهما. أخذوا يجروهما على الأرض إلى خارج حدود المدرسة، والبننتان تلوحان بسيقانهما وتظهر ملابسهما الداخلية السوية والهيبة، وأميرة تضحك وتهتف مخاطبة كلا منهما: يا أم لباس معفن. عند باب بيتهما تركوهما وجروا إلى بيتهم. وصعدت يارا ولارا إلى البيت تبكيان. ركضتا نحو جدتهما وحكيئا لها، بنفس واحد، ما حدث.

إنجي، التي برق في ناكرتها مشهد قديم، من قديم الأزل، لأبو أميرة وهو يحل امرأة ما، لا تذكرها، على أرض شارع لا تذكره، قالت في نفسها إن هذه العيلة النجمة كلها فضيلة واحدة، وكلمت منة في التليفون. هبت فيها قائلة إن هذا لا ينفع. إنه إنا كان لديها شيء، ضدها فلتكلمها هي، لا تسلط العيال على بعضهم. ومنة خافت. زارت إنجي في اليوم التالي، لأول مرة منذ سنوات طويلة، وباست رأسها. قالت إنها هزأت العيال جامد. وإن يارا ولارا إخوانهم في النهاية. وقالت منة إنها تذكر فيما تذكر، وانها إن تنسى لا تنسى، إن إنجي هي اللي علمتها الإنجلش، بالإضافة إلى كل حاجة أخرى. أنصتت البننتان لهذه المقابلة من وراء الباب، ويبدو أنهما رأتا فيها نوعاً من التعريض المثالي على موقفهما، فلم تقوما بالرد في حينها. انتظرتا قليلاً. جهزتا لانتقامهما الخاص.

منذ سنوات طويلة ، وبيت علي وانجي مليء بالحشرات من كل نوع. يعود هذا إلى أيام مفرقة في القدم، حاول فيها حمادة تربية أنواع من الحشرات والزواحف في البيت. انتهى الشروع بالفشل، بسبب قلة بصيرة أبويه اللذين لم يفهما المقصود من هذا. ولكن تبقت السحالي. في كل مكان بالبيت كانت ترتع سحالي وأبراص من كل نوع، تنط من نمليات الطبخ، تمرح تحت الكنب، وتخرج من البلاعات، وتدربت نساء البيت على معاشتها. لقد صارت السحالي جزءاً من ثقافة البيت. وأصبحت هي السلاح الذي استطاعت به الطفلتان الانتقام لكرامتهما. في اليوم التالي، وقيل المرواح، ملأت البنتان شنطة محمد بالسحالي التي حملتها في كيسة بلاستيك، ثم انتقلتا إلى شنطة أحمد وأميرة. وعند عودة الأطفال إلى بيوتهم سرحت السحالي في البيت. وفي اليوم التالي خرجت سحلية من شنطة أحمد. ضحكت الطفلتان، وسارعتا بزرع سحلية في شعر أميرة. ضحك الفصل كله، ونظرت يارا ولارا إلى بعضهما بامتنان.

برغم إن كل شيء قد تم نسيانه بالفعل، أو أنه أوشك على أن يتم نسيانه، إلا أن شيئاً واحداً ظلت إنجي واعية له، تأمين مستقبل البنات، والدرس الذي انحفر في ذهن إنجي على طول حياتها السابقة، هو أن المستقبل يتم تأمينه بالفلوس. لا بشيء آخر. الرسم القديم الخاص بحمادة "الفنون والألوان" تحول إلى محل كشري ضخم، وضعت فيه إنجي كل مدخراتها بالبنك. حصل محل الكشري اسم البننتين "يارا ولارا"، بالعربي والإنجلش. تدريجياً، تحول محل الكشري المقام أمام محطة المترو بالضبط، إلى واحد من أكثر الأماكن شعبية في كرموز، بدأ عهد الازدهار يرجع للكرنتينا، ولاح الأمل في أن التاريخ لم يتوقف

عند سنة ٤٤، أن هناك فصلاً، قد تكون أكثر إشراقاً وقد تكون أكثر إبلاماً.
قادمة في التاريخ. المهم أن الزمن لم يتوقف.

علقت في مدخل محل الكشري صورة كبيرة للبننتين وهما تحتضنان
المحافظ. تضحكان ضحكتهما التي يعرفهما كل أهالي الإسكندرية. وتحت
الصورة، وتحت اسم "يارا ولارا"، كتب بخط جميل "كشري لو كس وعادة،
هدية ولاد حمادة".

طفولة الإنسان هي جزء لا يتجزأ من حاضره ومستقبله. والصفات التي
تبدو علينا في طفولتنا هي بالضرورة صفاتنا في مراهقتنا وشبابنا. العكس من هذا
تماماً حدث هنا. كبرت يارا ولارا، كبرت أميرة، كبر أحمد ومحمد. ونسي
صراع القصب والسحالي، بل وأفسح مكاناً لود خفيف بين محمد. حمداً، وبين
يارا. هذه الشابة السمينة، بعينها الواسعتين وبالشارب الخفيف أعلى شفتيها
وبخيطة الشعر الواصل بين حاجبيها، كانت هي من حاز اهتمام حما في الرحلة
الثانوية. راهن نفسه على حلقتها لشاربها في الشهور القادمة. لم يطلب منها
هذا بشكل مباشر. حرص على تضمين ادعاءاته بين السطور. قال لها أختك على
فكرة شكلها معفن خالص، دي شبه أخويا، ماتقوليلها تحلق شنبها. أما هي
فداعبت الكلمة أنوثتها. قالت له، صحيح يا واد يا حما، أختي بقت شبه
الرجالة، إنما انا غيرها خالص. يومها، وفي حمام محطة المترو، تبادلوا قبلة
طويلة. كانت تقطعها كل ثانية بتأوه صارخ، أحيه يا حما، أحيه عليك صحيح.
في هذه الأيام نظرت إنجي بتسامح إلى قصة الحب التي نمت بين الولد
والبننت. لم تقف أمامها. ربما فكرت في إن قصة الحب هذه ستكون نهايتها
الزواج. وإن ورث سوسو سيلتحم بورث علي وورثها هي. وبهذا يمكن

للعائلتين، بعد تصافيهما، أن يكونا إمبراطورية مشتركة جديدة، يتلافيان فيها أخطاء الماضي التعميس. سألت إنجي حفيدتها لماذا لا يأتي الولا حما ليزورهم في البيت. وأتى حما، تغدى معهم سحاً وجمبري، وتحاشى الكلام عن أي مستقبل مشترك يجمع بينه وبين يارا، بل وعندما طلبت منه إنجي أن يأخذ باله من البنات، قال لها إنها تعتبر أخته وف عينيه. ويارا أخذت هذا التصريح على صدرها، قالت له فيما بعد، يعني اني اختك دلوقتي يا ولا، يعني انت لما بستني كنت بتبوسني زي اختك. طبطب هو عليها وقال لها يا بت ماتبقيش عبيطة. دانا كنت محضرك هدية كبيرة أوي.

ما هي هذه الهدية؟ في الحقيقة، فلقد كانت هدية حما ليارا كانت غير مسبوقة من نوعها. في الثالثة فجراً كلمها بالتليفون، سألها إنتي فين، فقالت له إنها في البيت. قال إنه طالع لها. عاوزها في كلمتين خصوصي. قال إنه عارف إن اختها في رحلة للفيوم مع المدرسة، وستها نايمة من زمان. وبهذا سد عليها طريق الرجوع. فتحت له الباب مترددة، واجتاز هو الطريق سريعاً نحو غرفتها. هناك أخذها في حضنه جامد. همس لها، يعني اني دلوقتي اقولك اني طالع وتقوليلي لأ، يعني انتي مش عاوزاني دلوقتي يا بت؟ وهي وضعت إصبعها على شفتيه كي لا يكمل. وهمست له. ادعلكي صدري يا حما. فرك صدرها بقوة، ثم أخرج ثديها الأيمن من تحت قميص البيجامة، ومضى يلحس حلمتها وبعضها. ويده تلعب في شعرات إبطها الطويلة والمعركة، ويدخل يده الأخرى تحت كيلوتها تلعب برشاقة هي الأخرى. هي كانت تشعر بقضيبيه ينتصب، وتخيلت هذا الشيء يقسمها، وطول الوقت تهمس في أذنه، يا ابن الإبه يا جامد.

حما أحب يارا، ومن قلبه. في الليل كان يجلس يكتب لها أبيات شعر، ويؤلف لها أغاني. لم يرغب في مصارحة أخيه بهذا، ولا زوجة عمه. ظل الأمر مكتوماً في قلبه كجمرة تستعد للاشتعال. ما كان مقلقاً له في هذه المرحلة فقط هو عدم اهتمام البنات بمظهرها، بينما المظهر عليه عامل مهم. أحب جسمها الملبان بدون فُخولة، وشعرها الميال لأن يكون فاتحاً. كما أحب طريقتها في الكلام، وطريقتها وهي تقول له. أحبه عليك يا حما. طبعاً. وبكل المقاييس، فقد كانت يارا، مثل أختها لارا، فتاة معفنة. ولكن دعونا لا نسقط سن حما من حساباتنا. حما كان في الخامسة عشر من عمره، والمراهقة سن خطر.

في هذه السن الخطرة إذن قرر حما أنه سيتزوج يارا. ومثل حمادة في الزمن القديم، فلقد قرر أن لا شيء سيمنعه من الزواج بمن يحب. صحيح أنه كانت تنقصه الإرادة الحديدية التي كانت لحمادة، وصحيح أنه كان مصاباً ببعض القشور في الرؤى العامة بخصوص الحياة والوجود والمصير، وصحيح أنه كان يحب أي فتاة تقع عليها عيناه (على نقيض تمسك حمادة الفولاذي بمصباح)، إلا أن الحب يمنع المعجزات، هكنا آمن.

كلم حما زوجة عمه في موضوع زواجه بيارا. سكتت منة. كانت تفكر في أميرة وبختها الوحش في الدنيا. نظرت له فجأة وقالت، والبت بتي مش عاجباك ف إيه يا ولا؟ فكر قليلاً في رد مناسب ثم قال لها إن أميرة حلوة وكل حاجة، بس تعتبر زي أخته تمام. وانه يخاف عليها زي أخته. وسكتت هي. لم ترد. بعد قليل قالت له إنت صغير يا حما. روح اشغل نفسك بحاجة تنفعل. إلعب رياضة يا حما. اخترك لعبة حلوة والعبها.

لم تكن هذه هي نهاية قصة الحب العاصفة بين حما ويارا. والتي تواصلت بأشكال مختلفة. يطلع لها البيت، يخرجان المنتزه مع بعض. يتناولان حمص

الشام والهريرة على البحر، يزنقها في حمام شط جليم، وأشياء أخرى. حكى حما ليارا قصة غريبة. ذات مرة، كان متاحاً لأي شاب أن يهيج البت اللي معاه. بل وأن ينام معاه حتى، حدث هذا في مكان قريب، في مكان قريب جداً، فوق بيتكم بالظبط، الشقة اللي فوق بيتكم يا يارا. يارا لم تعرف عم يتحدث حما. وسألت جدتها فلم تعرف جدتها، دارت على الناس تسألهم في الشارع والمدرسة فلم يعرفوا.

في لياليهما الطويلة، كانت يارا تحكي للارا عن حما. وحنينه وجدعنته معها. كانت تستشهد أمام أختها بكلام حما، حما قعد ساعتين يتكلم عنك، بيقول عنك مش مهتمية بمظهورك. بيقول ماتفرقيش حاجة عن الولا احمد اخوه. ولا را، التي كانت تنظر لنفسها بوصفها الأجل. كانت تدفن رأسها في الوسادة الخالية وتضع ستين جزمة في بقها ولا تنطق. كانت في هذه الأيام بالتحديد مصابة باكتشاف الجسد. ألم رهيب في ظهرها، ثم انفجار قطرات دم منها تفرق ملابسها، صدر صغير يتكور. وألم في حلمتيها. ولكن معلنش. أن تكون الإنسنة منا امرأة فهذا ليس قليلاً أبداً. هذا مؤلم وله تبعات. لارا كانت تنظر لنفسها بوصفها ملكة الأنوثة في الإسكندرية. وبدأت، لأول مرة في حياتها، تزيل شاربها، شعرات كثيفة تنمو أعلى شفتيها، تضع أطفالاً من الميكاب فوق وجهها. تختار ألواناً كثيرة للغات حجابها المتراكمة فوق بعضها، ليس انصياعاً لرغبة حما، ولكن انصياعاً لقرارها هي الخاص.

لعبه لارا بدأت باستغلال أختها، سألت حما مرة في الشارع إنت مابتكلمنيش ليه يا ولا يا حما. دانت تعتبر دلوقت زي خطيب اختي، إنت مكسوف مني يا ولا؟ في هذا اليوم تكلمنا كثيراً، حكا لها عن بيتهم، عن أبيه وأمه اللذين لم يرها في حياته، واحد لأنه قُتل وواحدة لأنها في ليبيا. وحكى

لها عن عمه، سوسو الشهيد، وهي بالمقابل حكمت له عن حمادة البطل، عن محل الكشري، وعن تيتا المجوزة. لساعتين فلا يتحدثان، في الآخر فقط نطق بما كان يخفنه طول الوقت الماضي. أختها، يارا. ليست امرأة بما يكفي، جامدة، ناشفة كدا، وبشئب. ابقي علميها يا أختي. انصحيها. ابستمت لارا.

بدأت قصة حب لارا وحما من هذا اليوم. لارا، فتاة الألوان الكثيرة والمبهجة. قررت خوض الطريق حتى النهاية، وسحق أختها التوأم التي طالما ما لمحت لها بأن ثمة علاقة جنسية ملتببة بينها وبين حما. طيب، إذا كان ذلك كذلك، فمأحدث أحسن من حد. وحما من جانبه كان مبهوراً بفكرة أن يكون معشوق الأختين في نفس الوقت، الدونجوان الأول، ملك الليل والحريم، ومثلما فعل مع يارا. فقد حكى للارا عن المكان القديم، فوق بيتهم بالطب، الذي كان أي شاب يريد أن يربط البت بتاعته يطلع فيه. كان ينام معها في مطبخ محل الكشري. تغلق لارا المحل من الداخل بعد انصراف جميع العاملين، وترن له رنة على موبايله فيمتحجب داخل إليها. يقضيانها بوس واحضان. لارا كانت بنتاً. وقالت له إنها تريد أن تظل بنتاً. في البداية لم يلاحظ أحد هذه العلاقة. فيما بعد تطوع يحيى بركان. رجل في الأربعين يفرش سفرة للزباين في محل الكشري، بإخبارها أن بعض الناس يلاحظون تكرار زيارات حما لها في المحل.

انقبت لارا لهذا، ونبعت على حما بأن يغيرا المكان. ولكن يحيى بركان، الذي كان يريد الخير للأختين، أخبر يارا أختها بهذا، ويارا لم تتكلم. كتعت جرحها واستلمت للصمت النبيل. هنا فقط، اقتنعت يارا بأهمية أن تزيل شعر شئبها وحواجبها. بدأت تتحول إلى نسخة ثانية من أختها. وضعت حجاباً زاهياً، والكثير من الألوان على وجهها، وعادت الأختان التوأم لتتطابقا مرة أخرى في الملامح. وقفت كثيراً في المحل، لتراقب الداخل والخارج. وعندما

ناخر حما في المجيء، عندما انتظرتة ثلاثة أشهر متوالية. هنا فقط أرسلت له مسج على الموبايل، قالت له عاوزة اشوكك النهاردة ضروري يا حما. التقيا في المفترزة. قالت له إنها لم تتوقع أبداً أن يفعل ما فعله، وإنها سبق وتوقعت الغدر والخيانة من كل الناس، لكن ما عدا من أقرب الناس. وسألها هو مندهشاً أي غدر وأي خيانة. سكتت. فحضرها جامد وهمس لها أنا أغدر بيكي إنتي؟ إنتي اتجنيتي إنتي؟ حاولت التملص من حضنه ولكنه تمسك بها بقوة، فقربت كفها من وجهه وتحمسته. يعني انت لسة بتحبيني يا حما؟ ولا عمري حبيت غيرك. أحست وهي في حضنه بقضيبه ينتصب، فنظرت له وابتسمت بدلع. دلوعة كانت يارا، دلوعة بشكن لم يسبق له مثيل.

استطاع حما إذن تحقيق المعادلة الصعبة. الحفاظ على علاقته بيارا وبيارا في نفس الوقت. لم يحتج لأكثر من كلمة حلوة ونظرة برمش العين. والمرأة لا تريد إلا الحزن الدافي. على مدار السنوات التالية، حافظ على جودة ودفع الحزن الذي يقدمه للأختين. ينتهي من كليته ليزور كلا منهما بالتناوب في المحل، حال خلوه من العاملين، وفي البيت، حال خلوه من جدتهما، وفي حمام محطة مترو الأنفاق. في حال خلوه ممن يرين قضاء حاجتهن. كل منهما كانت تعرف العلاقة التي تربطه بالأخرى، ولكن لم تتحدث أي منهما. لقد رضيتا بالنصيب والقدر المقسوم.

رفضت إنجي إدخال حفيدتها الكلية. إنجي، سليلة البرجوازية القاهرية العريقة التي لظالما آمنت بأن التعليم هو أحسن استثمار في الدنيا، رفضت أن تكمل البناتان تعليمهما. قالت إن التعليم لم يعد مجدياً، هاهو حمادة، تعلم أحسن تعليم. وأصبح فيلسوفاً كبيراً، وفي النهاية مات على الأرض زي كلاب السكك. لم ينفعه التعليم. اكتفت البناتان إنن بالقانونية العامة

وأشرفنا على محل الكشري. الحب كان بديلاً لهما عن التعليم العالي. الحب الذي يصنع المعجزات. والذي وجدت فيه كل منهما نفسها ومستقبلها وحياتها الماضية. وفي لياليهما التي كانا يتفرجان فيها على أفلام المكس، مرت في ذهن كل منهما بالتأكيد فكرة الجنس الجماعي. كل منهما كانت تنظر للأخرى. تتحفز، تنوي النطق بها، ولكن الكلمة تعلق على شفتيها، تنحبس، ثم تخرس خالص. ربما كانت الفكرة لتُطرح لو تطورت الأمور في اتجاهها السليم. ولكن الرياح تأتي دائماً بما لا تشتهي السفن.

تخرج حما، حمل شهادة الحقوق، عُده هو الأمل الزاهي للأسرة. ومخلص أخاه أحمد من السجن الذي ألقى فيه ظلماً بتهمة الإتجار. حما الآن شاب وسيم، طويل، بعينين عسليتين، وشعر فاتح، ومثقف، ومواطن صالح. يعرف حقوقه وواجباته نحو بلده. وعدته مئة إذا استطاع أن يتدرب عند محام كبير أن تفتح له مكتباً في البيت. وهكذا ضمن الولد مستقبله. الخطوة التالية لمئة كانت زيارتها لإنجي. طلبت منها، وحياء عينيها، ورحمة الأستاذ حمادة، أن تبعد البنيتين عن طريق ابن أخيها. أني مانقصدوش حاجة يا ست إنشي، بسر الولا عاوز يلتفت لمستقبله، وبعدين بيني وبينك يعني معروفة من زمان، حما لأميرة بتي، واني مجهزاه مكتب كبير يفتحه لما يكتب عليها ان شاء الله. الحق مايزعلش يا حاجة، مش كدا؟ إنجي من جانيها ابتلمت الإهانة، يعني مين حما المعفن دا اللي بناتي يبصوله، وسكتت، وبعد أن سكتت، واصلت التعرير، قالت إن كلام مئة هو الصح، وإن الصح مايزعلش حد. مئة من جانيها كانت امرأة زنانة، بكل معنى الكلمة. تحقق بالزن ما لا يمكن تحقيقه بالعنف. ظلت وراء ابن أخيها، ووراء بنتها. تزوق بنتها بنفسها، وتختر لها ملابسها، ومثلما تختار لها ملابسها، فلقد اختارت لها كلية الحقوق لتدرس

بها. وطلبت من حما أن يقوم هو بالتدريس لها في البيت. بهذا أتاحت له ساعات إضافية ليجلس مع عروسته المستقبلية، بعد أن كان قد انفصل عن عائلة عمه ليسكن غرفة فوق سطح العمارة. منة كانت ترى كل شيء يتكون أمام عينيها.

لأيام طويلة حاولت كل من يارا ولارا الاتصال بحما، وكان الرد دائماً هو الرقم الذي طلبته غير متاح. لقد غير حما تليفونه. كان هذا جارحاً جداً لشاعرتي الأختين، اللتين استشارتا جدتهما. وإنجي، لأول مرة منذ سنوات طويلة، خرجت عن دبلوماسيتها. كانت تقوم بتقطيع الطماطم للسلطة. غرست السكينة في لحم الطماطمية وقالت وديني وما أعبد إن الواد دا ما هيكون لحد غيركو. محتويات الطماطمية تناثرت على ملابس البننتين. نظرت كل منهما إلى الأخرى. وتقريباً بارت في خلدتهما فكرة واحدة: ليس شرطاً أن يكون لواحدة منهما. يمكنهما أن تتشاركا فيه. لقد فعلتا هذا من قبل وهما مستعدتان لفعله ثانية. إن كان أمل العشاق القرب، فإن أملهما في حب حما هو الحب.

لم يتأخر الحدث المرتقب. اتصلت منة بإنجي لتعزمها على حفلة صغيرة على الضيق كدا لخطوبة محمد - حما - وأميرة. نقلت الجدة الخير لحفيدتيها، وسألتهما مانا ستفعلان؟ استندت يارا على الكنبه. مضت تفكر. أشعلت لارا سيجارة ومضت تفكر. إنجي هي من قطعت الصمت.

إنجي: الواد دا خسيس طول عمره، ومن زمان أوي. (تشرب شغطة من كوباية الشاي)

يارا: تلمي كان يخطف السنوتشات ويفتن للمدرس.

لارا: السنوتشات بس يا هبله؟

يارا: وعصير القصب.

إنجي: لا، اني مابنتكلمش على كنا. الواد دا خسيس واصله خسيس، من أيام ابوه.

لارا: ماله أبوه يا تيتا؟

إنجي: أبوه؟ ماله أبوه؟ ابوه كان سكر. ياريتها جت على ابوه. عمه كمان خسيس. عمه هو الأصل.

(يارا ولارا تنظران لبعضهما البعض)

إنجي: أني ست عجوزة دلوقتي. اني كبرت. ويمكن تقولوا اني خرفت. قولوا. مابتقولوش ليه، مانقو أوساخ انتو الجوز. بس انتو لازم تعملوا حاجة.

يارا: حاجة يعني إيه يا ستي؟

إنجي: حاجة يعني حاجة. يعني جايز اني مانقدرش نتكلمو دلوقت. بس أسألو المرة اللي اسمها مئة. اسألوها جوزها مات ازاي، ولما تقولكو ابقوا تعالولي. واني هنقولكو ابوكو مات ازاي.

هذا الحوار كان منقطع الصلة بما قبله وبما بعده، كأنه حلم. صرخة في الظلام، كان كالميت، لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع. لم تبن عليه البنتان معلومات كثيرة. ولكن بالتأكيد، ولأن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم. كما أشرنا من قبل، فإن تأثيره لم يرح من ذهن أي منهما.

في اليوم التالي جلست يارا مع يحيى بركان، عاقل المحل. قالت له يرضيك اللي حصل دا يا عم يحيى؟ قال لها شوفي يا ست يارا، انتي واحدة كويسة. والولا دا اني نعرفه من ساعة اما كان عيل صغير، ونعرف ابوه وعمه. ناس من أوسخ ما يكون. اني بصراحة حبيت نضحك بس لقيت الواد داخل دماغك. فعاقدرتش نتكلم. ارتعشت يارا، وطبطب يحيى بركان على كتفها. فارتعت على صدره وأخذت تبكي. البكا حلو. البكا بيريح.

تم تحديد ميعاد الخطوبة، في سبعة وعشرين من شهر مارس الحالي،
وامعانا في الإنزال اتصلت أميرة بكل من الأختين لتدعوهما. إجابة كل من
الأختين كانت موحدة، طبعاً يا حبيبتي دا فرحك فرحي والمصحف. بارأ أضافت
جملة، أوعي تفتكري إنسي زعلانة، دانا فرحنالكو والنعمة. ولارا في نهاية
الكاملة اختنق صوتها وسألتها أميرة عما بها فقالت، دي دسوع الفرغ باختي.
مش مصدقة نفسي أبداً. في نفس اليوم جلست كل من الأختين مع الأخرى
ونظرت كل منهما إلى الأخرى. كانقا تفكران في فكرة واحدة. سقذهبان إلى
البحر. تجلسان قليلاً أمامه. نزلقا وركبتا المترو.
إلى هنا والقصة تقليدية، تقليدية جداً، قصة إنسان زبالة يحب ثلاث
بنات في الوقت ذاته. ولكن ما كان غير تقليدي هو شكل الانتقام.

في أحد المسلسلات القديمة يهدد الزوج - واسمه تامر - زوجته - واسمها شوقية - بأن يقذف نفسه في قلب البركان. تشير عليه الزوجة ببرود وهي تكمل طعامها بأن يستقل باراشوتاً. يصمت الزوج للحظة ثم يسألها بسخرية عن سبب النصيحة. وهل تريد له مثلاً أن يُشوى على مهل، أن يُشوى بالراحة؟ ثم يقطع سؤاله بالسؤال الأهم عن تصورها لمفهوم البركان أصلاً. الزوجة في المشهد السابق تتصور البركان مجرد جرف هائل، شق صخري، شلال ضخمة، ولكن لا. الحقيقة هي أن البركان هو أفظع ما عرفه البشر. هو المستوى الثالث والأخير من لعبة غضب الطبيعة. البركان هو النار والإعصار.

الاسم الذي عُرف به يحيى عبد الله سلطان في كرموز كان يحيى بركان. بدا هذا الاسم مناسباً لقوته البدنية الهائلة، ولكن لا يعرف أحد متى ولا كيف التصق الاسم به. وبالمناسبة، فهنا ليس مهماً أيضاً. رجل ضخم، في الأربعينيات من عمره، ليس عن ترهل وإنما عن عضلات، بشارب ضخمة، لا يرتدي إلا الفانلة الحمالات وبنطلون ترنج رمادياً وكالْحأ، طول الوقت لا يرتدي سواهما، في عز الشتاء يضيف زُنطاً عسكرياً فقط فوق الفانلة الحمالات. لا يعرف أحد شيئاً عن ماضيه. هناك لغز في حياة يحيى بركان، يقول الجميع، ولا أحد يسعى لكشف هذا السر. هو من جانبه لم يكن يتكلم. صامتاً مصمتاً كان يحيى بركان.

كان يتقن كل شيء. بداية ظهوره في كرموز كانت في ورشة خراطة تحت بهت سوسو، في كربنتينة سوسو. منظره وهو يعمل على الحديد والنار، بفانلته الوسخة وشعر صدره وعرقه وصمته الشبيه بصمت الإلهة كان يثير الشهوة في نفوس بنات المنطقة، بنات المدارس أو الكليات أو المعهد، وهو عن نفسه لم يكن يشغل باله بهن. دائماً كان مشغولاً بعمله، وعندما استفزه مرة صاحب الورشة واضطر يحيى بركان لأن يرفع عليه آلة الخراطة ويفتح بها دماغه، كان هذا عنصراً أساسياً في تأسيس أسطوره، الشخصية ولكن الجنسية أيضاً، كإنسان سكي موت. غادر يحيى بركان كربنتينة سوسو ليلتحق بالعمل في ورشة أخرى بالقرب من بيت إنجي. ولكن صاحب الورشة سرعان ما طرده بعد أن علم بسابقتها الدموية في الورشة السابقة. وقتها كان يتم افتتاح كشري بنات حمادة. انضم للعمل بالمحل كصبي عادي يفرش السفرة. قنع بهذا المصير. لم يرغب في تغييره. وفي الليل. عندما كان يعود للفرقة التي يمكنها أسفل بير السلم، كان يحمد ربنا على كل شيء، لو عرفتم الغيب لاخترتم الواقع، يتنهد وينام.

يحيى بركان. هذا أوان كشف السر، هو حفيد المعلم سلطان، معلم قديم ظهر في القباري منذ عقود طويلة، يقولون عنه تاجر مخدرات ويقولون عنه صلح اجتماعي، ولا يذكره أبناء الإسكندرية المحدثون. مثل جده ومثل أبيه، عمل يحيى بركان في تجارة المخدرات لفترة ما. حُبس لسنوات طويلة، ثم خرج. عاد للقباري فوجد معلمين آخرين يقرفونه في عيشته ويزاحمونهم في لقمة عيشه. قيل إنه تعرض لمحاولات قتل أيضاً. صلى فجرأ فأتاه نور أبيض ينصحه بالعمل الحلال، فخرج إلى كرموز.

ليست هذه فقط مؤهلات يحيى بركان. لقد تطوع بمعهد ضباط الصف بعد حصوله على الإعدادية مباشرة. التحق بسلاح الماعقة في الجيش. أبدى هناك

نيوفاً خاصاً. يذكر زملاؤه في الجيش اجتيازه للتدريبات والاختبارات بمهارة غير طبيعية، أتاحها قوته الهائلة وجسمه الشبيه بجسم ثور. وعندما أصيب في كتفه تمت تسوية معاشه وخرج من الجيش على درجة شاويش. لدى خروجه عمل بالمخدرات، على خطى أبيه وجده، ولكن ظلت ملامح من فترة الجيش تناوشه كل فترة. وهو في السجن؛ وهو يعمل خراطاً في الكرنثينة، وهو يعمل بمحل الكشري. مثل الفول المستأنس، يبدو أن الحياة الحالية، حياة الاستقرار والدعة والهدوء، لم تناسب يحيى بركان أبداً، حتى وإن أضع نفسه بالعكس.

أدمن يحيى بركان الخمرة والقمار في فترة متأخرة من حياته. وهو في كرموز. عوضه هذا عن إحساسه بأنه لم يعد مجدداً للحياة. بعد انتهائه من عمله، كان يقضي سائر الليل على القهوة يلعب الكوتشينة مع أصحابه ويعب الخمرة. كان لعباً محترفاً. يكسب كثيراً، ما يمكنه من شراء الخمرة ومواصلة اللعب. الخمرة كانت ترقق روحه. على الرغم من منظره المخيف، وعضلاته التي تبرز من كل زاوية في جسمه، كانت ليحيى بركان روح طفل. يبكي إذا ما رأى فرخة مذبوحة، فما بالك برؤية إنسان يتعرض للظلم. والخمرة كانت تضيي المزيد من الصفاء على روحه. هكذا إنن راقب قصة حب حما ويارا من بعيد، وبعدها قمة حب حما ولارا. وعندما قرر حما أن يوسخ مع البننتين، كان هذا جارحاً له كثيراً. طيظب على يارا. وعدها بأن ينتقم لها. وكان واثقاً من تحقيقه وعده.

•••

كل من رأى يارا ولارا في شبابهما ظن أن يارا هي الأكبر، وعندما تشرح له إحداهما أنهما توأم كان يجزم بأن يارا هي التي خرجت من بطن أمها قبل أختها. يارا كانت حكيمة ونات شخصية قوية، بخلاف لارا التي لم تستطع أن تربي لها شخصية مستقلة بعيداً عن أختها. "مين فيكو مولود قبل الثاني. مين فيكو كان ف حبه أناني؟" كان هذا هو السؤال الاستقرائي الأكثر شيوعاً الذي يتم توجيهه إلى الأختين.

بالإضافة إلى تكوين مستقبلهما الخاص، وإلى الانتقام من حما وأميرة ومنه الله، فلقد كانت لدى الأختين مهمة مقدسة، إزالة السمعة السيئة لأمهما في المنطقة. بدا أن الجميع قد نسي كل شيء، إلا أن يارا ولارا هما بنات حمادة البطل وصباح الشرموطة. حمادة البطل لم يكن يحتاج للدفاع عنه، أما صباح فهي بالشكلة الأكبر. والمهمة نهضت بها يارا، وكانت أهلاً لها، حتى مع تعقيدها الظاهري، ليس سهلاً أن تدفع عن نفسك تهمة أنك ابن عاهرة. خاصة لو كانت هذه هي الحقيقة. كما أنه ليس سهلاً أن تدافع عن شخص لا تعرف شيئاً عن حياته. لم يكن أحد يتحدث عن هذه المرحلة ولا ملبساتها. إنجي لم تكن تتكلم، ولا أم صلاح الشغالة، ومن كان يمكنه الكلام لم يكن يعرف شيئاً. وبقدر ما كان هذا يزيد من تعقيد المهمة، فقد كان هو حجر الأساس في دفاع يارا عن أمها الراحلة: "أنت تعرف حاجة عنها؟ أنت تعرف هي كانت مين ولا جت مين؟ احنا كشعب احنا بنموت ف الفتى، كلنا بنفتي ما شاء الله. احنا بقی اسمنا جمهورية نار الإفتا العربية"، ولارا كانت تعقب على كلام أختها: "آه، كلنا بنحب الفتى أوي". كان هذا الدفاع ناجحاً في فترة ما، في البداية، وفيما بعد لم يكن من بديل عن العراك. تقف يارا في وسط محل الكشري وتصرخ في إحدى الزبونات: "والنبي ياختي خليك في حالك"، وتوجه كلامها إلى

الزبائن كلهم: "واني أي واحد هيقول نص كلمة عن امي اني هنظلعو دين امه قدام الزباين أجمعين. والراجل فيكو يوريني نفسه". مرة أخرى تعاركت مع زبونة أخرى، جامعية في الغالب، دقيقة الحجم وترتدي نظارة وبنطلون جينز وتيشيرت نص كم. يارا كانت تقف من بعيد تراقب المحل ولفت نظرها أن هذه البنت بالتحديد تشير إليها وتعزم لصاحبها. سواء كانت صباغ هي موضوع الغمزة - وهو الغالب - أم لم تكن. فإن يارا اقتحمت المشهد بعنف. لا تذكر البنت سوى أنها فوجئت بصراة تطير فوق رأسها وصرخة هادرة تتردد في المكان "يا واطية يا زباله". شاطتها يارا من على الكرسي، طرحتها أرضاً وبركت فوقها وهي تلطش فيها وتعض نراعيها، "يا زباله يا معفنة يا كلبة". صاحب البنت حاول التدخل، كان مرعوباً، يهتف بين الحين والآخر "يا مدام ماينفمش كدا، عيب يا مدام، يا آنسة". البنت، في محاولة للدفاع عن نظارتها، وضعت يدها أمام وجهها، فما كان من يارا إلا أن اقتحمت اليدين المتشابكتين واختطفت النظارة بقوة وضمت تطبقها وتعصرها، وهي تصرخ بجنون "اهي. مش دي النظارة! يا زباله يا واطية". قبل أن تغادر البنت المحل مع صاحبها، تم إلزامها بدفع حق التكسير في المحل. ورد شرف ليارا عن الإهانة التي لحقت بها، وتعويض للمحل عن الضرر الذي أصاب سمعته من جراء العركة، ويضاف إلى هذا حق الوجبة التي طلبها بالطبع.

هذا ما كان يحدث أمام الناس، ولكن بينها وبين نفسها، فلقد تعاطفت يارا مع شخصية أمها، حتى وإن لم تعرف عنها الكثير. لأسباب مجهولة، ارتبطت أمها في ذهنها بصورة محددة: امرأة بريش ملون مثل ريش البغبغان. لم يخطر على بالها اسم "صباح" إلا وكانت هذه هي الصورة التي تقفز لذهنها، على رأسها ريش مثل الهنود الحمر، وعندما تخلع ملابسها أيضاً يظهر ريش

ملون كثير ملتصق ببطنها وكتفها وتدييها. وعندما تنطق صباح فإنها لا تقول شيئاً من تاليها، بل تكرر المقطع الأخير الذي سمعته. لقد مثلت صباح بالنسبة لابنتها صورة نموذجية للمرأة البغبغان، وقد جعلها هذا تتعاطف معها أكثر. كانت تزورها كل جمعة في قبرها وتقرأ لها الفاتحة، وتهتم بتزيين القبر من فلوسها الخاصة، وتخوض المارك مع إنجي جدتها حول أمها. إنجي لم تكن تحب صباح، وهذا من زمان، وبارا مستعدة لأن تموت في مقابل رد أي كلمة وسخة تقال عن أمها. تركت بارا البيت لأسبوعين كاملين غضباً من كلمة كهذه قالتها إنجي. وعندما عادت عادت بشروطها هي: "أمي احسن ست ف الدنيا كلها، واللي يقول غير كدا يبقى هو اللي يسبب البيت". كل هذه المارك خاضتها بارا، لا أختها.

المركة حول الأب أيضاً خاضتها بارا. صور حمادة التي كانت منتشرة في البيت لم تكن مرضية لها. كانت موقنة بأن أبها لم يكن سعيداً لهذا الحد. وإن هذه الصور هي لعب فوتوشوب قام به أشخاص يكرهونه لتشويه صورته. ومبررها كان منطقياً: "أزاي يبقى واحد جسمه مليان بالشكل نا ويقدر يدمر الأعداء؟". بهذه الحجة استطاعت إقناع أختها بالبد في حملة لإعادة قراءة التاريخ من وجهة نظر مغايرة. تذكرت الأختان مشاهد جمعتهما بأبيهما الذي كان طويلاً وعريضاً وجسمه كان منتفخاً بالعضلات. طيب، مادام الحال هكذا، فلما نا لا توجد صور تعبر عن هنا الجسم إن؟ رد بارا كان جاهزاً: "حضرتك انت تعرف انه كان فنان. الراجل نا صور ورسم الناس كلها في المنطقة، وماكانش يرضى ان حد يصوره ولا يرسمه، كان يقولي يا بت يا يارا انا ماحدث هيعرف بصورني زي ما انا باصور الناس. انا عاوز اللي بصورني يصورني بأسلوبي انا، مش بأسلوبه هو". لهذا، فإن كل محاولة لالتقاط الصور خلصة

لحمادة كانت محاولات فاشلة وأسفرت عن ظهور صور ملعوب فيها للشخص الذي غير تاريخ المنطقة كلها. لارا كانت تتابع الحوار وتهز رأسها مصدقة على كلام أختها.

عانت الأختان من خيانة حما لهما، ولكن يارا كانت هي الأكثر تأثراً. وهي التي أقنعت أختها بأهمية الانتقام. والأسباب يمكن وصفها بأنها نسوية بحثة، مش عشان احنا بنات يبقى يفكرنا هفية. لا يا حبيبتي، بكرة يشوف البنات بول هايعملوا فيه إيه. ولارا، الأخت التي تبدو صغرى، لا تقاطعها. فقط عند انتهاء يارا من الكلام، تهمس لها لارا، وهما على سريرهما، وعلى النور الخافت للأباجورة، عارفة ياختي انا نفسي ف إيه؟ إن كل حد ف الناس بول يلزم حده. وبابا يرجع علشان الناس تعرف مقامها، إحنا زهقنا خالص ياختي. ما لم تقله لارا هو أنها، في الليلة السابقة، رأت أباهها حمادة في الحلم. كان يجلس مع فاروق صديق عمره. وكان فاروق يشير إلى حمادة ويقول لها: التاريخ هثبت بالمستندات ان انتو ضيعتو الرجل المحترم دا من إيديكو. بجد يا لارا انتو خسرتو كتير أوي. انا ماقدرش احد حد حجم الخسارة، بس الثابت عندي إن انتو خسرتو ياما، حوالي ملايين الجنيهات. إن لم يكن أكثر أو أقل بحاجة بسيطة.

نزلت البنتان لتركبا المترو. في طريقهما التقيتا ببحيسى بركان. أخبرهما إنه زاهب إلى المنشية، فقطعوا التذاكر سوياً. في المحطة دخلت يارا الحمام. هناك تذكرت المشاهد الساخنة التي ضعتها مع حما. ويبدو أنها تأثرت قليلاً، لدرجة إن عينيها التعمتا من فرط الحنين، وعندما خرجت سألهما بحيسى بركان عما بها فأنفجرت. قالت له سامحني يا عم بحيسى. انا مقهورة جامد م اللي

حمل. التصقت لارا بكتفه وسألته، ليه الدنيا مافيهاش أمان يا عم يحيى؟ هو من جانبه لم يحتمل كل هذا. فاضت مشاعره ولولا العيب وبصاة الناس لكان قد بكى هو الآخر. ركبوا جميعاً.

في منتصف الطريق بين الكرنيتينا والمنشية تعطل المترو. اهتز بعنف ثم توقف تماماً. لربيع ساعة ظل المترو واقفاً. الجو كان خانقاً بالداخل، نحن على مشارف الربيع، نحن في قلب النفق المظلم، والتكييف عطشان كالعادة. الرجال يهوون على وجوههم بورق جرائد، ونساء سمينات يفترشن أرض العربية في انتظار فرج قد لا يأتي، وأطفال يبكون، وامرأة حامل تصرخ من الألم والخنقة. قرر يحيى بركان أن يفتح باب العربية بيديه. حاول مرة واثنين دفع الباب بعضلاته القوية، والباب لا يستجيب. في النهاية فقط انفتح الباب. دخل بعض الهواء. توقف الأطفال عن البكاء والحامل عن الصراخ والرجال عن التهوية ووقفت النساء. مال يحيى بركان على أنن يارا وهمس لها، تعالوا نمشوها لغاية المحطة. أخبرته إن السير في النفق خطر، ولكنه كان قد زهق من الخنقة والقرف. قال إنه طالع، وخرج. تبعته يارا ولارا، ثم ركاب آخرون.

اجتياز النفق المظلم بالطول نحو محطة المنشية كان خبرة مهمة في حياة الثلاثة، الذين أناروا موبيلاتهم لتعينهم على رؤية الطريق. ضحك الثلاثة وقهقهوا وهم يمشون في طريق لم يحلموا يوماً باجتيازه، على الرغم من قربهم لهذا الحد منهم. توزع الركاب الآخرون على خطي المترو، الذاهب والقادم. الذاهب اطعمناو إليه، العربية نائمة كالقتيل ولن تتحرك الآن فيما يبدو، ولكن القادم هو ما كان مخيفاً، وفي حوار النفق الملتوية قد يأتي مترو مسرع فيدهس الجميع. سمعت لارا صوتاً من بعيد لصرخت، ثم تبين إنه صوت طفلة تبكي. ضحكت وضحك الجميع معها. ثم، فجأة، وعلى حين غرة، المترو القادم. صرير

عجلاته على الأرض. زمارته، وفي رفة عين انتهى كل شيء. توقف المترو بعد قليل. جميع من وقفوا على خطه قد ماتوا. اندهسوا تحت عجلاته. هم، يارا ولارا ويحيى بركان. كانوا يراقبون من بعيد. خرج السائق، لم يجد سواهم ورجلين آخرين. وجه السائق كان ممتعاً - هكذا رآه على ضوء المويابلات المفتوحة - وصوته كان مبوحاً. كان مرتبكاً ولا يعرف كيف يتصرف. صرخ فيه يحيى بركان: اطلع ياخويا. كمل طريقك. انت ماشي في آمان افه ولقيت ناس واقفين قصادك. هتعمل ايه يعني؟ انت ماعليكش حاجة يا بن عمي. عاد السائق لمربته. تحرك المترو. وانزوت لارا على جدار النفق وأخذت تنهه، وبجوارها أختها، تهديها وتنهه. أما يحيى بركان فقد جلس بعيداً عنهم بسنتمرات. أخرج قزازة الخمرة من جيب جاكته، يشرب منها وينهه. قضى على ثلاثة أرباع زجاجة البراندي المكتملة، سبك، بلا شيء بجانبها. حاول القيام فاهتز توازنه، عاود السقوط بجانب الأختين. ونام. نظرت يارا للجثة الممددة بجانبها وحاولت إفاقته. يا عم يحيى، يا عم يحيى. اصحى والنبي. هنموت احنا كمان. لم تنجح. في النهاية، قبضت على قزازة البراندي وضمت تشرب منها، أعطت لأختها شظية أو اثنتين، وتكومتا هما الاثنتان على جسد يحيى بركان.

ربما نامت يارا ولارا قليلاً، ربما غفيتا، ولكن هذا لم يطل. بعد عشر دقائق أفاق يحيى بركان. شد الأختين من ذراعيهما ومضى ليكمل المشوار نحو النور الصاعد من محطة المنخية. عند باب المحطة كان قد أفاق قليلاً. مترحاً بعض الشيء وتفوح من فمه رائحة الكحول، مال على يارا وهمس لها: الولا حما هيومت، هيتقتل، بنفس الطريقة اللي شفتيها كدا، زي الناس اللي ماتوا

دلوقتي. وصل صوته إلى لارا. نظرت الأختان إلى بعضهما ثم إلى يحيى بركان.
كتمتا ابتسامة مظفرة كادت تظهر على شفثيهما.

أمة بلا ذاكرة وتاريخ هي أمة بلا مستقبل.

ما الذي حدث لسكان كرموز؟ استسلم الجميع على ما يبدو للنسيان. لم يعد أحد يذكر شيئاً عما حدث من قبل. الجميع يرفضون التذكر، وإذا ما تذكروا، فهم يرفضون الحديث. بهذا نشأت أجيال شابة لا تعرف ماضيها، انغمست في واقعها المشوه ورفضت رؤية ما عداه. لسنوات طويلة، حوالي خمسة عشر عاماً، لم تعرف يارا ولارا شيئاً عن صراع العائلتين - عائلة سوسو وعائلة علي - مع بعضها البعض. الآن فقط، تقرران كسر حاجز الصمت. في ليلة مقمرة، جلست فيهما الاثنتان مع أم صلاح الشفالة، جميعهن يحشش: في البلكوته التي شهدت من قبل سقوط حمادة على أرض الشارع واستشهاده. يارا ولارا كانتا صاحبتين، حرصتا على ألا تزوداها في الحشيش. ظلت كوباية الحشيش مع أم صلاح طول الوقت. حديثنا يا أم صلاح عن سوسو. فتحدثت أم صلاح، يا بنتاتي، يا حبيباتي، ذات يوم من الأيام كان هناك شخص جبار، جبار جداً، اسمه سوسو، كان كافراً، ليس عنده أي إسلام. وأبوكم يا أولادي كان رجلاً طيباً. لم يكن يرضى الظلم. أبوكم حلو. وحياة النبي أبوكم حلو. أنا رأيت كل شيء، رأيت المذبحة. انفجارات وضرب نار. رأيت أبوكم يستشهد لأنه قال لا في وجه الظلم. سوسو لم يحتمل، من هذا الذي يقول لي لا، أنا الملك الكبير والهيلمان وهذه الأنهار تجري من تحتي، هاتولي اسمه هذا الذي قال لأه، وأبوكم كان الكل يعرفه، قالوا لسوسو يا معلم هذا رجل قوي وصالح، ولكن سوسو ركب دماغه. تعاركا، واحد على حق والآخر على غير حق. هنا يا

بناتي، هنا، في هذا المكان الطاهر، استشهد أبوكم. وأيمته وبكيت، وتحت منا، في الشارع، مات سوسو، قتل أبوكم ثم مات.

ولماذا لم تخبرينا بهذا يا أم صلاح من قبل؟ لأن الحقيقة صعبة. لأنكم بنات، والبنات حقها مهذور هذه الأيام، لأنكم لن تفعلوا شيء. أنا كنت بنت مثلكم وأعرف. أنا تعبت كثيراً. أنا رأيت كل شيء (يختنق صوتها) أنا تعبت على الحقيقة. أعرف بشراً. هل عرفوني؟ أبداً والنهي. لم يعرفوني. تعبت من الذكريات، تعبت من الكلام، تعبت من الحشيش. أنا راوية أنام. تقف، تمدد على سور البلكونة. تسندها لارا. الآن تجلس الأختان بجوار بعضهما البعض. تنظران لبعضهما. إذا كانت أم صلاح تعبت. فهما لم تتعبا بعد. التاريخ سيواصله، بسواعد قد تكون ضعيفة ولكن بإرادة من حديد. صامتين وجادتين. رصينتين ومفرقتين في التفكير، تتبادلان أنفاس الحشيش بينهما.

حما كان مشغولاً هذه الأيام بالتحضير للخطوبة. اشترى الدبل. وبدأ في التحضير للشبكة. اقترض حقها من منة، ومضى يشاهد مع أميرة ويختار. كل شيء كان جميلاً بالنسبة له، التحق بالعمل في مكتب محام كبير في محطة الرمل، وينتظر الآن افتتاح مكتبه الخاص، إذا صدقت منة وعدها. السؤال الآن: في خضم كل هذه الأحداث السعيدة، ما الذي مثلته يارا ولارا في ذاكرته؟ السؤال سألته إياه أميرة خطيبته، سألته إن كان قد أحبهما. فنفض عنها الفكرة. ابتسم، قال حب إيه اللي انت جاي تقول عليه، ثم حكى لها إنهما كانتا تتحرشان به في كل مناسبة. ويعدين انا شاب. يعني لو أي واحد ف مكاني كان يعمل كدا. أنا قرفت يا يارا خالص وحياتك. ابتلعت أميرة خطاه في اسمها

باهتامة، أما هو فارتبك. طبّبت على كتفه وقالت له معلش يا حما. كلنا ممكن نغلط. ولم يفهم أي غلط بالضبط الذي تقصده، وابتسم هو الآخر.

أميرة لم تحمل ضغينة أبداً تجاه أي من الأختين. كانت تتعامل طول الوقت بنفسية المنتصر، الذي لا يلقي بالألحاحات الصغيرة. احلّوت في هذه الأيام كثيراً. راعت اختيار بنظوناتها وجواكتها وإشارياتها، ومسحت بجرة قلم كل الشعر الشارد في وجهها، وصارت تكلم الجميع بحساب، وبين كلمة والأخرى تقول "خطيبي قالي"، أو تشكو من مشاكلها في اختيار الشبكة "أنا لو اعرف ان الموضوع كدا ماكننش اتجوز خالص". وحما بجوارها يصدق على كلامها ويمنحه الشرعية. وبالمناسبة، ألحت عليه أميرة أكثر من مرة أن اسم حما لم يعد مناسباً له. طلبت منه أن يعود إلى نفسه كصمد. ولم يعرف هو كيف يفعل هذا، هي التي ساعدته. لم تعد تتكلم عنه أبداً بوصفه حما. محمد خطيبي بيحب اللون با، محمد خطيبي بيغير عليا موت. اصل أنا مش عاوزه ازعل محمد. وهكذا. والناس موافقة وراضية. اتعوجت على الجميع بكلامها، ولكنها مع هذا لم تحمل ضغينة أبداً تجاه أي من الأختين. كانت أقرب للعلاك وقتها.

التشابه بين الأختين التوام لم يكن فظيماً. ليس كما تصور الدراما التوائم. لانا إنن أحبهما حما في نفس الوقت؟ يأتي هذا التساؤل على خلفية واقعة حب أخرى. في الإعدادية، أحب لارا زميل لها في الفصل. كان يطيل التحديق بها ويملفها كرايسه حتى اعترف لها ذات يوم بحبه. هي من جانبها انكسفت موت، وذهبت لتشتكي للعبس في المدرسة. قامت البس باستدعاء الولد وهزأته أمام جميع التلاميذ. ومنهم لارا وأختها. البس كانت تصرخ: بتعاكس البنت واختها؟ التفتت لارا ليارا، فأخبرتها الأخيرة أن الولد كان يماكسها طول

الوقت ويقول لها إنه يحبها. في الغريبة، تبادلنا الأختان جرحهما المشترك. اكتشفنا أن كل الكلام كان مكرراً بينهما. التاريخ يتكرر، مرة كمأساة والأخرى كملهاة. على نهاية الليل وصلنا لرحلة الملهاة. ضحكنا كثيراً وهما تكتشفان المزيد من التفاصيل المكررة.

الحب جمعهما، والتفاصيل الصغيرة. عندما تفكر يارا في شيء تفكر لارا فيه في نفس الوقت. أحياناً ما تنطقان الكلام في نفس واحد. والمرارة جمعتهما أيضاً، بعد خيانة حما لهما، عاودتا عدم الاهتمام بمظهرهما، نعت من جديد شعرات شاربيهما وحاجبيهما. لبستا كيفما اتفق، واعتصمتا بجذتهما وبأم صلاح الشغالة. أم صلاح كانت تحكي لهما عن كل شيء، كانت تحكي لهما التاريخ بحسب من رآه ولم يشارك فيه. تفضيلة واحدة شاركت فيها أم صلاح قديماً، عندما كان اسمها لا يزال عادة. وحكت عنها للأختين: جدكوا يا بنات كان اسمه بخيت. أنا عرفت أصله. جدكوا الكبير. دازي ما تقولوا أساس العميلة. سافرت الصعيد أنا وسألت واتقصيت وعرفت. جدكوا كان صعيدي. كان زبي عمدة. كان راجل صالح. في الصعيد أنا قابلت أم أميرة بتي (تقاطعها البنات: طنط منة؟) لا يا بنات. لاه. أبدأ. خالص والله. ديت كات ست تانية، صالحة برضه زبي جدكوا بخيت. كات بتحب الخير للناس. هي شافت جدكوا، هي من عيلتكوا، زبي بت عمكو أو بتاع. هي بتي حكيتلي على بخيت. ابوة كدا. حكيتلي عليه. قالت لي بخيت كان ملك الصعيد، عظيم وكبير وحاجة يعني عظيمة جداً. لكن بتي عمره ما أذى حد. صحيح قتل ناس ياما، لكن بالحق، كانوا اللي عاوز يموتو واللي عاوز يسرقه واللي عاوز يغشه. هذا جدكم يا بنات وهذه حكايته.

يوم سبعة وعشرين مارس يقترب. بعد أسبوع بالضبط حما في مشوار إلى المعمورة. يلتقي يحيى بركان. يركبان المترو سوياً. في محطة المنشية يمتلئ المترو بالركاب. حما عرقان. يناوله يحيى بركان جرنانا ويقول له، هوي بيه يا خويا. الحر صعب. والمترو يتوقف فجأة. في منتصف الطريق بين الرمل والأزاريطة. لمدة ربع ساعة يظل المترو عطلانا حتى يتمكن يحيى بركان من فتح الباب الحديدي بقبضة يده. كما تمرن على فعلها من قبل. يفرلان سوياً مع ركاب كثيرين. يسيران في النفق وصولاً إلى محطة الأزاريطة. يلاحظ حما أن المترو عطلان بسبب جذع شجرة ضخم ملقى أمامه. الرجال يحاولون إزاحته. يعرض على يحيى بركان أن يشاركا الرجال فيصرخ هذا. على إيه يا بن عمي. دقيقتين ونوصلو المحطة ونركبو مشروع من فوق. يواصلان السير إنن. زحام شديد ورجال يخبطون في بعضهم البعض. بعض الرجال يسرون على قضبان الخط الناهب والبعض على الخط القادم. وعندما ترن زمارة المترو القادم. فجأة. هوب. وبسرعة. يقوم يحيى بركان بدفع حما إلى الخط القادم. هكذا. مع بعض الرجال الآخرين. يتحول حما إلى ذكرى إنسان، لحم ملتصق بحديد القضبان ودم يتشربه الحصى.

يعود يحيى بركان إلى فوق الأرض، يحكي لكل من شاهده عن صديق عمره الذي استشهد تحت عجلات القطار. كان معايا. وحياة النبي كان معايا خطوة بخطوة، هو مات وانى فضلت. يبكي. ويسب الدين منة مرة للشخص الذي وضع الشجرة أمام القطر ولزقها بغراء في القضيب. يبدو للجميع وكأنه خارج من صدمة عصبية لن تروح أثارها بسرعة. تعاطف معه الجميع. حزنوا لحزنه وبكوا لبيكائه. وعندما تغيب في بيته أسبوعاً لا يذهب للعمل زاره الناس. كان يبكي. هو مات وانى فضلت. أني اللي قتلته. أنا اللي قتلته ياللا بينا نزلو.

طبخوا على كتفه وقالوا له، وانت كنت هتعمل ايه يا عم يحيى، نصيبه كدا.
والكلمات لا تواسيه، يصمت طويلاً ويحدق في الحائط. ويخرج قزازة الخمرة.
لشهرين سادت أجواء الحداد في بيت منة. أميرة صامتة لا تتحدث. وأمها
تحاول مواساتها ولا تفلح. يارا ولارا تزوارنهما وتعتذران عن غياب جدتهما
الكبيرة والتعبانة. فتجيب منة باستهزاء. تعبانة؟ ربنا يشفي. (ثم بنظرة
حادة) ستكو مبسوطه. صح؟ تنظر يارا للأرض ثم تقول بثبات. عيب اللي
بتقوله يا يا طنط. وتواصل لارا، عيب أوي. وأميرة ترد بفتور، أنا امي تقول
اللي على مزاجها. تنصرف البنات وتشكو كل منها للأخرى في الطريق من
جحود هذه الناس، يعني نزورهم ونطيبو بخاطرهم ومستخسرين فينا كلمة
عدلة. وهو يعني فيه حاجة اسمها حد يفرح ف حد عشان الموت؟

•••

منة كانت إنسانة رقيقة، برغم عصبيتها الزائدة أحياناً. ظلت تذكر
بالخير الناس القدامى الذين وقفوا بجانبها، والناس القدامى الذين وقفت
بجانبهم. من ضمن الفرقة الأخيرة كان المعلم سلطان الله يرحمه. تذكر منة
عندما كانت تزور أرملة وتواسيها، وتحاول إعادة كتابة قصة حياة زوجها
الراحل. تذكر عبارة "الإصبع الميتور لا يدوحس أبداً" التي تولت هي تعليقها
في المنطقة مرفقة بصورة سلطان وينبذة عن حياته. وعندما يخبرها أحد أولاد
الحلال عن نسب يحيى بركان. الحفيد الوحيد المتبقي للمعلم سلطان، تشعر
بسكين من نار يخرق ظهرها. من جانبها، لم تستبعد أبداً احتمال تورط يحيى
بركان في مقتل العريس المستقبلي لابنتها، ليس فقط أنها لم تستبعد، هي كانت
متأكدة من هذا. ولذا فلقد قررت اتخاذ خطوة حاسمة. زارته في بيته. طلبت
منه أن يحكي لها بالتفصيل مشهد المترو وهو يدهس جسم حما. يحيى بركان

صامت. الحزن يقتله. يسرد لها الحدث بمنتهى الأمانة، لا يغير في أي تفصيلة. باستثناء تفصيلة واحدة بالطبع: مشهده وهو يزرق حما على القضيبي. تتناول منه قزاة الخمرة، تشرب منها بقاً ضخماً. ثم تقول، فيه ناس شافوك يا يحيى وانت بتزق الولاء. لا يرد. هو حزين أو مذهول. ولا ترحمه هي، وناس شافوك وانت ف الليلة اللي قبلها بتقطع الشجرة اللي قدام محل الكشري. ينكر، فتواصل أسئلتها، أو مال مين اللي قطع الشجرة يا يحيى؟ فيبدأ في الهلطة، تعاوده النوبة العصبية ويبدأ يبكي بشكل محموم، هو مات، واني اللي فضلت. أنا حاسس إنني انا اللي قتلته يا حاجة. فترد الحاجة بصرامة، لأ مش حاسس يا يحيى، إنت قتلته فعلاً.

شوف يا يحيى، اني مش جاية هنا علشان افتح معاك مواضيع وحوارات، بس اني عاوزك تفتكر حاجة واحدة، جدك يا ولا، جدك اللي لما مات ماحدث قرب لجنته ف الشارع. الناس خافوا. واني اللي عملته بطل، اني اللي فكرت الناس بيه وقتلتهم انه كان فيه هنا واحد اسمه المعلم سلطان، واحد لازم تحترموه وتعاملوه كويس وتفكروه، لأنه كان إنسان جدد. لأنه كان يعرف ربنا ويعرف إن الحق أحق أن يُتبع.

بصوت خافت جداً قال يحيى بركان، إنتي ماعملتيش حد بطل، هو كان إنسان بطل من غير حد. هنا فقط صرخت منة. ألقى بقزاة الخمرة على رأسه، يا خول لما اني نتكلم ماتردش عليا، الراجل اللي بتقول عليه إنسان بطل كان إنسان زبالة، اني قابلت ستك وكلمتها. إنت كنت عيل بشخة، إنت كان لازمك ستين وستين عشان تتولد أصلاً. لم يتفاد يحيى بركان القزاة. مسح على جبينه فامتلات بياه دماً. وواصلت هي، ولما يبجو شوية بنات عرة يضحكو

عليك ويقولوك اقتل لنا بني ادم تبقى تسأل مين البني آدم دا يا رمة، تعرف مين اهله ومين ناسه.

شوف يا يحيى، اني مش هنجيب البوليس، ولا هنكلمو اي حد ف الحكومة. اني تعرف ناس كبيرة هناك، بس مش هانكلمو حد. مش عشان أنا كويسة. لأ، اسأل عني وانت هتعرف اني مرة بنت كلب. الكل هيقولك دي واحدة ست وسخة ماتسيبش حقها ولو عند مين، أنا كدا، ربنا خلقني كدا (تصمت قليلا، ثم بنيرة هادئة) يا يحيى خليك عارف اننا لينا حق عندك. وانت ماتبقاش تشتكي. انصرفت منة، صفقت الباب الخشبي وراءها فانخلع في يدها. نحن مازلنا في بدايات الربيع. السقعة لم ترح نهائيا. في نومه عانى يحيى من الكوابيس ومن صواريخ الهوا التي سمح الباب المخلوع بدخولها.

تجنباً للسقعة ربما، قرر يحيى بركان ألا يبيت في البيت. استأذن من يارا أن يبيت في مطبخ محل الكشري. بعد أن يفلق الباب الصاج عليه، فسمحت له. نام ولم يرتح، لليلتين متتاليتين ظل يحاول النوم فتحجم عليه السقعة والكوابيس وصوت منة القائر. لا أحد يعرف متى بدأت هذه الفكرة بالبزوغ لديه. أو لماذا، أو كيف، ربما بدافع من نومه غير المريحة أو بدافع من عذاب الضمير تجاه من قامت من قبل بإحياء ذكرى جده الراحل. المهم أن يحيى بركان لم بطاطينه وقزايير الخمرة في الثانية فجرأ من مساء إحدى الليالي وسار نحو مدخل محطة الترو. نزل درجات السلم، وقفز فوق الباب المعدني. ومشى. مثقلاً بثلاثة بطاطين لف جسمه كله بها، باستثناء عينيه. نزل النفق. أشعل ولاعته طول الطريق ليتغلب على أمواج الظلام التي حاصرتة، وفي منتصف النفق بين الكرنتينة والمنشية، جلس. أخرج قزازة الخمرة، شرب منها ثلاث جرعات متتالية، ثم أغمض عينيه. نام يحيى بركان بعمق لم يعتده من قبل في

أية ليلة من ليالي حياته الكثيرة. صحا في الخامسة والنصف صباحاً. رجع من نفس الطريق. وبينما كان قطار المترو الأول يتحرك، كان قد وصل إلى بيته. أكمل نومه هناك، بعد أن اكتشف الحل السحري لأرقه الزمن.

اعتاد يحيى بركان إن النوم في النفق. أمنه، مع الخمرة والقمار. بل واصطحب معه رفاق القهوة ليشاركوه اللعب، هناك. تحت الأرض، حيث لا يمكن لأحد أن يضايقه ولا حد له عنده أي حاجة. يلعبون ما شاء لهم، ثم ينامون ساعة أو ساعتين. ثم ينصرفون. كل واحد إلى بيته، قبل خروج القطار الأول. استمر الأمر بوتيرة منتظمة، حتى محاولة الاغتيال الدامية.

خرجت مجموعة من الرجال، من مكن لم يلاحظه يحيى بركان، وأطلقوا النار على الرجال اللاعبين. إطلاق نار سريع ومكثف كالحريق. ولكن يحيى بركان لم يكن الرجل الذي يفاجئه لعب صيال كهذا. أخرج من تحت بطانيته سلاحاً ألياً ومضى يرد على النار بالنار. وبسرعة محمومة أمر الرجال العزل حوله بالتوزع على الفجوات بسور النفق كي يصبحوا في مأمن من النيران، باستثناء واحد منهم أخرج طينجة من جيب جاكته ومضى يطلق النار معه. في النهاية انحسرت النار. اقترب يحيى بركان بحذر من مصدرها، وسلاحه بيديه، ليجد جثتين لشابين صغيرين. فحص جميع أركان النفق وصولاً إلى محطة الكربنتينة، آخر الخط. وعندما لم يجد أحداً آخر، أعطى أحد رجاله السلاح وطلب منه الوقوف لحراسة الجثتين. هتقف زي عسكري الخدمة، ماتتحرکش يمين ولا شمال لغاية أما أقولك، ولو حد ظهر ثبته واضرب نار عليه، عاوزك تموره، بس ماتموتيهوش يا حودة. ماتموتش حد. واني هنطلع نجيبو سلاح. اديني باقولك اهو، لو حد مات أنا بنفسي هاموتك. هكذا، انصرف يحيى بركان، وبقي حودة وحده يحرس الجثتين. وعندما عاد يحيى

بالسلاح كان الوضع مازال كما هو. ساعتان وانصرف كل لحال سبيله. تم دفن الجثتين تحت حصى الأرض. وجلس حوبة نهراً على كرسي محطة الكربنتينة يراقب أي شخص ينزل إلى أرض النفق، وفي مقابله شخص آخر يجلس على كرسي محطة الكربنتينة، كل منهم يحمل تحت ملابسه سيفاً ومدفعاً آلياً. وعندما دقت الثانية عشر بعد منتصف الليل نزل كل منهما إلى أرض النفق. وافاهما يحيى بركان ومعه عدد من الرجال الآخرين. لا يشربون اليوم. فقط يلمبون الورق، وعينا كل منهم في وسط رأسه.

الانتظار صعب. يحيى بركان كان واثقاً أن رجال مئة سوف يعودون في الأيام التالية، على الأقل لمعرفة مصير رجليهم، وبالكثير لمحبة الجثتين. لذا بقى على أهبة الاستعداد. لم يياس. يبقى في النهار مع يارا ولارا في المحل. ثم يزور إنجي على المغربية. يُطلع النساء الثلاث على تطورات الوضع. يتهدج صوته ويتحمس ويشوح بيديه كثيراً. تنظر له يارا بإعجاب، إلى جسمه القوي كالحيطه وفانلقته المتسخة ولحيته القصيرة السوداء والمشعثة، إلى شعر نراعه وشعر رقبتة وشعر صدره وصدرة نفسه الذي يطلع وينزل كلما انفعل في الحديث. يارا كانت مفتونة، وهذا ليس عيباً ولا حراماً. ويحيى بركان كان يستحق أن تُفتن به الحريم. هو أيضاً كان يسترجع أبهى اللحظات في تاريخه. الصاعقة، مشاريع الحرب، الصحراء، العرب، ضرب النار في كل مكان، الصراع مع الحكومة. الغول المستأنس يعود ليصبح غولاً متوحشاً وبرياً من جديد. والله زمان يا يحيى يا بركان، هكذا كان يردد لنفسه طول الوقت.

احتاج الأمر خمسة أيام كاملة حتى ينزل ثلاثة رجال للبحث عن الجثتين الضامتين. هنالك استلقنهم مدافع يحيى بركان وزملائه. الوقت كان

فبيل الفجر. القطار الأول يستعد للتحرك. المعركة مشتعلة. القطار الأول يتحرك فعلاً. واحد من رجال يحيى بركان يضرب ناراً على سائق القطار. يتهمم الزجاج الأمامي ويسقط السائق على أرض كابينته صريعاً. تنتهي المعركة بتقييد رجال منة الثلاثة والقائهم على أرض النفق تحت تهديد الدافع المشرعة. وبركض يحيى بركان الهستيري نحو إدارة المحطة وأمره للمدير بتحريك القطارات إلى محطة المنشية. القطورات كلها هتطلع على هناك وهنتحرك من هناك. احنا مسيطرين على نفق الكرنطينة كلها، من أول غيظ العنب لغاية المنشية. القطر اللي عاوز يفضل في مكانه هنا هيبقى بقاعنا. هانفكه ونبيموه خربة. تحركت القطارات. لم يستطع السائقون ولا إدارة المحطة فعل شيء، حيال السلاح الذي انبثق من كل مكان في النفق ليهدهم. مع رجلين من أعوانه سعد يحيى بركان لإغلاق الباب الحديدي للمحطة. بعد صرف جميع العاملين هناك.

رحلت قطارات المترو إلى المنشية إنن. تبقى قطار واحد. القطار الذي قُتل سائقه في المحطة. اعتبره يحيى بركان غنيمة حرب، وقرر فتح أبوابه لرجاله، كي يتدفقون ويأكلون ويحتمون من الشتا المنهمر. يحيى في هذه اللحظة كان يتصرف كقائد جيش من النوع الدراماتيكي. يعرف جيداً أن التاريخ يُكتب في هذه اللحظات باسمه، وأن أي تصعيد قد ينتهي بمقتله وبمقتل رجاله، ولكنه مع هذا حريص على مجده، على أن تُكتب اللحظات الأخيرة في حياته وفي حياة رجاله بحروف من ذهب.

هل كان يحيى بركان انتحارياً؟ أبداً. لقد كان شخصاً حساساً يريد الخير للجميع. يتحرك قلبه لأي مشهد إنساني أو مقطوعة موسيقية. ولكنه مع هذا، كان يسعى إلى حياة عظيمة. لا يعرف كنهها بالظبط، ولكنه يعرف أنه سوف

يجد الصيغة المناسبة يوماً للعثور عليها. في الليلة التالية للسيطرة على محطتي مترو الكرنتينة والكرنتينة، كان يتعمش مع إنجي وبنيتها وأم صلاح الشفالة. يكور كتل الأرز ويلقيها في فمه بلا كلمة، صامتاً ومغرقاً في التفكير، ويغمس لقمة العيش في طبق الملوخية ثم ينظر إلى البعيد. فجأة يلتفت إلى إنجي ويقول لها: عارفة يا حاجة؟ أنا كنت قبل كذا عايش أكني مش عايش. زي البهيمة، باكل وياشرب وبغام، زي زي البهيمة. بس الفهارة أنا عرفت اني عملت حاجة. وحق النعمة دي (برفع اللقمة المغموسة بالملوخية عالياً) إنني ما هنام ولا يهدالي بال لغاية اما ارد الفضالكم عليا يا ست الكل. تبتسم إنجي برضا وتعرف له في طبقه المزيد من الملوخية. تحلف عليه أن يأكل نص الفرخة كله. يحيى بركان كان يبحث عن معنى لحياته، وكل شيء في هذه الأيام كان يؤكد أنه قد وجد.

على مدار تاريخهم. دأب المصريون على اختراع عدة تركيبات صوتية، في محاولة منهم لاختزال جملة طويلة وشائعة للغاية مثل، "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". اعتاد الشعب المصري البطل تحدي الطول البالغ للجملة بصناعة تركيب مثل "عليكم السلام وكاته"، أو "عليسركأته"، أو حتى "عسأكته". جملة "السلام عليكم" نفسها - والتي يفترض أن الجملة السابقة جاءت لترد عليها - ليست استثناء. كثيراً ما تتحول "السلام عليكم" إلى "ساموليكو"، و"ساعليكو" وصولاً إلى "ساليكو". وحدها أميرة بنت منة الله كانت خارج المعادلة. وحدها كانت تقول بكل بطة وثقة وتأن "السلام عليكم"، "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"، بكل مقطع، بكل صوت. بكل حركة تشكيل. لقد كانت برنسية حقيقية.

مثل يحيى بركان، كانت أميرة تبحث أيضاً عن معنى لحياتها، ولكنها، على خلافه، لم تجده أبداً. في طفولتها، كانت لها خنافة صغيرة مع يارا ولارا في المدرسة. كانت تجلس بجانب البننتين، اللتين كانتا تتوشوشان فيما بينهما. ربما قالتا شيئاً عن "سميرة" أو "خميرة"، ولكن أميرة داخلها الشك في أن البننتين تتحدثان عنها. التفتت لهما فأنهت البنتان حديثهما ضاحكتين. وأميرة امتلأت بالغضب. قالت، أنا سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا. يارا ولارا لم تكونا

تتحدثان عنها فعلاً، ولكن أميرة كان الغضب قد أعماها. في حركة عنيفة رمت كراسة يارا على الأرض وروحت البيت. هناك أخذت تبكي.

ثمة جمل تظل ملاصقة لنا. يحدث هذا لفترات معينة من حياتنا. الجملة، بنبرتها الخاصة، تتردد في عقلنا طول الوقت، نتخيل نفسنا نقولها. ونخترع، نعم نخترع، طول الوقت نخترع، نخترع الموقف المناسب الذي سيتيح لنا نطقها كاملة. بنبرتها، العنيفة أو الساخرة أو الراضية أو المتذلة، حسب جملة "سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا" كانت ملازمة لأميرة طول الوقت. لم تعرف متى قامت بتركيبها في عقلها، ولا لماذا ظلت هذه الجملة، بوناً عن الجمل الأخرى، تتردد بوضوح كهذا في رأسها. جملة كتلك تلقي الضوء على شخصية أميرة. نجمة النجمات كما كانت ترى نفسها. الجميع يتحدثون عنها، وهي، مثل النجمات، لا تهتم إن كان الحديث بالخير أم بالشر. المهم أن الناس يتحدثون. منذ صغرها، كانت أميرة ترنو لمستقبلها بترقب كبير. رددت يوماً جملة أخرى، هي "أنا عاوزه ابقى حاجة". ما هي الحاجة التي كانت أميرة تريد أن تكونها؟ لا أحد يعرف، ولا هي نفسها. ولكنها بالتأكيد رأت في نفسها شيئاً كبيراً ومهماً، إن أتاحت لهذا الظروف. أنهت دراستها في كلية الحقوق بتقدير مقبول، فشطبت على إمكانية أن تصبح حاجة في القانون، ومات خطيبها في حادث مأساوي، فشطبت على إمكانية أن تصبح زوجة حاجة مهمة. وجلست في البيت. وضعت يدها على خدها، وبدا لها أن الزمن لن يتيح لها أبداً أن تبقى حاجة. وهكذا، مع كل الثقة التي تعكسها طريقة نطق أميرة لـ "وعليكم والسلام ورحمة الله وبركاته"، ومع كل عدم الثقة التي تعكسها عبارة مثل "أنا عاوزه ابقى حاجة بقى"، أو "سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا"، يمكننا أن نصف أميرة بسهولة بأنها كانت امرأة تتغذى على التناقضات. ولن تكون في هذا مبالغة.

من قبل، حاولت أميرة، ولم تخبر أحداً بهذا، التمثيل. تعرفت على ممثلين كومبارس يجلسون على قهوة في بحري، ولكنها زهقت. في هذه الأيام كانت مخطوبة، وانصب جهدها على أن تظهر لخطيبها أنها العروس المستقبلية الممتازة. مؤدبة ونكية وشيك وجامعية مثقفة. وعندما مات خطيبها نسيت حلم التمثيل. رجعت للبيت، دمعته على خدها، وتلفت مواساة أمها بصبر. ولكن الحلم لم يفارقها. تسرح نهاراً مع أحلام اليقظة. ترى نفسها تسير في كرموز والجميع ينحنون لها، الجميع، بمن فيهم، أو وفي أولهم، يارا ولارا وإنجي. ربما كانت أحلام اليقظة هذه هي الدافع الأساسي الذي واصلت بغضله أميرة الاهتمام بمظهرها. تذهب للكوافير كل أسبوعين، وتعمل مانيكير وبوديكير، وتتابع الصفات الجديدة لإزالة شعرها الزائد. هنا وحده كان يمنحها العزاء.

منة أمها لم تكن تنظر إلى هذا بارتياح. حاولت شد أي كلام معها، ولكن أميرة طول الوقت ساهمة. بتفكري في إبه يا أميرة؟ ولا حاجة يا ماما. مش هتاكلي يا أميرة؟ مش جعانة يا ماما. وهكذا طول الوقت. أسبوعان مرا على موت حما وأميرة جالسة بجانب الشباك تتأمل العابرين. في يوم ما كانت سهرانة تتأمل الطريق ومجموعة من الشباب السكرانين واقفون تحت الشباك. حمس واحد منهم لصديقه بشيء ما فهتف آخر، ماتزعليش يا آنسة. وأميرة كانت متأكدة أنهم يتحدثون عنها. أغلقت الشباك وانسحبت إلى عمق الشقة. فتحت اللفنج روم المغلقة على النوم وجلست فيها، هناك حيث لا يمكن لأحد أن يراها أو يشعر بوجودها. اكتئابها كان من النوع القاتل.

جلست أميرة في اللفنج روم لأيام متتالية. تأكل وتشرب وتنام هناك. حاولت أمها بكل الأشكال إخراجها منها، ولكن محاولاتها باءت بالفشل التام. منة كانت تشعر أن ثمة شيئاً ينبغي أن يفعل، لا من أجل أميرة، ولكن بمساعدة

أميرة. كانت تشعر أن شخصاً لا بد أن يُقتل في الأيام القادمة، ليكن اسمه إنشي.
بارا، لارا، أو يحيى بركان. المهم أن هذا كان مستحيلاً بدون مساعدة أميرة.
ليس لأن منة تعوزها الخبرة في هذه المواضيع. لا. منة كانت امرأة بمئة رجل.
تربت على يد سوسو وعرفت كيف تُدار الحرب، ولكن من الفاحية النفسية
يعني، اني مش هتقدرو نموتو حد من غير ما بتي تبقى ف الصورة. هي اللي
هتكمل المشوار. واكتفاب أميرة كان يسبب لها الاكتئاب، حتى ذلك اليوم الذي
خرجت فيه البننت من غرفة الليفينج روم. وتعثت مع أمها. هناك نطقت بأول
جملة حقيقية لها منذ أسابيع، ماما، هو جدي كان بيعمل إيه بالطب؟ جدك
مين يا أميرة؟ جدي حربي يا ماما. قالتها بحسم، ونظرت بثبات في عيني أمها.
حسناً، هكذا إنن، ربطت منة الأمور في عقلها: الليفينج روم، التي
اعتكفت فيها أميرة لأسابيع. هي الغرفة التي كانت مخصصة زمان. زمان
جداً، في بدء الخليقة، إذا أمكننا أن نصف الماضي السحيق بهذا الوصف.
لحربي، وهي التي منححتها عشيقته لهما، لمنة ولسوسو في بداية الزواج. الغرفة
مرت بتقلبات عديدة، منذ أن كانت مجرد غرفة برية، متوحشة وغير
متأنسة، يحوي كل ركن من أركانها سيفاً أو مطواة أو باكيتة بانجو. حتى
أصبحت هي الليفينج روم. ما الذي عرفته أميرة في الغرفة؟ الإجابة غير مهمة
طبعاً. التمتعت عينا منة، وبدأت تحكي.

لساعة ونصف ظلت منة تحكي عن أبيها، عن حربي البطل، الشخص
الذي أنقذ الإسكندرية زمان من المصير الأسود، عن الناس الذين كانوا يعاونونه
بصراحة، علي وإنشي وحمادة، وعن الناس الهايغة الذين قفزوا على ثورته.
سيد وسيكاً وسلطان. سلطان دا يبقى جد يحيى بركان. الرجل اللي مَوْت حماً
خطيبك. وتحكي عن نبوءة حربي قبل أن يموت. وهو يغمض عينيه استعداداً

للقاء رب كريم. قال حربي، خلوا بالكو على منة بقي. هي وبنتها اللي هيجيبولي حتي لغاية عندي. يتهدج صوت منة وهي تحكي. تلتمع عينها ويختنق صوتها وتططب على كتف ابنتها. وأميرة صامدة طول الوقت. عينها متعلقتان بأماها بثبات حديدي. وقلبها فرح. الأم كانت تتذكر جنورها، والبنت كانت تكتشفها. عندما انتهى كلام الأم. عانقتها البنت بلهفة حقيقية. هو يا ماما قالك اني هاجيبه حقه؟ أبوة يا أميرة. انا كُت عيلة صغيرة، صغيرة صحيح بس فاهمة كل حاجة. أنا شفت ابويا بيعوت قصاد عيني يا أميرة. ولما انتي اتولدت عرفت ان ربنا هيكرمني بيكي. بكت أميرة. لأول مرة تبكي أثناء الحوار. وعاهدت نفسها، بينها وبين نفسها، على الانتقام لجدها. الانتقام كان كلمة السر، الانتقام ممن سبق وأن شوها صورته وقتلوا خطيبها، وكرهوها وكرهوا الخير لها ولأماها. قانمة مرارات أميرة كانت طويلة للغاية.

بخصوص أميرة. لم تكن تلك البنت، ذات الشعر الأسود والعينين الفاتحتين، حبيبة أماها، كما قد يتبادر من المشهد السابق. في الحقيقة فلقد رددت منة الله، في أكثر من مكان وأكثر من مناسبة، أن بنتها هي سبب غلبها في الحياة. أشياء كثيرة أدت بالأم إلى هذا التصريح الخطير. مثلاً، لقد أصرت أميرة، بالرغم من تحذيرات أماها المتكررة، على المشي في الشقة حافية، بلا شبشب، وعلى شرب الماء من الشفشق مباشرة، بلا كوباية، كما أصرت على عدم إطفاء النور أثناء نومها، برغم علمها أن كل هذه تكاليف على أماها. أماها العجوز. ٦٨ عاماً، التي تشكو من متاعب في ركبتها وظهرها، كانت تمشي في الشقة وتنوح طول اليوم بجمل من نوعية: إنتي عاوزه تعوتيني؟ هو أنا الجارية اللي ابوكي جابها لك؟ أنا سايبها لك وماشية. استريحتي؟ طبعاً الأمور لم

تتوقف عند هذا الحد. في واحدة من تلك العركات، صرخت أميرة، يارب، انا مابقيتش عاوزه اعيش خلاص، انا قرفت منك. وصرخت فيها أمها بالمقابل. ما تعوتي نفسك ياختي، ما تعوتي نفسك وتريحيني. ركضت أميرة نحو نعلية المطبخ وهي تصرخ أنها ستكذب البنزين على نفسها عشان أمها تستريح. فتحت النعلية ولم تجد البنزين. أمها التي جن جنونها، لم تيخل عليها بالساعدة. أخرجت البنزين من تحت الحوض وقدمته لابنتها بنظرة تحد. تردت أميرة قليلاً في الإسماك به ولكن أمها عاجلتها بأن كبتت هي عليها منه. أشعلت الولاة وقربتها من ملابس ابنتها المبتلة بالبنزين. نظرت أميرة إلى أمها برعب وجرت نحو غرفتها وأغلقت على نفسها بالترباس. في الليل، عندما تصافت الاثنتان، باست الأم على رأس أميرة. اوعي تزعلي مني يا مرمر. اني مش عاوزه غير مصلحتك. تعلقت البنت بحضن أمها وباستها على خدها.

خفاقة أخرى متكررة: موضوعها كان الحلاوة التي تستعملها أميرة والتي يلتصق بعضها بقعر الطاسة. قررت الأم أن ترمي نفسها من البلكونة، فتحت شيش البلكونة ورفعت ساقها، وأميرة من جانبيها مضت تدفعها من مؤخرتها تجاه الشارع. فجأة نقرت الأم ابنتها جانباً، جلست راكنة ظهرها على سور البلكونة، ومضت تنهه بصوت منخفض. أما أميرة فأخذت تطيطب عليها وتبتسم، فجأة قالت، أصلاً يا ماما لو عاوزه ترمي نفسك ماكانش هينفع. نظرت أمها لها. إحنا في الدور الأرضي يا ماما. سكنت مئة قليلاً ثم انقلبت نهمنتها بكاء حاراً، لطمت على وجهها وصرخت، يارب خذني يارب، اني تعبت يا رب.

كل هذا كان معطلاً لروح أميرة، التي كانت تطمح في أن يكون لحياتها معنى كبير. والمعنى يتم تأجيله على الدوام. فقط، هكذا يمكننا الادعاء بثقة.

عندما ظهر هذا المعنى من قلب الفراغ، عندما أدركت أميرة أن وجودها من الآن فصاعداً سيكون مرتبطاً بالانتقام ممن سبق وأنوها وأنوا أمها، فقط عندما، توقفت البنت والأم عن المناقرة. اتحدت الاثنتان الآن، نسيता خلافاتهما القديمة. ومضيता تخططان لما سيحدث في الأيام المقبلة.

•••

مثل كل الفتيات، انبهرت أميرة سابقاً ببحيى بركان، وبالتأكيد داعبت رأسها خيالات جنسية بخصوصه. نشاهدها في مرحلة سابقة من حياتها، في المراهقة، وهي تمارس العادة السرية بإظفرها وطرف إصبعها وهي تتذكر منظره وهو يعمل في ورشة الخراطة. ما الذي حدث إن حتى ينقلب افتقانهما هنا إلى تفرز؟ قرقت أميرة من كل شيء يتصل به. من عرقه ورائحته الوسخة وصوته الأجش. مع الأخذ في الاعتبار أن تغير مشاعرها هنا حدث قبل مقتل خطيبها بوقت طويل. بمعنى أن مشاعرها لم تكن مرتبطة برغبتها في الانتقام. الأرجح أن أميرة قد نضجت. كانت قد بدأت في التعلق بحما، الشاب المثقف المتعلم الوسيم. وبدأت ترسم لنفسها صورة بعيدة تماماً عن يحيى بركان، صورة الفتاة الجامعية التي سوف تتزوج زواجاً مناسباً يليق بها ويرفع رأسها أمام أهل منطقتها المعفنة. وعندما قُتل خطيبها، وانعزلت هي في الليبنج روم، محاطة بذكريات أبيها وتاريخه البطولي، بدأت تداهمها الكوابيس في أي وقت تنام فيه. نهاراً وليلاً وما بعد الظهيرة. تسير في الشارع وتسمع صوت أقدام تطاردوا. تلتفت لتجد شخصاً بلحية كبيرة، تتعرف فيه على بركان نفسه، تحاول الهرب ولكنه يسد الطريق أمامها ويضحك ضحكته الشعواء. التي تنكشف معها أسنان سوداء ومتناثرة كثيرة. أو تركب عربة الحريم بالمترو، غارقة في جحيم النسوان العرقانة، وتكتشف فجأة أن كل النساء حولها هن نسخ

مكتورة من يحيى بركان، ويهتز المترو، يبدو على وشك الانقلاب على جنبه، وتستيقظ هي. عندما خرجت من الغرفة أخيراً، وواجهتها أمها بالتاريخ الزاهر لجدها، كانت قد اتخذت القرار بقتل يحيى بركان. على أن يكون هذا مجرد خطوة أولى. كرنينة علي وإنجي، كرنينة يارا ولارا وحمامة، الكرنيتينة الأثرية والقديمة والمشحونة بالمعاني. سوف يتم تفجيرها، وهذا النسل الوسخ سوف يباد من جنوره.

مكان المعركة لم تختره، ولا اختلته أمها. مكان المعركة فُرض عليهما: نفق المترو. في هذه الأيام كانت أمها تعاود الاتصال برجال زوجها الراحل، أسود سوسو القدامى وأشباهه، أو الذين كانوا أشباهه في العام أربعة وأربعين. وأصبحوا الآن وحوشاً مخضرمين، وبالإضافة لهذا، فإن كلاً منهم يملك ذكرى سوباء ناحية حمامة وعلي وإنجي. في العام أربعة وأربعين تم هدم المنطقة تماماً، ومن امتلك كشكاً أو ورشة أو محل اتصالات، تشرذ في الشوارع هو وعياله، كل هذا بسبب علي. يحفظ التاريخ كل من ولد وعاش بكرينيتينة سوسو. صحيح أنه على مدار السنوات السابقة لم يسترجع أحد التاريخ، مما أعطى الانطباع بأن كل شيء قد نسي، ولكن هيهات. بسرعة اشتعلت النار. وقفزت الذكريات المريرة على السطح، وتحفز الرجال المتعشون للدم بسيوفهم المشرعة. امتلأ بيت مئة بالرجال من كل نوع، يتوزعون على كراسي الصالة والأنترية، بيد كل منهم سيجارة، وأكواب الشاي تعدها لهم أميرة التي تروح وتجيء بينهم. رأس الحربة هو يحيى بركان، هكذا قرر الجميع، وقتل يحيى بركان لا يحتاج الكثير. بيتهما ثلاث رجالة ينزلوا عليه وهو سكران ويدغدغوا النفق على دماغ أمه. الصعب هو ما سيأتي بعدين. مواجهة الحكومة، ومواجهة إنجي وحفيدتيها اللاتي لن يمكن. بس همك معنا ما ست الكل.

هنحتاجو بس الفلوس منك. السلاح ماتنعيش هم. ومنة الله ترد على جميع الاقتراحات بابتسامة واثقة، الله ينور يا رجالة. كدا مية مية. شوة شاي للرجالة والنبي يا أميرة. وأميرة تتعلم الحياة من أول وجديد.

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. الرجال الذين ذهبوا لاغتتيال يحيى بركان في النفق لم يعوبوا. انتصر عليهم بركان وأصحابه. ولكن منة الله لا تستسلم للإحباط بسهولة. في هذه الأيام تعرفت على بانعة سمك تصلي معها في الجامع. بانعة السمك، واسمها الشيخة سالحة. كانت امرأة بشوشا. لم تشعر منة من قبل أبداً بهذا النقاء النفسي الذي تشعر به معها. صلت مرة العصر وراءها، وبعد الصلاة تحدثنا سوياً. قالت لها الشيخة سالحة إنها تعرفها جيداً، وتدعو لها بالهداية في كل صلاة. لم تفهم منة. منة لم تفعل شيئاً في حياتها يغضب ربنا، وفوق هذا تصلي بانتظام. الشيخة سالحة قالت لها إن ما ينقصها هو أن تقرب من ربنا. ابتسامة الشيخة سالحة، وبشاشتها، ووجهها المضيء بنور الله، كل هذا منع منة من أن تتخذ موقفاً عدائياً حيالها.

مرة في مرة في مرة، وبدأت منة تزور الشيخة في بيتها. كانت تريد أن تسمع منها أكثر. كما بدأت تشاركها تفاصيل حياتها، تفاصيل قليلة في البدء، ثم بدأت تحكي عن كل شيء، عن مقتل رجالها الذين ذهبوا لاغتتيال يحيى بركان. وعن أسر رجالها الذين ذهبوا لاستعادة جثث رجالها الذين ذهبوا لاغتتيال يحيى بركان. والشيخة سالحة تعرف كل هذا، كما يعرفه كل من يعيشون في المنطقة. نصيحتها الودود كانت واحدة لا ثاني لها، مش بالعافية يا أميرة، مافيش حاجة بالعافية. كل حاجة بتنفع بذكر الله. منة سألتها عما

تعنيه ففتحت الشيخة صالحة الشباك. شوفي الناس بول. شوفي كل الناس اللي ماشية في الشارع بول. كل دول مخاليق ربنا، وانا وانتي مخاليق ربنا، ربنا سبحانه وتعالى قالك إني جاعل ف الأرض خليفة. يعني احنا خلفاء هنا. اني عاوزاكي تفكري ف نا كويس، ولا تيجي تبصي ف عين حد من الناس بولا عاوزاكي تفتكري ان دا مخلوق من مخاليق ربنا. زيه زيك.

هكذا حددت مئة التعرین الروحي الذي كان واجباً عليها في الأيام المقبلة. أصبحت تنظر إلى جميع الناس، تتأمل صورة ربنا فيهم، وتذكر الله عندما تشاهد إنساناً. صفت روحها في هذه الأيام كثيراً. أكثرت من الصلاة، ودعت أميرة ابنتها للاستماع للشيخة صالحة في الدرس الذي تلقيه بين المغرب والعشاء يومي الاثنين والخميس. أميرة من جانبها انبهرت أيضاً بالشيخة. حرصت على معرفة رقم تليفونها وصارت تتصل بها في أي وقت لتسألها عن أمور تافهة تمن لها. الرجال الذين زاروا بيت مئة الله في هذه الأيام فتنوا بالنور المشع من عينيها. كانوا يجأرون بالسؤال بعد مقتل زملائهم، هنعملو إيه يا ست الكل دلوقتي؟ فترد بأن يتركوا التدبير لله. هو وحده الذي سيكرمهم. وحددت موعداً للهجوم على النفق - الذي سبق واستولى عليه يحيى بركان - بعد أسبوعين من الآن. كيف ومتى وأين؟ لم تشغل مئة أو أميرة بالها بالخطة الدقيقة للهجوم. آمنت الاثنان بأنهما إذا أخلصتا النية لله سوف يساعدهما. الشيخة صالحة من جانبها أكدت على هذا. رقت البنت وأما وقالت لهما اتوكلوا على الله دلوقتي. وتوكلت الاثنان على الله. لم يعملوا حساباً لبكرة. بكرة بتاع ربنا.

العجزة بدورها لم تتأخر. عندما انتهت مئة وأميرة من صلاة العشاء في المسجد، سلمت عليهما الشيخة صالحة. ابتسمت وقالت إن الصبر آخره جميل، وإنها رأَتْ رؤيا لهما وهي ساجدة. وبينما هما على باب المسجد عائدتين إلى

البيت أتاها أحد الرجال وقال إن الخطة نجحت. اقتحم الرجال النفق وضربوا ناراً. قتلوا ثلاثة من رجال يحيى بركان وعادوا بجثثهم معهم. كما استعادوا جثتي رجليهما مع الأسرى الثلاثة. نزل آخرون إلى نفق محطة الكريبتينة وعسكروا هناك بالسلاح. سلاح ياما يا ست الكل، اللي هيقرب من الرجالة دلوقتى هيقطعوه حتت ويرموه للقطط. ابتسمت منة. امتلأت بفرح داخلي عميق، ولكنها لم تدع نشوة الانتصار تسكرها. عادت أراجها مع ابنتها إلى الجامع، صلّتا صلاة الشكر، وأمرتنا بذيح خروف للغلابة.

لأول مرة من زمان يتم إقامة صوان فرح في كريبتينة سوسو. أغاني وبانجو وحشيش وبيرة ولحمة للصبح. راقصات ومزامير. ليس هذا فقط، بل قرعة أيضاً بين ناس المنطقة. ومن ترسو عليه القرعة له من عند الحاجة أم أميرة أن تزوجه إن كان غير متزوج. أو تزوج ولاده إن كان متزوجاً. حاولت منة أن تهدي الشبخة صالحة شيئاً، أي شيء. اللي تطلبه ليكي عليا اعملهولك يا شبخة. ولكن الشبخة صالحة رفضت بأدب، هديتي إنك تبقى مبسوطة انتي وبتك يا ام أميرة. انحنيت منة على كفها وباستها.

روح أميرة كانت تشف في هذه الأيام، تصفو وتترقرق. كانت موقنة أنها وضعت قدمها على أول الطريق الذي سيجعل منها حاجة، وحاجة مهمة كمان. صحيح أن الناس لا ينجحون لها كلما مرت من الشارع، كما كانت تحلم سابقاً، لكنها كانت ترى في أعينهم الحب لها ولأمها. تجلس الآن بجانب الشباك. الشباب السكرانة يعاكسون الراححة والجاية، ولكن عندها، عندها فقط، ستوب، يخفضون أعينهم، خجلاً من سكرهم ومن رائحة الكحول المتطايرة حولهم.

تبدو أميرة الآن ملكة متوجة، بالذوق والأدب والاحترام، ولكن أيضا بتاريخ جدها المشرف. صارت تحدث الناس عن حربي الذي مَوّت نفسه عشائهم وعشان يعيشوا في ستاندر أفضل في الحياة. والناس لم ينسوا حربي أبداً. طول الوقت يسترجعون سيرته، ويذكرون بالخير منة الله بفتحه وأميرة بنت بنته. تولت أميرة بنفسها تعليق صور حربي في المنطقة. يجلس بالقهوة ويشرب شيشة، يفتح مطواة على بنته الصغيرة المعلقة على كتفه، ينظر لها نظرة غضب كوميدية، يتودد قطعياً من البهائم استطاع تحريره لتوه من الحجر الصحي. ويجلس منفرداً على كرسي البحر بشارع الكورنيش والسيارات المسرعة تقفاده بمعجزة، بالإضافة إلى صورة له وهو يصطاد من البحر، بيعينه السنارة وبيساره قزازه البراندي. وجوه كثيرة دخلت المنطقة منذ العام أربعة وأربعين، شباب تولت وزارة الإسكان إسكانهم في مبان شعبية ورخيصة، أنجبوا الآن وأصبح أولادهم شباباً، ولكن القمص تنتقل من جيل إلى جيل. وبعد سنوات طويلة لم يعد أحد يتذكر فيها شكل حربي، كانت الصور الفوتوغرافية هي أفضل اليوم للعاثي المشرق بالنسبة للسكان الجدد وأولادهم.

القصة كانت تولد من جديد، تتدافع وتكبر ولا يوقفها أحد، وهي التي أعطت الشرعية لكائنات ما تحت الأرض الذين كانوا يحروزون انتصاراً وراء الآخر. يغير الرجال المعسكرون بالنفق ليلاً على رجال يحيى بركان، يملبون قطع السلاح، ويعودون لموقعهم بالنفق. والأخبار تصل إلى منة وأميرة. مع أخبار أخرى مؤسفة: مثلاً، عرفت منة أن بعض الرجال كانوا يبيعون السلاح الزائد عن حاجتهم. وهو ما رفضته بعنف. السلاح الزائد يُخزن، لا أحد يعرف الأيام الجاية فيها إبه. حاولت مواجهة البعض بهذا ولم تنجح. فيما بعد قنعت بهذا، والتمست العذر للرجال، يعني الواحد سيكون مزنوق في خمس تلاف

جنبي. خلاص، يجيبهم بمعرفته، أحسن ما يسرق مني. لم تستطع التحكم في هذه التجارة السوداء، ففضت الطرف عنها، مثل أية سلطة ذكية.

ولكن منة بشر في النهاية. كانت تشكو من أوجاع كثيرة، بظهرها وبساقها، وفي السنوات الأخيرة لم تعد تستطيع دخول الحمام إلا مع أقراص ملينة. بدأت تتعب، هي المشكوكة على دخول السبعين من عمرها، وبان هذا عليها طول الوقت. أميرة تقوم بمهامها الآن في اللقاءات مع الرجال وإعداد خطط الهجوم، التي كانت لا تزال في أولها، طالما أن يحيى بركان وإنشي وبارا ولارا لا يزالون بعيدين عن مرضى النيران. والسعادة ليست من نصيب البشر طول الوقت: ذات يوم كانت أميرة تزور الشيخة سالحة في بيتها، وأنها تستحمي في البيت. عندما عادت أميرة فوجئت بباب الحمام مفتوحاً وأنها مرمية على الأرض عارية وتفمغم بكلام غير مفهوم. وقمت منة الله في الحمام ولم تجد من يسفها. اتصلت أميرة بالشيخة سالحة على الفور، ووافتها هذه في ربع ساعة. قرأت قرآناً على رأس الست واتصلت بالدكتور. والدكتور أعلن كلمته ببرود: شلل في المخ.

أميرة كانت تتصرف بثلاثة عقول في هذه الأيام. عقل مع أمها المريضة، وعقل مع الرجال بالنفق. وعقل مع الشيخة سالحة. الشيخة كانت تزورها يومياً. تقرأ القرآن وتحدث مع أميرة وتوجه كلاماً بلا معنى إلى الأم الراقدة على السرير والتي ترد بالغمغمة غير المفهومة. قالت الشيخة لأميرة مرة، لما امك تقوم بالسلامة... ولم تكمل. قاطعتها أميرة: أمي مش هتقوم بما شيخة. خلاص. وأدارت وجهها. الشيخة من جانبها ارتعبت من هذا الكفر المضر برحمة ربنا. قالت لأميرة إنه لا يصح أن تقول هذا. ولكن أميرة لم ترد، والأيام أثبتت أن الحق معها.

الشيخة تقرأ القرآن للست، تقول قل يا أيها الذين آمنوا لا تياسوا من. فترد منة الله بغمضة واضحة هذه المرة. تقول، رحمة الله. وتبتسم الشيخة. تشعر أنها بدايات التحسن في حالة الأم، وتصرف مستبشرة. بعدها بماعتين تتصل بها أميرة وتقول لها البقاء لله. تتذكر الشيخة بوضوح كلمة الأم الأخيرة التي عبرت فيها عن شعورها بقرب دنو الأجل. تدعو للراحلة بالرحمة، ويستمر العزاء ثلاثة أيام.

لم تكن هذه الأيام هي الأفضل بالنسبة لأميرة بالطبع، ليس فقط لوفاة أمها، بل لتجرؤ رجال يحيى بركان عليها، تحت الأرض. وفوقها أيضاً. تم تثبيت واحد من رجالها وهو سائر في الطريق، في عمق كربنتينة سوسو. أخذ منه مجهولون بطاقته وخمسائة جنياً كان يحملها معه. بالإضافة إلى أحداث صغيرة من هذا القبيل. الرجال أنفسهم تدمروا من أن تسيطر عليهم واحدة مثل أميرة، بنت صغيرة لا تعرف عن الدنيا شيئاً وتبدو كأنها مولودة امبارح. لم تعد أميرة تسيطر، صحيح أنها حاولت، ولكن الدنيا كانت أقوى منها. الآن يجلس الرجال في الأنتريه عندها، يدخلون بأحذيتهم بعد أن كانوا يخلعونها احتراماً عند باب الشقة. وأميرة، المهووسة بالنظافة مثل أمها، كانت تكتم في قلبها ولا تنطق. الرجال يطفنون سجائرهم على السجاد، ويهزرون مع بعضهم هزاً وسخاً، يسبون الوالدين والدين وكل شيء. وأميرة لا تتمكن من إيقافهم عند حدودهم.

أصبحت أميرة في هذه الأيام بحالة نفسية. قررت مرة الانسحاب والدخول لغرفتها. هناك أغلقت على نفسها بالترباس وحاولت النوم ولم تستطع. مضت تنصت لكلام الرجال بالخارج. فجأة فتحت الباب بعنف. عيناها محمرتان

وشعرها سافر وهانش. صرخت في الرجال: إنتو كنتوا بتقولوا عليا إيه؟ الرجال كانوا نانمين. تحت تأثير الخمرة الملقاة قزايزها في كل مكان حولهم. نظر إليها أحدهم بعينين نصف مغمضتين. حرك ذراعه، وحاول قول شيء ما ولكنه كسل فركن ذراعه بجانبه مرة ثانية وعاود النوم. صرخت بهستريا: أنا سمعتكوا وانقو بتتكلموا عليا. ولم يرد عليها أحد. أمسكت بفازة كبيرة وألقتها على الأرض، فانتبه الرجال. باللا اطلعوا برة دلوقتي. اطلع برة يا بقل انت وهو. لم يتحرك واحد منهم. كانوا فاقدين الوعي تماما. أمسكت بقطعة من فخار الفازة المكسور وقربتها من رقبة أقربهم لها. جرحته وهي تصرخ، انا هاقتلكو دلوقتي. هنا فقط انتبه الرجل. قام وصفعها على وجهها صفعتين تلتتهما عدة لكعات في كتفها وبطنها. ارتعبت أميرة. دخلت غرفتها راكضة. حاول الرجل متابعتها لغرفتها. أغلقت على نفسها بالترباس. ظل الرجل يدق عليها من الخارج ثم همد ونام بجانب الباب. تكلفتت هي في ملاءة السرير. ظلت ترتعش لساعتين. سقطت من على السرير واكتشفت تحته زجاجة ويسكي كاملة. الرجال يشربون في غرفتها أيضاً إنن. واصلت ارتعاشها وهي تفتح الزجاجة وتشمها. ثم وهي تشرب البق الأول في حياتها منها، ثم الثاني، ثم الثالث. انتهت ثلاثة أرباع الزجاجة، شربته بلا إضافات، ثم تساوى كل شيء في عينيها. نسيت كل شيء، ابتسمت، ونامت كالقنيلة.

•••

نحن الآن في شهر سبعة. الجو حر ورطوبة قاتلة. حاولت أميرة يوماً النزول للنفق. عند مدخل النفق وقف أمامها أحد الرجال، رايحة فين يا آنسة؟ أجابته. رايحة اشوف الرجالة. ردد الرجل ببرود، ممنوع. علّت صوتها. ممنوع ازاي؟ كرر بعنف، ممنوع يا آنسة بنقول. علّت صوتها أكثر فأكثر. هنا

ظهر رجل آخر من داخل النفق، شَخَط في الأول وقال له، ممنوع ازاي يا حيوان؟ دي الأنسة أميرة يا بهيم. وقال لأميرة برقة. طبعا يا فندم تنزلي بكل احترام، بس عاوزين تحقيق الشخصية لو تكرمتي حضرتك. أعطته أميرة بظاقتها الشخصية. قال لها، علّقي دي على صدرك عشان ماحدش بكلمك. أعطاها بادج مكتوب عليه "عبده الأمير". علّفته على صدرها ونزلت.

الجو تحت النفق خانق، وخاصة في عز رطوبة يوليو. لم تحتمله أميرة في البداية، ثم تعودت عليه. رجال من حولها في كل مكان. هي الأنثى الوحيدة بالمطلق. الرجال، ومنهم الأطفال والكهول والشباب. يجلسون ويلعبون الكوتشينة مع بعضهم. وثمة رائحة عفنة تخنقها. كتل الخراء في كل الأركان مع بحيرات اليول وفوقها أسراب من الذباب المحلق. حاولت أميرة تحاشيها ثم اكتشفت عبث محاولتها فمضت تخوض فيها وهي تخطو للأمام. عيون الرجال كلها معلقة بها. اقترب منها أحدهم. نظر إلى صدرها مطولا بنظرة عابثة، وعندما لمح البادج تراجع. عاد إلى أصحابه وتهامس معهم. كانت موقنة أنها محور الحديث، ولكنها تجاهلت هذا. مضت تسير وتسير. حتى وصلت إلى سور حديدي كبير، هناك رأت لافتة معلقة مكتوب عليها "هنا النهاية". وكتابات بخط اليد، "أمير ورشا، الحب الخالد، ٥-٦-٢٠٦٣"، "أشباح الكريبتينة.. المصري ومصيلحي وكروانة". "لا للهودنة"، "أهي أيام وبنعيشها" "نحنو هنا، والأعداء هناك"، وغيرها. عادت أميرة لأرجائها. كانت قرفانة وفي حالة نفسية سيئة. عند باب النفق أعطت الحارس البادج واستعادت بظاقتها الشخصية. قبل أن تمضي سألته عن عبده الأمير هذا. أجاهها باهتمام بأنه لا شيء، لا أحد اسمه عبده الأمير. هذا فقط سيم بين الرجال ليعرفون من تبعنا ومن ليس تبعنا. هما. التانيين (يشير بعيدا). يقصد يحيى

بركان وأهل كرتينة إنجي) عارفين ومتأكدين ان فيه حد اسمه عبده الأمير. احنا بس اللي عارفين الحقيقة. ابتسمت بارتياح، كانت مرعوبة من فكرة أن يكون شخص قد استحوذ لنفسه على السلطة تحت النفق بدون علمها ولا علم أهما. في بيتها نامت، مع فكرة مريحة خطرت ببالها، الأمور لا زالت تحت السيطرة.

هل هذا صحيح، هل كانت الأمور فعلا لا تزال تحت السيطرة؟ نعم ولا. كي نكون منصفين، فإن ثمة ادعاء قد تردد كثيراً في هذه الأيام. قال كل الناس إن أميرة خلاص، فقدت السيطرة على رجالها وعلى الصراع، ولكن هنا الادعاء، مثل أي ادعاء، كانت تعوزه الدقة. لدى أميرة حساب ضخم في البنك، ومازالت هناك رواتب شهرية تُدفع للرجال، ونفحات تُمنح من حين لآخر، صحيح أنها قلت عما كانت عليه قبل موت منة الله، ولكن الرجال في حاجة إليها. ما زالت تملك في يديها أوراقاً إنن. كما أنها لازالت تملك العزيمة، وهذا ليس أمراً سهلاً بالنسبة لامرأة في ظروفها.

عندما سمعت أميرة آنان الظهر وهي عائدة من النفق، تذكرت أن لها زمان لم تزر الشيخة سالحة. قالت في نفسها إن الشيخة سالحة هي ورقة غير مستثمرة أيضاً في الصراع. بقوتها الروحية الهائلة وابتسامة الأمل التي تمنحها لها في أصعب المواقف. زارتها ليلاً، فضضت معها بالكلام وبكت. قالت لها إنها شربت خمر منذ أيام، وإنها كانت قرفانة منها لكن شربتتها. وإنها تشعر إن ربنا غضبان عليها بسبب هذا. الشيخة سالحة من جانبها لم تعقب. فقط ابتسمت ونظفت بالجملة التي لم تكن أميرة تحتاج أكثر منها في هذا الظرف القاسي: ماتخافيش يا حبيبتي. ربنا معاك.

الحرب صد ورد. يوم لك ويوم عليك. لظالما آمن يحيى بركان بهذا.
 ذات يوم، قررت حكومة الصين الشيوعية المنتخبة حديثاً - بالاتفاق مع
 الحكومة الأرجنتينية- تأمين ثقب شنجهاي. القرار كان صادماً لشركة
 "بينيث" الأمريكية التي تولت حفر النفق بين طرفي الكرة الأرضية وتسيير
 المركبات فيه من الصين إلى المحيط الأطلنطي. معاداة شركة "بينيث" لم تكن
 سهلة. فالشركة كانت لها أسهم كثيرة في الحكومة الأمريكية. هذا يحدث الآن.
 عادي جداً، نحن نتحدث عن حقبة ما بعد بعد الرأسمالية. لم تتأخر الضربات
 الأمريكية. حشدت الولايات المتحدة صواريخها في باكستان والمكسيك
 الخليفتين. وعلى مدار سنوات طويلة اشتعلت أسيا والأمريكتان بالحرب.
 ضربتان في الشمال وضربتان في الجنوب. أمريكا كانت تترنح بالفعل. وكل
 العالم يتابع هذا. يحيى بركان كان يقرأ الأخبار ويفكر في همه الذاتي،
 الكرنتينا.

عندما استولى رجال منة الله على نفق الكريبتينة، لم ينزعج. الأيام دول.
 قالها وابتسم. وعندما أصبح يتكبد هو ورجاله الهزيمة تلو الأخرى احتسبها
 عند الله أيضاً. الحرب تحت الأرض ليست لعبة، وعلى من يحاول التمدي لها
 أن يدرك أنه قاتل أو مقتول، مع احتمال ثالث نادر الوجود، شخص مقتول

اليوم ويستعد ليكون قاتلاً غداً. هذا الاحتمال الثالث كان هو خيار يحيى بركان الحاسم في تلك الفترة.

لم يكن يحيى بركان مطالباً بتسويق انتصاراته أمام إنجي. كانت هذه متفهمة، تعرف بوحى من خبرتها العسكرية الطويلة أن الانتصارات الأولى لم تكن تعني إلا أن القادم أصعب. بالإضافة إلى أمر آخر، إنجي كانت مهتمة بعائلة سوسو من زمان. لم تحبها، ولكنها أيضاً لم تكرهها تلك الكراهية الشعواء. لقد خلقت الحرب المتواصلة بينها وبين العائلة الأخرى نوعاً من التماهي. شعرت في وقت ما أن وجودها متعلق بوجود منة الله وأميرة. هذا يحدث، ويعرفه كل دارس للفكر السياسي في فترات الحروب، ولكن ما حدث هنا لم يكن مجرد تماه قائم على استمرار الصراع بينهما منذ عقود طويلة، لقد كانت تجمع بين العائلتين الذكريات الطيبة أيضاً. في هذه الأيام تذكرت إنجي بقوة مشهدها وهي تذاكر لمة الله، الطفلة، دروس الإنجلش، وتذكرت سوسو وهو يدافع عنها وعن زوجها في المنطقة، وتذكرت سوسو وهو يذبح بسكينه الناس الذين قتلوا عائلتها من قبل، وتذكرت، وهو الأهم في حالتنا. سوسو وهو يكلمها في التليفون ويحكي لها قصة بخيت جدها. لهذا كله لم تكن إنجي متحمسة زيادة عن اللزوم لضرب منة الله بقسوة. قامت هي بدور الحمام في صراع ما تحت الأرض، ومثل يحيى بركان بجانب بارا ولارا جناح الصقور.

كل هذا أدى للمشهد الأخيرة. عندما سمعت إنجي بخبر موت منة الله لم تصدق. طلبت من حفيدتيها اصطحابها للعزاء، فرفضت الاثنان بعنف. كذلك رفض يحيى بركان، الناس هتقول علينا إيه بس يا حاجة؟ ولكن الحاجة لم تستجب للتحذير. قامت من النوم مرة، في الثانية بعد منتصف الليل، وتحركت في الشقة. استيقظت لارا على صوت خطواتها. فتحت النور فأخفت إنجي

عينها مصدومة. سألتها لارا رابحة فين يا تيتا؟ فأجابت رابحة اعزي ف منة. لارا تعلم أن لا عزاء يقام في الثانية بعد منتصف الليل، ولكن إنجي لم تكن تعلم. قادت البنت جدتها نحو السرير وهي تقول لها، بكرة: هنعزو ونعملو كل حاجة انتي عاوزاها، وقاومت إنجي. دفعت حفيدتها بعيداً وقالت أنا لازم اعزي دلوقتي. ماحدش يحوشني. سقطت لارا على الأرض فاستيقظت بارا. أصيبت إنجي بحالة هياج، لم تقدر عليها أي من الحفيدتين. اتصلتا بيحيى بركان. تيتا تعبانة أوي. تعال الحقنا. حاولتا تقييدها ولكن قوة هائلة اندلعت في جسدها، اندفعت نحو باب الحمام، دخلته ثم خرجت منه، وإلى باب المطبخ، ثم خرجت منه. فجأة نظرت للبنتين وسألتهما، هو باب البيت منين. في هذه اللحظة سقطت على الأرض. مضت تغمغم: انا اللي قتلتها، رميتها تحت عجل القطر وماتت، انا موتها في رمسيس. الرؤية أمامها كانت مشوشة. رأت وجهي البنتين غارقين في الدموع. قالت، بس أنا ماكنتش اقصد، كانت بتعاكس الشيخ علي، كانت قاعدة على حجره وبتقلع، انا مش عاوزة أقول أكثر من كذا. كانت تغمغم ونظراتها معلقة بالبنتين بثبات، ثم راحت في النوم. عندما وصل يحيى بركان كانت نائمة وعلى شفيتها ابتسامة.

تأخرت مرة في الحمام، ظل الباب مغلقاً عليها لساعة ونصف، وعندما خرجت نادت البنتين. أجلستهما أمامها وقالت إنها حاولت الانتحار في الحمام. خبطت رأسها أكثر من مرة في الحيطه ولم تمت. في الحمام، فوق الحوض مباشرة، كانت ثمة نقاط من الدم. مسحها لارا، ثم قالت لأختها إن باب البيت يجب أن يُغلق من الآن فصاعداً بالفتاح. اكتشفت إنجي هذا فقررت البقاء في غرفتها تكلم نفسها. قالت. هي اللي كانت عاوزة تموتني، حظت لي

تعبان أفريقي في الأوبة، وخطفنت مني الترنج بتاعي. ولما لقيته كان مليان حاجات فظيعة. أنا مش ضد الحاجات الفظيعة والله، بالعكس والله، هي اللي طول الوقت كانت ضد الحاجات الفظيعة، وهي اللي خبت مني المفتاح. ام صلاح الشغالة كانت تسعفها بالحقن المهدئة ففنام. وتحسو قرب الفجر لتبحث عن باب البيت، كانت تصرخ: بت يا منة، انتي زعلتي من خالتك إنشي يا بت؟ دا انا والله ما كنت أقصد. اوعي تكوني زعلتي. حاولت فتح شيش البلكونة وفشات، وحاولت مرة ثانية ونجحت، تبقي هبلة يا بت صحيح لو زعلتي مني، وهو انا يعني اكرهلك الخير؟ خطت بداخل البلكونة، وخهط من الدم يسيل منها وينطبع أثره على البلاط. نسيتي يا بت مين علمك تقولي سنك يو وميرسي بور فوتر كومبليومون، مش خالتك إنشي يا بت؟ ومين جابلك حقا منهم؟ رفعت ساقتها فوق السور. أغمضت عينيها ولم تتردد. ألقى بنفسها من البلكونة.

كانت أم صلاح هي من أيقظت البنيتين. قالت لهما إن ستهما ألقى بنفسها من الشباك. نزلت البنتان مسرعتين. وجدتاها تحت جثة ساكنة، على شفتيها ابتسامة وعلى معصمها الأيمن شق عرضي بالسكين فوقه دم متجمد. أقدم العزاء في اليوم التالي. امتلأ بالفاش من كل نوع. تلقى يحيى بركان عزاء الرجال بالجامع وتلقت البنتان عزاء النساء بالمنزل. همست النساء ليارا ولارا، البركة فيكم، وكذلك قال الرجال ليحيى بركان. ساد شعور بأن عصراً انتهى ليحل محله عصر آخر. بارا نفسها انفردت بأختها في المساء وقالت لها إنها ترغب في زيارة النفق من تحت. احنا ولا مرة رحناه. ودلوقتي الحمل بقى علينا. دلوقتي الست اللي كانت شابلة عنفا راحت خلاص. هنعملو إيه؟ وردت لارا، يا إما

تتشاركوا في المسؤولية يا إمتن نعد ونحطو إيدينا على خدنا. واتفتت الاثنان على أن تتشاركا في المسؤولية.

•••

لم تكن الدولة المصرية بعيدة عما يحدث في النفق. كانت تراقب من بعيد. وكانت تزجل الصراع. كان ملف نفقي الكرتينة يُطرح كلما ثار التساؤل عن حدود فساد وزير النقل ووزير الداخلية وصحاف الإسكندرية، الذين كان رجالهم يقبضون من الفريقين المتحاربين تحت الأرض، وكانت أي محاولة لإقصاء هؤلاء الرجال ستنتهي بمذبحة لا يقدر عليها الوزيران أو المحافظ. صحيح أن الدولة المصرية كانت غارقة في الفساد، إذا أحببتم هذا الوصف. ولكنه كان نوعاً من الفساد الذي لا يمكن تجنبه، الميزانية منصرفه للتنمية في الصعيد وشمال سيناء، والإسكندرية تتراجع إلى المكان الأخير على جدول الأولويات. كل هذا جعل النفق بالأسفل يبدو مجتمعاً كاملاً متكاملًا في هذه الأيام.

عندما نزلت يارا ولارا إلى نفق الكرتينة كان الواقع يفوق الخيال. نزلتا برفقة يحيى بركان. كان هو دليلهما السياحي بالأسفل. أخبرهما أن ثمة هدنة الآن. الفريقان ضعيفان معنوياً، بسبب الموت المتتالي لقائدة كل منهما. ولكن هذا لا يمنع من مناوشات بين الوقت والثاني (يبتمس) ضرب نار الحدود يعني. ستكو كانت بتنزل هنا كل يومين ثلاثة، والرجالة كانوا بيتفاءلوا بيها. دلوقتي أنا اللي شايل الشغل لوحدي، ودا يُعتبر عيب أكثر منه ميزة. قادهما إلى غرفة العمليات، كما أسماها، واحدة من عربات المترو المفككة، يجلس فيها مع ثلاثة من أعوانه ويخططون للمعركة.

مثل جولة أميرة السابقة بالنفق، فلقد قرأت البنتان لافتات عديدة معلقة على جدران النفق، "أزرع تحت الأرض مقاومة"، "لا لرأب الصدع"، "لا لرأب الصدع"، "لا لرأب الصدع"، "الإصبع المبتور.. ماله بقى؟"، "الكاماسوترا بيحييكو". وغيرها. وبخصوص اللافتة الأخيرة: عرفهما يحيى بركان على كاماسوترا، وينادونه باسم "جَمْصَة" أيضاً. مراهق في الخامسة عشر من عمره ويعلق مدفعاً رشاشاً على كتفه. الولد دمه خفيف، مرح وفكاهي ويغني أغاني هندي طول الوقت. أشيني باتشي خان انه أكبر. كاما سوترا نينجن عبدالله أكبر. روي مينكا نينجا ماني أكبر. تشينو باشي مهرجا عظيم أكبر. بالأكثر الأخيرة يختتم مواله الحزين، وهو يجلس على باب عربة المترو. ينقلب فجأة. بعد وصلة الشجن التي قدمها، إلى بهلوان. ينظر إلى الفتاتين بابتسامة، ثم ينزل. والآن يا حضرات بعد فقرة الأغنية الجميلة حان ميعاد فقرة اختبار الذكاء. هنسألكو سؤال واللي تجاوب تبقي بت حمادة صحيح. تنظر البنتان لبعضهما البعض. يواصل سؤاله. مين اللي يبقى ابو البيت وعمها في نفس الوقت؟ لم ترد إحداها فعاجلهما بحسم وبنبرة مسرحية. غلط أكبر غلط. إجابتكو غلط غلط. غلااط ثم يعود لعربة المترو وهو يضع فوهة البندقية في فمه كأنها ميكروفون: ضيفنا العزيز، علشان تقدر تبقى أبو البيت وعمها في نفس الوقت مش هنطلبو منك حاجة كبيرة. طلبنا بسيط وسهل وجميل خالص. خلف أميرة. انتهت الفقرة والآن مع فقرة أووووخرى. تبتسم البنتان رغماً عنهما وتذكران سوسو أبو أميرة، الذي هو، في نفس الوقت، أخو أبو أميرة، أبو أميرة الأصلي، بتاع زمان.

هذا هو الوجه المشرق من النفق، ولكن النفق له جوانب أخرى. أحد الرجال أخذ يحكي. هنا حلو ماحدث قال حاجة. بس لما المعلم يحيى قالنا

تعالوا قالوا هيبنولنا عتش، الواحد مش عاوز يسكن في قصر كبير. بس برضه بصي حواليكى حضرتك. الناس هنا والله عايشين ف غلب، بنامو ف الشارع والله، ولو واحد حب يعني يعمل حمام بيبقى هنا ف الشارع وقدم الناس. مش منظر حضرتك خالص يعني، والريحة والقرف والخنقة. لور أن سيطر يحيى بركان على النفق أعلن في المنطقة أن من يريد السكن في مكان، ليس قصرأ ولا فيلا ولكنه على الأقل يقضي الغرض وخلص، فيمكنه السكنى في النفق. تعافعت أعداد من المشردين والبلطجية واستوطنت النفق، بعد استثناء النساء والأطفال وكبار السن والمعاقين. الأعداد لم تكن رهيبة، يعني في نروة ازدهاره، لم يضم نفق الكرنيتينة ما يزيد على الخمسين شخصاً. مع شرط بسيط: على كل من يسكن أن يتعلم استخدام السلاح، ولو مبادئ أولية، ولو حاجات بسيطة، كدفاعاً عن النفس يعني، هكذا قرر يحيى بركان.

“هنا حلو، بس الدبان هو المشكلة بقى”، يبدأ أحدهم حديثه، “الدبان دلوقت بقى ف كل حتة، والدبانة كبيرة وبجحة، اني نفتكرو الدبان زمان كتي حضرتك تقويله هس يتهش، دلوقت لأ” (يضحك الواقف بجانبه فينظر إليه ويؤكد على كلامه) “آه والله. مش صدقني؟ (بيتسم بسخرية) دلوقت الدبان بقى هو اللي عاوز يهش البني آدمين. والله زي ما بنقولك كدا”.

أيضا كانت البناتان تسيران كان الذباب يرافقهما. حتى هما، اللتان تربتا وسط الصراير والمحالي، انزعجتا للغاية. للحظة خيل ليارا أن الذباب يراقبهما، قالت، الدبان بيبص علينا، وأكملت لارا، بيبص علينا أوي. ارتكفتا على جدار النفق. وريحت يارا رأسها على كتف يحيى بركان. نظرت إليه وعابته قائلة، انت مش ناوي تتجوزني بقى يا عم يحيى؟ فتجلج ثم قال مرتبكاً، دا شرف لنا يا ست البنات. ست البنات قنعت بهذه الإجابة ووضعت

نراها خلف كتف يحيى بركان وأغمضت عينها. وأختها التوأم كانت مشغولة بتحليل جسم صرصار كبير مضى ينظر إليها ويهز شاربيه، قلبته على ظهره، وأخذت تراقب سيقانه وهي ترقص في الفضاء، وتضحك.

•••

الشهد من بعيد بدأ عثياً. واحد من الناس، واسمه سامح كزرونة، استطاع إخفاء ورقة بخمسائة جنيه تحت فرشته التي ينام عليها؛ وعندما استيقظ لم يجدها. اشتعلت المنطقة. هو نفسه ذهب ليشكو ليحيى بركان أمام البنيتين فرعق فيه هذا أنه مش فاضي وإن ماحدث حاشه عشان يجيب حقه بدراعه. الرجل أخذ يتوعد، هي بقت كدا؟ طب ماشي، ماشي يا يحيى يا بركانة، اني هنجيبو حقي من بق التخين. بس ماحدث يزعل. الرجل ذهب بنفسه لاسترجاع الخمسمائة جنيه من كل سكان الففق. مضى يلف ويدور عليهم واحداً واحداً مثل الأهل. كان يبدأ استقصاءه بسؤال هجومي، طلع الخمسميت جني يا أفريقي. اني شفتك امبارح يا عربي وانت بتاخذها. ماتشتغلنيش. فلوسي ترجعلي دلوقتي يا أشرف يا زمبابوي، ومش هكررها تاني. الولا جمصة (الكاماسوترا) كان يراقب من بعيد المشهد. بدأ يدور خلف سامح كزرونة ويطلب بيديه على دبشك السلاح. عندما اتخفق منه كزرونة أمسك بذراعه ولواها بمنف، ثم قبض على رقبته وجره جراً ليدهس رأسه في كتلة خراء بجانب الجدار. انتفض جمصة بقوة ونظر غاضباً إلى كزرونة، هي بقت كدا يا عم سامح، خليك انت فاكرها بس. ومضى.

•••

- وولا يا جمصة.

- إيه يا عم سامح؟

- انت زعلت مني النهاردة؟
- اني ما بنزعلس يا عم سامح، وانت عارف.
- أو مال قلبت وشك ليه يا ولا؟
- اني ما زعلتش منك. اني زعلت عليك.
- انت زعلت عليا انا؟
- اه. صعبت عليا. وضحكت عليك الناس. وبقي منظرك عرّة خالص.
- (بغضب) انت عيل خول أصلاً وماتستاهلش الواحد بييجي يعيرك.

- يحيى يا بركانة!
- إيه.
- فكك مني يا بركانة.
- وانا جيت جمب أمك دلوقتي؟
- احترّم نفسك يا بركانة اديني بنقولك، وماتخلينيش نزل منك.

- هما الناس لما يهجموا علينا.
- تاس مين؟
- الناس اللي ع الناحية الثانية يا أخي.
- مالهم؟
- لما يهجموا علينا.
- هيعملوا إيه؟
- انا اللي بسأل يا أخي.
- طيب اسأل.

- لا خلاص. نفسي اتسدت خلاص.

- يا آنسة.

- أيوة.

- هو انتي بنت حمادة صحيح؟

- أيوة.

- وهو حمادة كان جدع زي ما الناس بتحكي عنه؟

- انت تعرف ايه عن حمادة؟

- اعرف انه كان جدع.

- (آخر يقترب منها معابثاً) بدمتك يا آنسة. هو احلى ولا أنا؟

- (تبتسم) انتو الاتنين حلوين.

- (بغضب) أنا ماحدث يقول انك شبه حد. أنا أفريقي. أنا أفريقي

(يضرب بقبضته على صدره. ينظر لمن حوله. يضحك) من الفهارة مافيش

أفريقي. أنا أفريقي. أفريقي للأبد. أفريقي يتحدى الزمن. أفريقي فوق الجميع.

أفريقي يقول لأعدائه: خليها تاكلكو. (ياخذ في الهتاف وتحريك يديه بعزم

ساخر مقلداً مشهداً من إحدى الأفلام القديمة) هاتلنا ريري هاتلنا ريري..

مطلب ثوار التحرير.

(ضحكات ساخنة).

في اليوم التالي ليوم الزيارة طلبت بارا ولارا الجلوس مع يحيى بركان.

قالنا له إن الوضع في النفق لا يحتمل. القذارة في كل مكان. ف يوم م الأيام يا عم

يحيى. الناس كلها كات بتشكر في نضافة الكرنيتينة. دلوقتي لما نوسعوها ونبقى

خدنا م الحكومة حتة الارض اللي تحت النفق يبقى فيه قذارة كدا؟ الوضع دا
انا مش مبسوطة منه. وانا شايعة انه وضع لازم يتحل. دي مهزلة. وأكملت
لارا، مهزلة كبيرة.

”يا عم يحيى، انت عامل زعيم وكل حاجة تحت، انا مش معترضة والله.
ولا حد يكره الخير لحد، بس يا اخي لا مانع من شوية تنضيف. يعني عين
فرقة كل يوم تيجي تعمل نضافة. انت مش غريب يا عم يحيى، أنا بصراحة في
منتهى الاشمنزاز من المنظر“. قالت يارا هذا، ولوت لارا شفتيها قرفاً.

يحيى بركان كان يأخذ كلاماً مثل هذا على أعصابه. كان شديد الحساسية
تجاه الملاحظات الموجهة إليه، وخاصة الملاحظات المتعلقة بكيفية عمله وكيفية
إدارته للمشهد تحت الأرض، وخاصة إذا جاءت هذه الملاحظات من يارا.
حسناً. الآن نجد أنفسنا ملزمين بالاعتراف أن شعة شيئاً قد نعا في قلب يحيى
بركان تجاه يارا. سته الحالية وحفيدة سته السابقة. ليس الأمر أن يارا كانت
رامية نفسها عليه. ربما كان الوضع هكذا في البداية، ولكنه عندما كان يخلد
للنوم في عربته بالنفق كان يحدث نفسه. أنا يحيى بركان، شاب مصري
تجاوزت الأربعين سنة بسنتين وحتى الآن لم أتزوج، لأن دماغي تكون دايماً في
الشغل ولإني ماكنتش فاضي لئله هذه الأمور، والآن فإني أفكر طول الوقت في
عروسة المستقبل، فتاة الأحلام التي سوف أجعل دنيتهما جنة بعون الله. ولا
أخفي عليك يا سيدي (انتبهوا. يحيى بركان يكلم نفسه) إن هناك واحدة ست
تحاول إنها تلفت انتباهي من سفين وسنين. وأنا أيضاً مهتم بيها. فهل سيحكم
القدر بأن يجمعنا معاً على الصحبة الطيبة والعشرة الصالحة؟ (انتهى كلامه
لنفسه).

يحيى بركان كان رجلاً. يتعامل مع نفسه بجدية، ولا يقبل أن يوجه له
أحد كلمة (وهذا سبب حماسيته من كلام يارا له). ولهذا، فلقد قرر أن يكون

هو البادئ بالتلميح. أطال في تليفوناته ليارا. حكى لها النكت الجديدة. كان يطمئن كل ليلة على وصولها البيت بالسلامة، وكان يحرص على إنهاء مكالماته الليلية بتصبحي على خير يا ست الكل. ويارا استقبلت هدية السماء هذه إليها بمحبة. حرصت على إعداد طعامه بنفسها، وعلى زيارته في النفق يومياً، حتى اعترف لها إنه، سامحيني يا ست البنات، يحس ناحيتها بحاجة. اني خايف أكون عديت حدودي. تحسيس يارا على فخذه، ودخول أصابعها عميقاً، أكدت له أنه ليست أمامه حدود أصلاً. ولكن يحيى بركان كان رجلاً، لم يكن يحب الغلط.

- يمكن اني مش اكثر واحد بيحكك، ولا احمن واحد بيحكك...

- (تبتسم بتفهم وتسامح).

- (يصمت. لا يكمل).

- (تنظر له باستغراب) ماكملتش ليه؟ بس إيه؟

- بس إيه إيه؟

- عاوز تقول ايه؟

- عاوز أقول ان يمكن اني مش اكثر واحد بيحكك، ولا أحسن واحد

بيحكك.

- بس؟

- اه بس.

- مش فاهمة، يعني، طيب (تصمت طويلاً. ثم تحسم أمرها. تطبطب على

كتفه) لا يا يحيى. اوعى تقول كذا تاني. انت كويس يا يحيى.

تأسس مركز يارا بسرعة داخل النفق. صحيح أنها كانت هي المرأة الوحيدة هناك، وصحيح إنها كانت، حتى بشعر شاربيها وحواجبيها، حتى بريحة عرقها المقرفة، حلم رجال النفق. إلا أنها كانت طول الوقت بصحبة الزعيم الأوحده، الملقب بحسب ساكني النفق بـ"يحيى بركانة"، وتحت حمايته المطلقة. لم يستطع أحد الاقتراب منها، وحتى إذا استثنينا الحماية التي كانت تتمتع بها، فقد كانت ليارا شخصية قوية، يمكنها فرض موقفها على الرجال. صحيح أن أحدهم قد يتساخف في البداية، ولكنه سرعان ما يعرف أن الحديث ليس عن أي امرأة. امرأة من نار وحديد، كانت هذه هي يارا.

يوماً كانت يارا تعد العشاء ليحيى بركان. داخل عربة الترو التي قرر أن ينام فيها. تحضر العشاء ثم تعود لبيتها. لم تحاول مرة البقاء بعد الأكل. ولم يحاول ولا مرة استبقاءها، يحيى بركان كان رجلاً. صحيح اني يمكن الدنيا مرطنتي كثير يا أستاذة يارا (نبهت عليه أكثر من مرة إنه بلاش أستاذة. ولم يستطع) بس اني عمري ما غلظت ولا عملت حاجة تزعل حد مني. تصدقي باه، مش أنا فيه ناس زعلانة مني، وناس بتقولك يحيى بركانة مزعلنا جامد وفيه اللي يقولك قاتلنا عيالنا وكلام من دا، انما اني عمري ما عملت حاجة إلا بنية صافية، بس يمكن تكون ظروف في كات صعبة حيتين، بس الواحد لازم يتسلح بالنية الطيبة طول الوقت. مالت عليه يارا، وطبعت على خده قبله. هي القبله الوحيدة منذ أن اعترف لها بحبه. علاقتهما كانت نظيفة، في منتهى النظافة. وإن كان هناك شخص يريد لهذه العلاقة أن تنجرف داخل حدود القفارة، فهو لم يكن يحيى بركان، لأن يحيى بركان كان رجلاً، رجلاً من الطراز الأول.

اقتراح الزواج جاء على لسان يحيى بركان. كانت تأكل سندوتش فول
وهما في النفق تحت. قال لها إنه خايف مما سيقوله لها ولكن الظروف تحتم
عليه أن يقوله. انا راجل كبير. يعني فوق الاربعين سنة، وانت دممازيل
صغيرة، بس أقسم بالله إنه ما فيه أي فكرة غلط خطرت على بالي من ناحيتك،
وانك طول الوقت أخت بالنسبالي، واني بنخافو عليك زي اللي من لحمي
ودمي والله. سكت ونظر في عينيها، وهي أيضاً نظرت في عينيه، ظلا ينظران في
عيني بعضهما إلى أن تشجع، انا بفكر لو ربنا أراد إننا نتجمعو ف الخير. ابقى
انا لقيت الحد الطيب اللي هيهتم بيا ويرعاني لما تكبر، وتبقى انتي والآنسة
لارا في حماية راجل معاكو. الناس ما بترحمش يا ست البنات. ابتمت يارا.
حاولت أن تقول شيئاً ما رومانسياً ولكنها عطمت. عطمة ضخمة ترتب عليها
أن أخرجت منديلاً من جيبيها ومضت تجفف مخاطها. كانت خارجة من دور
برد صعب جداً. نظر إليها وهو لا يفهم موقفها، ولكنها كانت ملبوخة في
المنديل والمخاط وعطمت صغيرة أخرى مضت تطلقها بقوة كأنها مدفع رشاش.
في وسط العطسات انتبهت إلى أنه ينظر إليها، فقالت بصوت متقطع: "أ.. نا..
م.. وافقة". عطمت عطمة أخيرة، ثم ضحكت، وعندما ضحكت داهمتها نوبة
كحة. تفتقت عليه ومضى يمسح بارتباك رذاذ الفول الذي انطلق نحو فأنلته.

مهر يارا لم يكن نقوداً ولا شقة ولا عربية. اني مش عاوزه غير حاجة
واحدة بس. عاوزاك تنصف لي النفق. النضافة التي كانت يارا تعصدها لم تكن
فقط نضافة الجسم، وإنما نضافة الروح بالأساس، وهي الأهم من أي شيء ثاني.
كانت تعلم جيداً إن هناك ناس مالهاش لزمة يعيشون في النفق، وإن يحيى
بركان يأخذ منهم اللي فيه النصيب، كما كانت تعلم إنه يتاجر بالسلاح، مع
الحشيش وخططات خاصة من المخدرات، بالضبط مثلما يفعل الناس في الجانب

الأخر للنفق، يعني احنا كدا مانفركوش حاجة عنهم، صح؟ وكانت تريد لكل هنا أن يتوقف. دلوقتي الحمد لله احنا هنبقو واحد، والمطمع بيحبيلنا اللي فيه الكفاية وزيادة. يبقى إيه لزوم الحاجات الوسخة بقى؟ وعدها يحيى بركان بكل شيء، طرد من ليس له لزوم، واستبقاء فقط من له قدرة على القتال، وتفريغ الناس لمحاولة استعادة الحق المسلوب: احنا لينا حتة أرض هنا يا أستاذة. وهما خدوها مني، وبالعافية وقلة الأدب. يعني هما لو جم قالولي احنا عاوزين حتة الأرض دي يا عم يحيى مانا كت عطيتهم من زمان. بس انا ما بجيش بقلة الأدب. وإن شاء الله بأمر الله كل حاجة هترجع لأصلها وكل واحد هنا هيعرف مكانه. وانا كفييل بذلك قدامك وقدام رب العالمين. لم ترد يارا. نظرت له نظرة امتنان عميقة.

•••

ولكن يحيى بركان لم يُخرج الناس. صحيح إنه كان يحب يارا أكثر من حبه لنفسه، ولكنه كان عديم الثقة في المستقبل أيضاً. تعلم من تاريخه السابق إن الأيام الحلوة لا تدوم؛ وانه، وأولاده من بعده إن شاء الرحمن؛ أولى بالقرشين اللي بيطلعوله من النفق. كانت يارا تلاحظ وجود ناس معفنة في النفق في كل مرة تزوره فيها. هؤلاء الناس، بسلوكياتهم المرفقة، كانوا هم من وجهة نظرها من يعجلون بنهاية مملكة ما تحت الأرض التي أقاموها بعرقهم. انما احنا لو نخلو النفق واجهة حضارية جميلة لاسكندرية، ما حدش هيقدر يكلمنا، لا حكومة ولا بتاع. كلمته أكثر من مرة في هذا الموضوع، وكل مرة كان يعدها بتغيير الوضع قريباً، ولكن فيما بعد أصبح الأمر يستفزها فعلاً. تغيبت عن زيارة النفق لثلاثة أيام كاملة. حاول الاتصال بها ولم ترد. كلم أختها لارا واستفسر عن سر غيابها، فأرسلت يارا له مع أختها إجابتها الغاضبة: هي مش زعلانة منك يا

عم يحيى، هي بتقول انها زعلانة عليك. بس هي اختي وافه بتحبيك جامد، هي طيبة يعني. تلجلجت قليلاً ثم قالت. هي محملاني رسالة ليك يا عم يحيى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. يعني بتقولك انها فتحت بيتك طول السنين اللي فاتت، وبتقولك كلام اني نتكسفو نقولوه، ومش صعب عليها تفتح البيت السفين الجاية كمان يعني، يعني ماتخافش على رزقك. وبعدين قعدت تشتم شوية كدا.

اليوم التالي شهد إخراج رجلين من النفق. زعق فيهم يحيى بركان إن التكية اللي فاتحينها خلاص شطبت، وجرهم على زلط النفق بذراعيه، كل واحد ممسوك بذراع. إلى الخارج. شهدت يارا المشهد الأخير من شباكها في البيت. ابتمعت وأرسلت له رسالة على الموبايل، انا قلبي صفاك خلاص يا يحيى، ابقى تعالى اتغدى معانا النهاردة. مع ابتسامة رقيقة.

زيارة يارا التالية للنفق كانت مثالية تقريباً، نقول تقريباً لأنه ليس هناك شيء مثالي على الأرض، ولا تحت الأرض، ولكن نقولها أيضاً بسبب المشهد التالي: عندما ودعت يارا يحيى بركان إيداناً بعودتها للبيت، لفقت نظرها عدة أصوات قادمة من عربة مترو بجانبها. سألته عن هذه الأصوات فلم يرد، فقفزت داخل العربة. هناك فوجئت بعدد من السائقين الفاصلة بين الكراسي وبعضها. أزاحت ستارة منها فوجدت بنتاً تجلس على حجر شاب. حجاب البنت منحسر عن نصف شعرها وصدورها بين يدي الشاب وهو يرضع من حلمتها. الولد والبنت نظرا إليها ولم يبد أنهما تفاجأ. وعدد من قزايخ الخمر ملقاة بجانبها. أغلقت الستارة وفتحت أخرى. رجل يدخل عضوه في مؤخرة امرأة سمينة. نظرت يارا ليحيى بركان فأخفى عينيه في الأرض. إبه دا يا

يحيى؟ رفع رأسه وقال مبتسماً بخجل، أبوه عليكى يا ست الكل! يعني بلاش نكسيولنا قرشين؟ ابتسمت لرؤية ابتسامته، راقت، اكسب يا يحيى يا بركان. بس مش كدا. دا مش منظر خالص.

يسيران سوياً. يعافع عن نفسه. يقول إنه لا يستطيع أن يعدها بما لا يقدر عليه، وأنه محتاج فلوس تدخل في جيبه الشخصي، ولا يريد أن يكون عبئاً عليها. هي متفهمة الوضع. ولكنها لم تقصر. يا ستي انا عارف، وهو حد قال ان فيه تقصير ولا حاجة.. تتوقف فجأة. يقطع كلامه. يتابع اتجاه نظراتها. شاب في العشرين يتبول بجانب الجدار. سلاحه مرمي على بعد نصف متر منه. تصرخ، كفاية كدا أوي، اني مابقيتش قادرة خلاص. يحاول تهدئتها فلا يستطيع. تجري خارجة من النفق. تتمثر وتقوم. تواصل الركض.

•••

- هما معذورين برضه يا ست الكل.
- يحيى. ماتستفزيش اديني بنقولك. معذورين ازاي؟
- يعني حظي نفسك مطرحهم. لما الواحد منهم يفضل اربعة وعشرين ساعة ف النفق، مش هيعوز يعمل كابنيه.
- يطلع بره يشخ زي ماهو عاوز يا خويا. الجامع لازق ف السلم.
- والناس الكبار ف السن. الناس التعبانة؟
- الناس الكبار ف السن والناس التعبانة انت قلتى انك مشيتهم، ولا انت كنت بتكذب عليها؟
- اني عمري ما كدبت عليكى، بس اني مانقدرش نعشي راجل كبير ف السن وملزوم مني.
- يحيى!

- (ينظر في الأرض) أنا آسف يا يارا. اعزيني خالص. ما تقدرش نمشي راجل قد ابويا.

- يارا؟ انت ماتستفزينيش. انتا (تكتم غضبها بقوة) هيغوروا يا يحيى ف ستين داهية.

- (ببطء وهو ينظر بعيداً) انا اسف. ما تقدرش.

كان هنا هو التوتر الثاني في علاقة يارا بيحيى بركان. انصرفت يارا غاضبة، وهو ظل في عربة المترو يفكر فيها. يحاول الاتصال بها ولكن كبرياءه يمنعه. طول الوقت كان يسمع كلاماً من الناس حوله. الناس الذين حاولوا الترسية عنه، طول الوقت، كلام يقال بشكل غير مباشر. كان غاضباً جداً، ولا يعرف إلى من يتوجه بغضبه، والغضب جاء في الكاماسوترا، الولا جمصة. اقترب منه وقال له سامحني يا يحيى ف الكلام اللي هنقولهوك نوت. يحيى كان على شعرة. نظر لجمصة وسكت، فواصل هنا. يعني هي الست يارا مع كل احترامي لكن أنا شايف انها بتستغلك. بتستغلني ازاى؟ يعني هي بصراحة واحدة مش حلوة. وانت هنا تعتبر زي زعيم وقائد. وهي عارفة انها لولاك انت معاها كان زمانها هتضيع. والمطلوب؟ يمكن أنا اصغر منك بكثير يا يحيى، بس انت اعتبرني زي اخوك الصغير اللي الدنيا علمته ياما. يعني مش هعا بول بنات صباح الشمروطة؟ سيبها يا يحيى، سيبها يا يحيى وريح بالك. انتفض يحيى بركان عندما سمع الجملة الأخيرة. أمسك بالولا. سحب سونكي سلاحه وغرزه بقوة في نراعه. كان يصرخ كالمجنون، انت نسيت نفسك يا خول؟ انت نسيت اللي لك م الشارع وعملك بني ادم؟ زق الولد بعنف في اتجاه الخروج من

النفق. أخذ الولد يجري ويحيى بركان يرميه بالطوب. ورحمة أمي اني لو شفتك تاني هنموتك يا خول.

خرج الكاماسوترا إنن من النفق. في ثوان انهار عالمه عليه. بعد أن مثل له النفق الجنة المثالية والحلم والمعنى الكامل لحياته، طُرد منه، كأى كلب شوارع. جلس على سور المحطة ينظر إلى النفق بالتعياح. تسيل منه دموع حزينة. ويمشي. ولكن هنه لم تكن نهاية الرحلة. مثل من سبقوه، مثل من طُردوا قبله من النفق، لم يقف الكاماسوترا عاجزاً. عزم أمره وتوكل على الله. سار باتجاه بيت أميرة بنت سوسو. قال لها هناك اعتبريني عبدك وملك إيديكي. أنهت أميرة صلاتها. سلمت على الملائكة الجالسة على اليمين وعلى الملائكة الجالسة على الشمال، ابتمت له وطبطبت على رأسه بحنّة.

يوماً ما رأت لارا نفسها وحيدة في المنام، وحيدة بلا عزاء. تسير في طريق مظلم، وفجأة يضاء المشهد. ترى حمادة من بعيد جالساً مع صديقيه، فاروق والشيخ محمد. تقترب منهم فيطوي حمادة لوحة بنك الحظ التي كان يلعب عليها ويمسح على شعرها. يقبل جبينها ويسألها زعلانة ليه؟ تكاد تنطق فيتشنج ويضعها بالقلم على وجهها. يحاول فاروق تهدئته بلا جدوى. فجأة يخرج فاروق مطواة من جيبه ويجرح وجه حمادة. يظهر مدفع رشاش في الحلم. مدفع يطلق ناراً عنيفة تجاه الجميع. كرسي القهوة تنقلب والطاولات ترتج، وحمادة يسقط على الأرض ويتضخم حجمه إلى أبعاد غير مسبوقة حتى يملأ شاشة الحلم ويفيض عنها أيضاً، والشيخ محمد يقف فوق كرسي ويهدد الجميع إن لم يعودوا فسوف يفتصبهم واحداً وراء الآخر، ويلعب في بتاعه الذي يبرز بقوة من تحت الجلابية. استيقظت لارا عرقانة وخائفة.

كانت الأيام هي الأيام التالية لزواج أختها بارا بيهيى بركان. لارا لم تكن تنام. كانت تسمع صوت السكس يتم بينهما بمنتهى العلنية وبلا كسوف من أي نوع، ويمكن بسهولة استنتاج أنها كانت تتحرق برغبة وغيره في نفس الوقت. في هذه الأيام اقتربت كثيراً من أم صلاح الشغالة. كانت تسمع الأصوات فتتسحب من غرفتها لتلتحق بغرفة الشغالة، تشعر بها هذه فتأخذها في حضنها وهي نائمة. نأت مرة لم تجدها، كانت عند قرايبها. عادت لارا إلى

غرفتها مخنولة وقررت الاتصال بها. قالت لها إنها تريدنا في موضوع مهم جداً، وإنها سوف تزورها الآن في بيتها بكموم الدكة.

طوال الطريق إلى كوم الدكة فكرت لارا فيما عساها أن تقول لأم صلاح. لم تكن تعرف. كانت خائفة وحسب. استقبلتها أم صلاح بابتسامة. أعدت لها كوب شاي ولم تتكلم، ولارا أيضاً لم تتكلم. بعدها قطعت أم صلاح الصمت قائلة، الرجالة بقوا صعبين أوي. ولم تشرح. اقتربت لارا منها ووضعت رأسها على حجرها. بدأت أم صلاح الحديث، عارفة المشكلة فين، المشكلة ان الناس الكبيرة مابقوش موجودين خلاص، اللي مات واللي اتقتل واللي اتحبس، انا جوزي محبوبس أديله ياما. دلوقتي اللي فاضل بس جيل الشباب. والشباب مايعرفوش حاجة.

وما الذي ينبغي على الشباب أن يعرفوه؟ لم تكن لدى أم صلاح إجابة محددة بدقة. استفاضت في مونولوجها بلا مقاطعات، الرجالة زمان ماكانوش كدا، كان فيهم اللي تلاقيه حنين واللي تلاقيه طيب واللي ابن ستين ف سبعين كمان. بس دلوقتي مابقاش فيه الا الوحشين خلاص. مش كل الرجالة وحشين. بس كفالبيبة يعني. احسن حاجة ان دلوقتي مابقاش فيه رجالة كثير، خدي عندك، (تعد على أصابعها) فيه إنتي، وفيه اختك، وفيه أميرة، وفيه الست إنشي انه يرحمها، وفيه كمان من الناس اللي ماتوا مئة أم أميرة. وفيه أم أميرة الأصلية، القديمة ديّت. الرجالة خلاص، مابقاش عليهم العامل الكبير. (تنظر لارا إليها. تبدو على وشك النطق بشيء) لا يا بنتي. يحيى بركان اني ما بنعتبروش راجل. مش علشان هو وحش. انما علشان هو من غيركو مش حاجة أصلاً. يحيى دا تربية ستك. وبقي جوز اختك، عقبال ما نفرح بيكي ان شاء الله. يعني هو بقي يعتبر مننا وعلينا.

على العموم، فهذه لم تكن سوى مقدمة القصة التي أرادت أم صلاح أن تحكيها. متن القصة نفسه لم يأن أوانه سوى بعد الانتهاء من الشاي ووص أحجار العسل فوق الشيشة. القصة كانت قصة امرأتين دوختا الإسكندرية يوماً ما. عجزت الشرطة عن ملاحظتهما وتلاعبتا بالرجال كما تتلاعبان بالعرايس اللعبة. اني عاوزاكي تاخدي بالك كويس. لإن هجوز في يوم من الأيام تقدي انتي واختك تعملي اللي الستين دول عملوه في يوم من الأيام. اني عاوزاكي تقربي من اختك وماتكرهياش وماتكرهيش الخير ليها. افتكري الستين دول وافتكري هما عملوا ايه لما حبوا بعض جامد. اسم هاتين الستين كان نادبة واعتماد.

شدت أم صلاح نفساً من الشيشة. أعطت اللي للارا، ومضت تحكي. حدث هذا من زمان. رقتها كان من يريد أن ينام مع واحدة في أي مكان في اسكندرية يمكنه هذا بسهولة. الكل كانوا يفعلون هذا، كان فيه أماكن معروفة بالاسم للي عاوز ينقي واحدة وينام معاها. ستك كات شفالة ف حاجة زي كدا، ماتزعلش يا بنتي. الناس كلها كات بتعمل كدا. كات حاجة عادية يعني. ولا كان فيه حد بيزعل. الناس كات بتعتبر با ترفيه، زي ما تقولي كدا ترييح عن النفس.

لم تشعر لارا بالإهانة. المعلومة كانت تعرفها، بدرجات مختلفة من الوضوح، من مصادر متنوعة. المهم أن نادبة واعتماد هاتين كانتا تعملان عند إنشي. لم تكونا جديلتين، ولكن بملابس معينة وميك أب معين كان يمكنهما أن تبدوا كذلك. وكانتا تثيران شرائح معينة من الشباب وكبار السن على حد سواء، الشرائح المتوسطة أو الأقل، وهي شرائح مهمة بالنسبة لعمل إنشي. التي لم تنشغل كثيراً بمسائل من الأكثر ثراء، وإنما بمسائل من الأكثر استحفاً. ولكن حتى المبادئ العظيمة تسقط أمام مبادئ السوق. كان عدم جمال نادبة

واعتماد هو السبب المباشر وراء تركهما هذه المهنة سريعاً. وظفتا جهدهما إنزاج لاجتذاب الزبائن، تشرعان لهن مميزات الكازينو عن غيره من الكازينوهات، كما عملتا على اجتذاب النساء المستعدات للعمل هناك.

نادية واعتماد كانتا أختين تبيعان الخضار بالزنانيري، قالت أم صلاح، بدأت العمل وهما شابتان عند علي وأنجي في حوالي سنة ٢٠١٥. تعرفت عليهما إنجي في السوق. أخذت أرقام تليفوناتهما واتصلت بهما في اليوم التالي. عزمتها عندها ليشربا الشاي. سألتها عن أحوالهما، وعرضت عليهما العمل عندها. فكرتا قليلاً، كل منهما متزوجة، واعتماد عندها بنت صغيرة أيضاً. ولكن الظروف قاسية جداً.

“الست مننا يا لارا يا بنتي لازم تفكر جامد قبل ما تاخذ الخطوة ديّت، يعني أنا من رأيي إن لو واحدة ست متجوزة وعندها عيال يبقى تقعد ف بيتها أحسن لها. عندك أنا مثلاً، اتجوزت وخلفت وقلت اني ماعنتشر اشتغل الشغلانة دي أبداً. وأنا صغيرة كان ماشي الحال، انما دلوقتي لأه. بس ارجع واقولك الناس مش زي بعضها. هما فكروا جامد، وسألو أمة لا إله إلا الله عشان ياخذو منهم النصيحة. ناس كتير قالتلهم بلاش. بس كان فيه اللي شجعهم برضه. النسوان الشراميط كانوا ف كل حنة ساعتها. والواحد ماكانش يعرف يميز بينهم وبين النسوان الكويصة”.

بناء على تشجيع البعض لها، بدأت اعتماد العمل في كازينو الكرنطينا، بينما رفضت نادية. لم تخبر اعتماد زوجها طبعاً بقرارها. أخبرتة أنها تعرفت على ست كويصة تقوم بتحفيظ القرآن في الجامع، وإنها تزورها يومياً، وكان هذا هو الستار الذي بدأت العمل تحته. سنة واثنان وثلاث واشترت اعتماد عربية بالقسط. كما استبدلت السجاير الكيلوباترا بالمارلبورو، وفرشت بهتة من أول

وجديد. ونادية اختها كانت تشاهد كل هذا، والغيرة تأكلها. زارت اختها المقيمة فوقها في شقة بشارع السبع بنات باللبنان، رأتها وهي تضع الميك أب أمامها وأمّام زوجها، تلبس بادي بحمالات وجيبية قصيرة تظهر فخذيهما، وتضع فوقهما عباءة سوداء طويلة. هنا أيقنت أن زوج اختها صار يعرف الحقيقة. عادت للبيت وكلمت زوجها عن حياة أختها، والفرش الجديد في بيتها. وطريقة كلامها التي اختلفت كثيراً. قالت له إن ربنا فتح عليها جامد. صمتت قليلاً ثم قالت إن أختها تعمل الآن عند إنجي. قالت إنها تعمل ويتر، تحضر الطلبات للزبائن، ولكن الزوج لم ينخدع. كان يعرف من هي إنجي ومن هو علي. سكت وقال، وانتى مابتفكريش تشغلي عندهم انتى كمان؟ صارحته بأنها تفكر، وصارحها بأنه موافق.

تعاود أم صلاح التأكيد: الناس كلها كات بتعمل كدا. كات حاجة عادية خالص. الناس كات بتعتبر دا زي ما تقولي ترييح عن النفس كدا. تسخن قطعة حشيش، تفرسها في قلب سيجارة وتدفسها بداخل كوباية طويلة. ثم تواصل الحكاية:

اجتذبت كل من اعتماد ونادية شباب كرموز. ومع الوقت صارت إنجي تعتمد عليهما أكثر من ذي قبل. راجت البضاعة. وتعلمت كل من المرأتين أسرار المهنة. عرفتا أين يقع الزبون المغلس وأين يقع الزبون الراقى، وركزتا على النوع الأخير، والذي لم يكن متوافراً للأسف في كرموز. الفلوس كانت قليلة بالنسبة للعرق. حادثنا إنجي في هذا فابتسمت وقالت إن ما يمرى عليهما يمرى عليها هي وزوجها وابنها. هي لا تأخذ أكثر منهما. هي دي شغلانتنا يا جماعة ودا رزقها. الزبون بتاعنا على قفه. قنعت اعتماد ونادية بهذا التفسير. ولكن

طلبات البيهت كانت كثيرة، والناس تضطر تحت وطأة الظروف لأن تفعل أشياء لا تقتنع بها.

أم صلاح كانت سرحانة مع الحشيش. تحكي وهي تناول الكوباية للاراء، تصمت وهي تكتم الأنفاس بداخلها، تغمض عينيها بقوة. تكح كحة أو كحتين ثم تعاود الكلام. ولارا من جانبها كانت تستمع، تتذكر أشياء بعيدة سمعتها في طفولتها عن امرأتين باسم نادية واعتماد. لم تعرف من هما وما حكايتهما، والآن، تتحرر كل الحكايات من قلب القبو المحري.

اعتماد ونادية اتعاركو مع ستك. كانت عركة فظيعة خالص. هما كانوا مفكرين ان فيه تحت القبة شيخ وان ستك بتاكل عرقهم. وقعدوا يقولولها انتي حرامية واحنا بنخدموكي بعينينا ومابيجيلناش منك غير فتافيت. وستك كانت صعبة خالص. ماترغاش على نفسها كلمة مالهاش لازمة. كانت حقانية يعني الصراحة وماتحيش الغلط قاتلهم خلاص، روحوا شوقوا شغلوكو بعيد عني. أنا كبرتكو وعلمتكو وانتو عاوزين تشوقوا نفسكو بعيد عني. خلاص يعني اني مش هنتحايلو عليكو، ف ستين داهية."

بدأت اعتماد ونادية العمل من بيتها بحي اللبان. هناك كانت الزبائن أفضل. فتحتا الشقتين على بعضهما. أزالتا السقف الذي يفصل بينهما ووصلتاها بسلام داخلي. في أشهر معدودة تحول بيتها إلى مركز لجذب رجال المنطقه. وعندما زاد الحمل عليهما لجأتا لتجنيد النساء. من قام بهذا الدور كان الزوجان بالتحديد، للسبب الأول، لأن الحمل أصبح ثقيلاً على الزوجتين، ولكن أيضاً بسبب عدم ارتياح عبر عنه الزوجان عنه تجاه نظرة سكان العمارة لهما. الزوجان كانا مبدئيين من هذه الناحية. قررا سوياً، في عشاء عاصف. أنهما لن يسمحا بأن تكون زوجاتهما عرضة لأي كلمة تقال من أي شخص مالوش لازمة.

بالإضافة إلى سبب ثالث كان الزوجان يعرفانه ولم يصرح به أحد. كانا موقنين أن فرص الكازينو ستكون أفضل في وجود نساء أخريات أكثر جمالاً من زوجتيهما. قاما بوضع يافطة على العمارة تشير إلى وجود "كازينو الحرية"، بالداخل. وتولى الرجلان البحث عن النساء والزبائن، في البداية من غرب الإسكندرية، مركز خبرتهما السابقة، ثم من شرقها فيما بعد.

كل حاجة مشيت حلوة يا بنتي. الناس كات ف حالها وماحدث بيحال حد عن حاجة. كات فيه ناس بتضايقهم، معلش، ماهو لما انتي تبقي ساكنة ف عمارة انتي من ححك تسالي مين اللي رايح ومين اللي جاي، ماحدش قال حاجة. بس مش أكثر من كذا، كلمة بتنتقال ولا كلمتين ولا خفاقة والدنيا بتها بعديها، بس الطمع بقى يا لارا، الطمع اوحش حاجة ف الدنيا يا بنتي. اني عاوزاكي انفي واخحك تحرصي م الطمع جامد، مابيجيش من وراه خير أبداً.

ما الذي كانت تقصده أم صلاح بالطمع؟ وكيف أدى الطمع إلى النهاية المأساوية لنادية واعتماد؟ هذا ما تحكيه في الفقرات القادمة. الدنيا شتاء، والزبائن قليلة كما هي العادة في الشتاء. وسمعة الإسكندرية تنزل في الحضيض بسبب صراعات عائلة علي وعائلة سوسو، والناس في بيوتها خائفة. هناك إيجار متأخر للشقة وأقساط من كل نوع تحاصرهم. زوج اعتماد كان عنيفاً، كان الأكثر عنفاً والأقل حذراً منهم جميعاً. قاد رجل أعمال إماراتياً إلى البيت، أدخله غرفة بعيدة حيث ينام مع بنت من البنات، وفي الغرفة، وبينما رجل الأعمال عربياناً ومؤخرته في الهواء الطلق، دخل عليه، (تستدرك أم صلاح باقتسامه وهي تفتح كفيها لتصور الحجم: كان عليه هانش باسم الله ما شاء الله الله أكبرا) صوره بكاميرا موبايله ثم طلب منه إخراج النقود التي معه، بالإضافة إلى الفيزا كارد ومفتاح سيارته وشقته. رفض الإماراتي. رفض بعنف

وحاول ضرب الزوج. نشبت بينهما مشاجرة، وعندما بدأ الإماراتي بالصراخ كمنه الزوج بقوة. دقائق معدودة مرت وسقط الإماراتي قتيلاً في الغرفة أمام عيني البنت المرعوبة.

أم صلاح مسطولة تماماً الآن. تسقط على الأرض. تقترب منها لارا. دقيقة وتفيق، تهمز رأسها بعنف ثم تعاود الحكاية: "مرة ف اثنين وثلاثة والجماعة بول احترفوا الموضوع بولت، بقوا يجيبوا الزباين المستريحين ويموتوهم. البت اعتماد ماكاتش مبسوطه. طول الوقت كات بتقول يا حسب الله احنا كنا ماشيين تمام، إيه اللي خلانا نمشو ف السكة دي دلوقت. (تستدرك) حسب الله دا جوزها، اسمه احمد حسب الله، بيقولوله حسب الله. والثانية جوزها اسمه عبد العال. محمد عبد العال. الرجالة كانوا هما اللي ابتدوا الموضوع بولت. بس الستات ماكاتش معترضة يعني. وبعدين الستين بول هما اللي بقوا يمضوا الموضوع. يجيبوا ناس عندهم، زي زباين وبتاع. وياخدوا فلوسهم، ويخلوهم يمضوا تنازل عن حاجتهم، وبعدين يموتوهم. كات قصة كبيرة وقتها. كل الناس كات عارفاها."

هل كانت أم صلاح تخرف وهي تحت تأثير الحشيش؟ لا تعرف لارا بالضبط الأرجح أن الخط العام للقصة كان حقيقياً، ولكن التفاصيل كانت محل اختلاف. بعض الناس أخبروا لارا في الأيام التالية أن حسب الله كان زوج نادية لا اعتماد، وأن عبد العال زوج اعتماد لا نادية. والبعض قالوا إن نادية لم تكن متزوجة من الأصل، وإن اعتماد كانت متزوجة من شخص اسمه بخيت يعود أصله لسوهاج. عموماً، الأسماء لم تكن تهم. ما كان مهماً وقتها هو الأحداث. هو أن الكرنيتينا لم تكن هي البؤرة المشتعلة الوحيدة في الإسكندرية. لا أبداً حين قال كدا، تعاود أم صلاح. اسكندرية كلها عن بكرة أبيها كات مولعة، من

ميامي لحد بحري وم العجمي لغاية المعمورة. الحكومة ف مصر كات هتتجن، مين الناس بول، إيه الشعب نا اللي مولع الدنيا دي كلها كدا. إيه الشعب اللي كله رجولة وجبروت دا؟ الفاس بتوع اسكندرية مش سهلين يا بنتي. برضه نا شعب عريق وله حضارة جميلة كلنا بنفتخرو بيها.

أربعة قتلى هي حصيلة كازينو الحرية في اللبان. رجلان وامرأتان. الست زي الرجل، ماعندناش تفريق (تبتسم). الباحث كانت بطيئة جداً في إجراءاتها، مما سمح لنادية واعتماد بأخذ احتياطياتهما، باعنا الشقتين، اللتين كانتا قد سبق وتملكتاها، وانتقلتا مع زوجيهما إلى المنصورة. وهناك عاودتا سيرتهما، سيرة اختلط فيها القتل بالدعارة بأنين الحيارى والثكالى ودمعات الأمهات.

تحكي أم صلاح قصة أخرى: مع الوقت بدأ حسب الله وعبد العال، يعاونهما بلطجي ثالث اسمه عربي، في الضغط على نادية واعتماد. زادت طلباتهم بينما المجهود الذي يبذلونه لا يستحق. فكرت المرأتان في التخلص منهم. خافت نادية وظلت اعتماد وراءها تحاول إقناعها. نادية جبانة وخمورجية ذات شخصية مهزوزة، واعتماد امرأة قوية لا تخاف غير من اللي خلقها. في النهاية توصلتا لتسوية، ستقومان بتسميم عربي، وسيشكل هذا رسالة قاسية لحسب الله وعبد العال. وقد كان. عربي يتغدى معهم المسك، ويتلوى فجأة على الأرض صارخاً. ينظر حسب الله لعبد العال وقد فهما، وفي رد فعل تلقائي، تهبط المرأتان وزوجاهما على ركبهم لكتم صراخه، وعندما يفارق الحياة تماماً ينشغلون بإخراج ما في جيوبه. طبنجة تسعة مللي، ثلاثة آلاف جنيه مصري، فيزا كارد، موبايل، جاكيت جلدي وجلايبية وحذاء وساعة فاخرة. يحملونه جميعاً لإلقائه في الخرابة تحت البيت. بالليل، سيجلس

الزوجان مع زوجتيهما في البيت. حسب انه يلف سيجارة حشيش واجماً ويردد بين الوقت والثاني وهو ينظر للسقف، الميتين اللي تحت، الميتين اللي تحت، أما عبد العال فيدفن وجهه بين كفيه ويدمع كالعيال وتخرج من حنجرته جملة غير واضحة، شي، ما مثل: كل شين هينكشف ويبان. وطول السهرة ينظران إلى زوجتيهما بريبة. الرسالة وصلت.

نادية واعتماد، اسمان شقا سماء الإسكندرية والعالم عندما بدأت التحقيقات مع أهالي المفقودين تشير إليهما. تم القبض عليهما بعد أشهر قليلة من أول جريمة قتل يقوم بها حسب الله. والتحقيقات كشفت عن شبكة إجرامية واسعة المدى، وكشفت عن التهميش المتعمد الذي وقع الرجلان، عبد العال وحسب الله، ضحية له، بحيث أصبحت نادية واعتماد هما كل شي، تقودان الزبائن وتقومان بقتلهم وتستوليان على أغراضهم ونقودهم، مما أدى بالزوجين إلى اعترافهما ضد زوجتيهما في النهاية. الرجالة بتغير م السمات جامد يا لارا، ما يحبوهمش ولا يحبوا الخير ليهم. وماحدث وقّع نادية واعتماد غير اجوازهم. هنا وصلت أم صلاح إلى خاتمة قصتها والدرس المستفاد: السمات لو اتسابت لوحديها ممكن يعملوا حاجات ياما. وعشان كذا أنا مش عاوزاكي تخافي انتي واختك. صحيح انتو بنات، بس البنات دلوقتي بقوا حلوين وجدعان، ربنا سبحانه وتعالى يقول عنهم انهم كانوا زينة الحياة الدنيا.

الجمال الأخيرة كانت مقطعة. ألقته أم صلاح وهي تكاد تكون نائمة. تغفو قليلاً ثم تصحو لتكمل الجملة. رأته لارا على هذا الحال. أحضرت لها بطانية. غطتها وخرجت من البيت. الساعة الآن التاسعة والنصف صباحاً. الباعة يفتحون محالهم، والشمس تشرق على الجميع. ولارا تشعر بنفسها قوية الآن، قوية وحررة وقادرة على كل شي.

كانت هذه هي أفضل أيام يارا بلا جدال. تعيش في بيتها تحت حماية شخص تحبه، يحرز رجالها الانتصارات على رجال أميرة بنت منة الله، ويعاملها الجميع بما هي جديرة به من الاحترام. نخالف الحقيقة لو قلنا أن الزواج لم يكن يشغل بال يارا من قبل. في الحقيقة، فهي لم تكن تفكر إلا به. يشهد على ذلك سريرها الذي طالما مارست العادة السرية عليه، ومواقع السكس التي كانت تبحث عنها بشق الأنفس على شبكة الإنترنت. الآن، تشعر يارا كما لو أنها قد حققت كل ما تتمناه، لم يعد ناقصاً غير استرداد أرض الفلق التي استولى عليها رجال أميرة. وهذا لم يكن شيئاً سهلاً. هذا كان مقلقاً، خاصة في ظل أخبار عن تجدد الهجمات على رجالها، وكميات ضخمة من السلاح يحوزها الأعداء. بدأت يارا في القلق، نظرت ليحيى بركان من الشباك فوجدته جالساً مع أصدقائه في القهوة يشربون ويلعبون بالفلوس، يلعبون بمبالغ ضخمة. انتاب يارا هاجس سريع، خفيف وطارئ: شعرت أنها وحيدة في الدنيا. كانت هذه هي أسوأ أيام يارا بلا جدال.

لهذا كله كان حديث لارا معها مشجعاً. حكمت لها لارا قصة ناديّة واعتماد. قالت لها إنه صحيح إن ناديّة واعتماد كانتا امرأتين، ولكن هذا لا ينفي أنهما استطاعتا فعل أشياء كثيرة. ولولا قدر زواجهما بهما لاستمرت في العمل سنوات وسنوات. صعدت الأختان ثم قالت لارا، تفنكري يحيى بركان ممكن يفدر بينا؟ فعاودت يارا النظر من الشباك وقالت، الفدر مقدور عليه، بس ادعي ربنا بس يفوق م اللي هو فيه. الفكرة الكئيبة التي كانت تلوح في رأس يارا في ذلك الوقت أن يحيى بركان أصبح مدمناً كاملاً للخمر. أنه لا يستطيع الحياة الآن بدون الكحول.

الحكمة المستخلصة من قصة ناديّة واعتماد كانت أن يتم تحييد يحيى بركان تماماً، نظراً لأنه غير قادر على إدارة المعركة، ولأنه لو أصبح قادراً فسوف يقوم بالعدو، بالضبط مثل زوجي ناديّة واعتماد. الحذر واجب في هذه الظروف. نزلت يارا ولارا إلى النفق بدونهم، وعاودتا النزول مرة واثننتين وثلاثاً، وفي كل مرة كانتا تتعرفان على رجال آخرين ممن يصلحون لقيادة المعركة. فكرت الأختان في نفس الشخص بالتزامن: أفريقي. شاب في أواخر العشرينيات. ظريف ويلعب بالسلاح ونو شخصية قيادية. جلست معه لارا. قالت له احنا عاوزينك يا أفريقي تبقى انت دراعنا اليمين. سألها، طب ويحيى بركانة؟ قالت له بالحرف، سيبك من يحيى بركانة دلوقتي. هو مايعتبرش زعيم عليكو إلا بفضلنا احنا. واحنا عاوزينك انت تبقى انت الزعيم بتاع الناس.

الخمرة وحشة. ليس صدفة أن ربنا سبحانه وتعالى يسميها أم الخيانت. رأينا في العقود الماضية كيف دمرت الخمرة حمادة، وآلآن نراها وهي تدمر يحيى بركان. يحيى بركان يجلس طول الوقت مع أصحابه، يلعب ويشرب، ولا ينزل النفق إلا نائماً. جيبه امتلأ بالمال من جراء عدة تجارات صغيرة احقرقها تحت الأرض، من أول العسليّة وسنوتشات الفلافل وحتى السلاح الآلي، مروراً بساعات المتعة في عربة القرو التي يؤجرها للرجال والنساء. المال لا يفارق جيبه، يشرب ويلعب وتجارته تمشي نفسها بنفسها. ولكن هذا كان خطراً، على صورته قبل أي شيء. شوهد مرة وهو يتقيأ في شارع مظلم بحري، وشوهد أخرى وهو نائم على الأرض بابو سليمان لا يتمكن من القيام. قلب يارا كان يتمزق. حاولت كثيراً الكلام معه فبصق على الأرض ودخل لينام، وعندما

لاحقته صفعها على وجهها. يارا كانت حاملاً منه. آلهما ضربه لها وفي بطنها طفله المستقبلي. يارا كانت تختزن كل هذا. لم تكن تنسى.

لا أحد يعرف بالضبط ما الذي كان يفكر فيه يحيى بركان هذه الأيام. هل كان يشعر بأن الإمبراطورية التي بناها بالسلاح توشك على الانهيار، هل كان يشعر بالاشمزاز من نفسه، أو بالعكس، هل كان فخوراً بنفسه؟ لا أحد يعرف. الدخول إلى مكنونات نفس يحيى بركان صعب للغاية، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار وجهه الجامد وكلامه المبتسر. ولكن يمكننا استنتاج أنه كان يتعزق يوماً بسبب نظرة الاستهانة التي صار يقابلها بها الكثيرون، ولم يكن قادراً على مواجهتها. هو شخص عاجز الآن. كلامه هو هو، ونظراته هي هي، ولكن الفارق أنه لا يستطيع فعل شيء. حتى عندما عرف باستعانة زوجته وأختها بأفريقي لقيادة المعركة تحت الأرض، لم تخرج منه ولو كلمة عتاب حتى. فقط سألها وهما على السرير، هو أفريقي دلوقتي اللي ماسك النفق؟ هزت رأسها بالإيجاب ببرود، فحوّل وجهه بعيداً وأطفاً النور.

الأيام التالية شهدت تراجعاً شديداً في موقف الرجال تحت النفق. لهومين كاملين ظل إطلاق النار موجهاً من رجال أميرة إليهم. أنهك الرجال، جرح الكثيرون ومات البعض، واضطروا للتراجع إلى الوراء عدة أمتار سرعان ما احتلها رجال أميرة. تعشى أفريقي مع يارا ولارا في البيت وأخبرهما إن الرد على هذه الضربة سيكون قاسياً، وبالفعل، ارتج النفق بعدها بسبب هجوم رجال يارا على رجال أميرة. قنابل المولوتوف ملقاة الآن في كل مكان، وفوارغ الرصاص، والخراطيش، والنبل المعدة لقتل الحجارة. استطاع رجال يارا تحرير الأمتار التي سبق وأن سلبت منهم. وثقت يارا في أفريقي أكثر من ذي

قبل، أعطته سلاحيات أكثر، وأعلنت هي وأختها عنه بوصفه الزعيم العسكري للنفق، بدلاً من يحيى بركانة الذي كان وقتها يتقياً في الشارع مثل الكلب.

•••

يمكن القول إن هذا كله لم يكن مفصلاً عن الشأن العام. أنظار العالم كلها متعلقة بالإسكندرية وبصراعاتها. بدأ الاهتمام الإعلامي بالمدينة عندما زارت صحيفة أمريكية الكرنيتينا، استطاعت أن تصور بكاميرا تليفونها مشاهد من حرب الأنفاق، وجلست مع يارا ولارا ويحيى بركان وأميرة لتحاوهم؛ هي التي تتقن العربية بلكنة فلسطينية. في النهاية. خرج التقرير الصحفي عن المدينة في خمس صفحات من "النيويورك تايمز" تحت عنوان: "الإسكندرية: قصة سبع نساء يحكمن العالم". بدأ التحقيق بجملته مؤثرة: "في الوقت الذي حفر فيه الإنسان ليصل إلى قلب الكرة الأرضية. إلى مركز الجاذبية، فإن أهل مصر لم يكونوا بعيداً عما تحت الأرض أيضاً. وفي الوقت الذي تتصارع فيه حكومات العالم الكبيرة، حكومات الأرجنتين الصين وأمريكا بالتحديد. على امتلاك قلب الأرض، فإن المصريين كانت لديهم صراعاتهم المشابهة أيضاً". التقرير تضمن صور يارا ولارا وإنجي ومنة وأميرة، مع سيرة ناتية لكل منهن وورثها في القصة، كما ضم صندوقاً صغيراً يحكي قصة يتداولها أهل المدينة، ولم تثبت صحتها تاريخياً، حول امرأتين احترفتا البغاء وقتل الزبائن وعرفتا باسم نادية وامتداد. صفحة أخرى من التقرير الصحفي تضمنت صوراً من الأنفاق وحكت عن المحاربين الصغار الذين يأمرون بأوامر قائدهم. كان التحقيق بمثابة زلزال في الإعلام العربي. اندفع جميع المرسلين الصحفيين إلى المنطقة. استطاعت بعض المحطات العربية عرض أفلام توثيقية قصيرة عن الكرنيتينا،

وبعدما تم إغلاق الباب تماماً أمام الإعلام. تشدد أهل المنطقة في سؤال الغرباء عن هدفهم وتفقيشهم بدقة.

صار اجتياز المنطقة مستحيلًا الآن. وهو ما دفع الإعلام الرسمي للاختلاق، ومحاولة سد الثغرات في القصة التي نقلتها النيويورك تايمز والفضائيات العربية. مثلاً، ما الذي فعله الرجال والنساء تحت النفق سوى ممارسة الجنس، وما الذي يبغيه سكان المنطقة سوى تنفيذ مخطط لتشويه صورة عروس المتوسط كتب أحد الصحفيين غاضباً من تلك الكائنات الشيطانية التي تسلك إلينا في غفلة من الزمن لتحرق الأخضر واليابس في حياتنا، وبينما الدولة المصرية مشغولة بالتنمية في الصعيد، فإننا نجدهم يدمرون جهد عقود وعقود في النهوض بالدينة التي كانت يوماً منارة المعرفة والحرية في الشرق كله. ولح أحدهم إلى ملاحم الوجه الغربية للنساء السبع، كلهن قبيلات، بعيونهن نظرة شر رهيبة. بمن فيهن تلك المتنقبة (يقصد إنجي)، التي يبدو وكأنها قائدتهن ومحركتهن الأساسية.

كل هذا كان له تأثير على الوعي الجمعي المصري. تُذكر الإسكندرية الآن مقترنة بالصفات الحيوانية لأهلها، أحد رسامي الكاريكاتير تفنن في رسم صورة للشخص الإسكندري بوصفه كائناً من نوي الذبول، وآخر صار يرسمه دائماً ملوناً بالأخضر. وكتب أحد علماء الأنثروبولوجيا عن الشخصية الإسكندرية قائلاً: "الإسكندري هو شخص محب للدم والعنف. تفقنه طبول الحرب أكثر من الموسيقى الكلاسيكية الراقية. ويعشق السلاح أكثر من قوائد السلام. الإسكندري بطبيعته لا يحب النكته إلا إذا كانت موجهة ضد أعدائه، ولا يستمتع بالأعمال الفنية إلا تلك التي تحقر من الآخرين وتقوم بتمجيدِهِ هو شخصياً. ليس للإسكندريين قضية عامة يتوحدون حولها، ولا مبدأ ملهم. بل يمكن القول إن

لكل واحد منهم قضية ومبدأ يخاصه هو شخصياً، ولكن يجمع السكندريين كلهم تعصبهم الأعمى والدموي لقضاياهم ومبادئهم المختلفة. تدلنا عيادات الطب النفسي أن أكثرية السكندريين يعانون من السامومازوشية، وهو مرض التلذذ بتعذيب النفس والغير على حد سواء. نحن طبيعاً لا نقوم بالتعميم هنا، فنحن نشق في وجود قلة من السكندريين الشرفاء الذين يضع صوتهم للأسف وسط جحافل الهمجية والانتقام والبدائية. يمكن القول إن هذه الفقرة التحليلية كانت من أكثر التحليلات شهرة في تلك الحقبة. تم اقتباسها في كل الصحف، وصار الجميع يعرفونها ويردونونها ويضيفون إليها من تحليلاتهم الخاصة. لقد كانت ستينيات القرن الحادي والعشرين هي أسوأ العقود بالنسبة لسمعة الإسكندرية.

تأثير هذا على الدولة المصرية، ممثلة في وزارة داخليتها، كان واضحاً. كثيراً ما تم توجيه اللوم إلى وزير الداخلية على سماحه بوجود منطقة الكرنيتينا بما تمثله من خطر على الشخصية المصرية المسالمة والطيبة، وكثيراً ما خرج محافظ الإسكندرية ليؤكد أنهم في المحافظة يصد إعداد مشروع للقضاء على البؤر (وهو الاسم الحركي المعتمد للكرنتينا). ولكن أحداً لم يفعل شيئاً. وفجأة، وفي خطوة غير مسبوقة من رئاسة الجمهورية. تمت إقالة وزير الداخلية ومحافظ الإسكندرية سوياً. لاحظ أهل المنطقة اشتداد النبوة. تمت محاصرة الكرنيتينا بلافتات عدة تحمل توقيع وزارة الداخلية. الرسائل التي بثتها اللافتات كانت مباشرة، "احترم رجال الشرطة"، "من النهاردة، هاتدمر البؤر بنفسك"، بالإضافة إلى لافتة شعرية: "لما بتهل البشاير/ خمسة وعشرين يناير/ كل عام/ نحب البوليس/ ونخاف م البوليس/ ونضع الكلام". هكذا إذن، أتى وزير داخلية جديد، ومحافظ جديد، وتعهد كلاهما بالقضاء على الكرنيتينا،

تماماً ونهائياً. كانت لهجتهما عنيفة وتدل على نفاذ صبر. بل ولقد طرق وزير الداخلية على الطاولة بقوة وهو يصرخ في لقطة تم تسريبها على الإنترنت: "أم التمريض دا لازم يتوضع له حد بقي".

كل هذا الشرح كان ضرورياً للوصول للفقرة التالية. في اليوم ٢٠١٤/٣/٢٨ تم نشر إعلان في الصحف المصرية جميعاً كان هذا نصه: "أيها المواطنون

نحيط حضراتكم علماً أنه بعد أسبوعين من الآن، وفي تاريخ الجمعة ٢٠١٤/٣/٢٨، سوف يتم إخلاء منطقة الكرنيتينا الواقعة بحي كرموز بمحافظة الإسكندرية تماماً. وعلى المواطنين المقيمين بداخلها سرعة الانتقال إلى خيام الإيواء لحين الانتهاء من تشطيب مساكن المحمودية المعدة لاستقبالهم. كما نهيب بالسادة المواطنين عدم التعرض لجنود وضباط ومعدات الشرطة التي ستقوم بإخلاء المكان بالقوة إن لزم الأمر. والدولة المصرية تعلن إخلاء مسؤوليتها عن أي ضحايا سيقعون جراء محاولة استعمال العنف مع رجال الشرطة الشرفاء الذين يؤتون واجبهم نحو وطنهم بكل الإخلاص والتفاني.

وا لله الموفق

مجلس حي كرموز

امرأة منقبة اجتازت الشارع وحيدة في ظلام الواحدة بعد منتصف الليل، لتصل من كربنتينة سوسو إلى كرنيتينة علي وإنجي. لا أحد يعرف ما الذي كانت تفكر فيه، خاصة مع وجهها المغطى، ولا لماذا تسير في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا كيف، وهو الأهم، تعبر الحواجز الفاصلة بين الكرنيتينتين بهذه الثقة، بدون أن تلقي اعتباراً للجان التفتيش القامة بين المنطقتين. امرأة منقبة كانت تسير بعباءة سوداء واسعة أمام الشباب المهيران وعندما تفاجئها لجنة تفتيش تتجاوزها بثقة بدون الرد على الواقفين عليها. امرأة منقبة تسير وحيدة حتى تصل إلى محل كشري "بنات حمادة"، الموشك على إغلاق أبوابه. تقف أمام المحل حتى خروج أحد العاملين وسؤاله إياها عن طلبها. تقول له إنها تريد الحديث مع مدام يارا لأمر هام. هكذا طلبت وأصرت إنها لن تنطق بحرف إن لم تأتيا مدام يارا شخصياً. خرجت يارا. فقالت لها المرأة باختصار، ازيك يا يارا. أنا أميرة بنت خالتيك منة. وعازوة اتكلم معاكي ف موضوع ضروري.

في البيت أعدت يارا الشاي لأميرة بعد أن خلعت نقابها. استيقظت لارا وشاركتها الجلسة. ثلاث نساء، لم تتعد أي منهن منتصف عقدها الثاني، ولكنهن يحملن على أكتافهن مهمة تشكيل العالم، وبداخل بطن إحداهن. يارا. جنين في شهره الرابع. نستأنن هنا في نقل الحوار الذي دار بينهما بشكل كامل، لأن أي قطع لن يساعد على فهمه ولا فهم الشحنة النفسية الهائلة التي احتشد

بها. نعتذر لاضطرارنا لإيراد كل كلمة، كل حركة، كل نفس في الحوار، فبدون التفاصيل لن يكون للموضوع أي معنى. شربت الثلاث نساء الشاي، وتاملت كل منهن ملامح الآخرين. الزيارة لم تكن متوقعة من قبل يارا ولارا، ولكن أهدافها لم تكن غامضة كذلك أيضاً. الفكرة نفسها فكرت فيها كل من النساء الثلاث قبل يومين. الفكرة التي صار على أميرة الآن أن تشرحها بوضوح: الداخلية قالت هتفضي المنطقة بالعافية يا جماعة.

غمضت يارا: مش هيعرفوا.

أردفت لارا: لو كانوا عاوزين يفوضوا كانوا فوضوا من زمان. ونظرت إلى

أختها.

قالت أميرة إن الجرايد اليوم تحوي أخباراً عن إعداد خطة سرية للهجوم على الكرنتينا، وإن الرئيس طلع من شوية وقال إن الناس اللي عابشين هناك يا إما يشوفولهم حطة تانية يا إما هما مش مسئولين. نظرت يارا ولارا لبعضهما البعض. كانتا تعرفان هذا، وكان القلق يأكلهما أيضاً.

أميرة: أنا مش عاوزة اخوفكو يا جماعة. لأن احنا معانا الحق، احنا اللي ساكنين هنا ونعرفو مصلحتنا احسن من أي حد تاني، ورينا معانا مش معاهم، ورينا كبير.

صمتت يارا ولارا. كان وجه أميرة وجهاً جديداً تماماً بالنسبة لهما. وجه تشرب بالإيمان بأنه والثقة بقدرة الذات المؤمنة على تحدي الصعاب. وجه تربي جيداً عند الشيخة سالحة ولا يعرفانه هما جيداً. وجه بزبيبة صلاة ضخمة بحجم الفطيرة في منتصف الجبهة. حاولت يارا صد هذا الهجوم الروحاني عليهما. قالت، هما ياختي ما التفتوش لينا غير لما ابتديتي انتي والأوباش بتوعك يضربوا نار. الهجوم الروحاني من قبل أميرة لم ينقطع. نظرت بثبات

إلى الأختين وقالت، جايز يا جماعة انا غلظت فيكو كثير، واكيد ربنا
هيحاسبني على كل حاجة وحشة عملتها ف ناس ما أننبوش ف حقي حاجة.
كل اللي بتمناه من ربنا انه يغفرلي ويغفرلنا جميعاً. أنا بس بطلب منك نقفو
إيد واحدة دلوقتي قدام الداخلية يوم الجمعة اللي بعد اللي جاية. وبعد كدا
ممكن نعملو اللي احنا عاوزينه. انشالله نموت بعض حتى". كانت تقول هذا
وهي تفرض طرف إظفرها، ثم عاودت الحديث:

"لما نتحد ونبقى إيد واحدة يا جماعة ماحدث هيقدر يقربلنا. احنا مش
عاوزين مشاكل عشان خاطر المشاكل. احنا كل واحدة فينا بتفكر ان ليها حق عند
الثانية. بس احنا لو اكلنا ف لحم بعضينا دلوقتي حقنا كله هيروح، وهينقلونا
على مساكن زبالة. انا رحنت مساكن المحمودية دي وشفت بنفسي. حاجة قمة
في القذارة والتخلف."

"انتو جايز تفكروا ان انا ست ضعيفة دلوقتي عشان انا جيت وطلبت منك
نهدي الحرب بيننا. بس لأ، أقسم برب العزة إنني لو عاوزة أفجر المنطقة عن
بكرة أبيها مافيه حاجة حقوقني، واسألوا الناس اللي عندي في الكرينتينة".
وحده دقيق الملاحظة كان سلاحه إصبع أميرة وهو يندق بتوتر فوق ركبتيها في
هذه اللحظة.

مالت يارا على لارا. همست لها بشيء. ربما قالت لها إن أميرة مازالت
تفكر في نفسها بوصفها أميرة بتاعة زمان. وضحكت لارا. نظرت أميرة إلى
كليهما. سألت لارا ببرود، بتضحكي على حاجة يا لارا؟ فأجابت لارا، لا
أبدأ، أصلي افكرت حاجة كدا.

بدأت نبرة التوتر تتضح في كلام أميرة، النبرة التي تعرفانها هما من
زمان. عيب يا جماعة الحركات دي، عيب تضحكوا عليا وانا جيايالكو بنفسي.

أجابت يارا، والله ما كنا بنضحكو عليكى. فصرخت أميرة، لأ بتضحكو، انا سمعتكو وانتو بتضحكو عليا. نظرت يارا ولارا لبعضهما البعض، وأكملت أميرة صراخها. أيوة. أنا جيت عندكو هنا لإني خايغة عليكو. بس أقسم بانه إنى لوحدى اقدر أوقف مش بس وزارة الداخلية، لا، رئاسة الجمهورية كلها عند حدها. بس انى غلطانة انى عملت بأصلى.

يارا كانت مستغفرة تماماً. الكلمات كانت تخرج من فمها كطلق النار: هتوقفها ازاي ياختى. ماتورينا كدا. (وعندما لم تجد رداً من أميرة وقفت وقالت مشوحة بيديها الاثنتين) يا أميرة يا حبيبتي. لو كنت أنا ولا اختى قلات أصل كان زمانك مقتولة هنا دلوقتى. ومش انتى لوحدك يا حبيبتي. كل الهلافيت رجالتك كمان.

لارا: أيوة. كلهم، من الصغير فيهم لحد الكبير.

صمتت أميرة قليلاً. بدت خاضعة لضغط عصبي رهيب. جزت على أسنانها. نظرت للأختين ثم قالت بصوت خافت: ويحىي بركان؟

- ماله يحيى بركان؟

قررت أميرة أن تنطق بسرها الرهيب: يحيى بركان يا حبيبتي دا جوزى. متجوزنى من زمان. من بعد ما اتجوزك بحاجة بسيطة، والراجل الصراحة ماقصرش ف حقى بحاجة خالص، سلاح ويوصله لرجالتى بنفسه، وأخباركو وبيقولى عليها أول باول، هتموتيه هو كمان يا حبيبتي؟ صمتت أميرة قليلاً. قررت تضمين جزء إنسانى بخطابها. أضافت ووجهها فى الأرض: أنا حامل من يحيى بركان كمان على فكرة. هتموتى يحيى وتيتى ابنه؟ نظرت يارا إلى بطن عدوتها. كانت ترتعش.

جلست يارا. نظرت لأميرة صامته بعينين مليئتين بالتحدي، وكان لدى الأخيرة ما تقول. التقت أميرة بيحيى بركان بعد زواجه من يارا. ومثل زمان، فلقد أعجبت بمنظره وبعضلاته. ولكن لأنها امرأة تعرف ربنا وتتقي الله في أصحاب عمرها، فلم تصرح له بشيء، حتى بدأ هو. غازلها مرة واثنين وصار يمد يده أيضاً، وهي، كامرأة تخاف الله. حرصت على أن توضح له أنهما لن يجتمعا سوياً غير في الحلال. على أن يقوم بتطبيق يارا فور أن تسمح الظروف. هذا ما شرحته أميرة بيروود، بالإضافة إلى بعض المفاجآت الصغيرة أيضاً. يحيى بركان يبيع السلاح للرجال في النفق. يارا كانت تعرف أنه يبيع السلاح لرجالها. وأميرة كانت تعرف أنه يبيع السلاح لرجالها، ولكن أياً منهما لم تكن تعرف أنه يبيع السلاح للجانبين على حد سواء. وأنه يقوم بتسريب المعلومات عن كل من الفريقين إلى الفريق الآخر مقابل المال. هذا ما اكتشفته المرأتين في حديثهما.

انتهي الحديث حوالي السادسة صباحاً. يارا شاحبة ومنهارة. أميرة تبدو وكأنها تحررت من حمل ثقيل. ولارا على وشك النطق بشيء ولكنها لا تنطق به. في النهاية فقط نظقت يارا بعدة كلمات مقطعة. كان صوتها غير مسموع تقريباً:

- وهو كذلك. حتى لو كان كلامك صح. بس برضه خلي يحيى بركان معانا يوم الجمعة لا البوليس يبجي. نقفو مع بعضنا وبعضين نقطعو بعض زي ما احنا عاوزين. دلوقتي مافهش غير حل واحد. يا إما نتشاركو ف المسئولية يا إمتن نقعد ونخطو إهدينا على خدنا. واتفقت النساء الثلاث على أن يتشاركن في حمل المسئولية.

يمكننا أن نسمي هذه الليلة بالليلة التي بلا نهاية. فور أن انصرفت أميرة ذهب يارا لتحاول النوم. بعد نصف ساعة اقتربت منها لارا. طببت عليها فالتفتت إليها. نطقت لارا بما لم تستطع النطق به من قبل: ماترعليش مني ياختي ف اللي هاقولهورك. يحيى بركان دا بني ادم وسخ. انا عارفاه كويس أوي. (تصمت ثوان). طول الوقت كان عاوز ينام معايا.

- (بملاح باردة) كان عاوز ينام معاكي ولا نام معاكي؟
- (تخفي لارا وجهها في الأرض) نام معايا ياختي. ثلاث مرات. لما كتبي انتي مش موجودة. اني حاولت اقلوله لأه بس ما عرفتش.
حاولت يارا وجهها عن أختها. لم ترد. أغمضت عينيها. لاحظت لارا جسم أختها وهو يرتعش بقوة، وسمعت صوت نشيج مكتوم.

يمكننا الاستنتاج هنا، بدون تأكيدات، بدون ضمانات من أي نوع، أن يارا وهي متكلفة في بطانيته المبللة بالدموع، كانت تفكر في شيئين بالتوازي. أولهما لعنة البنات الأعداء، اللاتي تعادي كل منهن الأخرى. ويحبهن شخص واحد دائماً، بانماً هو واحد، لا اثنان ولا ثلاثة، ويتركن متخبطات ويعشن أسوأ حياة بسبب هنا، والثاني أغنية عالقة من زمن بعيد، تردت في ذهنها الآن، بلحن وإيقاع ورقص وموسيقى، لا تذكر متى سمعتها ولا من غناها ولا كيف حفظتها. الأغنية كانت تقول أولى كلماتها: "أنا صوبي لو اتقطع/ عمره ما يوجعني ثاني/ ولا عمري هايحصل إنني أعاني/ أبداً أبداً/ خالص خالص". فقط عندما تذكرت كلمات الأغنية بدأ الناس يتسلل إلى عينيها. الراحة النفسية.

قبل أن تصعد أميرة إلى بيتها مرت على الشخة سالحة.

في الطريق فكرت في مئات الأفكار. فكرت في أنها، بعد كل هذا العمر، حققت كل ما كان في نفسها. كانت تتمنى طول عمرها أن تكون شيئاً. وهي الآن شيء، وشيء مهم أيضاً. لا تتباهى أميرة بنفسها. لقد تخلصت من أي ميل للمباهاة منذ تعرفها على الشيخة صالحة. لا تقول إلا الحقيقة. هي الآن شيء مهم جداً على مستوى الحي والبلد والدولة. ولكن سكينه الخيانة أصعب من كل شيء، بل ويمكننا القول إن سكينه الخيانة هذه هي ما أفقدت حياتها المعنى الذي كانت تبحث عنه طول عمرها. أميرة الآن امرأة حياتها لا معنى لها. اشتكت أميرة للشيخة صالحة بدموع العين، قالت لها إنها كانت فأكرة إنها ستغير يحيى بركان، إنه سيطلق يارا ويخلص لها طول عمره. ما حشش عنه حاجة يا شيخه والله، كل اللي عاوزه كان بياخده، ليه كذا بس. ليه كذا بس يا يحيى؟ تجفف لها الشيخة صالحة دموعها وتنام أميرة في حضنها لثوان. ثم سرعان ما تنفض، البت يارا دي عاوزة مني إيه، هي واختها، تصوري يا شيخه، تصوري انه كان بيغام مع البت لارا كمان، والبت اختها بعقت تقولي دا ف وشي. هما عاوزين مني إيه؟ هو مين اللي كان بيذاكرهم وهما صغيرين. مين اللي كان بيملفهم فلوس لما يحتاجوا، مش انا؟ ليه كذا بس يا يارا؟ ليه بس يا لارا؟ ليه يا حبايبي؟

الشيخة صالحة لم تجد ما ترد به على بكاء أميرة إلا الدعوة للتسامح والمحبة، كلنا مخالقي ربنا يا أميرة. كلنا. بلا استثناء، وانتي مش احسن من أي واحدة فيهم. افتكري دا كويس، ما حشش أحسن من حد أبداً. نظرت لها أميرة طويلاً. فكرت في جعلتها، وقررت أن تتخذ الجملة دليلاً لها في الأيام القادمة. ما حشش أحسن من حد أبداً.

عندما دخلت أميرة على الشيخة سالحة لم تقل لها السلام عليكم. قالت لها شيئاً مثل إساليكو، ونحن نعرف من فقرات سابقة ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لها، ولنا. يمكن القول بدون أي خوف من المبالغة إن أميرة كانت تتمزق، إنها لم تعد نفس أميرة الروحانية التي رأيناها من قبل، ليس بسبب يارا ولا را فحسب، بل بسبب يحيى بركان في الأساس. كانت فقرة يحيى بركان هي الفقرة الأخيرة في سهرتها مع الشيخة. نظراتها ثابتة، موجهة إلى كتف الشيخة. لا تحيد عنها، كانت قد وصلت لمرحلة الانهيار النفسي الكامل، برغم النبيرة الواحدة والآلية، الرتيبة تماماً، والصوت الخافت، والثبات التام في النظرة، كانت أميرة مدمرة، جميع خلاياها مدمرة، وجميع خلايا كلامها كذلك، ليه تتفكري، هو انا ماكتش عاجباه ليه، عارفة؟ تصوري انه عمره ما نام معايا، كان كل يوم يبجي من عند يارا ويقول انا تعبان وخليها بكرة. تصوري انه مانامش معايا ليلة الدخلة. حضرتك مش مصدقة، طب تعري ان دا كان اتفاقنا. قالي هتجوزك عشان عارف انك عاوزة راجل يحميك ويحمي شغلك، بس قالي انه مش هينام معايا، عشان مش عاوز يخون مراته، والكلام دا مش صح، عارفة ليه، لإني بعد كدا وصلني كلام ياما إنه كان بينام مع البت اختها، مش مصدقاني؟ والله زي ما بقولك. يارا ولا را آه. إنما أميرة لأ، أميرة وحشة. أميرة لابسة خمار لحد ركبته وبتاعة قال الله وقال الرسول ويتقول فيه حاجات تصح وحاجات ماتحش بين الراجل ومراته، أميرة دي دمها تقيل على قلبه. (بمخيرية) وهما يعني اللي دمهم غسل أوي. (النظرات أكثر قسوة وصلابة) تصوري اني لسة بنت لغاية دلوقتي. آه والله. مستغربة ليه؟ لسة بنت. عمري ما عملت حاجة وحشة. وعشان كدا أنا مستغنية ان ربنا يكافئني جامد، هو مش فيه ربنا؟ ولا هو مافيش؟ (تخفي وجهها بين كفيها. يبناً

جسمها بالارتعاش) بس انا قلت اني حامل. انا عاوزه دا أوي. نفسي بطني تكبر زي بطنها. نفسي بطني تكبر أوي يا رب.

•••

لارا وحدها لم تكن تبكي. ولكن البكاء ليس بالدموع وحدها، هناك بكاء بالقلب أيضاً. كان داخلها يتمزق، بالضبط مثل الأخيرين، هي التي خانت أختها ثم خانها من خانتها معه. على مدار الأيام التالية لم تجرؤ أن ترفع عينيها في وجه يارا. كانت تشعر بالخزي؛ كانت تشعر بأنها صغيرة جداً، متناهية الصغر، لا تُرى بالعين المجردة. ولم تكن تبكي. لم تبك إلا بعدها بخمسة أيام. رأت مشهداً في مسلسل عربي تعترف بطلته أمام حبيبها إنها تخلت عنه لظروف ما يعلم بها إلا ربنا. وتطلب منه السماح، فيبتم حبيبها بمرارة ويقول لها إن أذى الجسم مقدور عليه، لكن أذى الروح من يجبره؟ بكت لارا بحرقة. تشنجت ومضت تلطم على وجهها وتصرخ، سامحيني ياختي. لم يكن هناك أحد في البيت ساعتها غيرها هي، كانت كمن تكلم نفسها، وبالتأكيد فلقد تعنت أن تدخل أختها في نفس اللحظة وتراها على هذه الحالة. ولكن أختها كانت بعيدة. لا أحد يعرف أين يارا الآن.

استرجعت لارا هذه الأيام قصة نادية واعتماد. واسترجعت الدرس الأخلاقي المتضمن فيها، إن النساء وحدهن يمكنهن فعل كل شيء. النساء قدرات على المستحيل حالما توفرت الظروف لهن. بالإضافة إلى درس آخر، في ليلة قريبة قررت لارا اجتياز الحدود وزيارة الشخة صالحة. طرقت عليها باب الشقة وقالت لها أنا لارا، لو عاوزه تتفي ف وشي تفني، بس أنا تعبانة أوي، تعبانة ومش هنستريح إلا أمانا اتكلم معاكي. استقبلتها الشخة صالحة بابتسامة. رقتها بالبخور وقرأت عليها قل أعوذ برب الغلق وقل أعوذ برب

الفاست. جلست لارا بعد أن هدأت قليلاً. قالت لها إنها كانت تعبانة، أنا ست يا ناس. وتعبت زي السمات. وغلطت، ربنا يسامحنى بقى. بس بافه عليكى يا شيخة، ماتعشيني من هنا الا اما تقوليلى كلمة تريحني. قالت لها الشيخة صالحة كلمة تريحها، قالت لها إنها مثلها مثل أختها مثل أميرة. كل الفاست مثل بعضها أمام ربنا عز وجل. كان هذا هو الدرس الثاني الذي استوعبته لارا في تلك الأيام.

أخذت لارا نفسها وزهبت لتلتقي بأفريقي، الرجل المسؤل عن حربها هي ويارا الآن في النفق. شرحت له تفاصيل الخطة المعدة ليوم الجمعة القادم، سيتم هدم الحدود بين النفقين، والجميع الآن سيتواجدون هناك. الجميع يعني الجميع، يعني لارا ويارا وأميرة ويحيى بركان وأفريقي، وحتى الكاماسوترا، القائد العسكري لأميرة في النفق. سندافع عن أنفسنا بكل شيء. بالسنج والسيوف والمولوتوف والآلي. كلنا زي بعض دلوقتي، مايش تفریق. العيال هييقوا فوق النفق. قدام مدخل الكرنيتنا، هيلقموا المدخل. أي عربية من بتوعة الداخلية هتنفجر وهي داخله. والحريم هيقفوا فوق سطوح البيوت، وبأيديهن زجاجات ماء نار يتم إلقاؤها على أي من يدخل. أما النفق دا بقى يا اخويا فهيبقى حاجة زي غرفة عمليات. هندبرو المعركة من هناك. وعاوزاك تعلقى شاشة كبيرة تحت نشوفو منها اللي بيحصل فوق. فهمت يا أفريقي؟ أفريقي فهم طبعاً. أفريقي كان يحفظ تفاصيل الخطة، سبق وأن شرحتها له أميرة وسبق أن شرحتها له يارا، كل في لقاء منفصل.

كانت هذه هي التفاصيل المعلنه للخطة. التفاصيل المتفق عليها بين الثلاث نساء. ما أضافته لارا له في لقائهما المنفصل كان تفاصيل أخرى. قالت له إنها لم تعد قادرة على احتمال هذه الحياة. حياة صعبة وقاسية تغدر فيها بالناس

ويغدرون بك ولا كإننا ف غابة. أنا مش أحسن من حد. ولا حد أحسن مني.
ربنا بيقول كلكم سواسية. أنا عاوزه القصة دي كلها تخلص بقي. أنا زهقت يا
عالم.

خطة لارا لإنهاء القصة كلها كانت بسيطة. سيقوم أفريقي بزرع ديناميت
في النفق، عبوة ضخمة من الديناميت، ثم سيطلع خارج النفق. وعندما ترن له
لارا على تليفونه، سيقوم بتفجير الديناميت كله. من تحت أقدامها هي نفسها
قبل أي شخص آخر. ثم من تحت أقدام أميرة ويحيى بركان، ثم يارا. سيحدث
هذا بعد الانتصار على الداخلية. عندما تنفجر عربات الداخلية واحدة إثر
الأخرى، وعندما يتأكد أفريقي أن المنطقة في أمان، وإن أحداً لن يجرؤ على
اقتحامها ولا تخريبها بعد الآن. ارتكنت لارا على كتف أفريقي. كانت تبدو
كالمغبية. قالت له إوعي تفكر يا أفريقي اني مبسوطه باللي حاصل. اوعي
تفكر اني أنا ولا اختي عاوزين نموتو الناس ونشرودهم. كل واحدة فينا، حتى
أميرة، حتى امي الله يرحمها، كات عاوزه تطلع م القصة دي، بس ربنا ما
ألهمناش الطريقة. بس ربنا ألهمني أنا دلوقتي. انا عاوزه اختي تخلص م اللي
هي فيه، وأميرة تخلص هي كمان. اميرة دي اختي يا ولا، وصعبان عليا أوي
إنها تبقى كذا. يمكن لما نموت ربنا يرحمنا برحمته. ماحدث يعرف رحمة
ربنا فين. وعدته لارا ببيت الكرنطينا في حال موتهن جميعاً، خلاص. ماحدث
هيورث حاجة. وانا بنفسني هنكتبك كل اللي عندي باسمك انت. حاول أفريقي
أن يطبب على كتفها ولكنها أزاحت يده وابتسمت. انا مش تعبانة يا ولا.
اوعي تفكرني تعبانة. انا ربنا ألهمني الحل دوت من عنده وانا باصلي
الاستخارة امبارح.

ما لم يقله لها أفريقي - تادياً منه- إن أختها، يارا، زارته بالأمس وطلبت منه نفس الطلب، بنفس الكلمات تقريباً، وما لم يقله لها - جهلاً منه - إن أميرة سوف تزور مساعدتها الكاماسوترا في الغد، وسوف تطلب منه نفس الطلب، بنفس الكلمات أيضاً. وإنه، في ليلة الجمعة القادمة، سيجلس مع الكاماسوترا ويفشيان لبعضهما هذا السر. أشعل أفريقي سيجارة وأعطاه إياها. حضنها بقوة وقال لها إن كل شيء سيمير على ما يرام إن شاء الله. وهي استسلمت لحضنه تماماً. كانت تبدو رقيقة كالعصفورة وهي في حضنه.

°°°

أمت الشيخة صالحة الحريم في صلاة الجمعة. قبلها، كان الشيخ في خطبة الجمعة يتحدث عن أهمية الثبات في المواقف الصعبة، كان يكرر من وقت للثاني في الخطبة، هذه ساعة الثبات يا اخواناً. أنا بأوقم بالله إن هذه ساعة الشهادة وافه. بعد الصلاة جلست الشيخة صالحة مع النساء، مزودة بالطاقة الروحية الجبارة التي تشع من عينيها، قالت إن هناك أشياء كثيرة حدثت في هذه المنطقة، الناس كرهت بعضها وقتلت بعضها والأطفال والحريم اتشردت ع الآخر. ليه يا أخواتي؟ لأن الناس لم تكن تحب بعضها. كل واحدة فكرت في نفسها وظنت إنها أحسن مند رينا من الثانيةين. وهو دا رينا يرضاه؟ وهو رينا مثلاً قالنا كل واحد أحسن من الثاني، ولا قالنا لا فضل لواحد على الثاني وإن مافيش حد أحسن من حد؟ أميرة كانت تنظر لهارا أثناء الدرس، ولارا كانت تنظر لكليهما. على شفتي كل منهن الآن ابتسامة راضية ومتسامحة. الخيانة المشتركة التي تعرضن لها رقت قلوبهن. وقيل أن تفكر أي منهن في الانتقام من الأخرى لغدرها بها، فكرت في قتل نفسها أولاً. كل الناس سواسية الآن. التاريخ يثبت عدالته.

بعد نصف ساعة بدأت نداءات الشرطة تتردد. على جميع سكان المنطقة المغادرة فوراً وبلا إبطاء، المنطقة سيتم إخلاؤها بالقوة. الثلاث نساء في النفق. وبجانبيهن أفريقي والكاماسوترا. المنطقة مشتعلة بالأعلى. والغازات السائلة للدموع تتسرب إلى داخل النفق المظلم. والرجال يتساقطون أمام أعظار الرصاص الحي، وعساكر الشرطة يتساقطون أيضاً. وأفريقي والكاماسوترا يوجهان الحريم الواقفات فوق أسطح البيوت، يصدران إليهن التعليمات، أين يمكنهن إلقاء زجاجات الماء الحارق وأين يمكنهن كذف الإلوتوف. كما يوجهان الرجال لكيفية استفزاز العربات بحيث تضطر لعبور الخطوط الملقمة بجنازيرها. والعربات تنفجر الواحدة بعد الأخرى. وضباط الشرطة يتم خطفهم إلى داخل الكرنطينا. موقفنا كويس. ينظر أفريقي إلى النساء وبيتسم. وبيتسم هن أيضاً. يشاهدن بأعينهن الحجارة وهي تنطلق نحو أعين الجنود وتعميهم إلى الأبد. الشاشة الكبيرة في النفق تعرض كل شيء، كل شيء، أحسن من الجزيرة والسبي إن إن.

في وسط المعركة تقترب أميرة من يارا، تقول لها سامحيني ياختي، انتي عارفة انا باحبك قد إيه. فتطيطب يارا على شعرها. تنزل أميرة على ركبتيها وتقبل بطن يارا البارزة، تدمم بفرحة، كتكوتي أنا، صغنوني أنا حبيب قلبي ياختي عليه. وتنظر لي يارا وتسالها بعينين دامعتين، هتسميه إيه ياختي؟ فتقول يارا هاسميه عبد الله، وتشير إلى بطن أميرة وتقول لها، عقبال عندك انتي كمان ياختي اما تفرحين باخته الصغيرة. وأفريقي يجلس على الأرض بجانب لارا. يقول لها بعون الله يا ست الكل ماحدث هيقدر يقرب مننا. احنا اللي عندنا الإيمان وحما لأه. فتقبض لارا على كفه وتقبل أصابعه واحداً واحداً،

ثم تنظر له وتقول. انت حلو كدا ليه يا ولا؟ يا ولا ماتحبينيش فيك كدا يا ولا. ويضحكان.

المغرب يؤذن: وعربات الداخلية، أو ما تبقى منها، تنسحب بعد جمع جثث الجنود على متنها. يارا ولارا وأميرة الآن وحدهن في النفق، بعد أن انصرف أفريقي والكاماسوترا. عندما يتأكد انسحاب آخر عربية، تنظر كل واحدة منهن إلى الأخريين، ويقمن جميعاً بإخراج تليفوناتهن وطلب رقم ما. الحركة كانت ملحوظة. تلاحظها كل منهن فيبتسمن جميعاً في نفس اللحظة. في نفس اللحظة، بينما المكان يرتج حولهن بانفجار هائل. بينما أحجار النفق تتساقط عليهن وعلى عربات القرو المتناثرة في المكان، بينما تلتصق كل منهن بحجارة الأرض وتحاول الزحف من أي مكان إلى أي مكان، بينما تسيل دماء أربعة أشخاص في النفق، ثلاث نساء وجنين، يتردد صوت حريمي لرجاء، ربنا نصرني عليك يا أوساخ انتو الجوز. لا يعرف أحد من صاحبة الصوت من بين الثلاث، ولا أحد يهتم بأن يعرف. عادة، فإن الإنسان وهو يحتضر لا يهتم بمعرفة تفاصيل من هذا النوع.

الشيخة سالحة تصلي العشاء بالنساء في الجامع. ومن بعدها صلاة الغائب على أرواح الشهداء الذين سقطوا في المعركة. تخرج من الجامع بصحبة أم صلاح الشغالة. المنطقة مدمرة تماماً، والنفق مفتوح بعد أن تهاوى سقفه بفعل ستة عبوات ضخمة من الديناميت المزروع في كل ركن من أركانه. لأول مرة من زمان، يشاهد أهل المنطقة النفق تحت الأرض وهو مفتوح على ما فوق الأرض. تلمح الشيخة سالحة جثة كلب ملقاة بجانب النفق المدمر. فتمسكها بيديها وترميها في عمق النفق. تنظر لأم صلاح مبتسمة. حتى الحيوانات بتحس بينا يا حاجة،

وبتدعي لنا لما تتدفن صح. تسيان سوياً، الشيخة سالحة وأم صلاح، باتجاه عمق الكرنطينة، كرنطينة سوسو السابقة. تهمس أم صلاح بصوت خافت، ربنا يرحمهم، فترد الشيخة سالحة، ألف مرة، أراحوا واستراحوا. يحيى بركان يمشي بعيداً، في الطريق من الجامع إلى القهوة. وحده نجا من المذبحة، تفكر أم صلاح وتنفض الشيخة فتتظر حذو له ثم تلوي شفتيها. تشعر أم صلاح وهي تصعد سلم بيت الشيخة سالحة إنها تحترت، إن حملاً ضخماً أزيح من على كتفها، تشعر بالخفة والرغبة في الطيران فوق أنقاض الكرنطينة. تتذكر إنها لم تشعر بهذا إلا منذ عشرين عاماً، في العام أربعة وأربعين، عندما مات حمادة وسوسو والرجالة. تبتسم عندما تخطر على بالها فكرة سافلة، إنها تفرح لمصائب الناس. تنظر للشيخة فتجدها مبتسمة برضا هي الأخرى. تسألها، هو احنا ما عندناش دم يا شيخة ولا إيه؟ فتضحك الشيخة. في بيتها، وعلى صوت سورة البقرة الدائرة في الخلفية، وأمام دخان الشاي الساخن المتصاعد من كوبيهما، تهمس الشيخة بصوت خافت، ربنا يلفظ بعبيده.

كل منهما الآن تشرب الشاي وتفكر في السلام النفسي الذي حل على العالم فجأة.

